إحياء التصوف السلفي



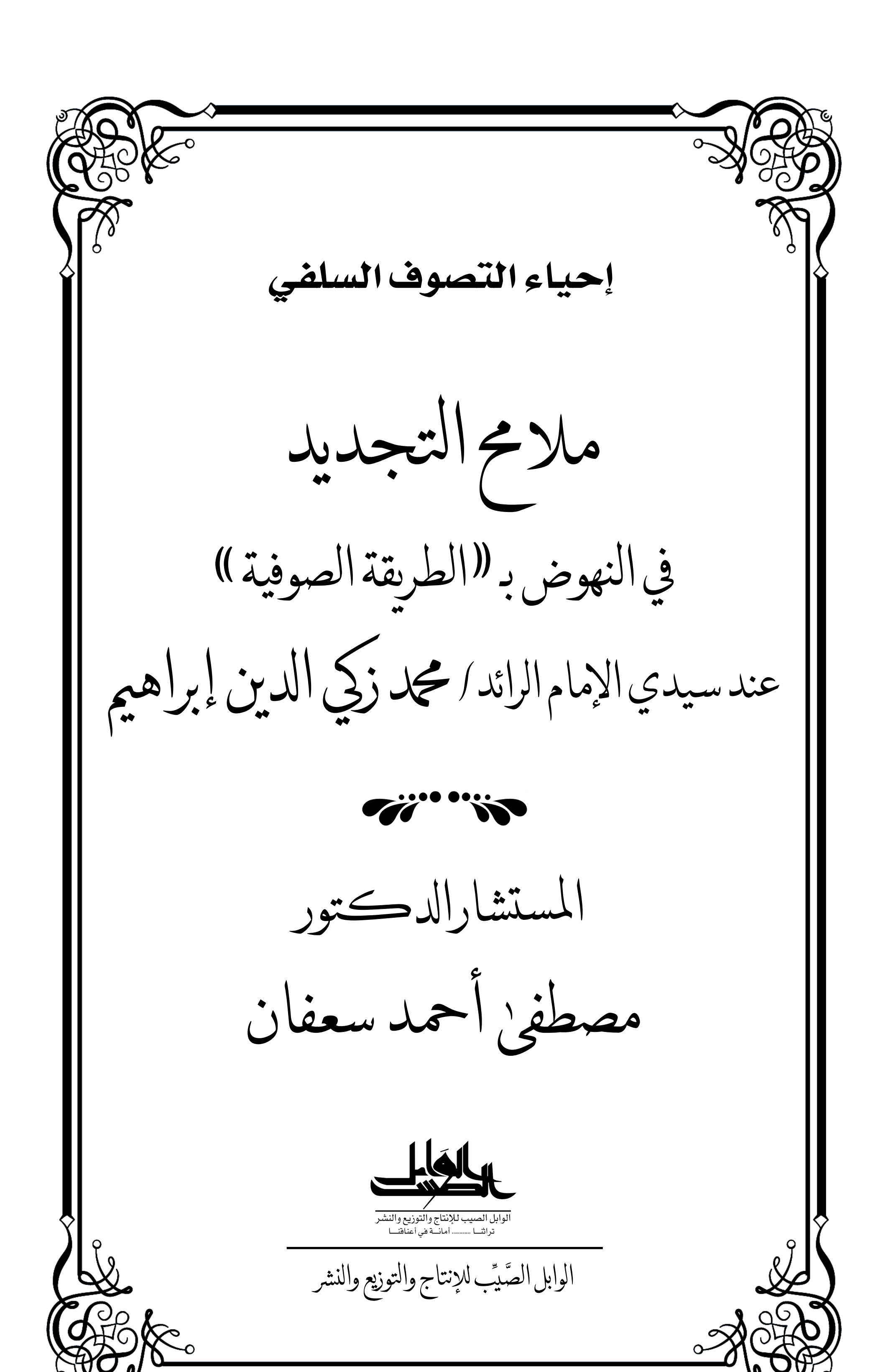
ملامح التجديد

في النهوض بـ «الطريقة الصوفية»

عند سيدي

الإمام الرائد/ محمد زكي الدين إبراهيم





إحياء التصوف السلفي

ملامح التجديد

في النهوض بـ «الطريقة الصوفية»

عند سيدي الإمام الرائد/ محمد زكي الدين إبراهيم

المستشار الدكتور

مصطفى أحمد سعفان

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا ...... أمانة في أعناقنا

الوابل الصَّيِّب للإنتاج والتوزيع والنشر

لشركة الوابل الصَّيِّب

للإنتاج والتوزيع والنشر

٧٠٤٧ شارع ١٧ - المقطم - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٩٨٥٠٨٩١ (٢٠٢+)

٢٩٨٥٠٨٢٤ (٢٠٢+)

٢٥٠٥٧٨٣٠ (٢٠٢+)

٢٦٦٧٣٣٩٣ (٢٠٢+)

محمول ٠١٢٨١٧٥٥٥٦٦ (٢٠٢+)

E-Mail: Info@Alwabell.com

www.alwabell.com

www.alimamalallama.com

www.alygomaa.com

www.aligomaa.net



رقم الإيداع: ٢٩٥٤ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي I.S.B.N

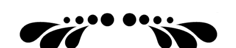
٩٧٧-٦٢١٤-٤٨-٧

الكتـــاب:	إحياء التصوف السلفي «ملامح التجديد في النهوض بالطريقة الصوفية».
المؤلف:	د/ مصطفى أحمد سعفان.
الطبعة:	الأولى.
سنة الطبع:	٢٠١٥م.
الناشر:	الوابل الصَّيِّب للإنتاج والتوزيع والنشر.
رقم الإيداع:	٢٠١٢/٢٩٥٤
الترقيم الدولي:	٩٧٧-٦٢١٤-٤٨-٧



تعريف بالكاتب

* نائب رئيس محكمة النقض المصرية.
* مستشار بمحكمة التمييز بدولة الكويت.
* عضو مجلس إدارة العشيرة المحمدية.
* عضو مجلس إدارة المركز العلمي الصوفي.
* عضو اللجنة الاقتصادية الدائمة بدار الإفتاء المصرية.
* حاصل على دبلوم الشريعة الإسلامية سنة (١٩٨٦)، كلية الحقوق، جامعة القاهرة.
* حاصل على دبلوم القانون العام سنة (١٩٩٠)، كلية الحقوق، جامعة القاهرة.
* حاصل على درجة الدكتوراه في أصول الفقه المقارن سنة (١٩٩٩)، كلية الحقوق، جامعة القاهرة.
* محاضر بقسم الدراسات العليا.
* محاضر بمركز الدراسات القضائية، ودورات إعداد السادة القضاة، وأعضاء النيابة العامة في مصر والدول العربية.

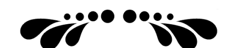




إهداء.. بل هداية واهتداء

لكل داعٍ وراعٍ.. لكل مرشدٍ ومسترشِدٍ

لكل معلِّمٍ ومتعلِّمٍ يعمل ويرجو لكي تُملأ الدنيا نورًا وعدلًا...





مقدمة

إلى أخينا في الله تعالى..

الداعية المبارك السيد الأستاذ المستشار الدكتور/ مصطفى سعفان رضي الله عنه.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وهباته وإمداداته.

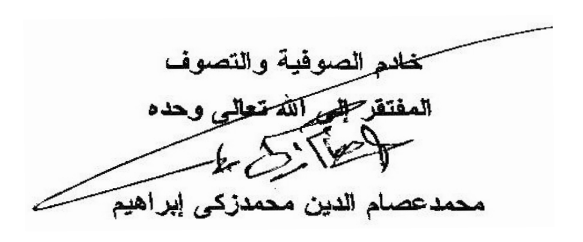
لقد أفضتم -مما أفاض الله تعالى عليكم به- مستخدمين المداد المحمدي من مشكاة لا تنضب أبدًا، ممدودين منفوحين، راضين مرضيين، إن شاء الله رب العالمين.

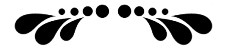
ولقد استوقفتني معاني مباني كتابكم الطيب المبارك، والذي يتعذر على المرء الإحاطة بما استتر في بطون الكلمات من الجمالات والجلالات.

نداءات من أزكى الحضرات لبيتموها بإقدام؛ فكان هذا العمل الجميل.

جزاكم الله خيرًا، ووفقكم إلى كل ما يحبه ويرضاه، ورزقكم الخير الدائم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.









تلخيص حضرة الداعية الرباني
الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكي
للجزء الأول من هذا الكتاب[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد أشرف المرسلين، الذي جاء بالنور المبين رحمة للعالمين، وشعارًا لِمَا يجب أن يكون عليه المسلمون، وممن نجحوا في أداء ذلك المتصوِّفَة وغيرهم.

الصوفية هي علم تَـزْكِيَة النفوس، ومحاسن الأخلاق، والنوافل السائرة بالمسلم على مدارج مرتبة الإحسان ومكارم الأخلاق التي اختص الله بها نبيَّه الخاتم عليه الصلاة والسلام. وأما الصوفية المظلومة فقد اختزلوها في الطبول والمزامير والعكوف عند القبور والتفلسف بالألغاز.

وقد ارتقى بعض الصوفية إلى أعلى درجات الفهم الشرعي الصحيح؛ حيث اجتهد اجتهادًا جديدًا في تعريفه الجامع للتصوف الشرعي السلفي، الذي أتمنى أن يجتمع عليه المسلمون لينهلوا منه ما يدخلهم في مراتب الإحسان، والذي يقول فيه الشيخ الفاضل الأستاذ العالم محمد زكي إبراهيم: «التصوف هو علم فقه المعرفة»، ثم يفصل هذا التعريف قائلًا: «التصوف هو رُوح الإسلام وعُصارته وإكسيره»، وهو الحقيقة الرُّوحية التي تلازم دعوة التوحيد في كل دين منذ آدم، وهو الأمانة الإلهية الكبرى.

ويقول رَحِمَهُ اللهُ: «التصوف الحق أشرف خصائص الحياة، ومن فاته التصوف

(١) بعث إلينا سيادته بهذا الوجيز الماتع؛ ردًّا على طلبنا من حضرته بتشريفنا بكتابة مقدمة لهذا الكتاب، ليس لكونه أحد دعاة التصوف السلفي الرواد في القرن العشرين فحسب، بل كذلك للعلاقة الروحية التي جمعته بالإمام محمد زكي الدين إبراهيم طوال مشواره الدعوي والعلمي الطويل.

الواعي لم يذق طعم الإنسانية الرفيعة، وهذا هو التصوف الذي يَرُدُّ للإنسان اعتبارَه المفقود، ويرتقي بالمجتمع إلى مستواه المثالي الرفيع، هذا هو تصوفنا ولا علاقة لنا بتصوف غيرنا».

والتصوف الإسلامي -كما يرى الشيخ الإمام الأستاذ محمد زكي إبراهيم إجمالًا- هو متعة وسمو شخصيٌّ، ثم إصلاح ونهوض عام لا يقدح فيه مدسوس ولا دخيل، وهو دعوة كلها عمل، وتقدم، وسلام، ونور، ومحبة، وإيمان، وبركة، وفضيلة.

وقد تناول الأستاذ العالم الدكتور مصطفى أحمد سعفان في كتابه العظيم هذا «**إحياء التصوف السلفي.. ملامح التجديد في النهوض بالطريقة الصوفية عند سيدي الرائد محمد زكي الدين إبراهيم**» شَرْحَ حقيقة التصوف متأثرًا بشيخه فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم بأسلوب وقدرة تنير الطريق لمن أراد أن يتصوف.

ومن تعريفات التصوف الكثيرة: «التخلي عن كل دَنِيٍّ -كما يقول الشيخ- والتحلي بكل سني»؛ سلوكًا إلى مراتب القرب والوصول، فهو إعادة بناء الإنسان، وربطه بمولاه في كل فكر وقول وعمل ونية، وفي كل موقع من مواقع الإنسانية في الحياة العامة.

ثم يجمع الإمام تلك التعريفات المفيدة جمعًا يردها -كعادته- بغرض إحياء مفهوم سلفية التصوف وإخراج ما ينافي ذلك منه إلى مدلول شرعي عام فيقول: «ويمكن تلخيص هذه التعريفات في كلمة واحدة هي «التقوى» في أرقى المستويات الحسية والمعنوية؛ فالتقوى عقيدة وخُلُق، فهي معاملة الله بحسن العبادة، ومعاملة العباد بحسن الخلق، وهذا الاعتبار هو ما نزل به الوحي على كل نبي، وعليه تقوم حقوق الإنسانية الرفيعة في الإسلام، وروح التقوى هي «التزكي»؛ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]».

ويبرر الكاتب الجليل الدكتور مصطفى سعفان تفنيد الآراء المغلوطة في التصوف بأنَّ المسلمين لم يعرفوا التصوف إلا بعد القرون الثلاثة، وليس هذا بصحيح؛ فهذا الذي قالوه إنما نقلوه من غير فَهْمٍ ولا تدقيق من كلام ابْن تَيْمِيَّةَ -رحمه الله تعالى- الذي قال في كتابه «الصوفية والفقراء»: «أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهورًا في القرون الثلاثة الأولى، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به غيرُ واحدٍ من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني وغيرهما، وقد رُوي عن سفيان الثَّوْرِي أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري»[1]. فانظر إلى دقة كلام ابن تيمية ومدى التحريف والغلط في النقل عنه!

ويستطرد الإمام في التتبع العلمي الدقيق للمسألة بهدوئه وموضوعيته التي أفنت حجج خصومه، قائلًا: «أما إذا كان المراد بأنَّ مادة التصوف وحقيقته وأصوله وموضوعه وطرقه لم تنتشر بصورة واسعة قبل القرن السابع، فقد كان ذلك نتيجة منطقية لطبيعة الظروف الثقافية والسياسية والاجتماعية المتشابكة، من ذلك التطور الثقافي، والامتداد الجغرافي، وقابلية البيئة الزمانية والمكانية لازدهار التصوف بما كان فيها من الحروب الصليبية والتَّتَرِيَّة والمَغُولية، واضطراب عاصمة الخلافة ببغداد، ومثل هذه الظروف بطبعها تدفع الناس إلى الله تلقائيًّا».

ويقول الكاتب الجليل: إن التصوف الإسلامي هو الربانية؛ فهو إيمان وعمل، وعبادة ودعوة، وأخلاق وبِرّ مطلق، وهو إرادة وجه الله في كل قول وعمل أو نية أو فكر دنيوى أو أخروي، وهو التسامى بالبشرية إلى مستوى الإنسانية الرفيعة، وهو علاج لأمراض النفوس.

وحول اتهام بعض الناس بأنَّ التصوف استقى نظرياته من الحلول والاتحاد، والوحدة وحكمة الإشراق -وكل هذه من مبادئ غلاة بعض فرق الشيعة

---

(١) «الصوفية والفقراء» (ص١٣).

والإسماعيلية، ومصادر أخرى أجنبية، كالعقيدة الفارسية القديمة، وشطط بعض المذاهب في الديانات الهندية والنصرانية- فيقول: إنَّ التصوف الإسلامي في ذاته شيء، وما اندس فيه أو أدخل عليه شيء آخر، والحكم على الشيء بما اندس فيه حكمٌ للرأي بلا تحفظ أو احتياط. إنَّ التصوف الإسلامي هو روح الكتاب والسنة، قولًا واحدًا أقرَّ به كافَّة أئمة الصوفية.

وحول اتهام التصوف بأنه لا سند له من الكتاب والسنة، وأنه دخيل على الإسلام، وأنه يدعو إلى تقديس المشايخ، والاستعانة بهم في الشدائد، والاعتقاد بأنهم يملكون النفع والضر، وأنه يدعو إلى التواكل والسلبية كما يطلق بعض من غلاة المنتمين للسلفية الوهَّابية؛ فيدفع الشيخ هذه المغالطات والفِرَى -إذا ما أطلقت على أنها أوصاف وسمات عامة للتصوف- بذات القدر من الوضوح في الرؤية والغزارة في العلم والمنطق، والثراء في الدليل الشرعي الذي انتقد به غلوَّ بعض المنتسبين للتصوف في اتهام السلفية الوهَّابية بصورة مطلقة وعامة ببعض ما صدر من شطط وغلو من بعض المنتسبين لها، وذلك بموضوعية وأمانة علمية، وإخلاص يتضح لكل ناظر في أسلوب الحوار، والتناظر القائم على التجرد من الهوى، واتِّبَاع الدليل الشرعي، والإقرار بما في الواقع من عورات أصابت التطبيق، فلم يسلم مذهب معتبر أو طريق صحيح من ارتكاب بعض أتباعه لأشياء من هذه الأمور المَعِيبَة شرعًا، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما أن التصوف -على زعم من غالى- لا سند له من الكتاب والسنة، فقول ساقط بعد كل ما قدمنا؛ فإذا لم يكن التعبد ومكارم الأخلاق ومحاسبة النفس، والأخذ بالأحوط، ومجاهدة الهوى والشيطان، إذا لم يكن كل ذلك له سند من الكتاب والسنة فما الذي له سند؟! فتصوف المسلمين هو عصارة الإسلام وإكسيره، لا يمتري في ذلك إلا ذو هَوًى أو من هَوَى».

الزُّهد عند الصوفية

يقول المؤلف: إنَّ شيخه يعلّم المريد أن الزهد هو: «أن تكون الدنيا في يده

لا في قلبه؛ لأنَّ الزاهد (غير الصوفي) تاجر، حرم نفسه من متع الدنيا ليعوضها أضعافًا في الآخرة، وليس كذلك الصوفي الذي لا يحرم نفسه متعة أحلها الله إلا إذا حجبته عن الله؛ وهذا أبُو الحَسَنِ الشَّاذلي كان صاحب تجارات ومزارع، وهذا شَمْسُ الدِّينِ الدِّمْيَاطِيُّ كان تاجرًا من أثرى علماء الصوفية، وهو الذي بنى برج دِمْيَاط من ماله الخاص في عهد السلطان الغُورِيِّ، وهذا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ -فقيه مصر وإمام زهادها- كان أثرى أهل عصره».

«وقد كان من أعيان الزاهدين من الصحابة بِلَالٌ، وسَلْمَانُ، وأبُو ذَرٍّ، وتَمِيمٌ الدَّارِيُّ؛ أول من جلس في مسجد رسول الله أيام عُمَرَ يذكر الناس بالله في يوم الجمعة؛ فالإسلام يشمل التَّصَوُّف وغيره من الأفكار والمذاهب والطرق والفلسفات الصحيحة المستندة إلى الكتاب والسنة المطهرة، كما استنبطه منهما سلفنا الصالح».

أما عن التعريف بالتَّصَوُّف فشَرَحَه شرحًا جميلًا بقوله: «التَّصَوُّفُ من حيث هو خُلُق وعبادة وجهاد فقد نزل به الوحي وجاء به القرآن، وأكدته السنة المحمدية؛ ولهذا قلنا: إنَّ التَّصَوُّفَ عندنا هو علم فقه المعرفة؛ فهو حصيلة الكتاب والسنة قولًا وعملًا وحالًا، وإشارةً وعبارةً وغايةً، وقيادةً وسيادةً، وإمامه الأكبر هو سيدنا رسول الله ﷺ؛ فالتَّصَوُّف إذن إيمان وعقيدة، وعلم وعمل، وأدب ومحبة، وعبادة ورياضة، ودعوة وريادة، وسلوك تطبيقي يُؤَدِّي إلى رحاب الأسرار والأنوار، على معارج الصفاء والوفاء والمجاهدة؛ فهو طلب الكمال، وطلب الكمال فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولا يتأتى الكمال إلا بتطبيق كل مبادئ الكتاب والسنة في ديننا ودنيانا».

أما عن كيف نتصوف، فيرى أنَّ الطريقة المحمدية السلفية الشَّاذليَّة الشرعية هي المثل العلمي التطبيقي للتصوف، وهي توضح العَلاقة بين:

❊ التصوف والإيمان بالغيب.

❊ التصوف والحياة الواقعية.

❊ التصوف والأمن ومكافحة اللا أخلاقيات.

الطريقة المحمدية الشاذلية

هي «طريقة صوفية سلفية شرعية مستنيرة، فريدة قديمة، موصولة السند بمولانا المصطفى ﷺ من عدة مشارب ظاهرية وباطنية؛ ولهذا انتسبنا إليه وسُميت الطريقة بـ «المُحَمَّدِيَّة»، فنحن ندور في فلك الكتاب والسنة على المثاليات الروحية والأخلاقية والإنسانية، ونربط بينها وبين الحياة العامة ومتطلباتها المختلفة، على الأسلوب الرباني المحمدي الرفيع؛ لنؤدي رسالة الخلافة على الأرض ماديًّا ومعنويًّا على خير ما نعتقد أنَّه يرضي الله ثم الناس في براءة مطلقة من الفتن والمشاغبات، وبُعْد تام عن الرَّيْب وتنزُّه عن الشكوك والظنون والمشكلات، واحتياط دون المناكر والبدع والمحرمات».

إنَّ للطريقة المحمدية شخصية ذاتية مستقلة تمامًا، ولها كيانها المحدد المعين الذي لا يُماع في غيره، ولا يُقلد في سواه، ولا يشتبه على السالك الراشد والدارس الواعي.

* **شعار الطريقة:** ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

* **دعوة الطريقة:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

* **رسالة الطريقة:** ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

* **جهاد الطريقة:** ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* **وسيلة الطريقة:** ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

* **خطة الطريقة**: ﴿ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧].

* **رجال الطريقة**: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١١٢].

* **دستور الطريقة**: الكتاب والسنة، في يُسْرٍ وسماحة وربانية وسعة أُفُق.

* **منهج الطريقة**: العلم، والعمل، والإيمان، والتعاون، والتعبد، والفضيلة، والأدب، والمحبة.

* **كفاح الطريقة**: مكافحة البِدع، والمنكرات، والمحرمات، والجمود، والجحود، والتفاخر، والتظاهر، والدعاوى، والدعايات، والتجني على أهل الله والتصوف.

* **خصيصة الطريقة**: حُسن الظن، وحسن الخُلُق، وحسن العبادة، وحسن السَّمْت، وحسن المعاملة، وإرادة وجه الله وحده ظاهرًا وباطنًا.

* **إجازة الطريقة**: المصحف الشريف أساسًا؛ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

ويرد على اعتراض بعض المتمسلفة على قول العارف الشيخ عبد السلام بن بَشِيش «وانْشُلْنِي من أَوْحَال التَّوْحِيد» موضحًا أنَّه «اعتراض المغرض الجاهل، وليس أنكد ولا أنكر من الجمع بين الجهل والغرض، ولا أوقح ممن يحكم على شيء هو أجهل الناس به! إنَّ علماء التوحيد الذين يسمونهم علماء «الكلام» أتخموا كتبهم بما أقحموه فيها من قضايا واستشكالات، وفروض وردود محيرة، صارفة عن المقاصد الكبرى؛ فهناك مثلًا طائفة الأشاعرة والماتُرِيدِيَّة والمعتزِلة بفرقهم الكثيرة والسلف والخلف... إلخ، وكلهم تحدث في مسائل حَشْوِيَّة أو هامشية معقدة، عقلية أو نقلية، فمثلًا: هل صفات الله عشرون، أو ثلاث عشرة، أو تسع وتسعون، أو هي

لا تتناهى؟ وكيف يُحصر الكمال في العدد؟ وكيف اختير هذا العدد؟ وهل يكفي اتصافه تعالى بصفات المعاني أم لا بد من اتصافه تعالى بالصفات المعنوية أيضًا؟ وتكلموا فيما وصف الله نفسه به من الاستواء واليد والعين والوجه والجَنْب... ونحو ذلك، وهل يؤخذ هذا على ظاهره فيكون تجسيمًا وتشبيهًا، أم يُؤَوَّل على أصول اللغة بما يناسب التنزيه الإلهي؟».

وفي بيان معاني الأحدية والواحدية والوحدة والوحدانية والتوحيد، والفروق بينها يقول الشيخ:

«**الأحدية**: هي الذات الصرفة المجردة عن الأسماء والصفات والأعداد؛ فلا تنسب إلى غيرها ولا تضاف إليه، ولا تثنيه سابقة أو لاحقة، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

أما الواحدية: فهي الموصوفة المنسوبة إلى غيرها المضافة إليه، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [النحل: ٥١]، و﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: ٧٣]؛ فالأحدية مقام خصوص، والواحدية مقام عموم.

أما الوَحْدة: فهي نسبة بين الأحدية والواحدية، فهي رابط بين شيئين، والربط بين الشيئين يكون كلٌّ منهما طرفًا له، وإذا كان البرزخ اجتماعًا أول بين شيئين غير مسبوق بافتراق؛ فالوحدة هي البرزخ بين الأحدية والواحدية.

أما الوَحْدَانِيَّة: فهي الجمع بين خصائص الأحدية والواحدية جميعًا؛ فهي مرتبة التشريف الأقدس.

أما التوحيد: فهو الإيمان بالوَحْدَانِيَّة إيمانًا يقينيًّا عقليًّا وقلبيًّا لا شك معه، وقد ارتقى الصوفية في مراتب التوحيد إلى مراقي التفريد والتجريد؛ وهذه مقامات روحية تأتي نتيجة التقلب في كمالات التوحيد، وهي درجات لا تتناهى. هذا ما فتح الله به علينا مجتهدين، وفوق كل ذي علم عليم».

أيضًا: إنَّ الشيخ في سعيه للتقريب والتجميع بين طوائف الأمة قد ساق من أقوال العلماء الذين اشتهر عنهم -خطأ- معاداتهم لمجمع التصوف، مثل: شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة، والإمام ابن قَيِّمِ الجَوْزِيَّة رحمهما الله تعالى، قد ساق من أقوالهم ما يؤكد به أنهم كانوا يفرقون بين التَّصَوُّف الشرعي السلفي وبين «التَّمَصْوُف».

الدعوة لتضافر جهود السادة علماء السلفية والصوفية في مصر والسعودية من خلال الأزهر الشريف، وهيئة كبار العلماء، وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إنَّ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الموقرة لهي الجهة المثالية لبداية الحملة المقترحة للإصلاح المجتمعي والثقافي المنشود؛ وذلك لما تتمتع به من ثقة، وما تزخر به من علماء ودعاة ذوي خبرة عملية متراكمة، وعلى دراية واسعة بالأعراف والطبائع الاجتماعية السائدة بالمملكة.

والجدير بالتنويه أن الهيئة الموقَّرة قد بدأت بالفعل في تطوير أساليب الدعوة وممارسة أعمالها في المجتمع بشكل ممتاز، ويرصده -بتقدير- كُلُّ متابع للشأن العام بالمملكة السعودية الحبيبة.

وأنهى الكاتب الجليل الدكتور/ مصطفى سعفان رَصْدَهُ العميق لحركة إصلاح التَّصَوُّف في مصر وإصلاح الحركة السلفية في السعودية بهذه الكلمات المخلصة، والتي تنطق بالحب الصادق للعلماء في مصر وجزيرة العرب: «ليتأملوا الوضع الحاليَّ بدقة ورَوِيَّة، ولينظروا لمثل مقترحاتنا هذه بعين الاعتبار، مع يقيننا التام بأن القائمين على الهيئة الموقرة أكثر علمًا وأشد عزمًا؛ غير أنني أردتُ شرف المشاركة وثوابها».

ويعجبني قولُ المؤلف عن بعض المبادئ والمقترحات للإصلاح التي أرسلها إلى بعض السادة العلماء بمصر والسعودية وغيرها من بلاد الإسلام:

* إنَّ من طرائق البناء التربوي السليم للشباب أن ينشأ على الاستماع لأكثر

من رأي -ولو كانت آراء متناقضة أحيانًا- في كل اهتماماته، وعلى رأسها مسائله الدينية بصفة خاصة، والثقافية بصفة عامة.

* إن العقبة النفسية المنوط بالسادة الأفاضل (القائمين على هيئة الأمر بالمعروف والمؤسسة الدينية) أن يعملوا جاهدين على محوها واستيعاب آثارها؛ هي ذلك الخوف الساري لدى علماء وشباب المملكة المثقف من رد الفعل العدواني -والتكفيري أحيانًا- من أصحاب الثقافة الدينية المتأسسة على فَهْمٍ متشدد لظاهر النصوص، ورَفْضٍ مطلق للنظر في المقاصد والمعاني بالضوابط الشرعية الأصولية المعروفة، فتلك النظرة أحادية الجانب ظاهرية الفهم، وتغلب على معتنقيها سمات التشدد في الحوار والتشنج والسطحية عند التناظر، والذي ننصح به مَن هم أكثر منا علمًا وخبرةً وعزمًا -وسيادتكم في مقدمتهم- هو أن يصدر تعميم يفرض على رجال الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأساتذة الجامعات ورجال التعليم، وخطباء المساجد، وكل من ينبري للحديث العام في الصحافة والإعلام ضرورة ذكر عدة آراء في أي مسألة فقهية تُطرَح أو تُنشَر من مسائل الخلاف، وذلك سيفضي حتمًا ومع مرور الوقت إلى تحرر عقلية الشباب في مصر والسعودية خاصة -على اختلاف درجة ثقافتها- من حالة التشدد مع الآخر.

* إنَّ التعميم أو النظام المقترح -الذي يتلخص في لزوم وضرورة ذكر عدة آراء في أي مسألة مطروحة شرعية أو ثقافية أو سياسية- له ضابطان شرعيان متفق عليهما:

١- أن تكون المسألة الدينية المطروحة من مسائل الخلاف المشهور بين المذاهب الأربعة مثلًا، أو داخل المذهب المعمول به «مذهب الإمام أحمد بن حنبل»؛ باعتبار أن فقه السلف رضي الله تعالى عنهم، ومنهجهم في استنباط الأحكام حتى في المسائل الحادثة بعدهم قد يبدو جليًّا في أصول وفروع هذه المذاهب.

٢- ألَّا يكون ولي الأمر قد اختار -فعلًا- رأيًا من هذه الآراء المتعددة في

مسألة ما، وقام بالنص عليه في نظام أو مرسوم؛ ففي هذه الحالة يجوز ذكر الرأي الذي ترجح لولي الأمر الأخذ به دون غيره؛ للقاعدة الشرعية المتفق عليها في ذلك، وغير ذلك من المبادئ.

ويقول المؤلف: إنَّ من جوانب التجديد أيضًا في الطريقة المحمدية عند الشيخ محمد زكي إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ دروس العلم؛ فقد جعل العلم الشرعي أساسًا يتلقاه المريد كما يتلقى الأذكار، وهذا أيضًا أمر قد أحياه الشيخ وأحيا الطريقة به، ثم ما لبثت بعض الطرق الصوفية أن اتبعت هذه السنة الحسنة، ولم يكن هناك قبل الشيخ محمد زكي إبراهيم الاهتمام بتلقي المريدين العلم الشرعي كصنو للأوراد ومجالس الذكر.

الاجتهاد الشرعي بالحذف والإضافة والترك والمزج في الأوراد الصوفية

إن دروب التجديد التي وُفِّق إليها الإمام الرائد في مسائل الأوراد والأذكار والأدعية والأحزاب كثيرة ومتشعبة، ويمكن ردها إلى ثلاثة فروع رئيسة:

١- التجديد بالحذف والاستبعاد.

٢- التجديد بسوق الأدلة الشرعية، وتخريج الأوراد من الأحاديث النبوية الشريفة.

٣- التجديد بالإضافة والمزج والجمع بين أوراد مشايخ الطرق الصوفية المختلفة على مر العصور.

ولقد أحيا الشيخ السنن الحميدة التي كان عليها شيوخ التصوُّف الأوائل، أمثال الشيخ أبي الحسن الشاذلي، والشيخ عبد القادر الجِيلاني، والشيخ السيد أحمد البَدَوِيّ؛ فلقد كان هؤلاء الأوائل يمارسون التصوف الصحيح كما ورثوه من صاحب الرسالة ﷺ؛ والحديث الصحيح «**الدين النصيحة**». قلنا: لِمَنْ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**للهِ ورَسُولِهِ ولأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وعامَّتِهِم**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: (١/ ٧٤)، برقم (٥٥)، من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهكذا لم تعد الطريقة الصوفية بعد شيخنا الإمام الرائد خَلْوة في أقصى المدينة، ومجلس ذكر، وإحياء ليلة ويوم من أيام الله تعالى فحسْب كما اختُزلت؛ وإنَّما عادت كما كانت عند السلف الصالح مركزًا للعلم والدرس الشرعي، ومجلسًا للنصح والإرشاد يُدعَى إليه العلماء والقضاة، والضباط والأساتذة، والمهندسون والأطباء، والمفكرون رجالًا ونساءً.

ومن ملامح التجديد أيضًا: أنَّ الشيخ جَهَدَ جهده طِيلة حياته من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية، ومن أجل التقريب بين طوائف المسلمين، فانبرى للأمرين معًا؛ فكان أول من دعا إلى مؤتمر الشريعة الإسلامية الذي عُقِد تحت إشراف العشيرة المحمدية برعاية مولانا الشيخ، ودعا إليه كبار علماء الأزهر وكبار علماء المسلمين، واجتمع لأول مرة هذا الرهط العظيم من علمائنا في العشيرة يطالبون الحاكم بتطبيق الشريعة، ويعالجون النتائج التي يمكن أن تنتج عن التطبيق، ويبينون طرق تطبيق الشريعة الغرَّاء في كل الميادين، وأولها الميدان القانوني.

فكان الجمع بين وسائل «الطريقة» إصلاحًا، وتزكيةً للنفوس، وتعاونًا على البر والتقوى من خلال فاعليات «العشيرة» عملًا مؤسسيًّا لإصلاح المجتمع المسلم.

ومن ملامح التجديد هنا: ربط الشيخ -رحمه الله تعالى- بين الطريقة المحمدية التعبدية وبين العشيرة بوصفها مؤسسة اجتماعية تقوم بأعمال شتى، من التعليم وكفالة الأيتام والإشراف على الحضانات والمصحات، وهذا تجديد آخر لمعنى التصوف ولسلوك أهل الطريقة.

وقد نجح الشيخ نجاحًا باهرًا في الجمع بين الأمرين، فلم تعد الطريقة عند الشيخ محمد زكي إبراهيم خَلَوَاتٍ وأورادًا وحلقاتِ ذِكْر فحسْب؛ بل أعادها إلى سيرتها الأولى التي كان عليها أئمة هذا الدين الحنيف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ فمزج رَحِمَهُ اللهُ بين التعاون على البر بوصفه سلوكًا، وبين الاجتماع على الذكر

وتلقي العلم الشرعي بوصفه أساسًا للتربية والتأديب الروحي والقلبي، والعمل الاجتماعي الإنساني.

يقول الشيخ بهذا الشأن: «إنَّ الغرض الأساسي الذي تسعى العشيرة إلى تحقيقه هو جمع الخَلق على الحق وصلحهم مع ربهم، وتوجيههم إلى رسالتهم الربانية الرفيعة، والتسامي بمستواهم العام إلى المستوى الروحي الراقي الذي يعصمهم من أوضار المادية والتدني والانحلال والإلحاد، ويحميهم من آثار الوجودية واللادينية والشيوعية، وما هو من كل هذا بسبيل، وفي ذات الوقت يحفظ عليهم مواريث الإسلام والعروبة والقيم العليا في أصولها وفروعها، ويهيئ الأمة لأداء رسالتها الكبرى في الخلافة على أرض الله، والترفع عن التفرقة والتعصب، والاعتصام بالتقدم الحضاري القائم على أساس السماحة والسلام وخدمة الإنسانية والعلاقة بالله، ومن سبيل ذلك التصوف الإسلامي على أرقى مستوياته وأوسع معانيه».

وقد بدأ الشيخ -رحمه الله تعالى- في إزالة الرين عن معنى الخلوة وعن مشروعيتها، بسوق الأدلة المطولة من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح بما لم يسبقه إليه أحد فيما نعلم؛ فيقول: «أصل الخلوة عند الصوفية هو استحباب الاعتكاف كما جاء الندب إليه في الإسلام. والخلوة نوع من الفرار إلى الله، وقد ألزمنا الله به فقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وهي الهجرة إليه: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقد كان الاعتكاف أو الخلوة سنة ماضية في الأديان السابقة، فموسى واعدَ ربه ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ومريم ابنة عمران كان لها اعتكافها وميقاتها ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ [مريم: ١٧] في المِحْرَاب، وكان لزكريا اعتكافه وميقاته ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٠]، وكل ذلك ثابت في كتاب الله؛ فالخلوة ذهاب وفرار وهجرة إلى الله كما قال إبراهيم ولوط عليهما السلام من

قبل، وقد ثبت أنَّ رسول الله ﷺ قد اختلى قبل البعثة في حِرَاء، كما كان يختلي بعد البعثة في العشرين أو العشر الأواخر من رمضان.

إحياء الذكر الجماعي بضوابطه الشرعية

إنَّ الذكر الجماعي الجَهْرِي أمرٌ مشهورٌ في كافة الطرق الصوفية، بيدَ أن الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ قد جدد حتى في هذا الجانب من وجوه عدة؛ فمن ناحية ساق الأدلة الشرعية على مشروعية الذكر بهذه الكيفية، بل وعلى ندبه أحيانًا، ومن ناحية ثانية خلّص الذكر الجماعي في الطريقة من بدع ألصقت به، وأدت إلى الهجوم المُجْحِف على الذكر الجماعي برُمَّتِه، ومن ذلك: منعه لتحريف النطق، أو مرافقة المعازف، أو اللهو في حَلْقَة الذكر... وغير ذلك مما فصَّله الشيخ تفصيلًا علميًّا.

ويقول المؤلف نقلًا عن شيخه الجليل، وعلماء التصوف السلفي في مِصر المحروسة والمغرب بتفصيل رائع: إنَّ أفضل الذكر ما كان بالوارد كتابًا وسنة، ثم ما كان عن الصحابة والسلف الصالح، ثم ما كان عن صالحي الشيوخ والعلماء العاملين، ثم ما يجري به لسان المرء في أحواله المختلفة مما يوفقه الله إليه، ويُشترط في القراءة جماعةً التناسُقُ والوضوحُ، وحُسْن التوجُّه والالتزام، وصحةُ النطق بقدر الإمكان.

إعطاء العهود والإجازات العلمية بصورة محققة علمياً، وتوظيفها في حفظ العلم ومعرفة العلماء ومتابعة الطلاب وتوجيههم

إنَّ العهود التي يمنحها الشيخ لتلاميذه إما «عهد عام» مجمع للطرق الصوفية وأتباعها، وإما «عهد خاص» كما هو معلوم عند أهله.

ومعنى العهد ودليله الشرعي وضوابطه وآثاره أمرٌ قد أفاض الشيخ في شرحه وتأصيله، ويبدو ذلك جليًّا من صيغ عهوده ومضمونها، والتي تدل على رسوخه رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب، وقيامه على هذا الميراث العظيم خير قيام.

وفي نص وجيز محكَم يلخص المؤلف طريقة الشيخ وفتواه حول الحكم الشرعي في تلقي العهد الصوفي على ثلاثة وجوه؛ فيقول:

أولًا: إنَّ المريد المتقلب بين الطرق، المتردد على الأشياخ بلا سبب شرعي مبرر؛ ناقضٌ للعهد مسلوبٌ للبركة، فلا خير فيه ولا في الاهتمام بشأنه.

ثانيًا: إنَّ تجديد العهد للمريد الذي تُوفي شيخه، أو للمريد الذي كان مقتديًا بمضلل أو مبتدِع أو نحوه أمرٌ واجب؛ إنقاذًا للدين وللتصوف وللمريد نفسه.

ثالثًا: إنَّ تلقي عهود البركة والسند الروحي للمريد الواصل الراشد بإذن شيخه؛ جائز لمن يستطيع الوفاء بحق ما تلقاه جميعًا، كما كان شأن كبار أئمتنا الراشدين عليهم رضوان الله.

ويرتقي الشيخ -رحمه الله تعالى- بالطريقة إلى مرتقاها الأسمى، بوصفها أداة ونواة لتحقيق الوحدة الإسلامية ومقتضياتها، من توحيد القيادة والسياسة والاقتصاد وما يتعلق بهذا؛ من حيث إنَّ المسلمين أمة واحدة، وما دامت عقيدتهم الأساسية واحدة فمبادئهم واحدة، وما دامت قبلتهم واحدة فغايتهم واحدة، وما دامت غايتهم واحدة فوظيفتهم ودعوتهم لا بد أن تكون واحدة، وصدق الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وفي هذا الصدد يقول الشيخ: «فالوحدة الإسلامية هي حياة الإسلام ومِلاك أمره وجماع شرفه، وبغير هذه الوحدة لن يتهيأ للمسلمين رفع راية الحق؛ إذ تأليف القلوب بينهم والاجتماع على الأصول -كقاسم مشترك بينهم- هو الذي يفضي إلى نبذ التنازع وذهاب الخصومات الموهومة؛ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ولن يتهيأ لهم إدراك العزة التي كتب الله للمؤمنين، ولن يتهيأ لهم ميراث الأرض التي وعد الله عباده الصالحين، ولن تتحقق لهم الخيرية على أمم الأرض، ولن يتسنى لهم الحصول على شرف الشهادة الكبرى على الناس؛ إلا بالأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، وما اختلف المسلمون إلا منذ أن تفرقوا على الفرعيات؛ فجعل الله بَأْسَهُمْ بينهم».

ويسترسل الشيخ موضحًا أهمية التصوف في هدي الناس إلى طريق الله، في هذا العصر الذي طغت فيه المادة على فكر الإنسان؛ فيقول: «والتصوف على عِلاته متغلغل في كل أجزاء الوطن الإسلامي، فإذا نحن حررناه وطهرناه وحميناه من أعدائه وأدعيائه، وجمعنا صفوف رجاله حتى أصبح أكبر حزب روحي إصلاحي سلمي في الإسلام؛ لكان بالتالي لهذا الحزب أثره في العالم كله كلما طغت المادة، وادلهمَّتِ الخطوب، واحتاج الناس إلى المد السماوي والإنقاذ الإلهي، وافتقدوا النور والحب والسلام».

قيام الشيخ مؤسِّسًا لهذا النهج العظيم للدعوة في بلده وعصره إصلاحًا للخاصة من العلماء وولاة الأمر ثم لعامة الناس:

وبعد أن تبين مما سلف أن الصوفية الحقة بَرَاء مما ألصقه بها المغرضون والجهلة من أباطيل ومنكرات، وبعد أن تبين من أقوال الإمام الرائد سالفة الذكر كُنْه الصوفية الحقة، يتضح جليًّا أن الصوفية ما هي إلا دين الإسلام في أبهى حُلَلِه وأرقى صوره، أي الإسلام كما أراده الله سبحانه وتعالى في مراتب الإحسان، وما المتصوفة إلا أولئك الصفوة من المسلمين الذين تمسكوا بالكتاب والسنة واعتصموا بهما فارتقوا لمراتب الإحسان قولًا وعملًا، عبادةً وسلوكًا، مظهرًا وجوهرًا، في جميع شئون الدنيا والدين. فهم كما وصفهم الشيخ في كلمات مختصرة، دامغة، جامعة: «المؤثرون بخصائصهم الرفيعة وروحانيتهم السلفية في مسيرة الحب والتجميع والسلام والسماحة والحضارة والتقدم والعمران، لا لجاه ولا لدنيا ولا سلطان، والمندمجون في الحياة بمواكب التسامي والدعوة والمرونة والرجولة والقدوة والوسطية لله تعالى وللأوطان، هم قلب مع الحق، وبدن مع الخلق، الجمع في الجَنان والفرق في اللسان، وذلك هو مقام الإحسان».

وكما أشار إليه المؤلف إن هذه القوة المكنوزة الهائلة المبعثرة بلا رابط في دنيا المسلمين إنما تعود في فروعها كلها إلى أصل واحد وحقيقة واحدة، لا يغيرها تعدد الأسماء والألوان والأساليب، ولا اختلاف الأوطان والأزمان والرجال، وما كل هذه التباينات إلا قشور وسطوح مختارة بحسَب العرف والبيئة لتيسير التلاؤم بين مختلف الاستعدادات ودرجات التقبل لمختلف الطباع والقوى، وذلك لتجميع البواطن كلها على النبع الروحي العظيم. ولعل هذا هو سر الله في خلود المذهب الصوفي من حيثُ مرونتُه وانفتاحُ آفاقه وسَعَةُ ظاهره، مع تحديده ودقته ووحدة حقيقته، وهيمنته الكلية على الأعماق، وهو من أجل هذا لا يتنافى مع أي مذهب إسلامي غير منحرف. ولو تجردت المذاهب الإسلامية الصحيحة من غلوائها وعصبيتها ما وسعها إلا التصوف ليس إلا.

إن الجيش الصوفي العالمي موجود بقيادته وجنوده وكتائبه وعتاده الروحي العظيم، وهو موزع في كافة بقاع الوطن الإسلامي من المحيط إلى المحيط، ولا ينقص هذا الجيش إلا أن يتعارف، وأن يتعاون، وأن ينظم نفسه، وأن يطهر صفوفه، وأن يحرر دعوته، وأن يضطلع برسالته، وأن يعلن في الناس أنه صحا، وأنه فهم وأدرك، وأنه نهض وبدأ على بركة الله. ولست بهذا أدعو إلى خيال، فإنما أنا عبد واقعي عملي، أنادي بتنظيم حقيقة محسوسة بالفعل، واستغلال كنز يتيم معطل، فقد آن للرُّوحانية أن تسود، وآن للمادية أن تختنس وتخسأ، بكل ما في حواشيها وأعقابها من فساد وتلف، فإنه لا يغني عنها أن تُسمى بغير اسمها، ولا أن تُوصف بالتقدمية والنهوض من غير أوصافها.

وإن ما ندعو إليه من التعاون والتجمع والتفاهم والتقارب بين علماء الصوفية السلفية في الدنيا، إنما هو القوة والعبادة والخلود والمجاهدة والحياة، وهو في ذات الوقت احتفاظ بالخصائص وتعريف بالمميزات، وصيانة للحقوق جميعًا، فإنما التكتل شيء غير الاندماج والذوبان، ولا أحسب رجلًا صوفيًّا بحق يرضى مهما

كانت رتبته وأثره وجاهه أن يتحمل عار التاريخ أمام الله والناس، فلا يمد يده لله إلى إخوانه في الله وقد طلبوها من أجل الله.

تتمة المسائل السابقة: التقريب بين طوائف أمة الإسلام

يقول الدكتور مصطفى سعفان بعد أن عرض مذهب شيخه في تجميع الطوائف الإسلامية الراشدة المعتدلة طبقًا لميزان الكتاب والسنة، والمنهج السلفي في استنباط الأحكام منهما- مقالة جامعة لأصول التناظر كأساس للحوار والتناظر بين الأشقاء في العقيدة، فيما يشكل دعوة مخلصة لبرنامج عملي علمي هادئ للتقريب المشروع.

هذا الجزء الذي يضفي عليه الزمان والمكان أهمية كبرى الآن يحتاج إلى جهد علمي ودعوي وتربوي من جميع المخلصين كل على قدر علمه وطاقته، ولذا فقد اكتفيتُ بكتابة أفكار ورءوس موضوعات ومسائل وإشارات علمية مجملة، ليسبُر غَوْرَها مَن هم أكثر مني علمًا، وأشد مني عزمًا وسلطانًا وقدرةً على الغوص في هذا الغِمار الذي أحسبه من أشرف سبل الجهاد والنصرة للإسلام. وقد تم عرض ذلك على فضيلة الإمام الرائد محمد زكي إبراهيم وأنصار التصوف ومنكريه على صفحات جريدة (عقيدتي) وتناول الآتي:

* من يناظر مع من؟

* متى نتناظر وأين نتناظر؟ وتحديد محل التناظر ومكانه وتوقيته.

فإذا كان المراد من التناظر الوصول إلى الحق وبعث الائتلاف والتقريب بين المسلمين، وتجديد الدين وإصلاح حال المسلمين فليكن بين أهل العلم وفي أروقة العلم وبأدب العلماء، ليس بينهم مغرِض مندسّ ولا جاهل متعصب لرأي بغير علم.

والأمة مليئة بالعلماء، والإمكانات متاحة والحمد لله للاجتماع والالتقاء فيما

بينهم في هدوء وتؤدة، حتى إذا ما كانت نتائج طيبة بإذن الله أذعناها لنردع بذلك سفهاءنا ونحملهم على الطريقة.

وأهمية التناظر بعيدًا عن متابعة العوام هو عدم تدخلهم فيما لا علم لهم به، حتى ترى الرجلين ولا خلاف بينهما سوى المصطلح أو اللفظ، والمعنى لديهما واحد ولا يدريان جهلًا منهما وعدم معرفة، وحتى ترى من هؤلاء من يختلفون في ثبوت سنة ويتركون في سبيل ذلك فروضًا وجبت لا خلاف على فرضيتها.

إحياء طرائق الدعوة إلى الإسلام كما مارسها أئمة التصوف من السلف الصالح مع غير المسلمين، وتشمل:

١- المشاركة في إنشاء مكتب رعاية المهتدين إلى الإسلام.

٢- تشكيل هيئة لموالاة ورعاية المهتدين إلى الإسلام.

٣- استقبال الوفود الأجنبية للدعوة إلى الإسلام.

وأخيرًا من أهم ملامح التجديد عند مولانا الشيخ في حياته أنه لم يأمر أمرًا جازمًا لأحد أن يخلفه في الطريقة، ولم يقبل أن يفرض على تلاميذه جبرًا المبدأ المعمول به في لائحة الطرق الصوفية بأن الابن الأكبر هو الشيخ، بل عاد بالأمر إلى سيرته الأولى، أي إلى الشورى، وعلى الرغم من تزكيته لابنه للخلافة من بعده وذلك لرؤيته صالحًا لذلك، إلا أنه لم يفرض رأيه على تلاميذه، بل ترك لهم القرار الأخير، فأنشأ مجلس شورى الإخوان مع مجلس إدارة العشيرة المحمدية ونقباء الطريقة، ثم تركهم يختارون خليفتهم بأنفسهم سواء في العشيرة المحمدية كمؤسسة دعوية واجتماعية أو في النواحي الروحية وكذلك العلمية.

وختامًا وجمعًا لكل ما تقدم في هذه الدراسة يذكر المؤلف د. مصطفى سعفان نص صحيفة كتبها الشيخ وأرسلها إلى كل فروع الطريقة والعشيرة المحمدية في العالم الإسلامي لتكون ذكرى جامعة مانعة لهم ولغيرهم من المسلمين، وهذا نصها:

* **القاعدة الأولى**: نحن طريقة صوفية سلفية شرعية موصولة السند بمولانا المصطفى من عدة مشارب ظاهرية وباطنية، ولهذا انتسبنا إليه وسميت الطريقة بـ (المحمدية).

* **القاعدة الثانية**: التصوف عبادة، فما رسمه الله فيه فهو الرسمي، وما لم يرسمه الله فمرفوض نهائيًّا، ولا قيمة له، وإن تظاهر عليه كل ما يسمى العرف الرسمي والمصطلح التصوفي والتقاليد والمشيخات، فنحن لا نؤمن بالطبول، ولا الزمور، ولا العكاكيز، ولا الرايات، ولا الأوشحة، ولا الطراطير.

* **القاعدة الثالثة: المسائل الخلافية**: كالتوسل في الدعاء، والقراءة للميت، والإعلان بسورة الكهف يوم الجمعة، وأذاني صلاة الجمعة وسنتها القبلية، والصلاة والسلام بعد الأذان، والقيام للقادم، والسلام للتوديع، والمصافحة بعد الفرائض والعيدين، وختام الصلاة بالجهر، وتشييد المساجد، وتجويف القبلة، وزيارة مشاهد الأولياء، والذكر بجماعة، والتعبد بالأحزاب والأوراد والصلوات وأسماء الله تعالى، وبعض التقاليد الصوفية، وتقسيم البدعة، ونحو ذلك، وهو كثير -كل هذه مسائل فرعية اجتهادية، قد اختلف ولا يزال يختلف فيها الرأي والنظر، وهي عندنا لا تكون سببًا في الفُرقة بين المسلمين أو الحرب التي تمزق الأسر وتمزع البلاد، وإنما شأنها شأن الخلاف الفقهي المعروف بين المذاهب الأربعة.

* **القاعدة الرابعة**: ونحن لا نرمي مسلمًا بالكفر أو الشرك أو الفِسْق أو الزندقة أو الرِّدَّة لمخالفتنا في الرأي، أو لأنه ارتكب معصية، فإن رميَ الناس بالكفر أو الشرك حمق ومجازفة من أخطر المجازفات الدينية والعلمية، وهي بدعة مدمرة.

* **القاعدة الخامسة**: ونحن نؤمن بالغيب وبالكرامة للأولياء أحياءً وموتى، ولكننا لا نؤمن بالشعوذة، ولا بالكهانة، ولا الوَدَع، ولا البخت والورق والفنجان ونحوها.

* **القاعدة السادسة**: نحن نحب جميع الطرق الشرعية مهما اختلفت المشارب والمناهج والأسماء، ولكن لا نفضل طريقة على طريقتنا قط.

* **القاعدة السابعة**: ونحن نحب أولياء الله الموتى، ونتبرك بزيارتهم مهما كانت مذاهبهم ومشاربهم، وكما لا نفرق بين أحد من رسله، لا نفرق بين أحد من أوليائه، ونترك أمر تفضيلهم الغيبي إلى الله الذي يعلم الحقيقة وحده، فلا نتهجم على سر غيبه المكنون، ولا نبالغ في إطراء الشيوخ إطراء يفضلهم جهلًا على رسل الله، ونستغفر الله.

ونحن نتوسل بالأولياء إلى الله -على أساس علمنا وتجاربنا- معتقدين أن الله سبحانه وحده القادر الفعال ومعتقدين في الاستشفاع إليه تعالى بالأولياء.

* **القاعدة الثامنة**: كل من بايع (ولو قلبيًّا) على طريقتنا، وعمل بأعمالنا، وقال بأقوالنا، واعتقد عقائدنا، واعتاد عوائدنا، وشهد مشاهدنا، ودعا بدعوتنا، فهو منا، له ما لنا من حقوق، وعليه ما علينا من واجبات.

* **القاعدة التاسعة**: كل حركاتنا وسكناتنا وأنفاسنا وخطواتنا، وأقوالنا وأعمالنا وأحوالنا، وكل شئون معاشنا ومعادنا، حتى المرح والمتع، مرادٌ بها عندنا وجه الله وحده، فهي بحسن توجيه نياتنا، وحضورنا مع الله، صلوات وعبادات وأوراد وأذكار.

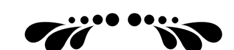
* **القاعدة العاشرة**: أنت واحد من هذه الأسرة المختارة المصطفاة، ولولا أن الله أحبك ما كنت منا، وعلى هذه الأسرة التزامات مادية وأدبية تتجدد لا تنتهي، فشارك هذه الأسرة التزاماتها بما يفيض عن حاجتك من المال، واجعل لها نصيبًا مفروضًا من زكاتك وصدقاتك، ومن الجهد الشخصي، ومن الجاه والشفاعة عند الناس.

ولقد تعمدت أن أبصّر القارئ بروعة ما كتبه المؤلف عن التصوف سواء بأقوال شيخه أو بآرائه النيرة، موضحًا أن هذا الكتاب من أحدث وأحسن ما كتب عن

التصوف بصدق وأمانة وحكمة، ولا يجرؤ أحد أن ينقده لأنه أورد الآراء المختلفة وأبرزها ودافع عنها بصورة مقنعة جذابة.

وفقه الله ورعاه وسدد خطاه ونفع به الأمة، وأقول له: لقد وضعت أساسًا جميلًا يساعد على إصلاح أحوال المسلمين الذين اختلفوا فيما بينهم ونسوا الآخرة وتمسكوا بالدنيا وتاهوا. **هذا الكتاب ليس في التصوف فقط، ولكن في وسائل الإصلاح للمجتمع الإسلامي.**

حسن عباس زكي





تقديم
السيد العارف بالله تعالى
يوسف السيد هاشم الرفاعي الحسيني
وزير شئون مجلس الوزراء الأسبق، ونقيب الأشراف بدولة الكويت

نحمده ونصلي على رسوله الكريم وآله وصحبه

وبعد،

فمما أسعدني الله تعالى به ووفقني إليه، حصول التعارف والتآلف والمحبة في الله تعالى مع المغفور له سماحة الإمام الصوفي العارف بالله تعالى الشيخ الشريف السيد محمد زكي إبراهيم مؤسس ورائد (جماعة العشيرة المحمدية والطريقة المحمدية الشاذلية) بالكِنانة مِصر العزيزة، وصاحب الجهود المشكورة والمؤلفات الجليلة النافعة في تجلية الوجه الصحيح الشرعي للسادة الصوفية والتصوف السُّنِّي الإسلامي. ومما أتميز به حصول المجالسة وتبادل الرسائل بيني وبينه، ولقد استفدتُ كثيرًا بما فتح الله تعالى به في الدفاع عن المنهج الصوفي ونفض الغبار ونفي التحريف عنه، وظهر ذلك جليًّا -ولله الحمد- في كتابي الموسوم باسم (الصوفية والتصوف في ضوء الكتاب والسنة). رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له وجمعنا به مع الصالحين تحت لواء النبي الأكرم والهادي البشير النذير؛ نبينا ورسولنا وإمامنا سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام، آمين.

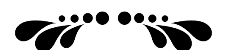
وحيث إن الله تعالى قد وفق أخانا الكريم المحب في الله تعالى والمحبوب؛ المستشار الشريف السيد مصطفى أحمد سعفان الحسيني إلى تأليف كتاب فيه مما أكرمه الله تعالى به من علوم الشيخ وبركة صحبته، مما ينفع الناس ويدلهم على معرفة

ومحبة الله ومحبة رسوله الكريم -عليه أفضل الصلاة والسلام- ويعينهم على تزكية النفوس التي هي المقصد الأعلى للمنهج الصوفي الرشيد -فقد رغِبتُ أن أشارك في المقدمات المباركة التي تفضل بها عدد من الأساتذة الكرام الذين عرفوا فضل المغفور له الرائد الكريم السيد محمد زكي إبراهيم، أو تباركوا وتشرفوا بصحبته ومعرفته، بهذه الأسطر القليلة بحق الإمام الرائد الراحل إلى مستقر رحمة ربه بعد أن بذل جهده المشكور وسعيه المأجور وعمره المديد في نشر المفاهيم الصحيحة عن التصوف والتربية الصوفية الشرعية الروحية، التي هي غذاء العقول والأرواح، والتي أفاد فيها ونفع وترك تراثًا كبيرًا سوف تستفيد منه الأجيال الحاضرة والمقبلة. والله تعالى وليّ التوفيق.

الفقير إلى مولاه / يوسف السيد هاشم الرفاعي الحسيني

كتبه الفقير إلى مولاه

يوسف السيد هاشم الرِّفاعي الحُسيني





تقديم وتعريف

سماحة السيد علي بن السيد عبد الرحمن الهاشمي

مستشار رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، سبحانه جل جلاله جعل الدعوة إلى الهدى والدلالة على الخير من أفضل القربات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيد الداعين إلى سبل الهدى وطرق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، صلاة وسلامًا دائمين متلازمين، عليه وعلى آله القدوة الحسنة والأسوة الطيبة المباركة. ورضي الله تبارك وتعالى عن صحابته الغر الميامين ومن اتبع هديه وتمسك بسنته ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد،

فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بالسند المتصل عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[1].

وإن كتاب (**إحياء التصوف السلفي**) الذي بين أيدينا حرره مؤلفه الأخ المستشار الأستاذ الدكتور/ مصطفى أحمد سعفان وتفضل بإهدائه لكل داعٍ وراعٍ ولكل مرشد ومسترشد.

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (١/ ٦)، برقم (١)، ومسلم: (٣/ ١٥١٥)، برقم (١٩٠٧)، كلاهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد تفضل بتقديمه السيد الكريم ذو الهمة العالية راعي الصوفية والمتصوفة الشيخ/ محمد عصام الدين (رائد العشيرة المحمدية) ابن مولانا وشيخنا المغفور له العلامة العارف بالله عين أعيان السلف الصالح الشيخ محمد زكي الدين بن إبراهيم، مجدد التصوف الشرعي في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الهجري.

هذا وقد وَفَّق الله تبارك وتعالى مؤلف هذا السِّفر النفيس فجمع وبوب فيه أكثر ما أُثِرَ عن شيخنا العلامة الشيخ/ محمد زكي الدين إبراهيم، بما أفاضه الله تبارك وتعالى عليه من فيوضات ربانية وإشراقات صوفية ومقامات عالية في الترقي إلى مقامات الأولياء الصالحين، الذين جاء الذكر الحكيم بالثناء عليهم وأنهم من الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، فهم أولياء الله وأحباؤه، وهم حاملو رسالة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم للعالمين.

ولقد تخير المؤلف بتوفيق الله عز وجل جوانب إحياء وتجديد التصوف السلفي بدقة وبصيرة نافذة، وبها قدم هذا البحث المستفيض المتضمن ثلاث عشرة مسألة من مسائل الإحياء والتجديد في علوم التزكية وإحياء القلوب. إن الناظر في هذا الكتاب لا مناص له من أن يثمن غاليًا القيمة العلمية والأدبية والتاريخية التي حررها المؤلف مع تميزه بالنفس الطويل والممتع في سرد التاريخ الضخم لحياة الراحل العظيم مولانا وشيخنا الشيخ محمد زكي قَدَّسَ اللهُ سِرَّه.

إن هذه الدراسة المفصلة لسيرة الشيخ ومنجزاته العلمية والعملية والاجتماعية والسياسية لا غنى لأي مثقف عن الإحاطة بها، بل هي زاد لا غنى عنه لأي سالك لسبيل القوم رضوان الله عليهم أجمعين.

وأسال الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل الطيب من الأخ السيد المستشار مصطفى مقربًا له إلى جوار المصطفى في جنات النعيم، وأن يعظم النفع به لنا ولكافة المؤمنين والمؤمنات.

فالله وحده هو القادر على منح العطايا الوافرة بلا حساب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

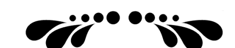
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه.

والحمد لله رب العالمين.

في أبو ظبي العامرة: ١٣/ ٠٦/ ١٤٢٩هـ

يوافقه: ١٧/ ٠٦/ ٢٠٠٨م

كتبه خادم الشرع الشريف
السيد علي بن السيد عبد الرحمن الهاشمي





تقديم

الأستاذ الدكتور/ محمد فؤاد شاكر

أستاذ ورئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة عين شمس

باسم الذي أعطى فأجزل، ووهب الخير لعباده وتفضّل، فجعلنا ورثة للنبي الأكمل، وأتباعًا للحبيب المكمل، اللهم صلِّ أعظم صلاة وأكمل تسليم على صفوة خلقك صاحب الشفاعة العظمى والمكانة العليا، سيدنا ومولانا أبي القاسم رسول الله ﷺ.

وبعد؛

فإشراقات التواصل في أمتنا لا تنقطع، ومدد العطاء لا ينتهي، فهو متواكب السير، مبارك الخطوات، وفرقته إيمان صادق وحب خالص لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن كريم الاجتباء أن يتلقى أهل محبة الله ورسوله زادَهم في كل حين من قلوب نقية وسواعد فَتِيَّة تَذُبّ عن المَنْهَل العظيم، وتُنافِح عن سنة سيد المرسلين.

وقد أكرم الله العباد والبلاد بالعالم العَلَم منارة أهل التحقيق ومفازة أهل الصدق والتصديق مولانا سليل بيت النبوة كريم الأحساب والأنساب، باب الخيرية في أمة خير البرية، العارف الفذ والمرشد البصير سيدي محمد زكي الدين إبراهيم رائد العشيرة المحمدية وراعيها، طيب الله ثراه، ونفع الله به الأمة حيًّا ومنتقلًا، فشيّد بجهده الدائب للأمة في علوم القلوب وخصائص القبول عند الحبيب المحبوب من العلوم النافعة والدرر الكامنة، ما أفاء به من ظل دوحته الضاربة في أعماق وجدان الوجدان ليكون أصلها في الأرض وفرعها في السماء، ثم أخرج –كرَّم الله منزله

ومنزلته- من كِنانة عطائه سهام المواجهة لكل عائقة تفصل بين الشريعة السمحة وسلوك أهل الله من الصوفية.

فكانت دعوته -طيّب الله ثراه- وصلًا بمن سبقه من أهل الله، فربى أجيالًا من المخلصين لله والمحبين لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وهم على جادته ومحجته يؤكدون قوله: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي قَائِمَةً بأمرِ اللهِ لا يَضُرُّهم مَن خَذَلَهم حتى يَأْتِيَهُمْ أمرُ اللهِ تعالى**»[1]. فكان مولانا الراشد الرائد ينهَل من فيض جده ليعطي للتصوف مكانته المرجوة، حيث أرشد ووجّه وعلّم وصحح المفاهيم، وخرّج رجالًا يحملون رسالته ويؤكدون دعوته، فكان خليفته -أطال الله عمره في عافية- فضيلة الرائد محمد عصام الدين، عصم الله به نفوس أهل المحبة، ونفع به مسار الصلاح والإصلاح.

ولقد أقام مولانا وشيخنا الرائد محمد زكي إبراهيم للتصوف اهتمامًا شغل به عمره المديد، واستطاع أن يؤكد أنه لا فصل بين التصوف في سلوكه وبين دعوة الشريعة، ولهذا لم يغمد طوال حياته في الدنيا سيفه عن محاربة أهل البدع، بل **وقف كالطود الشامخ، يزيح ركام الران عن قلوب الكثيرين ممن ظنوا أن التصوف هو التواكل والتكاسل وذكر الكرامات، وقضاء الوقت في الحديث عن المشاهدات والرؤى، واختصروا دعوة التصوف في مناقب مشايخهم وكرامات رجالهم، ولم يشغلوا أنفسهم بما أصّله الإسلام وما خلّده من رسالة التمكين في الأرض وإعمارها للقيام بمناط الخلافة فيها،** حتى أعطوا لخصوم الصوفية الفرصة سانحة للتطاول على سلوك القوم ومحاربة التصوف كله لتهاون كثير ممن نُسبوا إليه في أداء ما كُلفوا به أو للمغالاة في تقديس مشايخهم بما لا يتفق مع روح الشريعة ودعوتها.

وهذا السِّفر الرائق، والجهد المشكور الفائق لدراسة التصوف بالعود إلى ينابيعه النقية لسلف الأمة ولعلمائها وقفة إخلاص تحتاج إلى تأمل وتعلم ممن يطالعون

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ١٠١)، برقم (٧٣١١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

هذا العمل المكرَّم، حيث جاء هذا الكتاب الماتع يناشد دعاة التصوف إلى حوض الالتزام، وأن يثبُتوا على ما كان عليه نبينا وحبيبنا المصطفى ﷺ، وظل عليه أصحابه وأتباعه ورجال الحق في كل الدنيا.

واللهَ نسألُ أن يجعَلَ هذا الكتاب المبارك في كِفَّة حسنات الدكتور مصطفى سعفان الحسيني -تلميذ الإمام المجدد سيدي محمد زكي الدين إبراهيم، مَن قدمه للأمة وأبرزه للناس- حتى يأتي يوم القيامة ضميمة إلى كتاب أعماله، فتحمل يمينه ما خطّت في الدنيا وما دوّن له في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، حتى يزداد إشراقه فيكون ممن عناهم الله تعالى بقوله: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

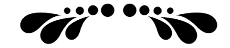
وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه

أ.د. محمد فؤاد شاكر

أستاذ ورئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة عين شمس





تقديم

فضيلة الدكتور/ يسري رشدي السيد جبر

إمام وخطيب مسجد الأشراف بالمقطم- القاهرة

الحمد لله رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم، وله الكبرياء في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، وصل اللهم وسلم على سيد الخلق إمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد الفاتح الخاتم الظاهر برسالته ومحمديته، الباطن بنبوته وأحمديته، وعلى آله الأتقياء الأنقياء وصحابته الأبرار الأطهار وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإن هذا الكتاب ومِن هذا الكاتِب المِفضال سلالة الصالحين وسالك درب الواصلين من عباد الله المتقين، وفي هذا الوقت بالذات؛ فيه دلالة على الحس الواعي والتشخيص الدقيق لما يعتلج في قلوب المسلمين في زمن عمت فيه الفتن وانتشرت الشُّبُهات حول حقائق الدين، مما جعل الناس في تخبط وعدم وضوح رؤية إلا من رحم ربي ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

فسيرة الصالحين والأولياء العاملين، ومواعظهم ومواقفهم، وكيف واجهوا الواقع دون أن يصطدموا به فتقف مسيرتهم أو ينقادوا له بما فيه من مخالفات، ولكن بتحويل دفة الواقع حولهم وحول من لاذ بهم إلى ما أراده الله على لسان وأفعال رسوله ﷺ ظاهرًا وباطنًا؛ هذه السيرة فيها ما فيها من مواعظ وتثبيت لقلوب أهل الحق خصوصًا، وهذا الكتاب حافل بسيرة عَلَم من أعلام هذا العصر عاش

ما عشناه، ورأى ما رأيناه وأدرك ما أدركناه، وقد صدق الله في قوله جل في علاه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله تعالى لرسوله ﷺ ومَن على سنّته: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

فإن فضيلة الإمام الرائد العارف المجاهد المربي محمد زكي الدين إبراهيم قد قضى عمره في بيان حقيقة التصوف الحق قولًا وعملًا وتربيةً، وفي نفس الوقت كان ناصحًا لأهل عصره حكامًا ومحكومين وعلماء وغيرهم، منافحًا عن سيد الأولين والآخرين وعن الأولياء والصالحين، فإن التصوف وإن كان من حيث التسمية لم يرد بهذا اللفظ على لسان الرسول ﷺ ولا صحابته، ولكن هو يعبر عن حقيقة الدين وثمرة الإيمان والإسلام، أو هو يعبر عن الترقي في مقام الإحسان بعد تحقق الإسلام والإيمان ليكمل الدين تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وقول الله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومعلوم أن رسول الله ﷺ جاء بالإسلام والإيمان والإحسان، فتعبّد ظاهر الإنسان بالإسلام، وباطن الإنسان بالإيمان، وروح الإنسان بالإحسان، أو قل: الإسلام شريعة، والإيمان طريقة، والإحسان حقيقة، فالإسلام عبادة الجوارح، والإيمان عبادة القلب، والإحسان عبادة السر، فمن لم يهتم بالثلاثة معًا لا يكمل إيمانه. وهذا فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى سعفان حفظه الله وعافاه من كل بلية، وفتح له وبه وعليه، أحسن اختيار الموضوع وترتيبه وعرضه، وذلك ببركة توفيق الله وما حباه الله من نعمة صحبة

العارفين والأولياء، فنسأل الله له ولكل من طالع هذا الكتاب المبارك وساعد في إخراجه بهذه الصورة التوفيق والقبول والسداد، فهو نعم المولى ونعم النصير، كما أسأله أن يعم به النفع في كل البقاع والأعصار، والله من وراء القصد ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

ومن المعلوم أن التصوف يَعني التربية والسير في هذه الحياة تحت عين الشيخ المربي العارف بأمور الشريعة وأمراض القلب، وبما يعوق السير إلى الله من خواطر شيطانية أو نفسانية، وكذا بما يعرض للسائرين من واقع متغير يحتاجون في أثنائه إلى التوجيه المباشر، وبطريقة السلف من تَعَلّم الدين وتنفيذه تحت عين المربي الشيخ، وليس بسير الإنسان بنفسه أو مطالعة كتاب أو كتابين أو أكثر معتمدًا على نفسه في فهم ما يقرأ، مع القصور في اللغة والفهم، وعدم إدراك لمقاصد الشرع، حيث يحدد المربي أولويات كل مرحلة في طريق المريد إلى الله. ولذا فإن العلم والعمل يحتاجان -كما قال الإمام الشافعي- إلى ذكاءٍ وحرصٍ وصبرٍ وصحبة أستاذٍ وطول زمان مع مال حلال وتواضع وتراحم وعدم كِبر وعدم حرص على الدنيا وما فيها من متاع كاذب، والتقلل من زينتها ومباحاتها حتى لا ينشغل بالمباح عن المهم، ولا تتأثر الهمة فلا يقوم بالمهمة التي خلقه الله من أجلها، ولذا فإن الله إذا أراد بعبدٍ خيرًا وفقه للعلم والعمل على يد شيخ متشرع متحقق مدرك للواقع وما فيه من فتن ليأخذ بيد تلاميذه إلى الله، وارثًا من النبي ﷺ قسطًا من إرث تربيته لأمته وتوجيهه لها. وهذا الأمر الآن أصبح نادرًا في هذا الزمان الذي أُعجب فيه كل ذي رأي برأيه، فأخفى الله أولياءه إلا عمن أراد له الهداية والسداد فيوفقه إلى من يأخذ بيده إليه، ولا يخلو زمان ولا مكان إلا ولله فيه ما يقوم بحجته على خلقه.

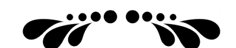
وإن هذا الكتاب ليوضح بجلاء كيف أن الله بارك في مسيرة هذا الشيخ المبارك ببركة أخذه العلم عن مشايخه وسلوكه الطريق تحت أعينهم حتى صار بعد ذلك

شيخًا مربيًا ربى الكثير والكثير، ومن بينهم كاتب هذا الكتاب وجامعه، نفعنا الله بهما وبأوليائه وأنبيائه ورسله أجمعين وحشرنا في زمرتهم، آمين.

الفقير إلى عفو ربه

د. يسري رشدي السيد جبر

الحسني نسبًا، والصديقي طريقة، والشافعي مذهبًا،
والأشعري عقيدةً، والأزهري إجازةً،
إمام وخطيب مسجد الأشراف بالمقطم
الأربعاء ٢٥ ربيع النبوي ١٤٢٩هـ
٢ أبريل ٢٠٠٨م





تقديم

بقلم: بسام محمد بارود

الباحث لدى قسم المخطوطات- دار الكتب الوطنية

المجمع الثقافي- هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث

الحمد لله رب العالمين، رافع أعلام أوليائه في علياء حضرته المقدسة، بعد أن توجهم بتيجان معرفته، ورواهم من صفو صفاء شراب أنسه، وحلاهم بوصاله ولذذهم بقربه، فهم المتحققون بكمال التمسك بشريعته، والمتسربلون بلباس منهاجه وطريقته.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان الأطيبان الأصفيان الأبركان على سيد الكائنات وحبيب رب البرِيَّات، مظهر تجليات الربوبية، والمتحقق بالغاية القصوى لأكملية عبوديته، سيدنا وحبيبنا وقرة أعيننا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، من انشقت منه الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار...

اللهم بحقهم عندك أكرمنا بالتحقق بكمال محبتهم واتباع طريقتهم، مع إخلاص التوحيد لجنابك، وأورثنا أسرارهم وأمدنا بأنوارهم وبركاتهم مع السلامة والعافية، إنك نعم المسئول وأكرم مأمول بجاه سيدنا الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وبعد،

فقد أمرني من لا أستطيع مخالفته، ولا يسعني إلا امتثال أمره الأخ الحبيب

والعلامة المفضال سعادة المستشار الدكتور مصطفى سعفان أن أتشرف بسطر كلمات بين يدي كتابه المبارك الذي حوى بين دفتيه ترجمة عالم الزمان، ومجدد القرن العشرين العارف بالله تعالى، سيدي الشيخ محمد زكي إبراهيم عليه من الله تعالى الرضوان، وعلى قبره سحائب الرحمة والغفران.. ولم أجد مناصًا من التبرك بخط كلمات تسلكني في جملة البارين بهذا العالم الجليل، والمجدد الذي أكرم الله به زماننا ليرفع راية التوحيد الخالص، والتصوف الحق البعيد عن الشوائب التي ربما لحقته كما تلحق كل دعوة ومذهب، فجاء رضي الله تعالى عنه ليزيل عن التصوف ما كدّره، وينبه الناس إلى التصوف الحق الذي لا مناص للمسلمين من التحقق به... كيف لا وهو -أعني التصوف- الترجمة الحقة لمقام «الإحسان» الذي جاء في كلام سيد ولد عدنان عليه الصلاة والسلام في حديثه الشريف الصحيح والمشهور الذي أخرجه الشيخان وغيرهما عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه والمعروف بحديث جبريل، عندما سأل الحبيب ﷺ عن الإحسان فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1]. والتصوف -أو علم التزكية- هو الترجمة الحقة لهذا الكلام الشريف من صاحب المقام المحمود ﷺ...

ولا شك أن الأمة مرت عبر العصور بفترات من النهضة والانحدار، وكان مصداق حديث المصطفى ﷺ في قوله: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[2] أن يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها فيردها إلى الطريق القويم الذي كان عليه النبي ﷺ وصحابته الأخيار رضي الله عنهم والتابعون والسلف الصالح من تابعي التابعين... فكان مجدد وقتنا بحق الشيخ الإمام محمد زكي الدين إبراهيم رضي الله عنه الذي وقف في وجه أعتى حملة من

(١) أخرجه البخاري: (١/ ١٩)، برقم (٥٠)، ومسلم: (١/ ٣٦)، برقم (٩)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٥١٢)، برقم (٤٢٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٢١)، برقم (٨٥٩٢)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حملات الردة على منهج السلف الصالح باسم العودة إلى منهج السلف الصالح، فكانت فتنة من أعظم الفتن شتتت شمل المسلمين وقسمتهم إلى سلفيين ومبتدعين، وموحدين ومشركين، وصار كل حزب بما لديهم فرحين.. فجاء الشيخ الإمام ﵁ ليعلن للجميع أن كل من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو موحد مسلم لا يخرج عن دائرة الإسلام إلا بما نص عليه الشرع الحنيف من موجبات الكفر، وأن الكثير من مقاييس الشركيات التي ألصقها المخالفون بكثير من المسلمين إنما هي مقاييس باطلة لا ينبغي أن يُقَيَّم بها إيمان مسلم، فليس في شد الرحال إلى الحبيب المصطفى بأس، بل هو واجب، وليس في بناء مسجد بجانبه قبر وليّ أو إمام صالح شِرك، والصلاة فيه صحيحة، وليس في اتخاذ السبحة بأس، وليس في ذكر الله جماعة بدعة مذمومة، وليس في عمل حضرات الصوفية ما يخالف الشرع... كما يدعيه المخالفون... وقد أصّل كل هذه المسائل تأصيلًا شرعيًّا مستندًا إلى الكتاب والسنة... فكانت طريقته ﵁ طريقة سنية شرعية لا تحيد عن الشرع الحنيف قيد أنملة، ولهذا دعا ﵁ في فعله وحاله وقاله. وانظر يا أخي ما كتبه ﵁ في جميع مكاتباته، ورسائله، ومقالاته، تجد مصداق ما نقول، فكلامه كله دعوة إلى التوحيد وإلى لم شمل الأمة، وإلى توحيد كلمة المسلمين ونبذ كل ما من شأنه أن يدعو إلى الخلاف، وإلى التبرؤ من كل ما يخالف شرع الله.

هذا هو منهجه وهذه هي دعوته ﵁، ومن بعده سار خلفه من أتباع العشيرة المحمدية متمسكين بخليفته فضيلة الشيخ الدكتور محمد عصام زكي الدين إبراهيم حفظه الله تعالى، مهتدين بنور أقوال رائدهم الشيخ الإمام ﵁ ومتمسكين بما دعاهم إليه من العمل بالكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح وأعمالهم وما اتفقوا عليه، تاركين وراء ظهورهم كل ما من شأنه أن يفرق الأمة أو يمزق شملها، داعين المسلمين إلى كلمة سواء.

رحم الله الشيخ الإمام محمد زكي الدين إبراهيم، ورضي عنه وجعله مع النبيين

والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، ووفق من حمل الراية من بعده إلى التمسك بالحق والدعوة إلى الحق، والجهاد في سبيل رفع راية الحق.

وأخيرًا جزى الله أخانا العلامة المفضال الدكتور المستشار مصطفى سعفان الذي أبان في تأليفه هذا حقيقة دعوة العشيرة المحمدية، ومنهجها في الدعوة إلى الله تعالى، وبعضًا من فضائل هذا الشيخ الإمام، نفعنا الله وجمعنا به وبالصالحين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا وقرة أعيننا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته، وتمسك بسنته إلى يوم الدين، آمين، آمين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه:

خادم العلم الشريف

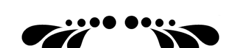
تراب نعل الصوفية

بسام محمد بارود

أبو ظبي

٢٥ / رجب / ١٤٢٩ هجرية

الموافق ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٨ م



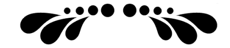


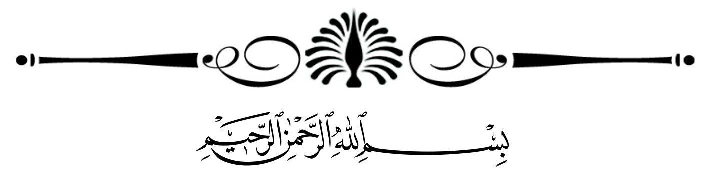
شكر وتقدير

جزى الله عنا خير الجزاء والدنا وشيخنا وإمامنا الرائدَ محمد زكي الدين إبراهيم ﷺ وذريته المباركة، وأخُصُّ بالشكر والعرفان نجله وخليفته السيد الدكتور عصام الدين زكي، الرائد الحاليّ للطريقة والعشيرة المحمدية، والسادة العلماء الأفاضل الذين تكرموا بالتقديم لهذه الدراسة، كما أُثني على كوكبة نيِّرة من العلماء وطُلاب العلم من تلاميذ الشيخ ﷺ القائمين على ميراثه العظيم بالجمع والحفظ والدرس، ثم بالتحقيق العلمي والنشر في كل أرجاء العالم الإسلامي.

بادئ ذي بدء كان لزامًا عليَّ أن أَنْسُب الفضل لأهله الذين لولا عونهم المخلص لما تمكنتُ من إتمام هذا السِّفر الجامع لمذهب الإمام المجدد ﷺ، إذ ليس لي في هذا العمل إلا شرف الجمع لأقواله والتبويب لأفكاره، مع الاختصار والإجمال بتصرفٍ أحيانًا، والشرح والتعليق على استحياء أحيانًا أخرى... وشيء من الخواطر والذكريات التي منَّ الله -سبحانه وتعالى- بها علي في صحبته المباركة ﷺ... وفاءً لذكراه العطرة أقدم للقارئ العزيز من مَعين علمه النافع بإذن الله تعالى ما فيه بُغية كل مخلِص باحث عن الحقيقة، يسعى صادقًا لمعرفة الطريق إلى الله تعالى.

د/ مصطفى سعفان





مقدمة المؤلف

الحمد لله وهّاب المِنَن، والصلاة والسلام على رسول الله ومنة الله سيدنا محمد ﷺ وعلى آله الطيبين وأصحابه الراشدين رضي الله عنهم.

والحمد لله سبحانه على ما منح أولياءه ووهب أصفياءه من جزيل فضله وفيض عطائه، فتجلى لهم بمظهر من مظاهر أسمائه، فتاهتْ عقولهم في مشاهدة عظمته وكبريائه، وطافت أرواحهم هائمةً في قدس سنائه، وأفناهم عن أنفسهم فلم يشهدوا شيئًا سواه في أرضه وسمائه، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أفضل رسله وأنبيائه، صلى الله وسلم عليه صلاة وسلامًا خالدينِ مع خلود الدهر، باقيينِ بعد فنائه، ورضِي الله عن آله الكرام وصَحبه الراشدين وأوليائه في كل عصر إلى يوم الدين، حُماة الدين الدافعين عنه بالسيف والبرهان حَمَلاتِ أعدائه الظالمين.

أما بعدُ،

فإن التصوفَ كبيرٌ قَدْرُه، جليلٌ خَطَرُه، عظيمٌ وَقْعه، عَميمٌ نفعُه، أنواره لامعة، وأثماره يانعة، يزكي النفس من الدنَس، ويطهّر الأنفاس من الأرجاس، ويرقي الأرواح إلى مراقي الفلاح، ويوصل الإنسان إلى مرضاة الرحمن؛ وخلاصتُه تسليم الأمور كلها لله، والالتجاء في كل الشئون إليه، مع الرضا بالمقدور، من غير إهمال في واجب ولا مقاربة لمحظور. وقد كثُرتْ أقوال العلماء في تعريفه واختلفت أنظارهم في تحديده، وذلك دليل على شرف اسمه ومسماه، وسمو غايته ومرماه، فقيل: التصوف: الجِدّ في السلوك إلى مَلِك الملوك. وقيل: التصوف: حِفظ الوفاء، وترك الجَفاء. وسئل الإمام أبو القاسم الجُنَيْد سيِّد الطائفة عن التصوف فقال: «تصفية

القلب عن موافقة البرِيَّة، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الرُّوحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة».

وكما اختلفوا في معنى التصوف اختلفوا في الصوفي ومعناه، فقال الإمام أبو علي الرُّوذباري عن الصوفي: «مَن لبِس الصوف على الصفاء، وأطعم الهوى ذوق الجفاء، وكانت الدنيا منه على القفا وسلك منهاج المصطفى ﷺ».

والتصوف مبني على الكتاب والسنَّة كما قال الجُنيد: «عِلمنا هذا مشيَّد بالكتاب والسنة». وقال أيضًا: «الطريق إلى الله تعالى مسدود على خَلْقه إلا على المُقْتَفِين آثار رسول الله ﷺ». وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِي، أحد أئمة القوم: «أُصولُنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق». وقال شيخ الشيوخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «مَن دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو مُدَّعٍ».

ولكون التصوف مبنيًّا على الكتاب والسنة دخل فيه عظماء العلماء، وانضم إلى زُمرة أهله فحول من الكبراء؛ كالحافظ أبي نُعَيْم، والإمام عِزّ الدين بن عبد السلام، والحافظ ابن الصلاح، والإمام النَّوَوِيّ، والحافظ السُّيُوطِي وغيرهم. يقول الشافعي: «صحِبتُ الصوفية فاستفدتُ منهم كلمتينِ؛ قولهم: الوقتُ سيف إن لم تقطعه قطعك. وقولهم: نفسك إن لم تشغَلها بالحق شغلتك بالباطل». وقال العلامة ابن الحاج: «وغالب مَن يُشار إليه ممن له تميز وشُفُوف ونُبُوغ في الحفظ والإتقان إنما نال ذلك بمخالطة بعض العارفين؛ كابن سُرَيْج بمخالطة الجُنَيْد، والعِزّ بن عبد السلام بمخالطة أبي الحسن الشاذلي، والتَّقِيّ ابن دَقِيقِ العِيد بمخالطة أبي العباس المُرْسِي. وهكذا لا تجد عالمًا كبيرًا ولا محققًا شهيرًا إلا دخل في طريق القوم والْتمسَ البركة من أهلها، ونال الحُظوة بسبب الانتساب إليها، وهذا أمر معلوم يدركه من قرأ

تراجم العلماء وتتبع سيرتهم واستقصى أخبارهم. ومَن لم يعرف ذلك أو لم يعتدّ به فهو جاهل لا اعتداد به ولا عبرة بما يقول».

وسلوك طريق التصوف[1] واجب محتم لا يكمل دين المرء إلا به، وبيان ذلك من وجوه شرعية أصولية:

(الوجه الأول) أنه مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة المبينة في حديث جبريل الطويل، وهي الإسلام.. والإيمان.. والإحسان، التي لا يكمل دين المرء إلا باكتمالها.

(الوجه الثاني) أن التصوف هو العلم الذي تكفل بالبحث عن علل النفوس وأمراضها وبيان علاجها ودوائها لتصل إلى مرتبة الكمال والفلاح. ولا شك أن علاج النفس من أمراضها وأدرانها أمر يوجبه الشرع القويم، ويستحسنه العقل السليم، ولولا ذلك لما كان هناك فرق بين الإنسان والحيوان.

(الوجه الثالث) أن التصوف غني بتهذيب الأخلاق وتزكيتها، ومخالفة هوى النفس، والأخذ بعزائم الأمور والارتفاع بالنفس عن حضيض الشهوات إلى حيث ما تورثه الطاعة من لذة روحية تَصْغُر بجانبها كل لذة مهما عظُم قدرُها.

(الوجه الرابع) أن التصوف ما هو إلا خلق الصحابة والتابعين والسلف الصالح الذين أُمرنا بالاقتداء بهديهم.

---

(١) راجع في ذلك:
- (بغية السالك إلى أشرف المسالك) لمحمد الساحلي.
- (تحفة السالكين) لمحمد السمنودي.
- (حال السلوك) لابن بنت الميلق.
- (سراج السائرين) للنامقي.
- (سلوة الطالبين) لابن حمويه.
- (العقود اللؤلئية في بيان طريق السادة العلوية) للشريف الحبشي.
- (منهاج السنة السنية في آداب سلوك الصوفية) لخليل الأسعردي.
- (بيان أسرار الطالبين) للكُوراني.

(الوجه الخامس) أن في سلوك الطريق صحبة المشايخ الكُمَّل والاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، وقد أمر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ﴾ [لقمان: ١٥].

(الوجه السادس) أن سلوك الطريق ينور بصيرة الشخص، ويسمو بهمته حتى لا يبقى له تعلق إلا بالله، ولا يكون له اعتماد إلا عليه، فيصير مصون السر[(١)] عن الالتفات إلى الخلق أو تعلق الأمل بهم والارتكان إليهم، متحققًا بالحقيقة في جميع الأحوال، متوسمًا بالشريعة في الأقوال والأفعال.

(الوجه السابع) أن في سلوك الطريق بصحبة شيخ مرشد عارف خروجًا من رعونات النفس، وحماية للمريد من كل ما يمنعه من الوصول إلى الله تعالى من أنواع الجهل والغرور ودواعي الهوى التي تؤدي إلى ظلمة القلب وإطفاء نور الحق فيه.

(الوجه الثامن) أن في سلوك الطريق الإكثار من ذكر الله، ولا شك أن الذكر يصفي القلوب ويدعو إلى اطمئنانها. وكل ما أمر الله به في القرآن جعل له حدًّا وشرطًا ونهاية إلا الذكر فإن الله تعالى لم يقيده بحد ولا شرط ولا نهاية؛ حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

فلهذه الوجوه التي ذكرناها وغيرها كان سلوك طريق التصوف واجبًا والانخراط في سلك أهله أمرًا لازمًا. ولا يقدح في ذلك ما لا ننكره من أنه دخل في الطريق دخلاء أدعياء وجهلاء أغبياء اتخذوا الطريق سُلّمًا لتحصيل أغراضهم وشهواتهم وابتدعوا فيه بدعًا ما أنزل الله بها من سلطان، فمثل هؤلاء ليسوا من الصوفية في شيء، بل إن أول من يبرأ منهم هم الصوفية أنفسهم. وإنه من الظلم البيِّن أن يعترض بعض الناس بفعل هؤلاء الجهلة ويجعله حجة على التصوف والصوفية، فما التصوف إلا اتباع الكتاب والسنة وما الصوفية إلا قوم

(١) السر الذي هو إشارة منهم إلى الإخلاص والصدق والحب والبر.

جاهدوا أنفسهم في الله فهداهم الله، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وما شأن الدخلاء على التصوف إلا كشأن الدخلاء على كافة العلوم الشرعية وكشأن الدخلاء على السلفية كمنهج شرعي أصيل.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»(١). وما قاله العلماء في مدلول هذا الحديث الشريف كثير، منه أن التجديد واقع في كل مجال من مجالات الدين، وترتيبًا على ذلك يرى العلماء أن في كل ناحية من نواحي الإسلام يبعث الله تعالى مجددًا(٢). وبذلك يصح الجمع بين اجتهادات العلماء المتعددة في كل عصر حين يقولون مثلًا: إن الشيخ محمد عبده كان مجددًا في عصره، وقد تعاصر معه شيوخ آخرون في بلاد أخرى من بلاد الإسلام قيل عنهم أيضًا: إنهم مجددون. فكذلك يرى كثير من علماء عصرنا المشهود لهم أن شيخنا الرائد محمد زكي الدين إبراهيم وشيخنا الإمام محمد متولي الشعراوي وشيخنا الداعية محمد الغزالي رضي الله عنهم، لكل منهم مضمار كتب الله تعالى له فيه التجديد في أمر من أمور الدين.

وتُبرِز هذه الدراسة -إن شاء الله- بصورة جلية جوانب من حياة الشيخ رضي الله عنه باعتبارها مسيرة علم وعمل، ودعوة وجهاد، وتبيان للمنبع الصافي للصوفية الحقة، الذي ما هو إلا كتاب الله وسنة رسوله المطهرة ﷺ، والذي هو الحصن الحصين الذي ظل وسيظل صامدًا إلى يوم الدين، يبطل كل ضلال وإضلال، بين تفريط وإفراط، ابتُليت وتُبتلى به أمتنا الإسلامية على مر العصور.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٥١٢)، برقم (٤٢٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٢١)، برقم (٨٥٩٢)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وفي هذا المعنى يقول الحافظ ابن حجر رضي الله عنه: «فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد». ويستطرد رحمه الله قائلًا: «فعلى هذا فكل مَن كان متصفًا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد في الحديث، سواء تعدد أم لا». انظر «فتح الباري»: (١٣/ ٢٩٥)، طبعة دار المعارف، بيروت.

وهذا هو جوهر «التجديد» الذي وفقه الله -سبحانه وتعالى- إليه للنهوض بالطريقة الصوفية إحياءً للتصوف السلفي الحق الذي هو روح الإسلام ومرتبة «الإحسان» ودستور التمهيد لعودة الأمة لسالف مجدها. فلا ريب أن فضيلة الإمام الرائد الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم -رحمه الله وطيب ثراه- يُعد من أعظم المجددين في قرنه وعصره الذين أسهموا في إيجاد رؤية عصرية مجددة لروح الدين الإسلامي الحنيف.

وقد جاءت مؤلفاته رضي الله عنه بما فيها من تحذير وتنوير وبيان وافٍ للأصول الشرعية للإصلاح والتجديد مناسبة تمامًا لمخاطبة إنسان هذا العصر، بعقليته المتطورة وفكره المعاصر، لتعصمه من فِتَن وظُلُمات هذا العالم المادي، وتُثبته على نور الإسلام الحق الذي تتوق إليه نفسه بفطرتها وإن كاد أن يفقده أو يفتقده، ولتوقظه من غَفَلاته المتعاقبة تحت وطأة حياة المستهلكات المادية الطاغية، ولتحمي قلبه من تعاقب الفتن وملتبسات الأمور التي تدع الحليم بأمره حيران، ولتهديه دومًا إلى طريق التوبة والإنابة المتجددة إلى الله تعالى والشوق للعودة إلى خالقه العفو الحليم سبحانه.

وكما يظهر لنا من جميع كتاباته وخطبه ومؤلفاته ومواقفه وفتاويه ومناهج تربيته لطلاب علمه ومريديه المتعددة، فإن الطريقة الصوفية عنده لها صِبغة سَلَفية صافية، تكمن أساسًا في ربطها ربطًا وثيقًا بالأدلة الشرعية الأصولية؛ فقد جاء بكل ما تلقاه من الأشياخ من أوراد وأذكار ومن طقوس وذكر وخلوات، وأعاد من جديد ربطها بما جاء في الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح التي تبين شرعيتها وحدودها وضوابطها، بعد مرور قرون طويلة أعرض فيها أهل الطريقة الصوفية عن البحث والتنقيب عن الأدلة الشرعية على صحة ما يمارسون اكتفاءً منهم باتباع أسلافهم من مشايخ الصوفية.

وقد أفنى الشيخ رضي الله عنه حياته الزاخرة في السعي الدائب لبلوغ هذا الهدف السامي، فقام بوصل الشريعة بالحقيقة، وعلوم تربية النفس -التي هي جوهر

التصوف- بعلوم الشرع الحنيف الظاهرة التي تحكم الجوارح والمعاملات، وقد أفاض الشيخ في ذلك بشتى الوسائل المتاحة، كما أمد إخوانه من الطرق الصوفية الأخرى -بسماحة وتواضع- بكتبه وأبحاثه ومؤلفاته التي ترُدّهم مرة أخرى إلى الأدلة المستمدة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة اللذين هما الحصن الحصين لهم في معرفة الأصول الشرعية والمنابع السلفية لطرقهم الصوفية المتعددة الألوان والمشارب بحسب الأحوال والأعراف، المتحدة في جوهرها السلفي الرائق، وحَسْبُه ذلك العمل وتلك الدعوة ليكون بها من المجددين...

وقد تجلّى كل ذلك حقيقة في ممارساته القولية والعملية، مبتدئًا في دعوته الإصلاحية بـ«الطريقة الصوفية» التي ورث ريادتها عن أشياخه، فلقد أحيا ﵁ الكثير من السنن النبوية الشريفة التي هجرها المسلمون على مر العصور، كما أحيا الكثير من الآثار السلوكية المروية عن كبار الصحابة والتابعين في شأن طريقة التربية والممارسة العملية لمراتب الإسلام والإيمان والإحسان و«فقه المعرفة» المناسب لهذه المراتب، وما هذا كله إلا الطريق الصحيح للتصوف السلفي الحق. وقد جاء مولانا الشيخ ﵁ في هذه الأمور بـ«الجديد القديم» إذا صح التعبير؛ فعودته إلى القديم في حد ذاتها -أي عودته إلى الآثار والمنابع الأصلية للسنة المطهرة وآثار الصحابة والتابعين، تجديدًا للطريقة الصوفية التي كانت متبعة قبله منذ قرون- قد جعلت منه ولا غرو مجددًا، وذلك بإحيائه لما هجره الكثير من المسلمين سهوًا أو نسيانًا أو تناسيًا، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه قام بإحياء هذه السنن الشريفة بالأسلوب العصري الذي يفهمه ويقبله معظم الناس في عصرنا هذا -أي قام يدعو إلى الله تعالى تأسيًا بالحبيب المصطفى ﷺ في بيان رسالته الخالدة بلسان قومه وأهل عصره، كما يقال- يتضح لنا إلى أي مدى كان مجدِّدًا، جدد لهذه الأمة بعضًا من أمور دينها في قرنه وعصره.

وحيث إن جوانب التجديد في سيرة الإمام الرائد أكثر وأكبر من أن يستوعبها

بحث واحد، قصر أم طال، فإني أكتفي في هذا البحث المتواضع بذكر بعض منها جذب انتباهي لحاجة الأمة الإسلامية إليها حاجة ماسة في هذا الزمان الذي كاد أن يغرق أهله في الضلال والإضلال والحيدة عن عبادة الله العزيز الغفار حق عبادته.

وجوانب الإحياء والتجديد للتصوف السلفي التي تخيرتها لتكون مدار هذا البحث هي:

المسألة الأولى: النظرية الإصلاحية للتصوف عند الشيخ.

المسألة الثانيـة: السلفية والتصوف.

المسألة الثالثـة: التراث الصوفي.

المسألة الرابعـة: الأوراد الصوفية المشروعة.

المسألة الخامسة: الجمع بين مجالس العلم والذكر في إقامة «الحضرة» و«الختمة».

المسألة السادسة: الجمع بين الطريقة المحمدية التعبدية و«العشيرة المحمدية» كمؤسسة اجتماعية.

المسألة السابعة: الدور الفعلي للعشيرة المحمدية في إصلاح أحوال المسلمين.

المسألة الثامنـة: إحياء طرائق الدعوة إلى الإسلام.

المسألة التاسعة: الجهاد في سبيل الله مع ولي الأمر، وخروج الإمام الرائد بنفسه مع الجيش تحريضًا للمؤمنين.

المسألة العاشرة: اجتهادات الشيخ رضي الله عنه في بعض الأمور الخلافية التي مزقت شمل الأمة.

المسألة الحادية عشرة: إحياء التقريب السلفي المشروع بين الطوائف الإسلامية وتمييزه عن التذويب والخلط المشبوه والممنوع.

المسألة الثانية عشرة: أهمية الوحدة الإسلامية، والدور الجوهري للتصوف لتحقيقها.

المسألة الثالثة عشرة: تجسيد الإمام الرائد رضي الله عنه لشخصية العالم الرباني المتكامل.

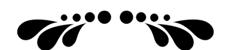
وبناءً على ما تقدم بيانه فالدراسة التي نحن بصددها تندرج تحت مباحث ما يمكن أن نسميه «فقه التجديد»، وترمي هذه الدراسة ليس فقط إلى تسليط الضوء على جوانب التجديد في طريقة الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم الصوفية في فقه الدعوة وطرائق السلوك وأساليب التربية الروحية، بل أيضًا إلى بث روح الاجتهاد لدى العلماء وروح الأمل لدى المجتهدين من طلاب العلم والمخلصين في السعي إلى الإصلاح في كل أرجاء الأمة.

والتجوال المتأني بين ورقات هذا الكتاب يتيح للقارئ الاطلاع على ما لا أظنه متاحًا له في كتاب مفرد؛ إذ قد جمعتُ فيه جهدًا علميًّا شرعيًّا أصوليًّا وفقهيًّا، وتأريخًا دعويًّا عمليًّا وتطبيقيًّا، وتوثيقًا لمواقف هامة في تاريخ الأمة وأحداث جسام وأشخاص أعلام. ومَعين ذلك المجموع كتابات الإمام الرائد وسيرته وجهاده ودعوته عبر ما يربو على ثمانين عامًا من عمره الذي قارب المائة رضي الله عنه.

ومن ثَم ففي هذا البحث الموجز أحاول أن أبين ملامح التجديد التي أدخلها الإمام الرائد محمد زكي الدين إبراهيم -العلامة الفقيه المجدد الزاهد العارف المتصوف- على التصوف عمومًا وعلى الطريقة الصوفية خصوصًا، وأحيا بها موات كثير من السنن ومارس الاجتهاد الشرعي بضوابطه في كثير من مستحدثات العصر، ووصل ما انقطع بين سلفها المبارك وخلفها المؤمل فيه إن شاء الله، مستشهِدًا في كل ذلك بنصوص كلماته الجوامع من مؤلفاته المتعددة، وإن كان مع بعض الحذف أو البيان أو التجميع أو التصرف لضرورة إبراز الفكرة المعروضة وتبيان الأمر المراد، محاولًا ما استطعتُ ألا ينقص ذلك من عُمقها وروعتها وجمالها ورصانتها.

وأدعو الله سبحانه أن يكون هذا الكتاب -الجامع لكلمات فريدة منتقاة من مؤلفات الإمام الرائد- نافعًا لكل مخلص يريد التفقه في دينه، دافعًا له للاستزادة من هذا المنهل الصافي من العلوم الفياضة، محفزًا له على قراءة المزيد من مؤلفات الشيخ الأصلية للانتفاع بها -إن شاء الله تعالى- في ذات نفسه وفي محيط دعوته إن كان ممن شرفه الله سبحانه بحمل أمانتها.

د. مصطفى سعفان





ترجمة موجزة
لشيخنا الإمام العلامة
العارف بالله الشيخ محمد زكي إبراهيم رضي الله عنه[1]

هذه ترجمة موجزة لشيخنا الإمام العلامة العارف بالله محمد زكي إبراهيم رضي الله عنه، وإنّ ما جاء في هذه الترجمة ما هو إلا قليل من كثير، وغيض من فيض، من غير مبالغة ولا تهويل.

مولده ونشأته رضي الله عنه

هو الداعية الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم.

اسمه: «محمد»، ولقبه: «زكي الدين»[2]، وكنيته: «أبو البركات»[3]، وشهرته: «الإمام الرائد»[4].

وفي هذا يقول:

(١) هذه الترجمة الموجزة هي ما فتح الله به علينا من معلومات قيمة تلقيناها من السيد الدكتور محمد عصام الدين زكي نجل مولانا الإمام الرائد وخليفته على مشيخة الطريقة المحمدية ورِيادة العشيرة المحمدية، حفظه الله وأعانه على شرف تلك المهمة. وكذلك الفضل موصول للشيخ محيي الدين الأسنَوي من تلاميذ الإمام؛ فقد استقينا الكثير من الترجمة القيمة التي كتبها، وهي منشورة ضمن مطبوعات العشيرة المحمدية.

(٢) في يوم الأربعاء ٢٦ رمضان ١٣٥٣هـ / يناير ١٩٣٥م تم إثبات شرعي بإثبات إضافة للاسم «زكي» من قِبَل قاضي محكمة الأزبكية الشرعية برقم القيد (١٥٣). نقلًا عن مذكرات الشيخ محمد زكي بالعشيرة المحمدية.

(٣) كنية «أبي البركات» وراثة في البيت المحمدي لكل من يتولى أمر الطريقة المحمدية؛ يرثه خَلَف عن سَلَف. انظر: «البداية» للإمام الرائد. ط٦، دار نوبار للطباعة والنشر، ١٤١٨هـ/ ١٩٨١م، ص ١٥٨ .

(٤) اشتهر بهذا لأنه مؤسس العشيرة المحمدية ورائدها.

اسمي محمد واسمي * إذا أردتَ زَكِيُّ
يا ليتَ أنيَ باسمي * هذا وذاك حريُّ
عَدَوْتُ قَدْرِيَ إنْ قَدْ * زَعَمْتُ أنيَ شيُّ[1]

هو شيخنا وأستاذنا الإمام الفقيه المحدث الشاعر، بقية السلف الصالح، محمد زكي إبراهيم، رائد العشيرة المحمدية ﷺ، شريف حسيني أبًا وأمًّا.

ولد ﷺ في القاهرة بمنزل والده بحي بولاق أبو العلا، وتاريخ مولده حسب ما هو مدون في أوراقه الرسمية ٢٢/ ٨/ ١٩٠٦م، فيكون قد قضى من العمر في هذه الحياة الدنيا (٩٢) عامًا.

ووالد الشيخ هو العالم الأزهري الشيخ إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي، صاحب كتاب (المرجع)، وله سلسلة مقالات نشرت في جريدة الإخوان سنة ١٩٣٢م، كما أن له بعض المقطوعات من الشعر الروحي الرائق، وقد جُمعت في رسالة مطبوعة.

أما جَدّ الشيخ لأمه فهو الشيخ محمود أبو عليان، من تلاميذ الشيخ عليش شيخ مالكية عصره، وقد ترجم له السيد الدكتور عبد المنعم خفاجي في كتابه عن التصوف.

تخرجه ﷺ في الأزهر الشريف

وقد كان لنشأة الشيخ محمد زكي إبراهيم ﷺ في هذا الجو العلمي الصوفي الأزهري أكبر الأثر في تكوينه العلمي والروحي، فتلقى العلم ابتداءً على يد والده، وحفظ القرآن على يد الشيخ جاد الله عطية في مسجد السلطان أبي العلاء، والشيخ أحمد الشريف بمسجد سيدي معروف، وكان حينئذ ما بين التاسعة والعاشرة من

(١) هذه الأبيات قالها الإمام الرائد عندما سأله الشيخ أحمد الطيب صالح، إمام وخطيب المسجد الدوري القديم عن اسمه، فارتجلها ﷺ. انظر: «ديوان البقايا» للإمام الرائد (١/ ١٧٩).

عمره. ثم التحق بمدرسة (درب النشارين الابتدائية)، وكان الابتدائي حينئذ يوازي المرحلة الإعدادية الآن، ثم انتقل منها إلى مدرسة (نهضة بولاق الكبرى) وكانت من أشهر المدارس في ذلك الوقت.

ثم التحق بالأزهر الشريف فأخذ فيه المرحلة الثانوية، ثم مرحلة العالمية القديمة عام ١٩٢٦م. وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كيف أدى امتحان العالمية، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: كنا يوم الامتحان نصلي الفجر في مسجد الإمام الحسين (الطالب واللجنة)، ونحضر درس الشيخ السملوطي بعد الفجر، وكان يحضره العلماء باعتبارهم تلاميذ للشيخ، ثم ننتقل لصلاة الضحى في الأزهر الشريف، وتذهب اللجان إلى الرواق العباسي في عدة غرف، في كل غرفة لجنة، ويدخل الطالب ومعه أوراقه وكتبه التي تم تعيين الامتحان فيها، وكان رئيس اللجان الشيخ عبد المجيد اللبان رَحِمَهُ اللَّهُ، وأذكر أنهم حددوا لي في علم البيان (تحقيق الخلاف بين السعد والسيد في الاستعارة المكنية) السعد التفتازاني والسيد عبد القاهر الجرجاني.. وفي النحو باب المبتدأ والخبر. وظللت أمام اللجنة حتى أذان الظهر، وعند ذلك ختم الامتحان بالصلاة على النبي بالصيغة الشافعية (اللهُمَّ صلِّ أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله.. إلخ) وكان الختم بهذه الصيغة إيذانًا بنجاح الطالب وحصوله على العالمية الأزهرية.

أسرة الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قد تزوج الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السيدة الحاجة منيرة كريمة السيد «إسماعيل صادق عبد القادر»، أحد كبار موظفي السكك الحديدية، وحفيد «وهبي باشا» أمين البريد الخديوي، وهو من أشراف الأتراك رحمهم الله تعالى جميعًا، وأعقب منها ذريته المباركة بإذن الله تعالى[1]، وهم: ولده السيد: «محمد الصغير»، ولقبه: «جمال الدين»، وكنيته:

(١) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية الشاذلية» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم (ص٦٤)، سلسلة منشورات ورسائل العشيرة المحمدية، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

«أبو البهاء»، وابنته السيدة «هانم»، ولقبها: «النبوية»، وكنيتها: «أم البهاء» المفتشة بالقوى العاملة، وكان له ولد آخر استُشهد صبيًّا في حادث أليم هو المرحوم «بهاء الدين زكي». و«محمد الكبير» ولقبه: «عصام الدين»، وكنيته: «أبو الولاء»، كان من ضباط القوات المسلحة المرموقين الذين تشرفوا بالجهاد في ملاحم الستينيات وحرب أكتوبر، وحصل على أعلى الأوسمة العسكرية، ولما انتهت الحرب وجهه الشيخ رضي الله عنه ليتم دراساته المدنية العليا في أرقى جامعات أوربا. وعاد ليخدم الوطن في ميادين شتى، وإليه آلت مشيخة الطريقة المحمدية ورئاسة مجلس إدارة العشيرة المحمدية بعد وفاة الإمام الرائد رضي الله عنه. وهذه الإطالة عن نجله رضي الله عنه لفائدتين في ترجمة الإمام نفسه: أولاهما بيان طريقة تربيته لأبنائه والدفع بهم إلى غمار الحياة المعاصرة بكل ما فيها من جهد وجهاد وتعلم وترحال، وهو منهجه الصوفي المعتمد في تربية مريديه وطلاب علمه، وثانيتهما بصيرته وإجابة دعائه رضي الله عنه بصلاح ذريته وبقاء شرف حمل أمانة الدعوة فيهم بالشكل الذي يرضي الله سبحانه وتعالى... تأمل هذه الأبيات التي رجزها في أبنائه لتستبين هذه المعاني:

(جمال) هذا (عصامٌ) فاستَعزَّ به * شقيقُك البرُّ ذو قلب عليك ندي
وأختُك النعمةُ الكبرى حُبيتَ بها * أَنْعِمْ (بهانِمَ) من أُخْتٍ ومن سندِ
صرَّحتُ باسمك لكني قصدتُهما * بالذاتِ قصدًا وتنصيصًا على صددِ
واستودعِ القلبَ حبَّ الوالدين ففي * هذا المجال مجالي عزك الأبدي
وعش وَمُت في سبيل الله مجتهدًا * من بيت مجتهدٍ في إثر مجتهدِ
وَاذكر لعمك (وهبي) قَدْرَهُ وَإذا * ذكرتَ غدرَ سواه فاصطبرْ وذُدِ
وَصِلْ أقاربَنَا (في الله) ملتزمًا * وَصِلْ أقاربَنَا (في الناس) واستزدِ[1]

ولما لحقت الحاجة «منيرة إسماعيل صادق عبد القادر» بالرفيق الأعلى، تزوج السيد الإمام رضي الله عنه لمواجهة مطالب الدعوة، وحركة الدار، وضرورة رعاية أمراضه

(١) «ديوان البقايا» (١/ ١٩٥).

المتواصلة، من السيدة المهندسة الحاجة «عفاف حسني محمد مرسي»، كريمة المرحوم الحاج «حسني» تاجر الحبوب ورجل الأعمال المعروف بمصر القديمة، ومن الأشراف[1]، فواصلت معه مسيرة الحياة، وقامت بأعباء الدعوة وخدمة الدار حتى وفاته رضي الله عنه، وما زالت قائمة على ما تركها عليه الإمام رضي الله عنه من بذل وعطاء وتعليم وتعلم وإشراف على قسم السيدات بالعشيرة المحمدية، وإحياء لأيام الله تعالى والمواظبة والخدمة التامة لمجالس الطريقة كما كانت في حياة الشيخ رضي الله عنه تمامًا، وقد تابعت المسيرة حاليًا تحت اللواء الذي يحمله نجله، الذي هو بمثابة الابن لها، ضاربة بذلك المثل الصادق العملي في التواضع والمذلة على المؤمنين والخدمة والافتقار إلى الله تعالى والوفاء للشيخ رضي الله عنه في أبنائه.

الشيخ رضي الله عنه والثقافة المدنية

وقد تعلم الشيخ رحمه الله الإنجليزية في المرحلة الابتدائية، وتعلم الفرنسية على يد الأستاذ داود سليمان من أعيان أسيوط، والألمانية بالقاهرة على يد الأستاذ راغب والي، وكان مدرسًا بالمدرسة الألمانية بالقاهرة، وقد ترجم الشيخ بعض قصائد الشاعر الألماني هايني رش هايني من الألمانية إلى العربية، وتعلم الفارسية على يد الشيخ محمد الأعظمي الإيراني عضو جمعية الأخوة الإسلامية، وترجم عددًا من قصائد إقبال إلى العربية.

الشيخ رضي الله عنه ورواية الحديث

وبالإضافة إلى ما تلقاه من الفقه والتفسير والحديث بالأزهر الشريف اهتمَّ شيخنا الإمام محمد زكي إبراهيم بتلقي علم الحديث (رواية ودراية) على يد الشيوخ؛ في وقت قلت فيه رواية الحديث، وأصبح رواة الحديث في مصر والعالم الإسلامي يُعَدُّون على الأصابع.

(١) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية الشاذلية» (ص٦٥).

ولم يتصدر شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ لإعطاء الإجازة بالحديث إلا لنفرٍ محدود من كبار العلماء في العالم الإسلامي، فلمّا كانت سنة ١٤١٤هـ استجازه عدد من العلماء والطلبة فامتنع، فلمّا كثر الإلحاح عليه طبع إجازته الحديثية وأجاز طلابه، وأجاز أهل عصره إجازة عامة كما هو معروف عند أهل الحديث والأثر. وما كان امتناع فضيلته عن إعطاء الإجازات للعلماء الذين طلبوا ذلك منه في أول الأمر، على ما لاح لي من صحبته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومن بعض إشاراته وتلميحاته، إلا تأدبًا مع شيوخه وشيوخ غيره من الطبقة العلمية التي تكبره سنًّا، الذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة، فلما امتد به العمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولم يبق من طبقة مشايخه أحد، شرع في إعطاء الإجازات لمن توافرت فيه الشروط العلمية من تلاميذه. وقد كان ذلك من نهج السلف الصالح وسنتهم. ومثال ذلك إحجام كبار علماء المدينة المنورة وأئمتها عن الفتوى ما دام مَن هو أعلم منهم موجودًا فيها؛ حتى صار أدبهم مضربًا للأمثال: (لا يُفتى ومالك في المدينة).

وقد استجازه بعد ذلك مئات من المشتغلين بعلم الحديث النبوي الشريف، من أساتذة الأزهر وشيوخه بمصر، وأساتذة الجامعة الإسلامية وجامعة الإمام بالسعودية، وأساتذة جامعة آل البيت بالأردن، وجامعة الأحقاف باليمن، وجامعة القرويين بالمغرب.

ثناء العلماء عليه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

وقد ترجم لشيخنا الإمام محمد زكي إبراهيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأثنى عليه عدد كبير من علماء مصر والعالم الإسلامي، منهم:

١) الإمام الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر في كتابه (المدرسة الشاذلية)، ونشر له خطابًا في كتابه (أبو مدين الغوث) وقصيدة لأبي مدين الغوث مع شرح شيخنا لها، وقدّم له شيخنا تحقيقه لكتاب (المنقذ من الضلال) في طبعاته

الأولى، وقرأت بخط الإمام الدكتور عبد الحليم محمود نعته لشيخنا الإمام الرائد بالعارف بالله.

٢) ترجم له الشيخ الحسيني أبو هاشم والدكتور أحمد عمر هاشم في كتابهما المشترك (المحدِّثون في مصر) ترجمة وافية.

٣) وأثنى عليه وعلى العشيرة المحمدية المحدث الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري في كتابه (سبيل التوفيق)، وفي آخر كتابه (بدع التفاسير)، وكانت بينهما مودّة عظيمة، وكان شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ ممن ثبت معه حين تنكر النّاس له لمّا اعتُقل في عهد الرئيس الراحل عبد الناصر، ضاربًا بذلك المثل في الوفاء والإغاثة حتى فرج الله تعالى عن صديقه شيخنا السيد عبد الله الغماري الحسني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

٤) وأثنى عليه وذكر شيئًا من نشاطه في الدعوة إلى الله الشيخ أبو الحسن الندوي في عدة مواضع من كتابه المشهور (مذكرات سائح في الشرق).

٥) وذكره فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري في كتابه (قطوف) الذي نشرته مؤسسة الأخبار، ذاكرًا عددًا من الصوفية الأتقياء وجهادهم في نشر الدعوة والإصلاح كالمراغنة والأدارسة والسنوسية، وذكر شيخنا الإمام الرائد كأنموذج للصوفي العالم العارف المجاهد في هذا العصر، وبين الشيخ الباقوري وشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ رحلة كفاح وجهاد في سبيل إصلاح قوانين الطرق الصوفية.

٦) ورغم ما كان بين الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ وبين شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ من مناظرات ومساجلات استمرت شهورًا وأيامًا على صفحات (مجلة المسلم)، و(لواء الإسلام)، و(الأخبار) إلا أنه كان دائم الثناء على الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، عارفًا قدره، سجل ذلك في مقالاته، وفي كتابه (الجانب العاطفي في الإسلام).

---

(١) ومن توفيق الله تعالى لي أني التقيت بسيدي عبد الله بن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غضون عام ١٩٨٠م-١٤٠٠هـ واستمعت منه إلى كتاب «الشمائل» للإمام الترمذي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك في مسجد مصطفى محمود بحي المهندسين بالجيزة.

٧) وكتب الدكتور عبد المنعم خفاجي في كتابه عن التصوف الإسلامي مؤرخًا لشيوخ التصوف الإسلامي فذكر منهم جدّ الشيخ لأمه الشيخ محمود أبا عليان، ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، وأثبت بعضًا من أفكاره في سبيل إصلاح التصوف كفكرة الجامعة والمكتبة الصوفية.

وهناك الكثير من السادة العلماء ممن أثنوا على الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أو ترجموا له في كتبهم، منهم علامة الحجاز السيد علوي بن عباس المالكي، وولده المجاهد السيد الدكتور محمد علوي المالكي، والشيخ محمد الحافظ التجاني، والشيخ أحمد رضوان البغدادي رحمهم الله تعالى، والسيد يوسف هاشم الرفاعي نقيب الأشراف والعالم الداعية بدولة الكويت، والسيد علي الهاشمي نقيب الأشراف والمستشار القضائي لحاكم دولة الإمارات.. وعشرات غيرهم.

وظائفه ومناصبه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

بعد أن حصل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على العالمية الأزهرية عام ١٩٢٦ لم يجد عملًا في ذلك الوقت، حتى تقدم للتدريس بالمدارس الأميرية بمحافظة بني سويف، وتم تعيينه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بمدرسة (دموشيا) ببني سويف في أبريل عام ١٩٢٧، وظل هناك مؤديًا عمله بإتقان وإخلاص عدة سنوات، ثم عاد إلى القاهرة مدرسًا أيضًا، وظل يتدرج في وظائف التعليم المختلفة، حتى أصبح رئيسًا للسكرتارية العامة للتعليم الحر المسمى بالتعليم الخاص الآن، ثم عُين مفتش قسم، وكان القسم وقتها يعني القسم الإداري.

وقد عمل أيضًا أستاذًا ومحاضرًا للدراسات العليا بالمعاهد العالية ومعهد الدراسات الإسلامية ومعهد إعداد الدعاة، وحاضر أيضًا في بعض الكليات الأزهرية ودورات إعداد الأئمة والوعاظ والبعوث الإسلامية.

وعمل مديرًا لمؤسسة (الزفاف الملكي) التي سميت بعد الثورة (مؤسسة البر الأميرية).

اشتغاله بالصحافة والمقال

اشتغل شيخنا الإمام محمد زكي إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ بالكتابة في الصحف والمجلات السيارة والإسلامية منذ أواخر العشرينيات؛ فكتب في مجلات: الأزهر، ومنبر الإسلام، واللواء الإسلامي، وعقيدتي، والأخبار، والأهرام، والجمهورية.

كذلك كتب في: لواء الإسلام، والإسلام، والمسلم، والخلاصة، والعمل، والرسالة الإسلامية، والتصوف الإسلامي، وجريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية، والسياسة الأسبوعية، والنهضة الفكرية، والفجر، وأبولُّو.. وغيرها من المجلات.

وقد أسس شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ جماعة (الروّاد الأوائل)، وكان يقوم بتحرير مجلتها (التعارف). واشتغل في الخمسينيات بتحرير وإدارة مجلة (الخلاصة) لصاحبها سيد مصطفى، أمين رابطة الإصلاح، ثم بتحرير وإدارة مجلة (العمل) لصاحبها عبد العليم المهدي، ثم أسس مجلته (المسلم) سنة ١٩٥٠م، وقام بتحريرها وإدارتها.

وقد تنوعت مقالات الشيخ وكتاباته؛ فكان منها المقال الديني، والاجتماعي، والتاريخي، والأدبي، والسياسي، وكان منها البحث الأكاديمي، والمقال الصحفي.

مؤلفاته العلمية

ترك لنا شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ ثروة علمية هائلة: أكثر من مائة كتاب ورسالة في العلوم الدينية، كما ترك لنا مئات البحوث والفتاوى والمقالات والخطب والدروس (بعضها مكتوب وبعضها مسجل)، وقد وفق الله بعض تلاميذه لمراجعة وتحقيق وطباعة بعض كتبه في حياته رَحِمَهُ اللَّهُ، ومن كتبه المطبوعة:

(١) **أبجدية التصوف الإسلامي**: عن أهم وأكثر ما يدور حول التصوف الإسلامي، فيما هو له وما هو عليه، بين أعدائه وأدعيائه.

(٢) **أصول الوصول**: أدلة أهم معالم الصوفية الحقة من صريح الكتاب وصحيح السنة. وقد طُبع الجزء الأول عشرات الطبعات، وهو المرجع الأساسي لكل طالب علم في التصوف الشرعي السلفي، وقد كتب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجزء الثاني في كراسات تهيئةً لطبعها ونشرها إن شاء الله تعالى.

(٣) **الخطاب**: خطاب صوفي جامع من الإمام الرائد إلى أحد كرام مريديه.

(٤) **فواتح المفاتح**: في الدعاء وشروطه وآدابه وأحكامه.

(٥) **أهل القبلة كلهم موحدون**: يبين أن أهل القبلة كلهم موحدون، وكل مساجدهم مساجد التوحيد، ليس فيهم كافر ولا مشرك، وإن عصى وخالف.

(٦) **الأربعون حديثًا الحاسمة ردعًا للطوائف المكفِّرة الآثمة.**

(٧) **حكم العمل بالحديث الضعيف**: حول جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال بشرطه عند علماء الحديث، وأن الضعيف جزء من الحديث المقبول عند أهل هذا الفن.

(٨) **مراقد أهل البيت في القاهرة**: يحقق أن رأس الإمام الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والسيدة زينب وغيرهما من آل البيت بالقاهرة، تاريخًا وواقعًا.

(٩) **قضية الإمام المهدي**: في تأكيد أن المهدي حق، ولكن لم يأت زمانه بعد، عقلًا ونقلًا.

(١٠) **ديوان البقايا**: شعر صوفي واجتماعي فني معاصر عميق.

(١١) **ديوان المثاني**: الجزء الأول والجزء الثاني: مثانٍ من الأبيات الشعرية تستغرق أغراضًا مختلفة، وحِكَمًا وتوجيهات، وآدابًا وصوفيات رائعة.

(١٢) **أمهات الصلوات النافلة**: الصلوات النافلة ومسائلها وأحكامها من الكتاب والسنة.

(١٣) **ليلة النصف من شعبان**: قيامها، فضلها، الدليل الحاسم على فضل إحيائها.

(١٤) **عصمة النبي ﷺ ونجاة أبويه وعمه**: ردٌّ على أقوال المنكرين، وتأكيد لعصمة النبي ﷺ، وحلول المشاكل المدعاة حولها بقواطع الأدلة، مع بحث خاص بمعجزات النبي ﷺ.

(١٥) **الإسكات بركات القرآن على الأحياء والأموات**: من الحديث النبوي.

(١٦) **حول معالم القرآن**: على طريقة المحدّثين في قضايا ومعلومات قرآنية هامة.

(١٧) **معالم المجتمع النسائي في الإسلام**: أحكام وقضايا النساء المختلفة بأسلوب علمي ميسر.

(١٨) **فقه الصلوات والمدائح النبوية**: بحث جديد في فقه السيرة من الصلوات ومدائح الشعر والنثر قدمه للأزهر الشريف في مؤتمر الفقه والسيرة العالمي.

وله غير ذلك من الكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة، جمعها بعض تلاميذه في ثبت ملحق بكتاب (الإسكات)، وتبلغ نحو مائة كتاب ورسالة فضلًا عن المقالات والمحاضرات.

تلاميذه ومريدوه ورفاقه ومحبوه

أما تلاميذه فهم كثيرون في مصر والخارج، نهلوا من علمه رضي الله عنه، ومن كتبه المطبوعة، وأحاديثه المرئية والمسموعة.

ومن أبرز تلاميذه: أولاده، فقد نهلوا من علم أبيهم الكثير، علمًا وأدبًا، وأخلاقًا ومعاملة. ويقوم أولاده بواجب الدعوة، على أساس الوسطية في الدين، والفهم الصحيح للإسلام.

ثم عديد من أبناء الطريق الذين تعلموا على يديه، ونهلوا من منهجه السلوكي

مع الله تعالى، والحقيقة أن أبناء الطريق الذين تتلمذوا على يديه كثيرون، وأكثرهم يقوم بالدعوة إلى الله على هدى وبصيرة.

وقد ذكرت مصادر صحفية أن عدد أعضاء الطريقة والعشيرة المحمدية يقدر بعشرة آلاف حسب ما هو مدون في دفاتر وسجلات العشيرة[1].

بيد أنه يبين حسب ما هو مدون في السجلات الرسمية بالعشيرة أن عدد تلاميذه ﷺ أكثر من أربعة عشر ألفًا، ويوضع في الاعتبار أن هناك تلاميذ ومحبين للشيخ «محمد زكي» غير مدونة أسماؤهم في هذه السجلات، وأكثرهم يتردد على مقر العشيرة لمتابعة الأنشطة العلمية والدعوية وإحياء أيام الله تعالى كما كان يوصي دومًا رضي الله عنه.

ومن أعلام تلاميذه رضي الله عنه ومحبيه والآخذين عنه والمتأثرين بدعوته: الإمام الشيخ عبد الحليم محمود الذي كان يربطه بأسرة الإمام الرائد علاقة حميمة، والذي كان نائبًا للشيخ في مجلس إدارة العشيرة المحمدية، وفضيلة العلامة الشيخ حسنين مخلوف، وفضيلة الشيخ الباقوري رضي الله عنهم، وكذلك السادة كبار مشايخ الصوفية ومنهم: قطب وقته وإمام عصره العارف بالله الشيخ أحمد رضوان البغدادي، وكذلك الشيخ الحافظ التجاني، والشيخ محمد أبو العيون، والشيخ المرغني الكبير، والشيخ صالح الجعفري، والشيخ شمس الدين الكبير، والشيخ كامل الشبراوي، والشيخ علوان الكبير، والشيخ الكتاني الكبير، والشيخ الكردي، والمعمر الشيخ محمد العربي العاقوري، وفضيلة الدكتور أبو الوفا التفتازاني، والسيد الوزير أحمد القصبي، والشيخ حسن الشناوي، وفضيلة الدكتور إبراهيم البطاوي... وغيرهم من كبار المشايخ والعلماء.

ومن الزعماء الذين أنصتوا إلى آرائه وتأثروا بها الزعيم أنور السادات، والمشير

(١) مجلة روز اليوسف، عددها الصادر يوم الاثنين، الثامن من نوفمبر ١٩٦٥م.

عبد الله السلال أول رئيس لجمهورية اليمن، والملك الحسن الثاني، والأمير الخطابي، وقاضي قضاة اليمن الشيخ عبد الهادي العجيل، والإمام موسى الصدر -من زعماء الشيعة- الذي زار الإمام الرائد عدة مرات بالعشيرة، حيث كان الإمام الرائد يعمل على التقريب بين الطوائف والمذاهب كهدف رئيس من أهداف العشيرة[1]، وغيرهم الكثير من زعماء المسلمين بالبلاد العربية وغيرها. وبعض هؤلاء العلماء والقادة كتب وتكلم عن هذه اللقاءات وأثرها في فكرهم وقراراتهم، كما سنبين في طيات هذا البحث إن شاء الله.

علاقاته بالعلماء والأدباء والشعراء

قد كان بين فضيلة الإمام الرائد وبين الكثير من كبار المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء المعاصرين لقاءات علمية عديدة وحوارات ومناظرات ومكاتبات متبادلة على صفحات المجلات، تفيض علمًا وأدبًا وتقديرًا لفكر الآخر وللمشارب الفكرية المختلفة، ومن أبرزهم: فضيلة الإمام عبدالحليم محمود، وفضيلة الإمام محمد متولي الشعراوي، وفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف، وفضيلة الشيخ محمد الغزالي، وأمير الشعراء أحمد شوقي، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، وشاعر العروبة عبد الله شمس الدين الستار، والشاعرة الإسلامية علية الجَعَّار، وغيرهم من كبار المفكرين والأدباء والشعراء، مثل محمود الماحي، وقاسم مظهر، والربيع الغزالي، والدكتور حسن جاد، والدكتور علي عبد العظيم، والدكتور عبد المنعم خفاجي، وشاعر آل البيت والعشيرة المحمدية الأستاذ محمود جبر، والدكتور الشاعر حامد الغوأبي، ومحمد عبد المنعم ضيف الله، والمستشار محمد التهامي، والدكتور سعد ظلام، ومحمود شاور ربيع، وعباس الديب، والشيخ الدكتور أحمد عبد الخالق.

---

(١) راجع: التقريب المشروع وتمييزه عن التذويب الممنوع بين طوائف أهل السنة المنضوين جميعًا تحت لواء المنهج السلفي، ثم بينهم وبين إخوانهم الشيعة بطوائفهم ومذاهبهم المعتمدة.

أسماء بعض رفاقه وتلاميذه ومريديه من الذين يشكلون الآن مجلس أمناء الأكاديمية العالمية للتصوف(١):

❊ الأستاذ الدكتور حسن عباس زكي- نائب رئيس الوزراء ووزير الاقتصاد الأسبق، ورئيس المركز العلمي الصوفي العالمي بالعشيرة المحمدية.

❊ فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة- المفكر الإسلامي الكبير، وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

❊ فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم- رئيس جامعة الأزهر الأسبق.

❊ فضيلة الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل- مفتي مصر السابق وأستاذ الفقه بجامعة الأزهر.

❊ فضيلة الأستاذ الدكتور إسماعيل الدفتار- أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر.

❊ فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة - مفتي الجمهورية وأستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر.

❊ فضيلة الأستاذ الدكتور جودة المهدي- عميد كلية القرآن الكريم بطنطا.

❊ فضيلة الأستاذ الدكتور حسن الشافعي- رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان، وأستاذ الدراسات الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

❊ فضيلة الأستاذ الشيخ منصور الرفاعي عبيد- وكيل أول وزارة الأوقاف الأسبق.

❊ فضيلة الأستاذ الدكتور مسموع أبو طالب- عميد كلية أصول الدين بدمياط.

---

(١) قد رتبنا أسماء الأساتذة الأجلاء وفق ما نعلم من أعمارهم رضي الله عنهم؛ وذلك خروجًا من حرج التقصي في طبقاتهم العلمية، امتثالًا لأمر الرسول ﷺ: «**أَنْزِلُوا النـاسَ مَنازِلَـهُـم**». وسماحة الحق الشرعي العام بتقديم الأسن لقول الرسول ﷺ: «**إن للسنِّ حقًّا**». وقوله: «**كَبِّر كَبِّر**». على ما هو معلوم في الصحاح ومفصل في الشروح. وهي خطة التزمتها في هذا الكتاب كلما دعت إليها الحاجة.

* فضيلة الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شاكر – أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة عين شمس.
* فضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو ليلة – رئيس قسم الدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية بجامعة الأزهر.
* فضيلة الأستاذ الدكتور محمد مهنا – أستاذ القانون العام بجامعة الأزهر وأمين عام الدعوة بالعشيرة المحمدية.

وقد أردنا من هذا السرد ما لا يخفى من النفع بمعرفة مدى انتشار الفكر الصوفي السلفي على يد هذا الإمام الجليل إلى رجال من كل قطاعات الأمة ومذاهبها وشعوبها ومشاربها، وهو قليل من كثير؛ حيث مثبت بسجلات العشيرة المحمدية ما يزيد على أربعة عشر ألف عضو من كافة أقطار الأمة[١].

ولو تتبعنا حجم التأثير الذي أحدثه فكر الإمام الرائد في كل هؤلاء العلماء والقادة والقضاة والأدباء تتبعًا علميًّا موثقًا لخرجنا بنتائج مبهرة غاية في الأهمية، خاصة في الدعاوى التي نحتاجها في عصرنا هذا وما نستقبله من الأيام، خاصة في مسألة دمج طوائف أهل السنة تحت راية سلفية جامعة لمبادئ عامة وثوابت وأصول، ثم لا بأس بالاختلاف فيما خلا ذلك.

وكذلك في مسألة التقريب المشروع بين طوائف السنة والشيعة والصوفية والسلفية تحت راية إسلامية جامعة لمبادئ وأصول عقائدية واحدة، ثم لا بأس بالاختلاف فيما عدا ذلك.

وقد تأثر الكثير ممن يخالفون الإمام من العلماء والقادة والساسة بعدد من آرائه الشرعية؛ مما قلل وخفف غلو وجموح البعض من آرائهم أو قراراتهم الهامة، وذلك

(١) كلٌّ من هؤلاء السادة العلماء له أكثر من بحث أو مقال أو كتاب في التصوُّف الشرعي السلفي المراد إحياؤه نظريًّا علميًّا، وعمليًّا تطبيقيًّا، فعلى كل مخلص بقدر استطاعته أن يكمل ما في كتابي هذا بكتبهم، ويحرص على العمل بمقتضاها ونشرها؛ لتحل محل الزَّبَدِ والغث من الكتابات التي أطبقت على شبابنا من كل جانب، هداهم الله تعالى وحفظهم، آمين.

ثابت مشهود موثق. وفقنا الله سبحانه لجمعه وإخراجه في دراسة مستقلة إن شاء الله.

الشيخ والدعوة إلى الله

كان شيخنا رَحِمَهُ اللهُ مثالاً للداعية الإسلامي الرشيد الذي وهب كل حياته للدعوة، ورغم مرضه الذي ألزمه بيته نحوًا من عشرين عامًا، فإنه ما انعزل عن العالم أبدًا، وما ترك عادته في الدرس والمحاضرة، واستقبال عشرات الزوار يوميًّا، والردّ على اتصالاتهم الهاتفية.

كما كان من عادته أن يقرأ الصحف يوميًّا، متابعًا ما يحدث في العالم من أحداث وما يجِدّ فيه من أفكار، ويختار من تلك الجرائد والمجلات المقالات والقُصاصات ويجمعها في أرشيف خاص حسب الموضوع.

وقد أسس الشيخ رَحِمَهُ اللهُ جمعية العشيرة المحمدية رسميًّا سنة ١٩٣٠م؛ لتكون وسيلته للدعوة الإصلاحية الإسلامية الصوفية، وجعل من مبادئه الاهتمام بالفرد والجماعة، ومن أقواله: (المجتمع فرد مكرر، إذا صلح الفرد صلح المجتمع).

وقد عمِل أمينًا ورائدًا دينيًّا **لجمعية الشبان المسلمين، والمؤتمر القرآني**، وعضوًا في **الهيئة العليا للدعوة بالأزهر**، وعضوًا مؤسسًا لعدد من الجمعيات الإسلامية.

ومما يُحفظ له تلك المؤتمرات والندوات التي قام بها رَحِمَهُ اللهُ في السبعينيات من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية، وقد شاركه شيخ الأزهر آنذاك الدكتور عبد الحليم محمود، وكان يرأس هذه المؤتمرات فضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتي مصر سابقًا.

وقد شارك شيخنا رَحِمَهُ اللهُ في اللجان التي أُنشئت من أجل تقنين الشريعة الإسلامية، وتفريغ الأحكام الفقهية في شكل موادّ قانونية عصرية...

كما كان له الفضل في إنشاء مكتب رعاية المهتدين إلى الإسلام بالأزهر الشريف في عهد الدكتور عبد الحليم محمود، وما زال هذا المكتب يؤدي مهمته إلى الآن خير أداء.

مناظراته رضي الله عنه ومساجلاته العلمية

وقد كان للشيخ رضي الله عنه مناظرات ومساجلات مع بعض معاصريه من الشيوخ والعلماء، ممن اختلف معهم في الرأي، والاختلاف طبيعة بشرية، وقد كان الشيخ رحمه الله قوي الحُجة، طوَّع الله -سبحانه وتعالى- له اللغة والبيان، كما كان ملتزمًا أدب العلم والمناظرة في كل ذلك، وليس أدل على ذلك من رفضه نشر خطاب يسيء لبعضهم بخط يد ذلك البعض، وكان قد سبق إلى الله، فأبى وقال: إن حُرمة الموت تمنعني من نشره، وإن كان ما فيه حقًّا إلا أن فيه إساءة كبيرة له.

ولعل أشهر هذه المناظرات ما كان **بينه وبين الداعية الشيخ محمد الغزالي رحمهما الله تعالى** حول (عبادة الرغبة والرهبة)، تلك المناظرات التي استمرت ستة أشهر على صفحات الأخبار والمسلم ولواء الإسلام، وشارك فيها فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود والشيخ محمد خليل الهراس والشيخ محمد عبد الهادي العجيل، فضلًا عن كوكبة من أهل العلم والثقافة والصحافة، **فكانت بمثابة روحٍ تجديدية سرت في أرجاء مصر وأوساط العلماء في الوطن العربي معطية المثل والقدوة في كيفية حمل الناس على النافع من المناقشات وناشرة أدب التحاور والاختلاف بين أوساط المثقفين وطلبة العلم**[1].

ومن المناظرات والمساجلات أيضًا ما كان بينه وبين الشيخ عبد الرحمن الوكيل، والدكتور سيد رزق الطويل، والدكتور إبراهيم هلال، والأستاذ حسن قُرون وغيرهم، وفي كل تلك المناظرات التزم الشيخ رحمه الله الأدب الصوفي الرفيع، والبحث العلمي النزيه والحجة المقنعة.

كما أنه انتقد عددًا من العلماء ورد عليهم؛ فانتقد الشيخ عبد الجليل عيسى لما

(١) والمتتبع لمثل هذه الجوانب من حياة الشيخ زكي الدين رضي الله عنه يرى لطائف وطرائق تربوية صوفية عملية؛ فيتعمد الشيخ لَفْتَ النظر إليها وإطالة أمدها وتوسيع حجم المشاركة فيها ببراعة ورشاد، نسأل الله أن يكون كل تلاميذه قد ورثوها عنه رضي الله عنه.

كتبه في كتابه (اجتهاد الرسول ﷺ)، ورد عليه في كتاب (عصمة النبي ﷺ)، وكان أول من رد على ما نشره صبحي أحمد منصور، وقد فُصل صبحي أحمد منصور من الأزهر بسبب كتابه المعروف والتقرير الذي كتبه عنه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد عُرضت مشيخة الطرق الصوفية على الشيخ بعد وفاة الشيخ الصاوي فرفض وقال: (ما سرني أن صرت شيخًا لطبّال وزمّار) وذلك قبل دعوته المباركة لإصلاح التصوف عبر ما يقرب من نصف قرن مع إخوانه شيوخ الأزهر وعلمائه الأجلاء، والتحولات الجذرية التي أحدثتها تلك الدعوة المباركة في مشيخة الطرق الصوفية في مصر المحروسة، وامتدت آثارها المباركة للهيئات المشرفة على الطرق الصوفية في المغرب الحبيب وتركيا وشرق آسيا، وما زال بها من تلاميذ الإمام من يقوم على تلك الدعوة المباركة، ومنهم من يواصل دراساته بالمعهد العالي للدراسات الصوفية[1] بالعشيرة المحمدية، وسيأتي ذكر بعضهم ومجهوداتهم في فصول هذا الكتاب التي تتناول إحياء التصوف السلفي وتعبر عن وسطية الإسلام واعتداله وجوهره الحق.

تراثه الأدبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

يُعد فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم من جيل الرواد الأوائل من شعراء هذا العصر، عاصر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والعقاد والرافعي والزيات، وكان له معهم صولات وجولات، وقد ألف أربعة دواوين شعرية في خمسة عشر جزءًا من الشعر العمودي المُقفَّى، في أغراض الشعر المختلفة.

وقد كان للشاعر حلْقة شعرية إسلامية ألفها من كبار الشعراء الإسلاميين، منهم: الدكتور حسن جاد، وقاسم مظهر، ومحمود الماحي، وعبد الله شمس الدين،

---

(١) هذا المعهد العلمي أنشأته كوكبة من علماء الأزهر الشريف من تلاميذ الإمام الرائد؛ تنفيذًا لوصيته، والمعهد يتبع مؤسسة العشيرة المحمدية، وموقعها ٨٠ شارع السلطان أحمد قايتباي -الدرّاسة- القاهرة، والدِّراسة بها لمدة أربع سنوات، يحصل الدارس بموجبها على شهادة معتمدة من المجلس الأعلى للصوفية.

والدكتور سعد ظلام، وضيف الله، والربيع الغزالي، وشاور ربيع، والأستاذ محمد التهامي، وأحمد عبد الخالق، وغيرهم.

كما أن للشيخ مقالات أدبية ونقدًا أدبيًّا رائقًا في مجلة (أبولُّو)، و(الفجر)، و(النهضة الفكرية)، لعل من أهمها ما كتبه في نقد الأستاذ (أبي حديد) في الشعر الحر أو المرسَل، ولا ننسى ما انتقد به الزيات في سلسلة مقالاته (مشاغبات الأسبوع) التي نشرتها له جريدة (الإخوان) في عهدها الأول سنة ١٩٣٢م.

ولنا -إن شاء الله- عودة إلى تلك الأدبيات التي شكلت أحد جوانب التجديد والمعاصرة الدعوية لدى الإمام رضي الله عنه، فقد جعلها مَطِيَّة ووسيلة لدعوة الخاصة والعامة إلى الالتزام بالشرع والترويج للقيم الدينية في الثوب المقبول من أهل عصره، وفتح المجال واسعًا أمام الأدباء والفنانين للدعوة إلى الإسلام وقِيَمِه محليًّا وعالميًّا دون هذا الشعور الموهوم بالإثم والظن الخاطئ بالتحريم المطلق لهذه العلوم والفنون المستحدَثة.

أمثلة على علاقة الشيخ بأدباء وشعراء عصره

علاقته بشوقي

ولقد سجل الشيخ في مذكراته أن أمير الشعراء أحمد شوقي قد قرأ له ما تنشره مجلة أبولُّو، فطلبه ولقيه وشجعه، وأثنى على شعره، وكان شوقي يقدمه رضي الله عنه لأهل مجلسه، وكان منهم السيد مصطفى صادق الرافعي، الذي كان حديثه ما يكون إلا إلى أئمة الأدب وعنهم؛ روايةً ونقدًا ومقارنةً، وقد تنبه الرافعي إلى ألمعية الشيخ المبكرة وخصه بأحاديث وبث إليه آراء، وتوطدت بينهما المودة إلى حد بعيد؛ كما روى شيخنا رضي الله عنه في معرض أحاديثه ومقالاته ليحث تلاميذه من طلاب العلم الشرعي ومن مريدي السلوك والتزكية، إلى ارتياد مجالس العلوم والآداب ومعرفة واقع المسلمين الثقافي والاجتماعي والانخراط في فعالياته أخذًا بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح.

صلته بالعقاد

وأما إعجاب العقاد بالشيخ، فيبدأ من أن العقاد كان يعرف أسرته بأسوان، وكان له اعتقاد خاص في أحد أجداد الشيخ – محمد زكي– وهو الذي أقيم قبر العقاد ملاصقًا الآن لقبره، ولا يزال معروفًا عند أهل أسوان بقبر الشيخ «محمود»، حتى بعد دفن العقاد بجواره، ولم يكن في الأصل قبرًا، ولكنه كان خلوة من الخَلَوَات التي يتعبد فيها الشيخ – محمود أبو عليان– جد الشيخ «محمد زكي»، وكان العقاد قد قرأ في مجلة (الفجر) –التي كان يشرف عليها وقتئذٍ– قصيدة سينية للشاعر، فطلب من سكرتير التحرير الأستاذ عزيز طلحة أن يجمعه بهذا الشاعر، وعندما عرفه أكرمه وشجعه، وأثنى على شعره، وإن كانا قد اختلفا بعد هذا في بعض وجهات النظر، ومنها موعد الندوة الأسبوعية للعقاد، حيث كانت غالبًا ما تطغى على وقت صلاة الجمعة في كل أسبوع.

علاقته بحافظ إبراهيم

مما يذكره الإمام الرائد عن علاقته بحافظ إبراهيم شاعر النيل أن حافظًا كان ينشد منتقدًا صناديق النذور في أضرحة مشاهير الأولياء، فقال:

أحياؤُنا لا يُرْزَقُونَ بِدِرْهَمٍ * وبألفِ ألفٍ تُرْزَقُ الأمواتُ[1]
مَن لي بحظِّ النائمين بحفرةٍ * قامت على أرجائها الصلواتُ
يسعى الأنامُ لها ويجري حولها * بحرُ النُّذُورِ وتُقْرَأُ الآياتُ

(١) هذه القصيدة تُعتبر دليلًا تاريخيًّا يوثق حالة زائري مولد السيد أحمد البدوي ﷺ في مدينة طنطا في أوائل القرن العشرين، حيث كان يعيش شاعر النيل ﷺ، الذي اشتهر ببراعته في دقة التوصيف للمجتمع والظواهر الاجتماعية في وادي النيل. ورغم كونه في وضع انتقاد للظاهرة التي يصفها، فإنه لم يزعم أن عوام المتصوفة مشركون يتعبدون للقطب أو لأصحاب الأضرحة ويسألونهم أن يقضوا لهم حاجاتهم كما يتجنى عليهم بعض المتمسلفة، وإنما يصفهم بأنهم يعتبرون هؤلاء الأولياء، كما يقول بالنص: «بابًا ووسيلةً تُقضى بها الحاجات»، وهذا رغم انتشار الجهل في تلك الآونة قبل بداية حركة الإصلاح الصوفي على يد السادة علماء الأزهر الشريف، سدد الله خطاهم، فكيف يمكن التجني على عامة المتصوفة بهذه الاتهامات الباطلة الآن؟!

ويقالُ: هذا القُطْبُ[1] بابُ المصطفى * ووسيلـةٌ تُقْضَى بها الحاجاتُ

فرد عليه الشاعر الشاب «محمد زكي» بهذه الأبيات فقال:

ما كلُّ حيٍّ كان أهلًا بيننا * للرزقِ حتى يُحسدَ الأمواتُ
فلَرُبَّ ميْتٍ كان أنفعَ للوَرَى * من ألفِ حيٍّ ليس فيه حياةٌ
أوَليسَ رِزقُ المَيْتِ هذا عائدًا * حتمًا إلى حيٍّ له حاجاتُ؟
فالفضلُ كلُّ الفضلِ للميْتِ الذي * يَهَبُ الحياةَ لِشِبْهِ مَن قد ماتوا

وعندها جعل «حافظ» يبحث حتى تعرف على الطالب «الشاعر»، الذي كان من زعماء طلبة الأزهر في (بيت الأمة) وقتئذ، فتودد إليه وهنأه وشجعه.

وبعد أن مرّ على هذه الأبيات حينٌ من الدهر، لا يزال هذا الردُّ أقوى منطق يُقالُ في هذا المقام اليوم وغدًا[2].

وفاته رضي الله عنه

رحم الله شيخنا، كان المسجد بيته الذي لم يبرحه، ومدرسته ومضيفته وساحته، محط رحال كل من زاره ممن عرف قدره من العلماء والرؤساء والأمراء.

ثم كان المسجد مجاورًا لمدفنه، فقد انتقل إلى رحمة الله الساعة الثالثة تمامًا من فجر يوم الأربعاء ١٦ من جمادى الآخرة ١٤١٩هـ، الموافق ٧ من أكتوبر ١٩٩٨م بعد حياة حافلة بالدعوة إلى الله، على هدى وبصيرة. وقد كان مثواه الأخير بجوار أبيه وجدّه رضي الله عنهم ملحقًا بمسجد العشيرة المحمدية.

---

(١) القطب أو الغوث هو الإمام الذي يتبع في الظاهر والباطن. راجع في ذلك صور الكتب التالية والمخطوطات في مركز أبو ظبي للتراث والثقافة:
- (إجابة الغوث ببيان حال النقباء والنجباء والأبدال والأوتاد والغوث) لابن عابدين.
- (رسالة في الغوث والأبدال) لأحمد بن عبد السلام.
- (رسالة الدوران لغوث هذا الزمان) للنوري.

(٢) «ديوان البقايا» (١/ ١٦٤).

حديث الرحيل: عهد وميثاق وتوجيه وهدية من فضيلة شيخنا الإمام محمد زكي إبراهيم رحمه الله تعالى.

تلك القصيدة العصماء التي هي آخر ما كتبه شيخنا الإمام الرائد من الشعر، وقد كتبها رَحِمَهُ اللهُ على فراش مرضه الأخير، قبيل وفاته، مهمومًا مشغولًا بأمر الدعوة الصوفية المحمدية الرشيدة، فبث فيها همومه ومخاوفه، وأشواقه ولواعجه، وأمنياته ونصائحه، فكانت آية في صدق اللهجة والشعور بالمسئولية، وقد نعى فيها نفسه إلى أبنائه وإخوانه وعشيرته، وهو الذي سماها (حديث الرحيل، عهد وميثاق وتوجيه وهدية)، فكانت اسمًا على مسمى..

قال رَحِمَهُ اللهُ:

أَخَذْتُ أُرمِّمُ (الْبَيْتَ) الْمُعَلَّى * لِيَبْقَى للتَّصَوُّفِ ثَمَّ بيْتُ

وَقَدْ عَانَيْتُ أَصْنَافَ الْبَلايَا * فَقُمْتُ لَهَا، وَبِالله احْتَمَيْتُ

أُنَادِي بالصَّلاحِ، وبِالتَّآخِي * وَبِالإصْلاحِ، عُمْرِي مَا وَهَيْتُ

وَرِثْتُ الدَّعْوَةَ الْكُبْرَى، فَلَمَّا * وَرِثْتُ الدَّعْوَةَ الْكُبْرَى بَكَيْتُ

وَكُنتُ أَظُنُّهَا عَبَثًا كَغَيْرِي * وَلَكِنِّي بِهَا وَلَهَا انْحَنَيْتُ

فَأَكْبَرُ جَيْشِ أَهْلِ الأَرْضِ طُرًّا * هُمُ الصُّوفِيَّةُ اللائِي اصْطَفَيْتُ

* * *

إذَا مَا نُظِّمُوا كانُوا دَمَارًا * عَلَى العَادِي: هَزِيلٌ أَوْ كُمَيْتُ

فَعِندَ الله إعْصَارٌ وَخَسْفٌ * وَطُوفَانٌ، وَكَيْتٌ ثُمَّ كَيْتُ

وَعِنـدَ الله (ذَرٌّ) أيُّ (ذَرٍّ) * فَوَيْلٌ يَوْمَ يُنذرُ: قَدْ أَتَيْتُ

إذَا مَا جَاءَ وَعْدُ الله يَجْثُو * (نِتِنْيَاهُو) وَيَذْهَلُ (كَلَّنَيْتُ)[1]

(١) كَلَّنَيْتُ: أي كلينتون الأمريكي الذي كان رئيسًا لأمريكا وقت كتابة القصيدة. ونتنياهو: كان رئيسًا لوزراء إسرائيل. وكلاهما رأس للكفر والضلال، ويرمز بهما لكل من يقوم مقامهما بعد.

وَيُسْأَلُ عَنْ حِمَى الإسْلامِ مِصْرٌ * وَسُورِيَّا، وَنَجْدٌ، وَالْكُوَيْتُ
وإيرانٌ وَبَاكِسْتَانُ، فِيمَا * تَرَكْتُ مِنَ الْبِلادِ وَمَا رَوَيْتُ

* * *

وَهَا هُوَ قَدْ دَنَا مِنِّي رَحِيلِي * وَحَيُّ الْيَوْمِ بَعْدَ الْيَوْمِ مَيْتُ
وَرَغْمَ الْجَهْدِ وَالأَمْرَاضِ تَتْرَى * فَإِنِّي مَا ضَعُفْتُ وَلَا انْزَوَيْتُ
فَإِنَّ تَصوُّفِي الصَّافِي يَقِينًا * هُوَ الإسْلامُ فِيمَا قَدْ وَعَيْتُ
وَإِنَّ الدِّينَ والدُّنْيَا جَمِيعًا * عِمَادُ تَصوُّفِي وَبِهِ اكْتَفَيْتُ
وَشَرُّ عَدُوِّهِ أَهْلُوهُ، مِمَّا * بِهِ عِشْتُ الْعَجَائِبَ وَاكْتَوَيْتُ
وَكُلُّ حَضَارَةٍ لَا سَهْمَ فِيهَا * لِرَبِّ الْعَرْشِ، إِثْمٌ، قَدْ نَعَيْتُ

* * *

إِذَا فَارَقْتُ إِخْوَانِي فَإِنِّي * أُعَايِشُهُمْ، كَأَنِّي مَا مَضَيْتُ
فَلَيْسَ الْمَوْتُ إِلَّا أَنْ سَأَحْيَا * حَيَاةً إِنْ وَصَلْتُ لَهَا ارْتَقَيْتُ
أُلَاقِي جَدِّيَ الْمُخْتَارَ فِيهَا * وَأَشياخي، وَمَن بِهِمُ اقْتَدَيْتُ
فَإِن أَكُ بَيْنَكُمْ مَيْتًا مُسَجًّى * فَعِندَ اللهِ حَيٌّ مَا انْطَوَيْتُ
وَمَا بِدَعُ التَّمَصْوُفِ نَاسِخَاتٍ * لآيَاتِ التصوُّفِ فَادْعُ هَيْتُ[1]

* * *

مَرِيضٌ قَدْ أَتَى شِعْرًا مَرِيضًا * فَعُذْرًا، إِنَّنِي مِنْهُ اسْتَحَيْتُ
فَمَا أَدْرِي: أَهَلْ هَذَا وَدَاعٌ * لِشِعْرِي؟! أَمْ عَلَى نَفْسِي جَنَيْتُ
وَدَاعًا أَيُّهَا الدُّنْيَا، وَدَاعًا * إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَإِنْ عَصَيْتُ
فَلَيْسَ اللهُ يَنْفَعُهُ سُجُودِي * وَلَيْسَ يَضُرُّهُ أَنِّي أَبَيْتُ
فَرَحْمَتُهُ التي وَسِعَتْ وَعَمَّتْ * سَتَشْمَلُنِي، وحَتَّى لَوْ غَوَيْتُ

(١) هيت لك: في سورة يوسف، في قراءةٍ بفتح التاء، بمعنى (افعل ما تؤمر)، وفي قراءةٍ بضم التاء، بمعنى (تجهزت واستعددت لك).

فَيَـاكَـمْ ذَا تَعَـالَـمْتُ افْتِـرَاءً * وَيَـا كَـمْ ذَا عَلَى اللهِ اجْتَـرَيْـتُ
وَكَـمْ قَـالُـوا: وليٌّ أَوْ إِمَـامٌ * وَيَا عَجَبًا بِمَا قَالُوا ارْتَضَيْتُ
فَـمَغْفِـرَةً إِلَهِـي، وَاعْفُ عَـنِّـي * فَفِي أَحْضَـانِ رُحْمَـاكَ ارْتَمَيْتُ

***

ولِي فِي بَعْضِ مَنْ حَـولِي رِجَـالٌ * وَهُـمْ أَهْلُ الْهُـدَى، فِيمَـا رَأَيْتُ
وَهُـمْ للهِ جُنْـدٌ مُـسْتَنِيـرٌ * وَرَغْمِـي أَتَّقِي فِيمَـا اتَّقَيْتُ
رِجَـالٌ كُلُّهُـمْ رَجُـلٌ بِـأَلْفٍ * مَعِي هُمْ قَدْ بَنَـوْا فِيمَا بَنَيْتُ
تَرَكْتُ الْمَنْهَجَ الْكَافِي لِمَنْ قَدْ * يُـوَفَّقُ فِي الْجِهَـادِ كَمَا اشْتَهَيْتُ
فَلَيْسَتْ دَعْـوَتِي هَـذي بِمِلْكٍ * لِشَخْصٍ مَـا، وَلَا وَقْفًـا عَنَيْتُ
فَيَا رَبَّ الْعَشِيرَةِ صُنْ حِمَاهَا * إِذَا أَنَـا فِي غَـدٍ رَبِّ انْـتَهَيْتُ
وَخُذْ بِرِجَالِهَا نَحْـوَ التَّسَامِي * لِتَحْقِيقِ الَّـذي مِنكَ ارْتَجَيْتُ
وَبَـارِكْهُـمْ بِـدَاعِيَـةٍ رَشِيـدٍ * عَسَـاهُ أَنْ يُتَمِّمَ مَـا بَـدَيْتُ

السلفيـة.. التي هي غايـة كل مسـلم ملتـزم أن ينهل مـن معينها ويَعَض عليها بالنـواجذ... المحجـة البيضـاء النقيـة التي تَرَكَنا عليها حبيبُنا وسيدنا رسول الله ﷺ.

السلفية المظلومة.. قرنوها زورًا بدعاوى التكفير وتحريم التفكير، واختزلوها في مباحث البداوة وأَسْرِ الحَرْفِيَّة.

الصوفية.. التي هي علم تزكية النفوس ومحاسن الأخلاق، والنوافل السائرة بالمسلم على مدارج مرتبة الإحسان ومكارم الأخلاق، التي اختص الله سبحانه بها نبيه الخاتم عليه الصلاة والسلام.

الصوفية المظلومة.. اختزلوها في الطبـول والمزامير والعكوف عنـد القبور والتفلسف بالألغاز.

الجهاد.. الذي هـو ذُروة سَنام الإسلام، ووسيلـة دفع الظلـم ورد العدوان، وردع الظالمين ليملأ العدل الدنيا، ويتفرغ العباد لعبادة رب العباد من غير خوف.

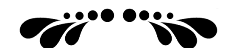
الجهاد المظلوم.. جعلوه مرادفًا للبغي والخروج على الحكام، وقطع الطريق وسرقة وترويع الآمنين وتشويه سمعة الدين.

السلفية الحقة.. **الصوفية الحقة**.. **الجهاد الحق**.. هـذه هي شعاراتنا.. أحلامنا.. آمالنا.. مفردات عزيزة من معتقداتنا...

كيف شُوهت وأُهينت على يـد سفهائنا.. ربنا فلا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا...

لكل ذلك آن أوان الإحياء علميًّا وعمليًّا للتصوف السلفي أبحاثًا وتطبيقًا، تعليمًا وإعلامًا...آن أوان إبراء الذمة ووضع الحجة على الغلاة والجهلاء في آن

واحد. ولم نجد نموذجًا تتحقق به كل هذه الآمال خيرًا من سيرة ومسيرة الإمام المجدد الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم ﵁، فلقد اجتمع على تقديره بل وحبه حتى من خالفوه من كبار علماء عصره عبر سِني عمره المبارك الممتد قرابة المائة عام.





مقدمات علمية ضرورية عن التصوف السلفي الحق

قبل دراسة النظرية الإصلاحية للتصوف عند الشيخ ﵁ وملامح التجديد فيها، لا بد للقارئ من الإلمام ببعض المعلومات الأساسية عن التصوف السلفي الحق، ورد الشيخ ﵁ على الفرايا والمفاهيم الخاطئة التي تشوه صورة التصوف، ومن ثَم تعوق انتشاره وقيامه بدوره الفعال في إصلاح الفرد والمجتمع الإسلامي. ويمكن تلخيص هذه المعلومات في النقاط التالية:

١- أصل مصطلح التصوف.

٢- الاختلاف في تحديد مصادر التصوف.

٣- التصوف الشرعي غير الغُلُوّ في التشيُّع أو الخَرَف في العقائد الأجنبية.

٤- شيوخ التصوف من غير العرب.

٥- دليل التصوف من الكتاب والسنَّة.

٦- الزهد عند الصوفية.

٧- التَّمَصْوُف المذموم.

٨- تعريف السلفية والتصوف.

٩- الإسلام والتصوف والسلفية.

١٠- لماذا نتصوف؟

١١- كيف نتصوف؟

وإليكم تفصيل العناصر المحددة كما بدت لي من كتابات الإمام الرائد ﵁:

١- أصل مصطلح التصوف

عن أصل لفظة التصوف يقول الشيخ ﵁: «وتنازعوا في المعنى الذي أُضيف إليه الصوفي؛ فإنه من أسماء النسب كالقرشي والمدني، وأمثال ذلك، فقيل: إنه نسبة

إلى أهل الصُّفَّة[1]، وهو غَلَط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صُفِّي. وقيل: إنه نسبة إلى الصَّفّ المقدَّم بين يدي الله، وهو أيضًا غلط، فإنه لو كان كذلك لقيل: صَفِّي. وقيل: نسبة إلى صوفة بن أُد بن طابخة؛ قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ينسب إليهم النُّسَّاك».

ويقول رَحِمَهُ اللهُ أيضًا في أصل لفظة التصوف: «أثبتَ مؤرخو اللغة وغيرهم أن هذا اللفظ كان عندما اشتهروا بالخشونة والرجولة ولبس الصوف والاستعداد للجهاد؛ فإن تصوف المسلمين: دعوة إلى التوحيد، والقوة والحرية والمساواة والتكافل والإخاء ومعالي الأمور لبناء شخصية المسلم المتكامل. وكان عهد التدوين قد بدأ بمن كتب الحديث في عهد رسول الله ﷺ وظل ينمو حتى ازدهر في أواخر القرن الأول، وأوائل القرن الثاني، بتحرير الحديث والفقه، والتفسير، واللغة، وما إلى ذلك». وقال أيضًا: «والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله؛ ففيهم السابق المقرَّب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصِد الذي هو من أهل اليمين. وفي «لسان العرب» لابن منظور يقول: «الصوف: للضأن... والصوفة أخص». ثم قال: «والصوفة: كل من وِلِي شيئًا من عمل البيت الحرام، وهم الصُّوفَان... وصُوفة: أبو حي من مضر... كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية». وهي أعظم ما يُولى يومئذ. ثم قال: «وصوفة: حي من تميم وكانوا يجيزون الحاج في الجاهلية من منى فيكونون أول من يدفع، يقال في الحج: أجيزي صُوفة»[2]. وفي هذا المعنى أيضًا يقول ابن الجوزي: أنبأنا محمد بن ناصر عن أبي إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال، قال: قال أبو محمد بن سعيد الحافظ: سألت وليد بن القاسم: إلى أي شيء ينسب الصوفي؟ فقال: كان قوم على دين إبراهيم في الجاهلية يقال لهم: صُوفة، انقطعوا إلى الله عز وجل، وقطنوا الكعبة، فمن شُبه بهم فهم الصوفية. ثم قال:

(١) للتعرف على أهل الصُّفَّة راجع: «تاريخ أهل الصفة» للسلمي، «التحفة في الكلام على أهل الصفة» لتَقِيِّ الدين السُّبكي، «رُجحان الكفَّة في مناقب أهل الصفة» للسَّخاوي.

(٢) «لسان العرب» (٩/ ١٩٩).

فهؤلاء المعروفون بصوفة، ولد الغوث بن مر ابن أخي تميم»[1].

وفي «المعجم الوسيط»: «صَوَّفَ فلانًا: جعله من الصوفية، وتصوف فلان: صار من الصوفية. والتصوف: طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل، لتزكو النفس وتسمو الروح. وعلم التصوف: مجموعة المبادئ التي يعتقدها المتصوفة، والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم... والصوفي: من يتبع طريقة التصوف»[2].

وهكذا يتأكد أن كلمة (التصوف) عربية قديمة في لغة العرب، فمن أرجعها إلى (سوفيا) اليونانية، فقد جهل وانحرف وقلّد العميان، ومن ادّعى أنها بدعة محدثة، كان أشد جهلًا وانحرافًا، فالتصوف أخلاق وعبادة ودعوة وجهاد وسلوك، فهو وحي من الوحي، ودين من الدين. إذن كلمة صوفي بعيدة كل البعد -من حيث المعنى- عن التأثر باليونان، فقد عُرفت واستعملت قبل نهاية القرن الثاني الهجري، حيث أُطلقت على أبي هاشم الكوفي (المتوفى سنة ١٥٠هـ)[3]، وهذا النوع من التصوف وليد لحركة الإسلام ذاتها، والذي يؤكد هذا النظر أن العرب استمدوا أول علمهم بفلسفة أرسطوطاليس من شرح الأفلاطونية الحديثة التي نُقلت إلى العربية، ومن المعلوم أن كتاب (إثولوجيا أرسطوطاليس) قد نقل إلى العربية حوالي ٨٤٠م ملخصًا لمذهب الأفلاطونية الحديثة. ويؤيد هذا الاتجاه المحقَّق من واقع التاريخ عباس محمود العقاد في كتابه (الفلسفة القرآنية) حيث يقول: «لكن التصوف في الحقيقة العلمية غير دخيل في العقيدة الإسلامية؛ لأنه -كما قلنا في كتابنا (أثر العرب في الحضارة الأوربية)- مبثوث في آيات القرآن الكريم، مستكن بأصوله في عقائده الصريحة. فالمسلم يقرأ في كتابه أن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فيقرأ خلاصة العلم الذي يعلمه دارس الحكمة الإلهية، ويقرأ في كتابه

(١) «تلبيس إبليس» (١/ ٢٠٠). (٢) «المعجم الوسيط» (١/ ٥٢٩).

(٣) انظر: «نفحات الأنس» لعبد الرحمن الجامي: (ص٣٤).

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفة البوذيين [واللفظ للعقاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ] حين يؤمنون بأن سعادة العالم تكاد تكون سعادة الروح، وأن الفرار منه (العالم الدنيوي) أو الفرار إلى الله: هو باب الجنة.. فالمسلم (الذي يقرأ الآيات القرآنية السالفة البيان) هو مطبوع على التصوف والبحث عن خفايا الآثار ودقائق الحكمة»(١). (انتهى كلام العقاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

ثم يتطرق الإمام الرائد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى تحقيق شيخ الإسلام ابن تيميَّة لمصطلح التصوف متفقًا معه فيما ذهب إليه، رحمهما الله تعالى، مضيفًا شرحًا وتوضيحًا بليغًا لما قاله شيخ الإسلام، وهو ما يُعد حاشية نادرة من إمام التصوف في عصرنا هذا على متن هام وفتوى تيمية قيمة، فاتحًا بذلك باب التوعية بوحدة المنهج السلفي لأئمة أهل السنة والجماعة من المتصوفة والسلفية، وبادئًا رحلة علمية دءوبة للتقريب الشرعي بين المذاهب المختلفة المنضوية تحت مظلة المنهج السلفي المنيف. **وفي ذلك رد على بعض طلبة العلم الذين لا يحسنون النقل أو الفهم لكلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
فيشرع في تفنيد آرائهم المغلوطة في المسألة مثار البحث بالحجة الدامغة فيقول: «وقد قال بعضهم -في معرض الحديث عن جذور التصوف في الإسلام ونشأته ومدلوله- بأن المسلمين لم يعرفوا التصوف إلا بعد القرون الثلاثة الأولى، بيد أن هذا ليس صحيحًا علميًّا ولا تاريخيًّا وليس له سند». فإذا كان المراد بأنهم لم يعرفوا لفظ (التصوف) إلا بعد القرون الثلاثة، فليس هذا بصحيح أيضًا، فهذا الذي قالوه إنما نقلوه من غير فهم ولا تدقيق من كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، الذي قال في كتابه (الصوفية والفقراء): «الحمد لله: أما لفظ الصوفية، فإنه لم يكن مشهورًا في القرون الثلاثة الأولى، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك. وقد نقل التكلم به غير واحد من الأئمة والشيوخ؛ كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما. وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري...»(٢).

(١) «موسوعة العقاد الإسلامية»: (الفلسفة القرآنية) (٤/ ١٧٧).
(٢) «الصوفية والفقراء» (ص١٣).

فانظر إلى دقة كلام ابن تيمية رضي الله عنه ومدى التحريف والغلط في النقل عنه». ويستطرد الإمام رضي الله عنه في التتبع العلمي الدقيق للمسألة بهدوئه وموضوعيته التي أفنت حجج خصومه فيقول: «أما إذا كان المراد بأن مادة التصوف وحقيقته وأصوله وموضوعه لم تُعرف إلا بعد هذه المدة، فالخطأ هنا يستحيل إلى خطيئة، فمادة التصوف من حيث العبادة والخُلق -على أوسع معاني العبادة والخُلق- موجودة ومشهودة في الكتاب والسنة، شأن بقية مواد علوم الدين المستحدثة بعد عصر النبوة والخلافة الراشدة (مثل علم أصول الفقه وعلوم الجرح والتعديل وعلوم التفسير والحديث)، فإذا لم يكن لفظ (التصوف) موجودًا في ذلك العهد، فقد كانت العبادات والأخلاق، وتربية النفس، ووسائل المعرفة بالله، والارتفاع بإنسانية الإنسان وهي جوهر التصوف.. **كلها مسجلة في دين الله، فالاسم حادث، والمادة قديمة بقدم الكتاب والسنة**، شأن بقية علوم الدين سواء بسواء. ولم يكن هذا بدعًا، فلم يكن في هذا العهد علم باسم (الفقه) ولا باسم (الأصول) ولا باسم (مصطلح الحديث) ولا غير ذلك من علوم الدين، ولكن المادة كانت موجودة بين دفتي الكتاب والسنة، فلما دُوِّنت العلوم ورُسمت القواعد والمصطلحات، أُطلقت الأسماء حسبما رجحته الظروف الواقعية آنذاك.

إذن فلماذا ننكر تسمية (التصوف)، ولا ننكر تسمية بقية علوم الدين، والشأن واحد؟! ثم لماذا ننكر تسمية (التصوف) ولا ننكر تسمية (التسلف)؟! هذا من جهة التسمية والمصطلح، أما من جهة عدم انتشار علم التصوف وطرقه بصورة واسعة قبل القرن السابع، فقد كان ذلك نتيجة منطقية لطبيعة الظروف الثقافية والسياسية والاجتماعية المتشابكة[1]. ومن ذلك التطور الثقافي والامتداد الجغرافي، وقابلية البيئة الزمانية والمكانية لازدهار التصوف، بما كان فيها من الحروب الصليبية والترية

(١) وللإمام الرائد تحليل ماتع لهذه الظروف، يبين عُمق النظر في تحليل وقائع التاريخ في كتابات متعددة لم نشأ العروج عليها في هذا الموضع إلا إجمالًا؛ تركيزًا وإبرازًا للفكرة التي نحن بصددها. انظر «كلمة الرائد».

والمغولية، واضطراب عاصمة الخلافة ببغداد، ومثل هذه الظروف بطبيعتها تدفع الناس إلى الله تلقائيًّا، كما حدث في العاشر من رمضان في حرب أكتوبر المجيدة، فمن أجل هذا وما هو منه أو يتعلق به كان هذا الازدهار»[1].

ويستطرد الشيخ في هذا العرض الماتع لبيان أسباب ازدهار التصوف والاهتمام به في تلك الحقبة المباركة من تاريخ الأمة فيقول: «وقد أدت تلك الظروف فيما أدت إليه كذلك إلى تطور الدعوة الصوفية وامتدادها حتى أضحى التصوف سببًا من أسباب نشر الإسلام وثبات أركانه في ربوع الدنيا. وهذه الفتوحات الإسلامية في بلاد غير العرب التي سبقت هذا التاريخ كانت قد أهّلت الكثيرين منهم للزعامة العلمية والروحية والعسكرية داخل الدولة الإسلامية والاجتهاد في هذا الوقت، كثمرة للتفاعل والتطورالطبيعي لما سبق هذا الزمان في شتى المجالات».

ثم يعود الإمام من حيث بدأ مذكرًا بأن التصوف كعلم ومنهج تربوي عملي قديم قدم الإسلام، ولو كان ازدهاره وإحياؤه وليد حاجة المسلمين إليه بحسب الظروف والحوادث، فيقول فيما يشبه السلاسل الذهبية في علم الرجال عند أهل الحديث: «فمثلًا نجد من صوفية القرن السابع أمثال أبي الحسن الشاذلي، وأحمد البدوي، وابن دقيق العيد، ومجد الدين القشيري، وزكي الدين المنذري رضي الله عنهم، ونجد من قبلهم في القرن السادس أمثال أحمد الرفاعي وأبي مدين. ونجد في القرن الخامس أمثال الغزالي، وعبد القادر الجيلاني. وفي الثالث والرابع أمثال: الجنيد والشبلي، ومن قبلهم ذو النون المصري وأبو يزيد. ومن قبلهم الحسن البصري، وسفيان الثوري، ومالك بن دِينار، وإبراهيم بن أَدْهَم، والفُضيل بن عِيَاض، وشَقيق البَلْخِي، وحاتم الأصم رضي الله عنهم، بكل ما في سير وروايات تاريخهم من صدق وكذب، وأصيل ودخيل. يسهل على العلماء تنقيته ومعرفته بإذن الله تعالى».

(١) «أبجدية التصوف» (ص٢٣ وما بعدها).

٢- الاختلاف في تحديد مصادر التصوف

وردًّا على الفرية المثارة حول تحديد مصادر التصوف بزعم أنها ترجع إلى الحضارات والديانات القديمة، يقول الشيخ ﷺ: «إن ذلك دسيسة من دسائس أعداء الله؛ فالتصوف «ربانية الإسلام»، فهو عبادة وخُلق ودعوة واحتياط، وأخذ بالعزائم، واعتصام بالقيم الرفيعة، فمن ذا الذي يقول: إن هذه المعاني ليست من صميم الإسلام؟ فمن قال هذا فإنما قوله ما هو إلا مغالطات، أو أغاليط نظروا فيها إلى هذا الركام للدخول على التصوف من المذاهب الشاذة أو الضالة، ولم ينظروا إلى حقيقة التصوف. والحكم على الشيء بالمدخول عليه: غلطٌ، أو مغالطة.

والحكم على المجموع بتصرف أفراد انتسبوا إليه صدقًا أو كذبًا: ظلم مبين.

وهل من المعقول أن يترك المسلمون إسلامهم مثلًا لشذوذ طائفة منهم تشرب الخمر، أو تمارس الزنا، أو تحلل ما حرَّم الله؟

وهل عملُ هؤلاء يكون دليلًا على أن الإسلام ليس من عند الله؟! شيئًا من التدبر أيها الناس!!!»[(١)].

هذا وقد وجه البعض اتهامًا للتصوف بأنه يعود في أصوله الأولى إلى البوذية والمجوسية والرهبانية، ويرد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على ذلك قائلًا:

«قدمت أن التصوف الإسلامي هو الربانية، فهو إيمان وعمل، وعبادة ودعوة، وأخلاق وبر مطلق، وهو إرادة وجه الله في كل قول وعمل أو نية، أو فكر دنيوي أو أخروي، وهو التسامي بالبشرية إلى مستوى الإنسانية الرفيعة، فهو وحي من الوحي، وهو الدين كل الدين؛ لأنه بهذا الوصف (طلب الكمال)، وطلبُ الكمال فرض عين، وهو علاج لأمراض النفوس، وما من إنسان إلا وهو مبتلى بجانب -قل أو كثر- من النقص الذي نسميه: (مرض النفس، أو الخُلق)، وإنما جاءت رسالات السماء كلها لعلاج هذه الأمراض النفسية والخُلقية أول ما تعالج من بني آدم. ولما

(١) «أبجدية التصوف» (١٤-١٥).

كان التصوف قد تخصص في هذا الجانب، كان طلبُه فرضًا شرعيًّا، وعقليًّا، وإنسانيًّا واجتماعيًّا حتى يوجد الإنسان السوي الذي به تتسامى الحياة، وتتحقق خلافة الله على أرضه، وينتشر الحب وتسود السماحة بين الناس، وتأخذ الحضارة والتقدمية روحهما الإيمانية المحققة لمراد الله. وأدلة ذلك جميعًا مما لا يغيب عن صغار طلبة العلم، ومما تزخر به علوم الكتاب والسنة».

ويستطرد الشيخ ﵁ قائلًا: «لا أعرف أن الكتاب والسنة نقلًا عن المجوسية والبوذية والرهبانية شيئًا أبدًا، وإنما هو الغل الموروث والتهم الكواذب لتضليل خلق الله. أما إذا كان المراد بالتصوف هو هذه الفلسفات الأجنبية عن العقيدة والشريعة، فهذا باب آخر، لا علاقة له بتصوف أهل القبلة، والاحتجاج بهؤلاء علينا فيه تلبيس الحق بالباطل، ثم إن أخذ البريء بذنب المجرم فعلة دنيئة. على أن الذين اشتهروا بهذا الجانب الفلسفي ممن ينسبون إلى التصوف عدد محدود جدًّا، وسواء قبِلت فلسفتهم التأويل (ولو من وجه ضعيف) أو لم تُقبل، فهؤلاء قد انتهى أمرهم نهائيًّا، وليس لفلسفتهم اليوم معتقِد، ولا دارس، وقد أصبحت كتبهم بما فيها من الأفكار أشبه بنواميس الموتى، تُعرض (إذا عُرضت) للزينة، أو للتاريخ والعبرة. وليس بين صوفية عصرنا مَن يرى رأيهم أو يذهب مذهبهم، سواء على ظاهره أو على تأويله»(١).

والمتأمل في هذا النص البليغ يرى كيف جمع الشيخ ﵁ فيه أكثر من قاعدة أصولية وفقهية ومنطقية، فمن ناحية يتبرأ الشيخ من هذه النصوص المحتوية على ألغاز ورموز ومعانٍ ظاهرها يخالف الشرع الحنيف، خارجًا بذلك عن دائرة المراء مع مناظريه. ومن جهة ثانية يلفت النظر إلى القواعد الشرعية المرجحة دومًا لتفسير آراء وأقوال المسلمين على أساس حسن الظن وترجيح ما يبرئ الساحة ويسلّم عقيدة المتكلم ولو كان من وجه ضعيف أو بعيد أو غير متبادر. ومن جهة ثالثة يضع الأمر

(١) «أبجدية التصوف» (١٩-٢٠).

في حجمه الصحيح دون تضخيم أو تعميم كما تقضي قواعد الأمانة العلمية عند عرض آراء المخالفين.

٣- التصوف الشرعي غير الغلوّ في التشيع أو الخَرَف في العقائد الأجنبية

وحول اتهام البعض أن التصوف استقى نظرياته من الحلول والاتحاد والوحدة وحكمة الإشراق -وكل هذا من مبادئ غلاة الشيعة، والإسماعيلية، ومصادر أخرى أجنبية، كالعقيدة الفارسية القديمة، والمذاهب الهندية والنصرانية التي لديها مصطلح التصوف ولكن بعيدًا تمامًا عن تعاليم الإسلام، كاستخدام الخوارج مصطلح الحاكمية لله تعالى، والبغاة مصطلح الجهاد، كل في غير حق- يقول الشيخ رضي الله عنه: «إن التصوف الإسلامي في ذاته شيء وما اندس فيه أو أُدخل عليه شيء آخر، **والحكم على الشيء بما اندس فيه حكم على المدسوس، لا على الشيء نفسه، وما أضر العلم إلا أساليب التعميم والتهويل، والعصبية للرأي بلا تحفظ أو احتياط**، إن التصوف الإسلامي هو روح الكتاب والسنة، قولًا واحدًا أقر به كافة أئمة الصوفية، من السلف والخلف، وأقر به المنصِفون من الأجانب الذين تحدثوا عن التصوف، وقد عرّفوا التصوف بعشرات التعريفات التي تدور كلها حول مراتب ومراقي الإحسان وطرق تزكية النفس باختلاف منازل الرجال ومواقف السلوك. وليس الدس والوضع فقط في علم التصوف، فعندما اندس المنكر من الأقوال في كتب الفقه والتوحيد والسيرة النبوية، بل وفي كتب الحديث الشريف والتفسير، ندب الله سبحانه وتعالى من أهل العلم من ميزوا الخبيث من الطيب (فأخذ الناس الطيب ونبذوا الخبيث)[1] ولم يتركوا الفقه ولا التوحيد ولا التفسير ولا السيرة من أجل الدخيل أو الدسيس. فما أخذ علماء هذه المواد بما مزجه الوضاعون في علومهم، بل قاموا على تنقيتها وضبطها، ولا ترك المسلمون سنة الحبيب ﷺ من أجل آلاف الموضوعات والأكاذيب التي تسربت إليها، وكذلك بقية علوم الدين ومنها علوم

(١) رحم الله الشيخ رضي الله عنه فهو ممن وفقهم الله لفعل ذلك في علوم التصوُّف.

التصوف على اختلاف فروعها ومسمياتها، بل لقد حاولوا أن يدسوا على كتاب الله ما ليس منه والنبي ﷺ حي والوحي ينزل، وما قصة الغرانيق بمجهولة عند طلبة علوم الدين (على ما قيل في سندها أو تأويلها). وهكذا يكون من العجيب أن يحاسَب الصوفية على جريمة غيرهم، وأن يؤخذوا بخطأ لم يرتكبوه، بل هم قد نبهوا إليه وحذروا منه[1]. وعلى ما تقدم بيانه فلا يُقبل الاحتجاج بأمثال الحلاج وابن عربي والجيلي ومَن حَذا حذوهم ممن نقلوا التصوف من العمل إلى المنطق والتنظير، فليس هؤلاء هم كل الصوفية، فهم لم يزيدوا عن عدد الأصابع، وحتى إذا سلمنا بأنهم شطحوا أو تطرفوا أو تغالوا أو حتى انحرفوا، فإنما هم بشر اجتهدوا، وما كتبوه قابل للتأويل وحسن التوجيه عند المنصفين؛ إذ إنه لم يكتب منهم للعامة، وأمرهم فيه إلى الله من قبل ومن بعد. ومن الظلم الشائن أن يقف الناقدون عند تلك الأمثلة ويقولون: هؤلاء هم كل الصوفية، وينسوا أمثال الجُنَيْد والقُشَيْرِي والسلمي وزرّوق وابن عطاء الله وأبي طالب المكي والهروي والسُّهْرَوَرْدِي والغزالي والسُّيوطي والسنوسي والدردير وأمثالهم سلفًا وخلفًا رضي الله عنهم، وهؤلاء أيضًا بشر لهم اجتهاداتهم، خطأً كانت أم صوابًا ولكنهم من باب غير الباب»[2].

٤- شيوخ التصوف من غير العرب

وحول قول بعض الغُلاة: إن كثيرًا من شيوخ التصوف كانوا من الفرس وأحفاد المجوس في العصر الإسلامي، فينبئك النص التالي عن الأسلوب الجديد والرشيد

---

(١) راجع في ذلك: «المدخل» لابن الحاج، و«مدارج السالكين» لابن قيم الجوزية، وأُرجوزة الإمام الأخضري في التصوف.

وراجع أيضًا ما كتبه الإمام الشيخ محمد عبده؛ خير من كتب عن التصوُّف المستنير، شأنه في ذلك شأن كل منصِف يريد وجه الله. وكذا الشيخ أبو عليان الشاذلي، والشيخ حسنين الحصافي، والشيخ محمود خطاب السبكي -مؤسس الجمعية الشرعية، وهو من كبار أقطاب الصوفية باعترافه المكرر في كتبه، وبطريقته المفصلة في رسالته المسماة «العهد الوثيق»، والشيخ حسن البنا الذي مزج دعوته بالتصوُّف الراشد مزجًا كان السبب الأول في نجاحها وانتشارها.

(٢) «أبجدية التصوف» (ص٧٩ وما بعدها).

الذي اختطه رضي الله عنه في هذه المسألة الشائكة ومثيلاتها؛ إذ جعلها مدخلًا للولوج إلى بعض المسلمات الثقافية والسياسية بإعادة النظر العميق والتحليل الشرعي العقلي الدقيق لإصلاحها، يقول الشيخ رضي الله عنه ردًّا وتفنيدًا لذلك: «إن هذا القول إنما هو ضرب من العنصرية التي لا يرضاها الله ولا رسوله ﷺ. أولم تقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وقوله ﷺ: «**لا فضلَ لأبيضَ على أحمرَ، ولا لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى**»؟ وفي رواية ذكرها ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾: «**إن الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتَعَظُّمَهَا بآبائها، فالناس رجلانِ: رجل بَرٌّ تَقِيٌّ كريم على الله، ورجل فاجر شَقِيٌّ هيِّنٌ على اللهِ**» إلى آخر الحديث[1]. وقوله ﷺ وقد تَمَعَّرَ وجهُه غَضَبًا: «**لَيَدَعَنَّ أقوامٌ فخرَهم بأقوامٍ، إنما هم حَطَبٌ من حَطَبِ جَهنَّمَ، أو لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ على اللهِ من الجِعلانِ التي تدفَعُ بأنفها النَّتْنَ**»[2]. ومن نصوصه: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ يَفْتَخِرُونَ بآبائِهم الذين ماتوا، إنما هم فحمُ جَهَنَّم، أو ليكونُنَّ أهونَ على اللهِ من الجُعَل الذي يُدَهْدِهُ الخِرَاء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية -فخرها بالآباء- إنما هو مؤمن تَقِيٌّ، وفاجر شَقِيٌّ، الناس كلُّهم بنو آدم، وآدمُ من ترابٍ**»[3].

ألم يأتك أن سيدنا رسول الله ﷺ ألحق به سيدنا سلمان الفارسي فقال ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أهلَ البَيْتِ**»[4]؟ ألم يرسل الله رسوله ﷺ للناس كافةً بشيرًا ونذيرًا؟!

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٢٦٢). والحديث أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ١٢٥) برقم (٤٧٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وعُبِّيَة الجاهلية: الكبر.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٥٢)، برقم (٥١١٦)، وأحمد (١٤/ ٣٤٩)، برقم (٨٧٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٣٥)، برقم (٣٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٩٨)، برقم (٦٥٤١)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٠)، برقم (٥٩٠٨)، كلاهما من حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه.

إنها حمية الجاهلية يرددها ببغاوات البشر بلا تدبر ولا بينة، وهل جاء الإسلام للعرب وحدهم فاغتصبه منهم غيرهم، فأصبحوا منبوذين؟! لم هذه الشّعُوبِيَّة والعنصرية الكريهة التي ينكرها الإسلام وتنكرها الإنسانية الشريفة؟! أليس الإمام البخاري، والترمذي، والنَّسائي، وابن ماجه، والطبراني، والبيهقي، والأكثرية الغالبة من رجال الحديث، كلهم من غير العرب، وكذلك طائفة من أكبر المفسرين، كالزَّمَخْشَرِي والنَّيْسَابُورِي، وطائفة من أكبر علماء البلاغة، كالجُرْجاني والتَّفْتازاني!؟ من هو طارق بن زياد وموسى بن نُصير، هذان الموليان القائدان الفاتحان اللذان أسسا للإسلام مجدًا تاريخيًّا لا يمحوه الزمان؟ من هو أبو حَنيفة النُّعمان؟ أليس كان من الموالي، ولولاه ما كان لبني تَيْم الله ذِكْر ولا فخر؟ أبو حنيفة من الأفغان، قيل: من كابل، أما إمام مصر الليث بن سعد فأصله من (أصبهان)، وإمام أهل السنة أحمد بن حنبل أصله من (مَرْو)، والإمام المفسر الطَّبَرِي أصله من (طَبَرِسْتَان)، والشَّعْبِي علّامة التابعين وإمامهم كانت أمه من (جَلُولاء)، والحسن البصري الكوكب الفرد كان أبوه من (مَيْسَان)، وهذا علّامة اللغة سِيبَوَيْهِ فارسي الأصل، والإمام الكِسائي فخر اللغة العربية أصله من فارس، وتلميذه الإمام الفَرَّاء من الدَّيْلَم، ثم إن ابن مسكويه وابن سِينا والفارابي كانوا فُرْسًا أعجميين. وقد كان فقيه مكة عَطَاء بن رَبَاح، وفقيه الشام مَكْحُول، وفقيه الجزيرة ميمون بن مهران، وفقيه خُرَاسان الضَّحَّاك بن مُزاحِم، وفقيها البصرة والكوفة إبراهيم النَّخَعِي وابن سِيرِين، كل أولئك ليسوا من العرب أصلًا ولكنهم برزوا في جوانب العلم والفكر والمعرفة والدين وقد كانوا الأئمة بكل ما في اللفظ من معنى يتجدد ولا يفنى.

إنما يتفاضل الناس بالأحلام «العقول»، لا بالأرحام، والناس عند الله سواسية كأسنان المُشْط، والله يقول: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ولقد أمّر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد (مولاه) على جيش كان فيه أبو بكر وعمر،

وعندما أراد عمر أن يَستخلِف قال: «لو كان سالمٌ مولى حُذَيْفَة حيًّا لوليتُه»!! وها هم أهل العلم لا يكادون يذكرون ابن عمر إلا وذكروا معه مولاه نافعًا، ولا يكاد يُذكر أنس بن مالك إلا ومعه مولاه ابن سيرين، ولا يكاد يُذكر ابن عباس إلا ومعه مولاه عِكْرِمة، ولا يكاد يُذكر أبو هريرة إلا ومعه مولاه ابن هُرْمُز.... وما أكثر هذه الأمثلة في الإسلام»[1].

وبعد سوق الأدلة التاريخية الشرعية قام الشيخ ﷺ يجهز على بيت الداء في مسألة الفُرقة والتعادي بين أبناء الأمة الواحدة، ليس بأسلوب الوعظ والأمر بالاتحاد في شكل الموعظة التقليدية التي كانت منتشرة نمطيًّا في زمانه، بل جدد خطاب الوحدة بكشف العوار والتصادم الهادئ مع أفكار وشعارات كانت تعد في تلك الآونة من المسلمات المقدسة التي يُؤذى من يحاول إعادة تحريرها وضبطها في إطارها الشرعي بلا تعسف يفسدها أو تقديس موهوم يبطلها؛ ولكن الإمام الرائد دخل هذا الخِضَم أيضًا مصلِحًا معلمًا جيلًا كاملًا بإعادة النظر في المسلمات المستحدَثة في عصور الاستعمار وانحسار دور العقل الاجتهادي النقدي، مع النظر الدقيق العلمي في الأصول الشرعية الثوابت. يقول ﷺ منهيًا الحديث في هذه المسألة بما لا يخلو من إثارة للهمم المخلصة من العلماء لإعادة البحث العميق لوضع ضوابط شرعية كانت، أو عقلية منطقية، تعيد وضع فكرة القومية والشعوبية في إطارها البنّاء المفيد: «إن تلك الشعوبية، القومية العنصرية، التي تسود في كثير من البلاد الإسلامية الآن، هي التي كانت مسمار النعش في وحدة الإسلام، والتي انتهت بما يسمى زورًا (النهضة العربية)، وهي التي قصمت ظهر الخلافة، وشتت العرب أوزاعًا وشِيعًا ودويلات هزيلة متناحرة **باسم العروبة، والقومية، التي تستخدم الآن بلا وعي ولا تدبر**.

أما قولهم بكون بعض الشيوخ الصوفية الأوائل من الفرس؛ فهؤلاء الناس

(١) «أبجدية التصوف» (ص٢٨ وما بعدها).

اجتهدوا في هذا الجانب، كما اجتهد غيرهم ممن ذكرنا أسماءهم، فاستحقوا التقديم والإمامة كمسلمين، فإذا قيل: إنهم فعلوا ذلك ليحطموا الإسلام من الداخل، فهذه قضية إذا فرضنا نهوض دليلها في واحد، فلن ينهض هذا الدليل في كل واحد. وفي كل طائفة طيب وخبيث، والحلال بَيّن والحرام بَيّن، ولو طبقنا قاعدة سوء الظن بالفرس، أو بغير العرب عمومًا، لأذهبنا ثلثي علوم الإسلام، ولكان أول ما ننبذه كتاب البخاري، ومن والاه، فهل هذا منطق يقول به إنسان سوي أو قاضٍ منصف؟ ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ [المطففين: ٤]، أَوَلَا يذكرون قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾ [ص: ٦٢]؟ إن من أحفاد المجوس من خدم الإسلام أصدق الخدمات في الثقافات والعلوم، والفتوحات والفنون. وهؤلاء شأنهم بالضبط شأن كبار الصحابة، وقد كانوا -أي الصحابة- من المشركين ثم منّ الله عليهم فأصبحوا من خيرة خلق الله»[1].

٥- دليل التصوف من الكتاب والسنة

وقد اتهم البعض التصوف بأنه لا سند له من الكتاب والسنة، وأنه دخيل على الإسلام، وأنه يدعو إلى تقديس المشايخ، والاستعانة بهم في الشدائد، والاعتقاد بأنهم يملكون النفع والضر، وأنه يدعو إلى التواكل والسلبية كما يطلق البعض من غلاة المنتمين للسلفية الوهّابية، فيدفع الشيخ هذه المغالطات والفرايا إذا ما أُطلقت على أنها أوصاف وسمات عامة للتصوف، بنفس القدر من الوضوح في الرؤية والغزارة في العلم والمنطق، والثراء في الدليل الشرعي الذي انتقد به غلو البعض من المنتسبين للتصوف في اتهام السلفية الوهابية بصورة مطلقة وعامة ببعض ما صدر من شطط وغلو من بعض المنتسبين لها؛ وذلك بموضوعية وأمانة علمية وإخلاص يتضح لكل ناظر في أسلوب الحوار والتناظر القائم على التجرد من الهوى واتباع الدليل الشرعي والإقرار بما في الواقع من عوار أصابت التطبيق ولم يسلم مذهب

(١) «أبجدية التصوف» (ص٣٠ وما بعدها).

معتبر أو طريق صحيح من ارتكاب بعض أتباعها لأشياء من هذه الأمور المعيبة شرعًا، فيقول رَحِمَهُ اللهُ: «أما أن التصوف على زعم من غالى لا سند له من الكتاب والسنة؛ فقول ساقط بعد كل ما قدمنا، فإذا لم يكن التعبد ومكارم الأخلاق ومحاسبة النفس، والأخذ بالأحوط، ومجاهدة الهوى والشيطان، إذا لم يكن كل ذلك له سند من الكتاب والسنة، فقد جهل الناس الكتاب والسنة. على أن تصوف المسلمين هو عصارة الإسلام وإكسيره، لا يمتري في ذلك إلا ذو هوى، أو مَن هوى!! وبهذا يتأكد أن التصوف نابع من العقيدة والبيئة الإسلامية جملةً وتفصيلًا، وليس هو بدخيل على دين الله[1].

أما أن التصوف يدعو إلى تقديس المشايخ، والاستعانة بهم في الشدائد، واعتقاد أنهم يملكون النفع والضر؛ فهذا كلام فيه تجاوز ومغالطة، إن التصوف يدعو إلى احترام الشيخ كوالد روحي، وهو أدب إسلامي مقرر، لا خلاف عليه. وفي الحديث: «**ليسَ مِنَّا مَن لم يُوَقِّرْ كَبِيرَنا، ويَرْحَمْ صَغِيرَنا، ولم يَعْرِفْ لِعَالِمِنا حَقَّه**»[2]. ولا تنسَ تأديب الله للصحابة مع رسول الله ﷺ، فهو أصل أدب التابع مع المتبوع. راجع سورة الحجرات.

أما الاستعانة بدعاء الشيخ، وابتهاله إلى الله في شدائد أبنائه، فهو أدب إسلامي ثابت، يعرفه كل من قرأ (باب الدعاء) في كتب المسلمين[3]. أما أنهم يزعمون أنهم يملكون النفع والضر، فالذي يملك هو الله وحده، وعندما يغضب الشيخ لربه من مخالف لله فيدعو، فيغضب الله لغضب وليه، ويستجيب له، فلا يقال عندئذ:

---

(١) ويسترسل الشيخ في عرض الأدلة الشرعية على علوم التصوُّف إجمالًا وتفصيلًا على نحو ما نحن آخذين في تبيانه في جنبات هذه الدراسة كلها، والغرض هنا تحصيل تعرض الشيخ لهذه المغالطات والفِرَى ولو كانت ظاهرة البطلان. فتأمَّل!

(٢) أخرجه الترمذي: (٤/ ٣٢١)، برقم (١٩١٩)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) يتضح ذلك جليًّا في قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧] ثم إجابة نبي الله ﷺ لأبنائه: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

إن الشيخ يملك نفعًا ولا ضرًّا، إنما هو من باب: «**وإنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّه، ولئِن استعاذَني لأُعِيذَنَّه**»[1]. وفي رواية الطبراني: أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «**ما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حتى أُحِبَّه، فإذا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ولِسَانَه الذي يَنْطِقُ به، وقَلْبَه الذي يَعْقِل به، فإذا دعاني أَجَبْتُه، وإذا سألني أَعْطَيْتُه، وإنِ اسْتَنْصَرَنِي نَصَرْتُه، وأحبُّ ما تَعَبَّدَنِي عبدي به ما افتَرَضْتُهُ عليه**»[2]. والقول بغير هذا إنما هو مَسْخٌ للحقيقة بالمغالاة والإغراق والتنفير، وإذا كان هناك شيء من ذلك فرضًا جدليًّا فهو مما يعالَج بالبيان والإرشاد والقول الطيب. ونحن أمة تحكمها الأمية، فلا ننكر أن فيها ضلالة وجهالة، وإنما هي في حاجة -أشد الحاجة- إلى النصح والتوجيه بالحكمة البالغة، والموعظة البليغة.

أما القول بأن التصوف يدعو إلى السلبية والتواكل، فإن التصوف الحق هو الإسلام، وليس في الإسلام سلبية ولا تواكل، وإنما هي أمراض اجتماعية لصِقت بالتصوف زورًا وبهتانًا، وقد كان عبد الله بن المُبارك يحُج عامًا ويجاهد عامًا، وقد كان شَقيق البَلْخِي فارسًا مغوارًا، يطلب الموت حتى استُشهد في سبيل الله، وكذلك كان حاتم الأصمّ مقاتلًا بارعًا، له في الجهاد مواقف وكرامات، وكان أبو الحسن الشاذلي صاحب مزارع وتجارات، أما شمس الدين الدِّمياطي فقد بنى برج دمياط من ماله الخاص من ثمرة تجارته.

وإذا تتبعنا جملة الآداب العملية التي يلقنها شيوخ الطرق الصوفية المستمسكون بالشرع الحنيف لأصحابهم وتلاميذهم المسمَّين بالمريدين أو السالكين، لوجدناهم جميعًا يدفعون تلاميذهم إلى العمل والإنتاج، ويعرفون تمامًا كل ما ورد في هذا الباب عن النبي ﷺ، ثم عن أشياخهم في الله الذين يؤكدون لهم أنه لا يمكن

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ١٠٥)، برقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ٢٣٠)، برقم (٧٧٣٩)، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

تحقيق خلافة الله على الأرض بالسلبية والتواكل والاستسلام، فإذا تغالى أو تطرف واحد من المنتسبين إليهم، فليس هو كل واحد، ومثله مثل من غالى أو تطرف من المنتسبين للسلفية أو غيرها من طوائف المسلمين. ولقد ثبت في الحديث أن بعض الصحابة تغالى بأكثر مما يفعل الرهبان، والنبي ﷺ حي، فنهاهم الرسول ﷺ[1]، وروى الطبراني أن عثمان بن مظغون رضي الله عنه قال: يا رسول الله ﷺ: إني رجل تشُقّ عليّ هذه العزوبة في المغازي، فتأذن لي يا رسول الله في الخِصاء فأختصي؟ قال ﷺ: «**لا، ولكِنْ عليكَ يا ابنَ مَظْعُونٍ بالصِّيامِ؛ فإنه مَجْفَرَةٌ**»[2].

ويُذكَر أنه قد نزل أحد المريدين على زاوية شيخه ضيفًا، فقراه ثلاثة أيام، ثم قال له: يا ولدي، قد انتهت مدة الضيافة. فقال المريد: إنما جئت لأتصوف. فقال الشيخ: ليس التصوف عندنا أن تصف قدميك وغيرك يمون لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما، ثم تصوف، ثم اجعل مِنشارك مِسْبَحَتك، واذْكُرْ على دقّات الفأس والمَكُّوك. وقد كانت الألقاب الصوفية تدل على ما يتناولونه من حرف ومِهن وصناعات؛ فمنهم الدقّاق، والسمَّاك، والورَّاق، والخوَّاص، وهكذا تعرِف أنهم كانوا بحق أمثالًا للمسلم الكامل إيمانًا وعملًا وإيجابيةً، وصلةً كبرى بالله. فالتواكل مرض دخيل على التصوف الصحيح، يعالجه صوفية العلماء، كلٌّ بأسلوبه»[3].

انظر -حفظك الله تعالى- إلى روعة ما احتوى عليه هذا النص النفيس لشيخنا رحمه الله تعالى من معانٍ نافعاتٍ في الدعوة إلى الله، والإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باعتدال وتوازن وموضوعية قلّ ما نجدها؛ إذ هو في معرض

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري: (٧/ ٢)، برقم (٥٠٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠)، برقم (١٤٠١)، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير»: (٧/ ٤٢٠)، برقم (٨٢٤١).

(٣) للتعرف على ماهية الإنسان الكامل في نظر الصوفية راجع: «الإنسان الكامل» لعبد الكريم الجِيلِيِّ، «الإلهامات الرحمانية في مراتب الحقيقة الإنسانية» لعبد القادر الإِرْبِلي، «التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية» لابن عَرَبِيٍّ، «التعريف بالإنسان الكامل» للشيخ عبد الحفيظ الوانجني.

الدفاع عن التصوف الشرعي الذي يهاجمه غلاة الرافضين والمنتقدين له بغير علم ولا هدى. ومع ذلك ففي طيات دفاعه عن التصوف الشرعي المؤيَّد بالأدلة الشرعية الدامغة، تلوح انتقادات صريحة واضحة متزنة لغلو البعض من المُتَمَصْوِفَة. وهكذا نرى في هذا النص مثالًا رائعًا للمزج البليغ بين النقد الشرعي الموضوعي للممارسات الخاطئة لبعض المنتسبين للتصوف، وبين إصلاح التصوف وتنقيته من بدع هؤلاء في آنٍ واحد.

٦- الزهد عند الصوفية

وحول معنى الزهد الشرعي الحق عند أهل التصوف السلفي يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن تكون الدنيا في يده، لا في قلبه؛ لأن الزاهد (غير الصوفي) تاجر يحرم نفسه من متع الدنيا ليعوضها أضعافًا في الآخرة، وليس كذلك الزاهد الصوفي الذي لا يحرم نفسه متعة أحلها الله، إلا إذا حجبته عن الله. وهذا أبو الحسن الشاذلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان صاحب تجارات ومزارع، وهذا شمس الدين الدمياطي كان تاجرًا من أثرى علماء الصوفية، وهو الذي بنى برج دمياط من ماله الخاص في عهد السلطان الغوري، وهذا الليث بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقيه مصر وإمام زُهَّادها، كان أثرى أهل عصره. ولم تمنع هؤلاء الرجال أموالهم مع كثرتها أن يكونوا أزهد الناس في الدنيا، فلم تشغلهم أموالهم الوفيرة عن الله عز وجل، بل كانت طريقهم إليه جل شأنه. وهكذا يتضح أن سحق الشخصية بالزهد المادي والتبتل البشري مما لا تعرفه قوانين التصوف الإسلامي»[1].

وقد كان من أعيان الزاهدين من الصحابة بِلال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسَلْمَان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ،

---

(١) للوقوف على معنى «الزهد» راجع: كتب الزهد لأحمد بن حَنْبَل، والبَيْهَقِي، وابن المُبارك، وهَنَّاد بن السَّرِيِّ، والآجُرِّيِّ، وزُهير بن حَرْب، ووكيع، وأبي داود، والمَرْزُبَاني، والخطيب البغدادي، وأسد بن موسى، وابن غَزْوَان، وسَيَّار بن حاتم، وابن شَاهِين، وابن الأَنْبَارِي، وابن فُضَيْل. وكُتُب القناعة لأبي بكر ابن السُّنِّيِّ، وابن أبي الدُّنْيَا، وابن مسروق. و«أحاديث الزُّهَّاد والعُبَّاد» لمحمد بن عقيل البَلْخِي، و«نخبة الطاعة في الزهد والقناعة» للفتنيِّ، و«الورع» للمَرْوَزِيِّ.

وأبو ذَرّ ﷺ، وتَمِيم الدارِي ﷺ أول من جلس في مسجد رسول الله ﷺ أيام عمر يذكِّر الناس بالله في يوم الجمعة. فإنما الزهد في حده المحدود مما جاء عن كثير من الصحابة والتابعين وتابعيهم. وفي صدر هؤلاء جميعًا زهد (العمرين) ابن الخطاب وابن عبد العزيز بعد سيدنا رسول الله ﷺ؛ فقد كانت الدنيا في أيديهم، ولم تكن في قلوبهم، فاستغنوا برب الدنيا عن الدنيا وما فيها ومَن فيها. إن الذي يملك هو الذي يزهد، أما الذي لا يملك ففي أي شيء يزهد؟!

أما الفرق بينه وبين الزهد الإسلامي؛ فإن الصوفي أكبر من زاهد في الدنيا؛ لأن الزاهد إنما يزهد في الدنيا، وهي لا شيء، فالزهد في الدنيا زهد في لا شيء، والزاهد في (لا شيء) غافل أو جاهل، لكن زهد الصوفي منصب على كل ما يبعده عن الله على أي وضع يكون، أما كل ما يذكره بالله (ولو كان من أعراض الدنيا وأموالها) فليس هو بزاهد فيه...».

وهذا المعنى الصحيح للزهد، كما عرفه السلف الصالح، أصبح بعيدًا عن الأذهان المشوشة بتصويرات الغرب له، ومن ثم يحاول الشيخ تقريبه للسالك المريد لكي يتحلى به، فيقول ﷺ: «ذات يوم دخل صوفي على أحد الخلفاء، فحدثه، فجزاه الخليفة بما لم يكافئ بمثله أحدًا قبله، فاعتذر الصوفي عن قبول عطية الخليفة، فاندهش الخليفة قائلًا له: ما أزهدك! قال الصوفي: بل أنت أزهد مني يا أمير المؤمنين. قال: كيف؟ قال: لأنني أزهد في الدنيا وهي لا شيء، وأنت تزهد في الآخرة، وهي كل شيء. وهو نوع من التبكيت الواضح، فتأمل».

٧- التَّمَصْوُف المذموم

ويقول الشيخ ﷺ: «**نحن لا نؤمن بالتمصوف الفلسفي المشبوه، ولا بالتمصوف البِدْعِي المُضَلّل، ولا بتمصوف الخُرافة والشعوذة والتهريج والدعاية، وعبادة الأشخاص، ولا بتمصوف تجار الإجازات والأدعياء والمتعالِمين والحمقى**

والمغفلين والمنحرفين، إنما تصوفنا كتاب وسنة، دين ودنيا، علم وعمل، ربانية وجهاد وعبادة، وأدب وشرع، وعقلانية، ونظافة قلب وبدن ولسان، وظاهر وباطن، وحب ورحمة، وبذل وسلام، وتعاون على البر والتقوى، وتدرج عملي رُوحي في العبودية إلى مراتب القدس الأعلى»[1].

ولكن تلك الفرق المتمصوفة الضالة -ولله الحمد والمِنّة- قليلة العدد والعُدّة، ولا تمثل بحال من الأحوال التصوف الشرعي الحق المنتشر في مصر والمغرب وتركيا، وكافة الدول الإسلامية في أفريقيا وآسيا، ولذا فإن هذه الفرق الضالة سرعان ما يأفِل نجمها وينفض عنها الخاصة والعامة، وذلك بفضل الله، ثم بفضل التوعية الدينية الراشدة من قبل الأزهر الشريف وجامعتي الزيتونة والقرويين. كما لا نغفل الدور الحيوي الذي قام به أئمة الطرق الصوفية في العصر الحديث لنشر هذه التوعية، ومن أبرز هؤلاء فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود، وفضيلة الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم، وفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، وفضيلة الدكتور أحمد عمر هاشم، وفضيلة الدكتور علي جمعة.

وفي موضع آخر يوضح الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ معنى التصوف الحق، قائلًا: «التصوف عبادة، فما رسمه الله فيه فهو الرسمي، وما لم يرسمه الله فمرفوض نهائيًّا، ولا قيمة له، وإن تظاهر عليه كل ما يسمى العرف الرسمي والمصطلح والتقاليد والمشيخات، فنحن لا نؤمن بالطبول ولا الزمور، ولا العكاكيز، ولا الرايات، ولا الأوشحة، ولا الطراطير، ولا مسابح الأعناق، ولا تيجان الريش، ولا سيوف الخشب، ولا الرقص، ولا المواكب الألعبانية، ولا المكاثرة بالأتباع، ولا المظاهر والدعاوى الكاذبة، وإن آمن بها الثقلان»[2].

---

(١) «مشيخة الطريقة المحمدية الشاذلية: التعريف بالطريقة ودستور الآخرة»، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.

(٢) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية الشاذلية» (ص١٦١).

ثم يسترسل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ قائلًا: «التصوف إرادة، لا إدارة، والوظائف الصوفية تشريف وتكليف معًا، لمن هم أهل لها، فقهًا وتُقًى وجهادًا في الله، فلا قيمة لإجازة أو وظيفة صوفية في يد من ليس هو أهلًا لها، وإن اشتراها بمال قارون، وإن اعتمدته كل الإدارات، فحامل الإجازة يجب أن يكون صورة مصغرة من رسول الله ﷺ، وإلا فهو ومن عاونه من طلائع المسيخ الدجال[1]».

ويقول رَحِمَهُ اللهُ في هذا الصدد أيضًا: «التصوف الحق أشرف خصائص الحياة، ومن فاته التصوف الواعي لم يذق طعم وروح الإنسانية في الإسلام بمقاصده الرفيعة. وهذا هو التصوف الذي يردّ للإنسان اعتباره المفقود، ويرتقي بالمجتمع إلى مستواه المثالي الرفيع، هذا هو تصوفنا، ولا علاقة لنا بتصوف غيرنا».

والتصوف الإسلامي كما يرى الشيخ إجمالًا هو «متعة وسمو شخصي، ثم إصلاح ونهوض عام لا يقدح فيه مدسوس ولا دخيل... وهو دعوة كلها عمل وتقدم وسلام ونور ومحبة وإيمان وبركة وفضيلة[2]».

ويقول الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ومن تعريفات التصوف الكثيرة التخلي عن كل دَنِي، والتحلي بكل سَني، سلوكًا إلى مراتب القرب والوصول، فهو إعادة بناء الإنسان، وربطه بمولاه في كل فكر، وقول، وعمل، ونية، وفي كل موقع من مواقع الإنسانية في الحياة العامة».

ثم يجمع الإمام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تلك التعريفات المفيدة جميعًا ويردها إلى مدلول شرعي عام -كعادته، بغرض إحياء مفهوم سلفية التصوف وإخراج ما ينافي ذلك منه- فيقول: «ويمكن تلخيص هذه التعريفات في كلمة واحدة، هي: (التقوى) في أرقى المستويات الحسية والمعنوية. فالتقوى عقيدة وخُلق، فهي معاملة الله بحسن

(١) المرجع السابق.

(٢) «هذه هي دعوتنا وهذا هو تصوفنا بين الصف والصُّفة»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثالث، السنة الخامسة، غرة شوال ١٣٧٤ هـ، ٢٣ مايو ١٩٥٥م.

العبادة، ومعاملة العباد بحسن الخُلق، وهذا الاعتبار هو ما نزل به الوحي على كل نبي، وعليه تقوم حقوق الإنسانية الرفيعة في الإسلام. وروح التقوى هي (التزكي) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤] و﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩]. وبهذا المعنى تستطيع أن تستيقن بأن التصوف قد مُورس فعلًا في العهد النبوي، وفي عهد الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم. وقد امتاز التصوف مثلًا بالدعوة، والجهاد، والخلق، والذكر، والفكر، والزهد في الفضول، وكلها من مكونات التقوى (أو التزكي). وبهذا يكون التصوف مما جاء به الوحي، ومما نزل به القرآن الكريم، ومما حثت عليه السنة النبوية المشرفة، فهو مقام (الإحسان) فيها، كما أنه مقام التقوى في القرآن. والإحسان في الحديث هو مقامُ الربانية الإسلامية، يقول تعالى: ﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

هذا هو التصوف الذي نعرفه، فإذا كان هناك تصوف يخالف ذلك، فلا شأن لنا به، ووزره على أهله، ونحن لا نُسأل عنهم فـ ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] والمتصوف شيء، والصوفي شيء آخر. أما الاختلاف في تعريف التصوف بين العلماء والمنتسبين إليه، فهو راجع إلى منازل الرجال في معارج السلوك، فكل واحد منهم ترجم إحساسه في مقامه، وهو ما لا يتعارض أبدًا مع مقام غيره، فإن الحقيقة واحدة، وهي كالبستان الجامع، كلّ سالك وقف تحت شجرة منه فوصفها، ولم يقل: إنه ليس بالبستان شجرٌ سواها. ومهما اختلفت التعريفات فإنها تلتقي عند رتبة من التزكي والتقوى، ألا وهي: الربانية الإسلامية، أي (التصوف) على طريق الهجرة إلى الله، ولذا خاطب الله سبحانه وتعالى عباده قائلًا: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. فالواقع أن تعريفات التصوف جميعها ما هي إلا تعريفٌ واحدٌ، يُكمل بعضها بعضًا.

وقد يقول قائل: فالصوفية إذن ما هي إلا الإسلام الحق، فلم لا تُسمى الأشياء

بـأسمـائهـا؟ نقول له: وهـو كـذلك فعلًا، ولكـن الـضرورات الحيـاتيـة والتعقيدات الحضارية في العصور التي تلت ظهور الإسلام قد اقتضت أن ينبثق عن الإسلام الحق علوم تبين أحكامه، ونظريات تبين أركانه، ومنها علم «أصول الفقه»، وعلوم «الحـديث الـشريف»، وعلـوم «التفـسير»، وعلـوم «القـراءات»، وعلـوم «الجـرح والتعديل». وكذلك اقتضت تلك المبررات العقلية والشرعية نفسها نشأة التصوف كعلم شرعي وتجربة روحية دعوية تربوية».

٨- تعريف السلفية والتصوف

السلفية.. التي هي غاية كل مسلم ملتزم أن ينهل من مَعِينها ويَعَض عليها بالنواجذ... المحجة البيضاء النقية التي تركنا عليها حبيبنا وسيدنا رسول الله ﷺ.

السلفية المظلومة.. قرنوها زورًا بدعاوى التكفير وتحريم التفكير واختزلوها في مباحث البداوة وأَسْر الحَرْفِيَّة.

والسلفية أظهر من أن تعرّف أو توصف، ولكن هناك مراجع لا تحصى لمن أراد أن يتعرف على صحيح السلفية والصورة النقية لها.

وأما الذين نرجو الله تعالى أن يهديهم ممن ألصقوا أنفسهم بالسلفية شأنهم شأن الذين ألصقوا أنفسهم بالصوفية، فهم كثير ومؤلفاتهم أكثر. **وأرجو أن تكون هذه الدراسة بمثابة الكاشف والمبين والمميز للغث من السمين، والصحيح من المزيف من كل هذه الكتب والمؤلفات التي تعج بها المكتبات وشبكة الإنترنت، حتى يتمكن القارئ بنفسه من إجراء هذا التمييز والفرز.**

والسلفية كمنهج علمي هي تطبيق الأحكام الشرعية التي تحكم كافة جوانب الحياة الخاصة والعامة، كما طبقها وعمل بها السلف رضوان الله تعالى عنهم. والسمة الجامعة لكافة المذاهب المنضوية تحت منهجها الكريم هي التزام الدليل المستمد من الكتاب والسنة بطرق الاستنباط الشرعية واللغوية المستقرة في زمن النبوة والخلفاء

الراشـدين، سواء في الأصـول أو الفروع. ومن ثَم تحـددت الثوابت وتبين مجال الاجتهاد الذي أفرز الرؤى والمذاهب.

إن السلفية كنطاق زماني للتعريف السابق تتحدد في القرون الثلاثة الأولى التي هي خير القرون كما قال الحبيب ﷺ في الحديث المشهور(١).

ويـرى آخـرون من أهل العلـم أن الـسلفيـة كمنهج أصـولي تـم وضع أسـسه وأصوله في زمان النبوة والخلافة الراشدة التي ورد الأمر بالعض بالنواجذ على سنتها في الحديث الصحيح. أما المذاهب السلفيـة فكثيرة متغيرة، ومتباينة أحيانًا، على حسب الظروف والأحوال، كما أباح بل أوجب أحيانًا المنهج السلفي، وذلك طبقًا لقواعده التي تقضي باعتبار العرف والمصالح والضرورات وغيرها، بضوابط شرعية محددة كلها من الكتاب العزيز والسنة الشريفة مستنبطة. فتنبه إلى الفارق الشرعي الكبير بين المنهج والمذهب.

والـذي يهمنا أن نـؤكـد عليه في هـذا الصـدد المنهج العلـمي الـذي وضعه علماء السلف، والأسلـوب العملي الـذي طبقـوا به الأحكـام الـشرعيـة المستنبطة من هـذا المنهج العظيم... فهذا هو المرجو، إحياء مواته والعض بالنواجذ عليه.

أما آراء علماء السلف رضي الله عنهم في الفروع المختلفة فهي بحمد الله تعالى متوافرة في الكتب القديمة والحديثة، تلهج بها ألسنة العلماء وطلبة العلم.. والمهم كيفية وصول هـؤلاء العلماء الأجلاء من السلف إلى هـذه الأحكـام وتعاملهم في حالات اختلاف رؤاهم واجتهاداتهم في المسألة الواحدة... هذا هو بيت القصيد.. هذا هو نهج التقريب.. هذا هو إحياء أدب الخلاف وفقه الاختلاف وحدود طاعة ولي الأمر عند حدوث خلاف وألوان التعامل في المسائل الخلافية.

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ١٧١) برقم (٢٦٥١)، ومسلم: (٤/ ١٩٦٤) برقم (٢٥٣٥)، كلاهما من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

وأهم مسألة نحتاج إلى تحريرها وبيانها بيانًا علميًّا ضافيًا فيما بين العلماء وطلاب العلم والقائمين على الإعلام، وخاصة في هذا الزمان، هي **تحديد الضابط الشرعي والمعيار الفقهي لبيان ما يندرج تحت مسائل العقيدة**، والتمييز بين مسائل الأصول ومسائل الفروع فيها، **وبيان الحكم المترتب على الاختلاف بين العلماء في كلٍّ منها**. ونحن ننادي بحزن: أين الدراسات الفقهية والرصينة في تحديد هذا المعيار الشرعي مستنبطًا وفقًا لقواعد المنهج السلفي؟ وذلك حتى لا يكفِّر بعضنا بعضًا، ولا يزكي أحدنا نفسه. والأخطر من ذلك حتى لا يحتكر أحدنا وصف مذهبه بأنه هو المنهج السلفي الوحيد وأن جماعته أو جمعيته هي وحدها «السلفية»، نافيًا هذا الوصف العظيم عن غيرها من أتباع المذاهب السلفية الأخرى. وللأسف لا نجد بهذا الصدد إلا كتابات ودراسات قليلة وموجزة لرهط مبارك من العلماء المتصوفة السلفية من علماء الأزهر الشريف وجامعتي القرويين والزيتونة المباركتين! فتحديد هذا الضابط هو ما دعا إليه الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من العلماء الأعلام وما تعلمناه منهم، كما سنبين بجلاء في جَنَبَات هذه الدراسة، فهذا هو جوهر التصوف السلفي الشرعي العاصم بإذن الله تعالى من القواصم.

فالسلفية كمنهج علمي شرعي هي طرائق وأساليب استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب العزيز والسنة المطهرة كما مارسها وطبقها الصحابة وعلماء التابعين رضي الله عنهم، والسلفية كاتجاه فقهي هي مجموع لآراء علماء السلف ومذاهبهم المختلفة في الفروع والأصول.

أما التصوف فهو علم تزكية النفوس ومحاسن الأخلاق والنوافل السائرة بالمسلم على مدارج مرتبة الإحسان ومكارم الأخلاق التي اختص الله سبحانه بها نبيه الخاتم ﷺ. وبهذا يندرج التصوف تحت مظلة المنهج السلفي ويلتزم بأصوله وطرقه واستنباطه للأحكام.

يقول علماؤنا ومشايخنا، وفي مقدمتهم الشيخ محمد زكي إبراهيم: إن **الصوفية**

المظلومة اختزلوها في الطبول والمزامير والعكوف عند القبور والتفلسف بالألغاز.
وقد ارتقى الشيخ رضي الله عنه بالطريقة الصوفية إلى أعلى درجات الفهم الشرعي الصحيح حين اجتهد اجتهادًا جديدًا في تعريفه الجامع للتصوف الشرعي السلفي، الذي تمنى أن يجتمع عليه المسلمون لينهلوا منه ما يُدخلهم في مراتب الإحسان، والذي يقول فيه: «**التصوف هو علم فقه المعرفة**»[1]. ثم يفصّل هذا التعريف قائلًا: «**التصوف هو رُوح الإسلام وعُصارته وإكسيره، وهو الحقيقة الرُّوحية التي تلازم دعوة التوحيد في كل دين منذ آدم، وهو الأمانة الإلهية الكبرى التي تربط ما بين الملك والملكوت، وهو النافذة التي تطل منها الأرواح على مشاهد الحق الأكبر فيما وراء المنظور، وما بعد المادة، وهو العِصمة الاجتماعية والذاتية الخالدة ضد الزَّيغ والتحلل والشيوعية والاضطراب الاجتماعي والديني**»[2]. ويسترسل الشيخ رضي الله عنه قائلًا: «**التصوف هو مقام «الاستقامة» على ما جاء في القرآن، وهو مقام «الإحسان» على ما جاء في السنة المطهرة**، والاستقامة والإحسان اسمان لحقيقة واحدة، أمر بها الكتاب وأمرت بها السنة، فكانت فرضًا عينيًّا على كل مسلم ومسلمة»[3].

ثم في عبارة وجيزة يلخص شيخنا الجليل كُنْهَ التصوف فيقول: «التصوف علم تطبيق الأخلاق والآداب، وعلم تربية النفوس وتسامي الأرواح، فهو الحقيقة الأولى والأخيرة بعد التوحيد في كل دين...»[4]. ويُفصّل ثانيةً سمات التصوف الحق فيقول رضي الله عنه: «التصوف الذي ندعو إليه وندين به، هو سر الإسلام الفعال،

---

(١) «جولة حول التَّمَسْلُف وحقيقة التصوف»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، غُرَّة جُمادَى الآخِرة ١٣٧٠ هـ.

(٢) «المعركة بين الإخوان والصوفية.. تصوف الأستاذ البَنَّا وأسرته وأنصاره القدامى.. حقيقة التصوُّف وأثره في الحركات الإسلامية.. أسباب حملة الإخوان على التصوف»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الأول، السنة الثالثة، ١٧ شعبان ١٣٧٢هـ، أول مايو ١٩٥٣م.

(٣) «المعركة بين الإخوان والصوفية»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الأول، السنة الثالثة، ١٧ شعبان ١٣٧٢هـ، أول مايو ١٩٥٣م.

(٤) «جولة حول التمسلف وحقيقة التصوف».

وتصفية الإيمان من رواسب الخدع والبدع والتحريف والتخريف والتخلف عن ركب الحياة الناشطة، فهو عصارة اليقين وإكسير الحقيقة الكبرى، وهو الروحانية والربانية التي لا بد منها لحفظ الكيان الكوني العام.. هو التصوف الذي حفظ أسرار التشريع، وكشف مباهج كنوز العلاقة بالله، وأحدث أرقى أسلوب في الفهم والتحقيق والتربية والحكمة والاستمداد.. وهو تصوفنا الذي حمى بيضة الإسلام بالقلب واللسان والسنان، وردّ عنه جحافل العدوان في غير مكان، وهو التصوف الذي كافح الاستعمار والتجهيل والتبشير والتأخر، ولا زالت في عصرنا بقية من آثاره شاهدة على بعض ذلك.. وهو التصوف الذي حمل صوت الدعوة المحمدية إلى مجاهل الجزر والقارات، وأرسى فيها راية التوحيد والإيمان.. وهو التصوف الذي حقق الآمال في قيام دولة مكان دولة، واستبدال صولة، وصب رجاله في القوالب المحمدية، فكانوا نماذج للإسلامية الجامعة النادرة في الإصلاح والإنتاج وإقامة أركان الحضارة والعمران»[1].

٩- الإسلام والتصوف والسلفية

وحول مدى احتياج الإسلام إلى التصوف يقول الشيخ ﵁: «إذا كان الشيء يحتاج إلى نفسه، جاز أن يقال: إن الإسلام يحتاج إلى التصوف، فالإسلام انقياد ظاهري لا يتم إلا بالانقياد الباطني[2]، وإلا كان نفاقًا. والانقياد الباطني هو الإيمان بوصفه عملًا من أعمال القلب، التي نسميها «التصوف»، فليس التصوف شيئًا غير الإسلام حتى يقال: إنه يحتاج إليه، أو يستغني عنه، إنما التصوف هو ذروة الدين كله ومقام «الإحسان»، هو التقوى، والتزكية، والربانية، فهو الغاية والثمرة التي لا تتاح إلا لسالك مريد موفّق ذَوّاق.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) راجع في الباطن والظاهر: «الباهر في أحكام الباطن والظاهر» للطوفي، «الباهر في حكم النبي في الباطن والظاهر» للسيوطي، «الكوكب الزاهر في الفرق بين علمي الباطن والظاهر» لابن السُّوَيْدي، «مَرْج البحرين في الجمع بين المذهبين» لمير ماه بن السيد حسن الحسيني.

وهكذا نجد أن السؤال الذي يقول: هل التصوف يضيف جديدًا إلى الإسلام؟ سؤال غير وارد. وأين هذا السؤال من قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

إذن التصوف الحق هو الإسلام في أعلى مستوياته. ويدخل في هذا الإطار حديث الشيخ عن نشأة التصوف كعلم، وممارسته كسلوك في مناظرة عفوية جرت بينه وبين بعض كبار مفكري عصره تعقيبًا على تساؤلات الحاضرين أثناء أحد المحافل العلمية، وقد يكون من الماتع المفيد عرضها هنا في هذا المضمار:

التصوف والمناظرة

تلك المناظرة التي كانت بعنوان: «نشأة التصوف الإسلامي؟ في ندوة دُعي إليها الشيخ محمد زكي، تحدث فيها البعض فقال: إن التصوف مذهب نشأ مع الدولة الأموية. فعقب عليه أحد الإخوة بأن التصوف نشأ مع الإسلام، ثم ترك الكلمة للشيخ - محمد زكي- فقال رَحِمَهُ اللهُ رافعًا اللبس الحاصل في هذه المسألة: «إن التصوف هو حقيقة التوحيد وروح العبادة وحكمة المعاملة، فهو قديم بقدم أديان السماء التي جاءت بالتوحيد وبالعبادة، وبالتسامي بالمعاملة، ولما كان الإسلام هو الذروة التي ما بعدها من منال في تلك الأديان كان تصوف الإسلام هو صورة الحقيقة الكاملة لمكارم الأخلاق التي ما بعدها من منال. ولهذا كان الصوفي الأول -أي المسلم الكامل- هو سيدنا محمد ﷺ، فاعتبِرْه تجاوزًا أو تسامحًا إن شئتَ، فهو شيخ الطريقة الأعظم، وقطب أقطاب الصوفية؛ أي: خاصة المسلمين، وهو ﷺ إمام الخاصة والعامة، ومن ثم نتبين كيف أن كلمة التصوف إنما هي في الواقع تعبير اصطلاحي يعني حقيقة الإسلام في أرقى صوره وأرفع درجاته، ولا علينا من اشتقاق الكلمة ودلالتها اللغوية، فهذا نوع من التخلف الفكري، أما ما أصبح في التصوف مما ينكره الإسلام، فهو من مدسوسات الباطنية والقرامطة[1]، ثم المستشرقين

(١) الباطنية: ظهرت هذه الفِرقة في الفترة ما بين ٩٢هـ إلى ٢٠٥هـ في أيام المأمون، وفتنتهم على =

والمستعمرين، ويجب أن يكون مفهومًا أن التصوف شيء غير المتصوف، كما أن الإسلام شيء غير المسلم، وكما أن إسفاف المسلم لا يعني أبدًا إسفاف الإسلام، فالشأن نفسه هو شأن المتصوف مع التصوف!! أما حدوث التصوف في الملة فمعناه ظهوره كمذهب إصلاحي منظم مستقل بقواعده وأصوله وأهدافه وتبويبه وترتيبه، وهو بهذا المعنى يشترك مع علوم الدين واللغة كلها، فهي حادثة في الملة على هذا الوجه مع قدمها في ذاتها بقدم الملة نفسها.

وقد نُقلت هذه المناظرة وتلك المساجلة إلى صفحات الجرائد، وفتحت بابًا نافعًا للعامة والخاصة للتعرف على التصوف السلفي في مصر، وتلك كانت عادة الإمام الرائد رضي الله عنه أن يستثمر المواقف لخدمة الدعوة الإصلاحية في المجتمع، ويعلمنا ذلك الفن الدعوي ضاربًا المثل بنبي الله يوسف عليه السلام حين انتهز فرصة سؤال الفتيين له في السجن عما يهمهما من أمر الرؤيا فيسوقهما بعفوية وسماحة لمبتغاه من تبليغ دعوة الحق. وقد كتب الشيخ تعقيبًا على ذلك السِّجال العلمي يقول: «والواقع أنه لا خلاف بين الرأيين منظورًا إلى الأحداث والفتن التي عمت الناس في عصر الأمويين والعباسيين، فكانت سببًا من أسباب تقعيد هذا العلم، واستقلال أهله بمظهرهم ومعارفهم الخاصة، ولعلنا بهذا قد التقينا مع هذا الكاتب فإنه جدير بأن نكون معه في العلم على اتفاق»[1].

وهكذا فقد سعى الشيخ الجليل رضي الله عنه من خلال كتاباته المتعددة ومناظراته

= المسلمين شرٌّ من فتنة الدجال، وقام بإنشائها زعيمها ميمون القداح، ومن ألقابهم: الخُرَّمية والبابكية والمحمرة، والتعليمية. ومن عقائدهم الكافرة: اعتقاد وجود إلهين قديمين، وإنكار الجنة والنار، وألوهية الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. راجع: «اعتقادات فرق المسلمين» للإمام الرازي (ص ٧٦)، «فضائح الباطنية» لحجة الإسلام الغزالي، «التبصير في أمور الدين» (ص١٤٠).

القرامطة: ظهرت في سنة ٢٦٨هـ بالكوفة على يد حمدان بن الأشعث، وهو أحد دعاة الباطنيين. ومن عقائدهم الكافرة: الحج والقبلة لبيت المقدس، ورفع الجنابة بالوضوء، وتحليل الخمر. راجع: «اعتقادات فرق المسلمين» للإمام الرازي (ص٧٩).

(١) (كلمة الرائد)، مجلة المسلم، غرة شوال ، السنة (٨)، العدد (٣)، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٥م.

العلمية الدامغة، وجولاته الدعوية المتواصلة مع رهط مبارك من علماء الأزهر الشريف إلى التوضيح التام والبيان الكامل أن **التصوف السلفي هو أصل من أصول المنهج السلفي، ومذهب معتبر من مذاهبه الرحبة، لا يضيره تعدد استخدام المصطلح أو تشابه قواعد إسلامية منه مع ما ليس منه.**

وللإمام الرائد ﵁ سعي دءوب متواصل مشكور، علمي وشرعي ودعوي، يرصده كل متابع لكتبه ومقالاته وخطبه وخطاباته وجولاته ورحلاته عبر عشرات السنين، خاصةً مع علماء المملكة العربية السعودية الحبيبة، مهبط الوحي ومهد الإسلام وبلاد الحرمين الشريفين، في محاولة إصلاح الصلة بين السلفية والصوفية توحيدًا لأهل السنة، وإنهاءً لنزاع لا أساس له. وهكذا نراه يستشهد بحكم العقل والمنطق في النظر للمسألة ليُجهِز على حجج خصوم التصوف غير المنصفين، بل ويعري مقاصدهم ويرشدهم إلى موطن الداء لديهم الذي أنبأ عنه موقفهم هذا، مربيًا ومرشدًا في هذه المثابة لأبنائه طلبة العلم والعلماء المصنَّفين في أروقة العلم بالسلفية أو الصوفية، وهو ما كان يحزنه، فكان يدعو دائمًا لإذابة هذه التصانيف الموهومة..... فيقول مبينًا حججه ﵁: «وأين فهم الجماهير من العمال والفلاحين وأنصاف المتعلمين، أو حتى كبار المثقفين من كتب هؤلاء وألغازهم وأحاجيهم؟! هذا وإذا أمكن الحصول على مثل هذه الكتب الأثرية المشكوك في سلامتها من الحشو والتزوير على كاتبيها المنسوبة إليهم، وعلى فرض ثبوت بعض المستغربات عن هؤلاء المنتسبين أو المنسوبين إلى التصوف؛ فإنه بدلًا من بذل الجهد في توثيق تلك المؤلفات غير ذات النفع كان الأحرى بذل الجهد والمال في نشر التصوف الشرعي السلفي وذخائره العلمية الموثقة لأئمته سلفًا وخلفًا، ولكن للأسف يدل الواقع على أن الأمر ليس كذلك، فلا شك أن الوقوف عند هذا الجانب من التراث في هذا العصر هو نوع من البحث الأثري في غير ما ينفع، وعن الحفريات المجهولة في سراديب الرُّموس والأجداث؛ والغاضبون على التصوف جميعًا يحتجون بهؤلاء

المندثرة أقوالهم وآراؤهم، عصبيةً وحميةً، وقد انتهى أمر هؤلاء، لقد كانت مذاهبهم شخصية أسيرة في أوراق كتبوها لا تجد طريقها إلى الجماهير لحاجتها إلى استعدادات وقابليات ومدارك ومنطق لا يوافق الكافة.

ومؤاخذة القائمين على منهج وأصول السلف من علماء الخلف بفعل فئة قليلة من السلف (لو سلمنا جدلًا بأنهم سلف) أمر بعيد عن العلم والعدل، والحكم على الكل بذنب البعض (لو سلمنا بهذه البعضية) أمر بعيد عن العلم والعدل أيضًا.

إن التصوف هو التقوى، هو التزكية قولًا وعملًا وحالًا، حقيقةً ومثالًا، وسيلةً وغايةً، فعلًا وأثرًا، فما لم يكن كذلك فليس من التصوف، ووزره على صاحبه وحده، وكما لا يتحمل المسلمون أوزار المنحرفين من أهل القبلة فليس من الدين ولا من الخُلق أن يتحمل الصوفية الشرعيون أوزار من سبقوهم بالانتساب إلى التصوف؛ فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إنه لم يعد بيننا اليوم من يفهم رموزهم أو يقول بأقوالهم أو يعتقد عقيدتهم -إن صح كل ما قيل عنهم- ولا تنس كيف دسوا على الشعراني في حياته كما سجله في كتبه، فكيف بعد مماته؟! وكيف بالأئمة في العصور السابقة عليه ممن عاصروا الفتن الأشد وطأة؟! فالتصوف الحق هو ربانية الإسلام، هو الصفاء، هو بركة السماء، هو الحب؛ حب الله سبحانه وتعالى، ومن حبه ينبثق حب أحبابه وحب ما من أجله خُلق الإنسان».

وهكذا يبين الشيخ ﷺ بهدوء وموضوعية أن السلفية الحقة والصوفية الحقة ما هما إلا فُراتان عظيمان يمثلان سويًّا أهل السنة والجماعة، وأنه لا بد من اجتماعهما علميًّا ودعويًّا وتكاتفهما لرد الفرق المغالية والنزعات المتشددة الضالة والمضللة إلى المحجة البيضاء ووسطية الإسلام، وذلك بما تمثله السلفية من معاني تطهير العقيدة من الشرك والتمسك بالدليل الشرعي من حيث ثبوتُه ومدى صحته، وبما تمثله الصوفية من الاهتمام بعلم المقاصد الشرعية وأدب الخلاف والتربية الروحية والقلبية للأشخاص، مما يفضي في النهاية بالضرورة إلى شيوع التسامح وحسن الظن

بأهل (لا إله إلا الله)، وإن اختلفت مشاربهم، وإن اختلفوا في الرأي.

ثم تأتي النصيحة بعد هذا التفنيد للنزاع المفتعل بين السلفية والصوفية، جامعة منبئة عن هموم الشيخ واستنصاره بإخوانه العلماء من كل مذهب ومشرب في أخوية عفوية صافية لا تتستر على مناقص ولا تماري في معايب وجب تنقية الطريق الصوفي منها، وقلما رأينا في الإخوة المعادين للتصوف إجمالًا مَن تحلَّى بمثل تلك المناقب الرفيعة والشجاعة الأدبية النادرة في إصلاح مذاهبهم وتنقيتها من مناقصها، يقول الشيخ رضي الله عنه: «... ولو أن إخواننا (خصوم التصوف) نظروا إلى الواقع الفعلي فكافحوا معنا منكرات العصر ومبتدعاته (من نحو: الطبل، والزمر، والرقص، وتحريف أسماء الله، وغير ذلك من مناكر الموالد والتجمعات العامة)، ولو أنهم أخذوا طريق التعاون بالحسنى، والدعوة بالحكمة، لكان هذا أدنى إلى الصواب وأهدى سبيلًا عند الله والناس. أما حملتهم على هؤلاء الموتى ممن جنحوا إلى الفلسفة، فاستئساد على الرمم، وصِيال في غير مجال، ومبارزة مع الهواء الطلق؛ فهؤلاء الموتى ما يملكون الدفع عن أنفسهم، وليس من ورائهم وارث أو متبع يدافع عنهم، إلا إذا وُجد لمجرد التصويب وإحسان الظن بأهل القبلة، أو لمجرد الثقافة والتاريخ. وهنا أُقر بملء الثقة واليقين أنّ كل ما جاء منسوبًا إلى التصوف مما يخالف الكتاب والسنة، مهما كان مصدره، فليس -فيما نرى- من التصوف في شيء؛ لكون التصوف مقام (الإحسان) الذي سجله الحديث النبوي المشهور، وهو في تساميه أبعد من لهو الفلسفة وعبثها، وإن تأولت[1]».

١٠- لماذا نتصوف؟

سئُل رضي الله عنه عن قول الصوفية بضرورة وجود الشيخ، لتوصيل المريد إلى ربه، وعن قولهم: من لا شيخ له فالشيطان شيخه. وجاء جوابه رفيقًا حانيًا جامعًا دامغًا:

(١) «أبجدية التصوف» ص ٢٠، ٢١ .

يا ولدي، الصوفية في هذا يصدرون عن صحيح الشريعة، وصحيح الفطرة والطبع، وصحيح التجربة، وصحيح الممارسة والواقع:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

وفي الحديث الثابت: «**ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العِيِّ السُّؤَالُ**»[(١)].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

إذن فلا بد من قدوة، عالم، مسئول، هادٍ إلى طريق الحق، خبير بوسائل الفرار إلى الله والهجرة إليه؛ ألم تر إلى موسى كيف طلب المرشد ليتبعه، كما جاء في سورة الكهف، وكيف كان أدب موسى مع مرشده؟

ولذا كان لا بد لطالب حفظ القرآن من المقرئ الخبير بأحكام التلاوة وصحة الأداء، ولو تُرك القارئ العادي لنفسه لاستحال عليه أن يُحصِّل حق التلاوة وصحة الأداء، وبالتالي ربما اضطربت معه مفاهيم الآيات، وغابت الأحكام، وقل ذلك في علوم الدين واللغة، وكل علوم الدنيا -فكرية كانت أم عملية، حتى الحرف والمهن والصناعات، مهما علت أو دنت- لا بد لها من اختصاصي يُلَقِّنُها ويكشف أسرارها، فما لم يكن للمرء شيخ في العلم ضل وافترسه الشيطان واستهواه وجعل إلهه هواه، فهلك.

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ١٤٥) برقم (٢٣٦)، وابن ماجه: (١/ ١٨٩) برقم (٥٧٢)، كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وما لم يكن للمرء معلم في بقية الصناعات لما أصاب ولا أجاد، وربما هلك وهو يطلب الحياة؛ ومن هنا كان لا بد للسالك إلى الله من إمام يرشده ويوجهه ويسدده، ويكشف له أحابيل الشيطان في العبادات والمعاملات، والخواطر النفسية والإرادات القلبية، والواردات التي قد تكون أخطر على صاحبها من الكفر الصريح.

يا ولدي، فكر في موقف الإمام في الصلاة، وفي تلقي الرسول عن جبريل عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا سجل كبار أئمتنا أخذهم وتلقيهم عن كبار شيوخهم كابرًا عن كابر بالإجازة الشريفة، والثبت المحكم، وسواء في العلوم أو في تلقي البيعة الصوفية، واتصال السند، ولا يزال في عصرنا هذا الطالب الذي يستعد لأعلى درجات الثقافة (الدكتوراه مثلًا) لا بد له من مشرف يشاركه رحلة العلم والجهد ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٩]. وقد تلقينا من قواعد أهل العلم (غير الصوفية) قولهم: «لا تأخذ العلم من صُحُفي، ولا القرآن من مُصْحَفِي». و«الصحفي»: هو الذي جمع محصوله من الصحف وحدها دون مرشد. و«المصحفي»: من قرأ القرآن وحده، من غير موقِّف، وهذا مجرَّح عند أهل العلم.

ثم تأمل مرة أخرى بعثة الرسل إلى الناس، ونزول جبريل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالتوجيه والهداية.

ولا تنس -يا ولدي- أن التقاء روح الطالب والأستاذ، وتبادل الود، ووحدة الإرادة، واندماج الشخصيتين بالحب والتسامي، وقصد وجه الله؛ فيه أثر روحي ونفسي مقرر عند أهل العلم بالقديم والحديث، وحين يكون السند موصولًا يكون من ورائه سر يسميه الصوفية (بركة السند)، وإن لم يؤمن الجاهلون بسره؛ ألا ترى قوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤٦]. تأمل، فمن هنا تبدأ البركة، ثم تتسلسل، وأظن في هذا الإجمال كفاية إن شاء الله، وإلا ف ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]».

ومن الطبيعي أن يتبادر للأذهان مباشرة بعد العرض السابق لمفهوم التصوف تساؤل مؤداه: ولماذا التصوف ما دام هو جزءًا ركينًا ورصينًا من الإسلام؟ ألا تغني الدعوة إلى الإسلام الصحيح عن الدعوة إلى التصوف؟ بادئ ذي بدء، وقبل أن يزايد أحد على علمائنا، نبادر الإجابة بنعم، نعم الإسلام يشمل التصوف وغيره من الأفكار والمذاهب والطرق والفلسفات الصحيحة المستندة إلى الكتاب والسنة المطهرة، كما استنبطه منهما سلفنا الصالح وكما زخر بهما تاريخنا العامر بالعلماء والفلاسفة والمصلحين المتبعين لسلفنا وكذلك المجددون على نهجهم القويم، بيد أن السؤال على نحو ما سقناه ويسوقه الكثيرون ينطوي على مغالطة كبيرة وتشويه متعمد للحقيقة التي ننشدها وينشدها كل مخلص غيور على دين الإسلام الحنيف. وما أسهل أن نكشف عوار هذا التساؤل ونعري خبثه وخطره على الإسلام، فحين نتمادى في مثل هذه التساؤلات نقول: ولماذا ندرس ونفتي ونعلم ونقضي بالمذاهب الأربعة الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية؟ أليس الإسلام...؟ ولماذا ندعو بدعوى الوهَّابية والسُّنُوسِيَّة وغيرها من حركات الإصلاح السياسي والاجتماعي والديني؟ أليس الإسلام....؟ فما هذا التساؤل إلا كالسم حين يُدَس في العسل.

ويقول الشيخ ﵁ في معرض إجابته عن سؤال (لماذا نتصوف؟):

«التصوف من حيث هو خُلق وعبادة وجهاد فقد نزل به الوحي وجاء به القرآن، وأكدته السنة المحمدية؛ ولهذا قلنا: إن التصوف عندنا هو علم فقه المعرفة، فهو حصيلة الكتاب والسنة قولًا وعملًا وحالًا وإشارةً وعبارةً وغايةً وقيادةً وسيادةً، وإمامه الأكبر هو سيدنا رسول الله ﷺ، فالتصوف إذن إيمان وعقيدة، وعلم وعمل، وأدب ومحبة، وعبادة ورياضة، ودعوة وريادة، وسلوك تطبيقي يؤدي إلى رحاب الأسرار والأنوار، على معارج الصفاء والوفاء والمجاهدة، فهو طلب الكمال، وطلب الكمال فريضة على كل مسلم ومسلمة. ولا يتأتى الكمال إلا من تطبيق كل مبادئ الكتاب والسنة في ديننا ودنيانا. والإسلام دعوة للعمل، والتصوف تطبيق

عملي لما جاء به الإسلام في مرتبة الإحسان. وأساس هذا التصوف إصلاح القلوب، فليس مما يهمنا أبدًا تنميق الظاهر وتزويقه، فإنه ما لم يكن الظاهر أثرًا لحركة الباطن كان نفاقًا أو رِياءً أو خداعًا أو تضليلًا أو تمثيلًا يهدي إلى التخلف والجمود والذل والاستعباد والتفاهة. وفي الحديث الثابت عنه ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجَسَدِ لَمُضْغَةً إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فسَدَ الجَسَدُ كلُّه، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[1]. وقد سُئل رسولُ الله ﷺ: «أين التقوى؟ فأشار على صَدْرِه الشريفِ ثلاث مرَّاتٍ وهو يقولُ: «**التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا**»[2]. وأساس تصوفنا الكتاب والسنَّة، نمارسهما في رفق وسماحة وتدرج، ويسر وسَعَة أُفُق، وبُعد نظر، لتحقيق الربانية الحقَّة. ومن هنا نبدأ، فليس في اعتبارنا قطُّ صُوَر التصوف الكاذب السُّوقي، ولا تصوف الدعاوى والإعلان، ولا تصوف المحترفين والمنحرفين، ولا تصوف التحلُّل والزندقة، ولا تصوف الفلسفة البعيدة عن الإسلام، مما اندس في التصوف على مر العصور، كما اندس الدخيل في كل علوم الإسلام»[3].

١١- كيف نتصوف؟

أ- التصوف والإيمان بالغيب:

ويقوم شطر التصوف عندنا على (الإيمان بالغيب) ومحاولة التعرف عليه، والعلاقة العلمية به من باب العبادة والمجاهدة، والأدب والعلم الصحيح، فالتصوف إذن شطر الإيمان الأعظم، وبه تنحل المشاكل التي لا طاقة للعقل أو للعلم المادي على حلها، كمسائل القضاء والقدر، وحقائق ما بعد الموت،

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (١/ ٢٠) برقم (٥٢)، ومسلم: (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم: (٤/ ١٩٨٦) برقم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «البداية» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية، الطبعة الخامسة، ١٩٩٥ .

فليس لها من طريق إلا طريق الكشف[1] والشهود، والإلهام الصادق والإيمان الكامل محكومًا بالكتاب والسنة، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. ولذلك كان التصوف بهذا المعنى روح العقيدة، ومِلاك الإيمان، وكان المحروم منه محرومًا من أهم ثمَرات دين أهل القبلة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ب- التصوف والحياة الواقعية:

ولما كان الصوفي يعامل الله في أشخاص خلقه، فهو يحافظ أبدًا على ألا يراه الله حيث نهاه، ولا يفقِده حيث أمَره، فكل ما يصدُر عنه من أعمال الدنيا إنما يصدر عن إحسان ويقين واحتياط، وإجادة مطلقة، ومفضٍ إلى كل تجديد وأمانة وعفة، وتقديم وابتكار. فكل ذلك عنده عبادة مهداة إلى الحق، المستحق وحده للعبادة في كل صورة من صور الحياة العملية والفكرية. حتى صور الترفيه والمتعة الحلال التي تريح النفس وتملأ القلب بالحمد والشكر لله الكريم الوهاب فهي عند الصوفي عبادة يؤديها لله بحكم استخلافه على الأرض ليعمرها وينتفع بها، ويستمتع بما فيها من زينة الله والطيبات من الرزق. ومن هنا يظهر الأثر الكبير للتصوف المستنير في دفع عجلة الحياة كلها إلى التسامي والتقدم، وهكذا نرى أن التصوف الحق إنما هو دنيا ودين، وعبادة وخُلق، وكفاح وإنتاج، وظاهر وباطن؛ لأنه علم وعمل تطبيقي سلوكي رفيع، مَن فاته نصيبه منه فقد فاته الخير الذي لا يعوض، ولزومه للشباب وللشيب ضرورة حيوية مادية وروحية معًا، فهو الطريق الوحيد لرد الاعتبار الإنساني المفقود في أسواق المادية على مختلف اللاأخلاقيات المنكرة.

---

(١) راجع في معاني الكشف عند الصوفية: «تحقيق الذوق والرشف في معنى المخالفة الواقعة بين أهل الكشف» للنابلسي، «الحلي في كشف الولي» لابن عربي، «الجلوة في أقسام الكشف والعزلة والخلوة» للمرصفي، «الحق الصريح في الكشف الصحيح» لإسماعيل حقي.

جـ- التصوف والأمن ومكافحة اللاأخلاقيات:

والتصوف من حيث هو عقيدةٌ وخُلق يعتبر من الوجهة العملية والاجتماعية ضرورة حتمية لا بديل لها في مكافحة الجريمة، وتحقيق الأمن الخاص والعام، وتقويم الانحراف، وإيقاظ الضمير، والتماس معالي الأمور في الحس والمعنى، والدفع التقدمي إلى منتهى المجد والشرف والعزة؛ إذ إن الصوفي يعامل الله في كل مطالب الحياة، فالتاجر الصوفي لا يغش، والعامل الصوفي لا يهمل، والحارس الصوفي لا يخون، والصانع الصوفي يجدد ويخترع ويبتكر، والموظف الصوفي شريف مجتهد، والفلاح الصوفي جاد منتج، فالتصوف إذن ضرورة حتمية لخدمة الحياة الدينية والاجتماعية، والعلمية والفكرية، والأدبية والوظيفية، والجندية والتجارية، والتربوية التقدمية، وغيرها. ونحن نعتبر ساداتنا صحابة الرسول ﷺ هم أئمة الصوفية الحقة، ومن بعدهم صالحو التابعين وتابعو التابعين، إلى ساداتنا أئمة الصوفية أجمعين، فمن خالفهم فليس منهم مهما ادعى الولاية، أو جاء بالخوارق، أو استغفل الناس بأعمال الجن والسحر، أو ادعى على الله الكذب بأنها كرامات، أو ادعى تخصيص النبي ﷺ له من دون خلق الله، أو أنه يصلي بروحه في القدس أو الحرمين ولا يصلي مع الناس، أو ما شابه ذلك من هذا الضلال المبين.

ولا ننكر أن لله سبحانه (أبدالًا وأوتادًا ونجباء)، وغير ذلك مما جاءت به الأحاديث (على اختلاف درجاتها) في آفاق ومراتب ومعارج السلوك، ولكننا ننكر الدعاوى والتضليل، والمتاجرة باسم الولاية والتصوف المظلوم.

وبعد هذه المصطلحات الموجزة المباني الرحبة المعاني من كتابات شيخنا الجليل ومناظراته العلمية الرائقة، الفائقة، الحية، المفيدة دومًا لطالب الحق والحقيقة في التصوف الشرعي، نختِم هذا التقديم للنظرية الإصلاحية للشيخ الرائد بهذا النص البديع الجامع في تعريف الصوفي الحق:

«تستطيع أن تعرِّف الصوفي الحق بأنه المسلم النموذجي، فقد أجمع كافة أئمة

التصوف على أن التصوف هو الكتاب والسنَّة في نقاء وسماحة واحتياط؛ لذلك اشترط أئمة التصوف اتباع الكتاب والسنة في عهودهم مع مريديهم، التي هي عهود التزام بممارسة وصحبة عملية لتطبيق أحكامهما في ذات المريد وقلبه ونفسه ثم فيمن حوله؛ أخذًا بقوله تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. والعلم هنا في الآية الكريمة هو أولًا علم الدين بدعامتيه «الكتاب والسنة»، ثم هما بدورهما منبع كل علم إنساني نافع يؤدي إلى تطور الحياة وتقدم البشرية على مستوى الحضارات الإنسانية كافةً.

فالتصوف إذن هو ربانية الإسلام الجامعة للدين والدنيا، فكما قال الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي رحمه الله تعالى: «إن الصوفي مَن يضع الأشياء في مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم، فيُقيم الخَلق مقامهم، ويُقيم أمره مع الخلق مقامه، ويَستر ما ينبغي أن يُستَر، ويُظهر ما ينبغي أن يُظهَر، ويأتي بالأمور من مواضعها بحضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صِدق وإخلاص»[(١)].

ومن هنا جاء قول أئمة التصوف، وفي مقدمتهم الإمام الجُنيد: مَن لم يحصِّل علوم القرآن والحديث فليس بصوفي. وأجمع على ذلك كل أئمة التصوف من قبل ومن بعد، وتستطيع مراجعة نصوص أقوالهم عند القُشَيْرِي، والشَّعْرَانِي، ومَن بينهما، ومَن بعدهما رضي الله عنهم.

أما الامتياز عن عامة المسلمين، فالقاعدة الإسلامية هنا هي العمل، فإذا عمل الصوفي بمقتضى ما يتوجب عليه كقدوة وداعية امتاز بمقدار جهده شأن كل متخصص، وإلا فهو دون كل الناس إذا انحرف أو شذ، بل وإن تجاوز، فالصوفية يجعلون خلاف الأولى في مرتبة الحرام اتقاءً للشبُهات، واستبراءً للعِرض والدين؛

(١) راجع: «الخطط التوفيقية» لعلي باشا مبارك رحمه الله تعالى (١/ ٩٠)، المطبعة الأميرية، سنة ١٣٠٥هـ.

ومن نصوص الحديث كما في الفتح الكبير قوله ﷺ: «**الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرَامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُما أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُها كَثيرٌ مِنَ الناسِ، فمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ ودِينِهِ، ومَن وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الحَرام، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وإنَّ حِمَى اللهِ تعالى في أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهي القَلْبُ**»[(١)]. فالصوفية يعرفون كيف أن السلف كانوا يتركون تسعة أعشار الحلال خوف الوقوع في الحرام، فهم يؤمنون بهذا، وهو من كلام سيدنا عمر رضي الله عنه، ويحاولون العمل به، والله تعالى يقول: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وفي بيان علمي مفيد وقيِّم عن مدى وجود فرق بين الصوفي والمسلم والمؤمن والتقي يقول رضي الله عنه:

«إن الإسلام شرع لنا تعريف الناس بخصائصهم، وذِكرهم بما يميزهم عن غيرهم، وقد ذكر الله المهاجرين والأنصار بخصيصتهم تعريفًا، وهم مسلمون مؤمنون أتقياء، وذكر رسولُ الله ﷺ بِلالًا الحَبَشِي، وصُهيبًا الرُّومي، وسلمان الفارسي بما يميزهم من الألقاب، وهم مسلمون مؤمنون أتقياء، وذكر القرآن من المسلمين أصنافًا: الخاشعين، والقانتين، والتائبين، والمتصدقين، والعابدين، والحامدين، والسائحين وغيرهم، وكلهم من أهل لا إله إلا الله؛ إذن فذكر إنسان بخصيصة عُرف بها عند الناس سنة قرآنية ونبوية، وما دامت هذه الطائفة قد عرفت باسم الصوفية لسبب أو لآخر فليس بدعًا أن تُدعى بهذا الاسم.

فالصوفية عندنا هم السادة عباد الرحمن، المذكورون في أواخر سورة الفرقان...... المعتصمون بما جاء من العلم والعبادة والخُلق في منثورات الحديث

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (١/ ٢٠) برقم (٥٢)، ومسلم: (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

الشريف والقرآن، والمؤثرون بخصائصهم الرفيعة وروحانيتهم السلفية في مسيرة الحب والتجميع والسلام والسماحة والحضارة والتقدم والعمران، لا لجاه ولا دنيا ولا سلطان، والمندمجون في الحياة بمواهب التسامي والدعوة والمرونة والرجولة والقدوة والوسطية لله تعالى، ثم للأوطان، كما قال شيوخنا العارفون: «قلب مع الحق، وبدن مع الخلق، الجمع في الجَنان والفرق في اللسان»، وذلك هو مقام الإحسان، وهو الجوهر الصافي الشرعي المنشود من الصوفية.

وفيما يلي نص الثبت الذي يتلقاه السالك أو المريد أو طالب العلم من الشيخ ويحاسب نفسه عليه، ويقيم أفعاله وفق مقتضاه، وهو جوهر «العهد» أو «البيعة» بين الشيخ ومريده في الطرق الصوفية السلفية الشرعية:

* **الطريقة المحمدية**[1]: طريقة صوفية سلفية شرعية مستنيرة فريدة قديمة، موصولة السند بمولانا المصطفى ﷺ من عدة مشارب ظاهرية وباطنية؛ ولهذا انتسبنا إليه ﷺ، وسميت الطريقة بالمحمدية، فنحن ندور في فلك الكتاب والسنة على المثاليات الروحية والأخلاقية والإنسانية، ونربط بينها وبين الحياة العامة ومتطلباتها المختلفة على الأسلوب الرباني المحمدي الرفيع؛ لنؤدي رسالة الخلافة على الأرض ماديًّا ومعنويًّا على خير ما نعتقد أنه يرضي الله ثم الناس، في براءة مطلقة من الفتن والمشاغبات، وبُعد تام عن الريب، وتنزه عن الشكوك والظنون والمشكلات، واحتياط دون المناكر والبدع والمحرمات.

* **أساسها**: علم الكتاب والسنة الذي يخدم الفرد والأسرة والمجتمع والأمة.

* **سبيلها**: العلم والعمل، في سماحة ورفق وترفُّع وأدب واحتياط واستمرار، وعلاقة تامة بالله عز وجل.

* **وطريقتنا** تنتسب إلى سيدنا محمد ﷺ بسلسلة الإمام الشاذلي ظاهرًا من

(١) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية الشاذلية» (ص١٩٨ وما بعدها).

طريق الأشياخ وباطنًا من طريق التلقي الروحي[1] المباشر عن طريق الحضرة النبوية المشرفة، ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

* **سند الطريقة**: يتصل سندها أساسًا بالإمام علي أبي الحسن الشاذلي من سلسلة الإمام العلامة المحدث الرحالة العارف محمد بن ناصر الدرعي المغربي الشاذلي، الذي ينتهي إليه نسب أكثر فروع السادات الشاذلية الكبرى، فهي أخت شقيقة لكل السادات الشاذلية الشرعية، محبة بحق للجميع على اختلاف الفروع والتسميات، وسندها متصل بجميع إسنادها، ولله الحمد ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وللطريقة أنساب أخرى للتيمن والتبرك والسند، متصلة بالأقطاب الأربعة (الإمام الرِّفاعي، والجِيلاني، والبَدَوي، والدُّسُوقِي) ثم بالسادات الخَلْوَتِيَّة والعفيفية والنَّقْشَبَنْدِيَّة والإدريسية، والحصافية، والسُّنُوسِيَّة، والوفائية، والفاسية، والقاوقجية، والعقادية، والتِّجانية، وغيرهم. ولهذا نحن نحب بكل الصدق جميع الطرق الشرعية الراشدة، ونتبرك بها وبأشياخها (أحياء ومنتقلين)، ونعتبر أننا جميعًا أبناء عمومة روحية أصيلة في الله، بلا تعصب ولا تفريق ولا مفاضلة ما داموا عاملين بشرع الله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ليس في طريقتنا طَبْل، ولا زَمْر، ولا رقص، ولا مواكب، ولا رايات، ولا أوشحة، ولا بدع، ولا متاجرة بالكرامات والخوارق، ولا عمائم ملونة، ولا تخريف، ولا شعوذة، ولا تَبَلُّه أو تَبَلُّد، أو تبطل أو تعطل، ولا تظاهر على الإطلاق، وإنما هي صورة صحيحة من السلف الصالح رضي الله عنهم؛ أقوالًا وأعمالًا وأحوالًا، فلا رفع تكليف ولا وحدة ملحدة.

(١) التلقي الروحي عندما يقول به عالم ثقة مشهود له من علماء عصره فالمقصود به قد يكون الرؤيا الصادقة، أو المشاهدة الروحية، أو غير ذلك مما فصله العلماء، وقد جمع الشيخ رحمه الله تعالى كل ما في المسألة من أدلة شرعية ومشاهدات وآراء لعلماء السلف في رسالة قيمة أسماها (حياة الأرواح بعد الموت).

طريقتنا هذه للخواص والقادة أساسًا، ثم لصفوة الجماهير الراشدة، ولطلاب الحقيقة والنور والدار الآخرة، فليست هي للحشد، ولا المكاثرة والمفاخرة، ولا الإعلان والمراءاة والدعاية، ولكنها للقلة الفاضلة العاملة لوجه الله وحده ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨].

نحن نحب جميع الطرق الشرعية مهما اختلفت المشارب والمناهج والأسماء، ولكن لا نفضل طريقة على طريقتنا قطُّ، ونحن نحب جميع مشايخ الطرق الشرعية الأحياء والموتى، ونتبرك بهم ما داموا يخدمون في حقل الدعوة إلى الله بلا دعاوى ولا بدع ولا مظهريات، ولكن لا نقدمهم على أشياخنا قط.

إن كبار أئمتنا الصوفية الذين بلغوا درجة الكمال قد تلقوا الطريق للبركة عن عشرات معاصريهم الأولياء، مما يدل على أن العصبية المقيتة لم تكن لهم على بال، بل كان كل واحد يعتقد كل الخير في أخيه، فيتبادلون التلقي والتلقين في ثقة وحب وعقيدة وتعاون ويقين، فهم أسرة واحدة، وإن تباعدت البلاد والأجساد، نحن نحب جميع أولياء الله (أحياء ومنتقلين)، من كل مذهب ومشرب شرعي، ونزورهم ونتبرك بهم جميعًا. وكما لا نفرق بين أحد من رسله تعالى لا نفرق بين أحد من أوليائه الصالحين، ولكننا نترك الحكم بالأفضلية الغيبية بينهم إلى الله الذي لا يعلم الغيب سواه (فإن المقتحم على الغيب كذاب)، ويعلم الحقيقة وحده، فلا نقتحم سره المكنون. ولا نبالغ في إطراء الشيوخ إطراء يفضلهم جهلًا على رسل الله، ونستغفر الله.

نحن نتوسل بالأولياء إلى الله على أساس علمنا وتجاربنا معتقدين أن الله وحده القادر الفعال. والاستشفاع إليه تعالى بالأولياء إنما هو مجرد سبب، زيادة في العبودية وتأكيدًا للتوحيد الحق، واعترافًا بالتقصير المطلق، وهو تذلل عملي يفيد معنى خصوصيته تعالى بالطلب وزيادة، وما خطواتنا إلى المشاهد والمساجد، وأنفاسنا فيها، وابتهالاتنا إلى الله بها، إلا أنواع من التوسل بالعمل الصالح بجوار التوسل ببركة

الروح الصالح، والفاعل في الحياة والموت هو الله، لا الأحياء ولا الأموات، فمن شاء توسل فأحسن، ومن شاء ترك، والله رب قلوب.

كل من بايع (ولو قلبيًّا) على طريقتنا، وعمل بأعمالنا، وقال بأقوالنا، واعتقد عقائدنا، واعتاد عاداتنا، وشهد مشاهدنا، ودعا بدعوتنا فهو منا، له ما لنا من حقوق، وعليه ما علينا من واجبات، سواء في ذلك من كان في المشرق أو في المغرب، أو الشمال أو الجنوب، وسواء في ذلك الأمير والفقير، فالأخ الجاهل في ذمة العالم، والأخ الضعيف في ذمة القوي، والأخ الفقير في ذمة الغني، والأخ العاجز في ذمة القادر، كل بحسب حدود طاقته، ما في ذلك عذر لمعتذر، قد ذابت بيننا الفوارق، فلا اعتبار في أخوَّتنا إلا للتقوى، والتقوى لا غير، بكل ما تجمعه من أرفع المعاني، والعهد عهد القلب، لا عهد اللسان.

كل حركاتنا وسكناتنا وأنفاسنا وخطواتنا وأقوالنا، وأفعالنا وأحوالنا، وكل شئون معادنا ومعاشنا، حتى المرح والمتع مراد بها عندنا وجه الله وحده، فهي بحسن توجيه نياتنا وحضورنا مع الله صلواتٌ وعبادات وأوراد وأذكار؛ ولهذا نحن نقول: أخونا فلان -أو سيدي فلان- في وِرد العمل، أو ورد الراحة، أو ورد النوم، أو ورد العبادة، أو ورد الفسحة، أو ورد المطالعة، أو ورد الزيارة، أو ورد الكتابة، أو غير ذلك؛ تيمنًا وتذكيرًا وتوجيهًا إلى معالي الأمور.

ونحن نؤمن تمامًا بكرامات أولياء الله أحياءً وأمواتًا، ولكننا نرفض المبالغات والشعوذات والتلفيقات نهائيًّا. ونحن لا نفضل على أشياخنا أحدًا أبدًا، بحكم الأبوة المقدسة، وحقوق الأدب والوفاء، وأمانة الدعوة النظيفة الطاهرة ﴿ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧].

إن للطريقة المحمدية شخصية ذاتية مستقلة تمامًا، ولها كيانها المحدد المعين الذي لا يماع في غيره، ولا يقلد في سواه، ولا يشتبه على السالك الراشد، والدارس الواعي.

* **شعار الطريقة:** ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

* **دعوة الطريقة:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

* **رسالة الطريقة:** ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

* **جهاد الطريقة:** ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* **وسيلة الطريقة:** ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

* **خطة الطريقة:** ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧].

* **رجال الطريقة:** ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

* **دستور الطريقة:** الكتاب والسنة، في يُسر، وسماحة، وربانية، وسَعة أُفُق.

* **منهج الطريقة:** العلم، والعمل، والإيمان، والتعاون، والتعبد، والفضيلة، والأدب، والمحبة.

* **كفاح الطريقة:** مكافحة البدع، والمنكرات، والمحرمات، والجمود، والجحود، والتفاخر، والتظاهر، والدعاوى والدعايات والتجني على أهل الله والتصوف.

* **خصيصة الطريقة:** حسن الظن، وحسن الخُلق، وحسن العبادة، وحسن السمت، وحسن المعاملة، وإرادة وجه الله وحده، ظاهرًا وباطنًا.

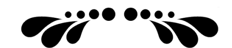
* **إجازة الطريقة**: المصحف الشريف أساسًا ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ثم لكي تستكمل ثقافتك عن (الطريقة المحمدية) لا بد من أن تطالع مطبوعاتها لتعرف مدى شرعيتها التامة وشخصيتها المتكاملة المستقلة التي تتناسب مع كل إنسان وكل زمان ومكان ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]».

لا بد من مطالعة (أبجدية التصوف)، و(الوسيلة والقبور)، و(أصول الوصول)، و(البيت المحمدي) و(الأوراد) وبقية رسائل الإمام الرائد لتعرف دليلك الشرعي فتدفع عن قلبك وعقلك بعض ما يثيره خصوم التصوف وأدعياؤه معًا، وهم كثير.

انتهى ثبت الطريقة المحمدية الشاذلية السلفية الشرعية

علمًا بأن كل كلمة أو عبارة في هذا الثبت عن طريقة الشيخ الصوفية المحمدية الشاذلية كان يوليها الإمام الرائد شرحًا وتوضيحًا في مجالسه ودروسه وخطبه وكتبه ومؤلفاته المتعددة، ثم كان ﷺ بين الحين والحين يتفقد تلاميذه ويختبرهم فيما ألقاه عليهم من دروس.





المسألة الأولى

النظرية الإصلاحية للتصوف عند الشيخ رضي الله عنه

أولا: التصوف الحق

التجديد في مفهوم التصوف عند الشيخ

من أهم ملامح التجديد عند الإمام الشيخ رضي الله عنه صياغته للنظرية الإصلاحية الصوفية السلفية المعاصرة بأسلوب لم يسبق إليه أحد فيما نعلم، والذي استخلصناه من كتابات الإمام الرائد عبر عشرات السنوات؛ فالتصوف عند الشيخ هو طريقة تربية عامة لجميع الراغبين من المسلمين في تزكية أنفسهم ومحاسبتها بصورة عملية، وهي طريقة ربانية قائمة على الكتاب والسنة، فليس بها أي ورد أو حزب أو ذكر أو علم أو سلوك إلا ويستند إلى دليل من المصدرين العظيمين، ومن ثم فهي طريقة تؤدي إلى التطهير العملي للنفس، أو التصفية والتنقية لأتباعها وتدريبهم على مراقبة الله تعالى، والتفكر واستحضار النوايا في كل الأمور الدينية والدنيوية، فهي تدعو إلى المواظبة على العلم والتعلم والعمل الدءوب لخدمة البشر والاستمرار في الدعوة إلى الله بشتى السبل المتاحة داخل مجتمع المسلمين بالأمر والنصح، وخارج مجتمع الإسلام بالدعوة إلى الإسلام بالفطنة والحكمة، وذلك تحت أي ظروف، وأيًّا ما كانت الإمكانات المادية والمعنوية، ولذا فاتباع الطرق الصوفية الحقة من شأنه أن يوطد الارتباط الظاهري والباطني بالله جل شأنه.

ويراعي الشيخ في طريقته التجديدية فقه التدرج -بدليله الشرعي- بالمريدين حتي يصل بهم بيسر ورفق وسماحة إلى درجات القرب من رب العالمين. وطريقة شيخنا رضي الله عنه قائمة على البعد عن الخرافات والبدع ومحاربتها بالأساليب الشرعية

المتنوعة، وقد شدد رضي الله عنه على أهمية الدعوة إلى إبطال بدع «المتمصوفة»؛ إذ إن هذه البدع والخرافات من أسباب التحامل غير المنصف على التصوف والصوفية بصفة عامة جهلًا كان أو عمدًا.

يقول الشيخ رضي الله عنه في عرض منهج النظرية الإصلاحية: «التصوف المنقّى حركة إصلاحية إيجابية موصولة السبب بحركات الحياة كلها، شأن كل حركة إصلاحية لا تنفك عن كافة مقومات الحياة، ومظاهر العمران والثقافة والاقتصاد والسياسة والآداب والفضائل، حتى فيما غاب سره عن بعض المتعلمين والمتعالمين، كدعوة بعض الشيوخ بعض مريديهم إلى جانب من الخمول والانطواء والانزواء والخلوة، فإنما يكون ذلك هو وحده ولا غيره دواء لداء هذا المريد، الذي افترسته أوبئة الكِبر والخيلاء والعظمة والحُمق، وحُب الطُّغيان والمُفاخرة، فيَعزِله شيخُه كما يَعزل الطبيبُ مريضَه، وربما سقاه من السموم ما ليس غيره دواء لدائه حتى يشفى»[1].

ويقول أيضًا رضي الله عنه: «إن التصوف الإسلامي في ذاته وأهدافه حركة إصلاحية اجتماعية وروحية شاملة، يترتب عليها صلاح الفرد والجماعة والشعب والدولة من كل جوانبها، وما يتعلق بها، فمتى استقام الباطن على الطريقة المُثلى والعلاقة الكبرى بالله، كان أداة تنفيذ آلي لحكم الله وقوانين السماء، لا يقوى بفطرته وحكم تربيته أن ينزل عنها أو يترخص فيها، وبهذا تستقر الدولة وتتقدم من ورائها كل قوى السماء»[2].

ثم يلخص الشيخ رضي الله عنه النظرية الصوفية الإصلاحية قائلًا: «تتلخص نظريتنا

(١) «أثر الطرق الصوفية في المجتمع»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثامن، السنة التاسعة، غرة ربيع الأول ١٣٧٩هـ، ٤ سبتمبر ١٩٥٩م.

(٢) «معارف إجمالية عن التصوف»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة الثامنة، غرة رجب ١٣٧٨هـ، ١٠ يناير ١٩٥٨م.

الصوفية الإصلاحية في أن المجتمع الرباني هو المجتمع الفاضل، والمجتمع الفاضل هو هدف الإسلام، والإنسان الرباني الفاضل هو نواة المجتمع الرباني الفاضل طبعًا، والربانية والفضل حقيقتان متلازمتان تنبعان من القلب وحده، عندما يتخلص من أوضار الأخلاق الكريهة، والطباع الحيوانية وشذوذ النفس وحكم الشيطان، وهي أوبئة وأمراض فتّاكة وعُقَد نفسية ورُوحية يعالجها الطبيب الرائد الروحي العارف بالله في المريد الباحث عن الحقيقة السالك إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وتطبيبه وعلاجه كلها ألوان خاصة من العبادة كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ولفلسفة العلاج بالعبادة والإصلاح بالذكر تحت العلم والدين بحوث غير هذا إن شاء الله»[1].

ثم يسوق الشيخ رضي الله عنه الحجج الشرعية والعقلية المناسبة لطريقة التفكير الشائعة لدى مثقفي الأمة في هذا العصر، تلك الحجج الدالة على ضرورة وجود المربي أو الشيخ، ولزوم الجماعة المؤمنة، وأهمية الاجتماع النافع، فيقول رحمه الله تعالى: «ولو كان يكفي في هذا محض الاجتهاد الفردي، ما جاءت رسالات الله على ألسنة رسل مبشرين ومنذرين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ولو كان يكفي فيها الانقطاع والانطواء والفردية، لما قال تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ألا ترى إلى الحكمة الشخصية والاجتماعية في مشروعية الجماعة والجُمعات؟ ولو كان الأمر يتعلق بالظواهر هنا لما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٩]. وهذا القلب السليم هو أهم أركان الكمال، والكمال هو دين الله، وبه وصف الله نفسه، وبه فقط يصلُح القلب، فإذا صلُح القلب صلح الشخص، وإذا صلح الشخص صلح المجتمع.. والمجتمع الصالح نواة الدولة الفاضلة والحكومة الفاضلة. وقد بين الله سبحانه في كتابه العزيز

(١) «أيها الصوفيون: دعا الداعي وصاح الديدبان»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة الرابعة، غرة رجب ١٣٧٤هـ، ٢٤ فبراير ١٩٥٥م.

أنه بإمكان كل فرد وكل جماعة إصلاح قلوبهم وتغيير أنفسهم إلى الأفضل؛ فقال عَزَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

والقلب السليم يؤدي إلى الربانية والفضل، وذلك الإنسان الرباني الفاضل هو منتج حر مجدد، ناهض، طموح، نافع، ارتقى بمعرفته بالله وبعبادته الخالصة لله. والعبادة المخلصة تحرر وسيادة؛ فالعابد المخلص عبد رباني، كل اتجاهاته وآثاره مطهرة غير معلومة ولا مدخولة، أيًّا كان وضعه في مجتمعه: عالمًا أو متعلمًا، حاكمًا أو محكومًا، رئيسًا أو مرءوسًا، صغيرًا أو كبيرًا.

ومن هنا يتأتى المجد الفردي الصحيح، الذي هو أساس المجد الشعبي والدولي، وهكذا تتحقق للمسلمين فرادى وجماعات الخلافة التي أرادها الله لهم في الأرض، الخلافة الصالحة بكل معانيها الظاهرة والباطنة، الدنيوية والأخروية، ألا ترى إلى الحكمة الشخصية والاجتماعية في فضل الجماعة والجماعات؟ فالجماعة الصالحة تهدي الفرد إلى الصلاح، ولكن أهمية الجماعة والعبادة الظاهرة في الجماعة لا تنفي أهمية بل وضرورة الإخلاص الباطني لكل فرد صالح من أفراد الجماعة الصالحة، ولو كان الأمر يتعلق بالظواهر فقط لما قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]، والناس في طلب الكمال صوفي ومتصوف ومتشبه، فكن واحدًا منهم، ولا تكن الرابع (المتمصوف) فتهلك»[1]. وبهذا الصدد يسترسل شيخنا رضي الله عنه قائلًا: «وبصلاح الأفراد يصلح المجتمع، فمع كثرة الصالحين واجتهادهم في دعوتهم ومثابرتهم وانتشارهم، تأخذ مقاليد الأمور في الأيلولة إليهم شيئًا فشيئًا بالطريقة الآلية الطبيعية السلمية، بحكم الانتشار والكفاية والصلاحية والاستمرار؛ وبهذا تتحقق التقدمية الإسلامية، والإصلاح السلمي، على التدرج العادي دونما طفرة ولا إزعاج، وإذا هو المجتمع الفاضل، وهذه كلمة الله هي العليا

(١) «الخطاب» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم.

وكتاب الله هو الحكم ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]».

ثـم يرتقي الشيخ ﷺ بأتباعه حتى يستوعبوا جوهر التصوف والهدف الذاتي المباشر الذي يجنيه المريد من اتباع الطريقة الصوفية(١)، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا تحقق العبد بهذه المعاني واتقى الله تعالى بجوارحه وقلبه، فرق وراق، وأدرك وذاق، ومن نومه أفاق، أخذ يترقى في معارج القرب، وينتقل في مدارج الأُنس، فكان من أهل حضرة القدس، تُفاض عليه المواهب والعطايا والمعارف، وتطوع له الأكوان والسنن والخوارق، وتنفعل له الأشياء بقوة ذي القوة والقدرة، فإذا هو سبحانه وتعالى وقد صار لعبده ذاك بصرَه وسمعه ويده ولسانه وجوارحه كلها؛ كان طالبًا فأصبح مطلوبًا، وكان محبًّا فأصبح محبوبًا، فهو بباطنه في عالم الحق وبظاهره في عالم الخلق، ودخل من رُواق الشريعة إلى حَرَم الحقيقة، مستقيماً على الطريقة، فشرب الكاس، ونسي الناس، وأصبح ربانيًّا بما كان يعلم، وما أصبح يعلم.. ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وما كل بشر إنسان.. وما شاء الله كان»(٢).

وسوف يرى القارئ أن كل جوانب التجديد التالية ما هي إلا جوانب تطبيقية عملية للنظرية الإصلاحية للتصوف عند الشيخ رحمه الله تعالى، سواء في مجالات الذكر وتلقي العلم والطريق والسلوك، أو في مجالات الدعوة والجهاد والسعي في الأرض.. يقول ﷺ معرفًا بهذه الدعوة التي قضى عمره في خدمتها:

«هذه الدعوة المحمدية الربَّانية ترتبط (اسمًا، وُروحًا، ورسمًا) بسيدنا مُحَمَّد

(١) راجع المزيد حول الطريقة الصوفية في: «إتحاف أهل العناية الربانية في اتحاد طرق أهل الله وإن تعددت مظاهرها الحقانية» لفتح الله البُناني، «الصدق والتحقيق لمن أراد أن يسير بسير أهل الطريق» لأحمد الجُنَيْدِي الميموني، «تبيان وسائل الحقائق في بيان سلاسل الطرائق» لكمال الدين محمد الحلبي، «الكأس الرائق في سبب اختلاف الطرائق» لمصطفى البَكْري، «عنوان التوفيق في آداب الطريق» لابن عَطاء الله السَّكَنْدَرِي، «القول الحقيق في سلوك الطريق» لعبد الوهَّاب الجِيلاني، «الروض النشيق في علم الطريق» لشمس الدين الحَنَفِي، «المسلك الرشيق إلى بعض معاني الطريق» للمساوي، «زهر الحقيقة في شرح رجال الطريقة» للنابلسي، «تحصيل الحقيقة في تفصيل الطريقة» للكَلاعي.

(٢) «الخطاب» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم.

رسول الله ﷺ من قديم، فهي موصولة بالله تعالى، وهي ملخصة في كلمتين هما (طلب الكمال)، وأساسه: العمل بربَّانية الكتاب والسُّنَّة، والإقبال على الله تعالى، فكرًا ونيةً، وقولًا وعملًا، وحالًا وسلوكًا، خصوصًا وعمومًا، جهد الطاقة، في يسر ورفق وسماحة وسعة أفق.

وربَّانية الكتاب والسنة هي: التصوف الراشد الواعي المستنير المبرأ من المآخذ، والذي به يتم التوازن النفسي، فتنحلّ العقد الذاتية، والتوازن الروحي، فتتحقَّق الربَّانية، والتوازن الاجتماعي، فتتكشف الأزمات، وتذوب المشاكل، وتتحقق الآمال. ومن ثَمَّ كان التصوف (طلب الكمال) شرعًا وعقلًا وعرفًا، فرض عين على كل مسلم ومسلمة، والتقصير فيه لا يغتفر.

ولـ(طلب الكمال) منهج وطريق وسبلٌ شرعية بينها القرآن الكريم، ووضحتها السُّنة النبوية.

أهداف النظرية الإصلاحية

ويتلخص الهدف في كلمات قلائل هي: خدمة القيم الرُّوحية، التي نصَّ عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أي خدمة العقيدة الحقة والفضيلة والتسامي بإنسانية الإنسان وأخلاقه وأهدافه في مجال تحقيق المقاصد الإسلامية.

فالهدف إذن هو الإصلاح الروحي، بإصلاح الفرد في سبيل إصلاح الجماعة.

ويستتبع هذا، بالطبع، النقد البنّاء والنقد الذاتي: مكافحة المتفق على ممنوعيته من المناكر والمبتدعات، واللاأخلاقية واللادينية، والعلمانية والصهيونية، وتكفير الناس وإرهابهم، والتخريب والتدمير، والتفريق والتمزيق، وكل المذاهب المنحرفة، وافدة كانت أو متوطنة، مكافحةً علميةً سليمةً إقناعيةً مهذبةً، في حكمة ورحمة، ومحبة وسماحة، مع التبصير والتذكير بمعالي الأمور، والبعد عن سَفسافها، سيرًا في ظلال الركب الشعبي والرسمي، الماضي إلى أعظم الغايات بإذن الله تعالى.

منهج النظرية الإصلاحية

هو التزام المنهج الصوفي السلفي الإيجابي النقي كمبدأ عام، بغير نظر إلى شيخ معين أو طريقة بالذات، فالكلُّ -بحمد الله- يدعو الخَلْقَ إلى الحَقِّ. والصوفية المستنيرة المتقدمة أمَّةٌ واحدة في جميع أطراف الدنيا، والدعاة إلى الله بحقٍّ أسرة واحدة، وإنْ شَطَّ بهم المزار. وكما لا نفرق بين أحد من رسله تعالى، لا نفرق بين أحد من أوليائه؛ بل نحبهم جميعًا ونتبرك بهم، ونحسن الظن بما جاء عنهم، وندَع أمر تفضيلهم إلى الله.

أمَّا أساليب التربية، وصور التعبد الشرعي، واختلاف تسميات الطرق، وتعدد الشيوخ والأئمة، فأمر طبيعي عادي لا بد منه، لمواجهة كافَّة الاستعدادات والقابليات، والميول والأذواق. وهذا يتعين معه فرضية التعايش السلمي والتعاون الكلي بين المذاهب والجماعات والطرق الصوفية، على خط الانتفاع بها في خدمة أهداف الأمة دينًا ودنيا. وهذا يستوجب حتمًا تأييد الحركة التقدمية المحمديَّة لتحرير التصوف الإسلامي وتطهيره وترشيده وتطويره، حتى يؤدي وظيفته الإنسانية الربَّانية المقدسة نحو الفرد والمجتمع.

النظرية الإصلاحية للدعوة

ونظرية الدعوة المحمدية نظرية علمية عملية تربوية، تعلم المنضمين تحت لوائها كيفية الجمع والإعمال الشرعي المستنير لفقه التدرج وفقه الأولويات وفقه الاختلاف المستمد جميعه من الكتاب والسنة، والمستنبط منهما طبقا لمنهج السلف في الأصول والاستنباط والأخذ بآرائهم وأفعالهم، فهي في غاية البساطة تتلخص في كلمتي (الصلاح والصالحين).

فإنَّه إذا انتشر الصلاح، وبالتالي كثر الصالحون، فإنَّ الأمور كلها تصلح تلقائيًّا؛ إذ إنه لا يصدر عن الرجل الصالح إلا الأمر الصالح.

ومع كثرة الصلاح والصالحين في المجالات المختلفة، يقل الفساد وأهله فيها آليًّا، فتفيض الربانية، ويتعامل الناس على أساس (القيم الرُّوحية).

فإنَّ كل ما عرفته الدنيا من فضائل الدعوة الإسلامية إنما هو شيء من بسائط مأثورات التصوف الإيجابي الذي يساهم في صنع التقدم وتحصين التيار الفكري، وينظم التعبئة الروحية، ويدفع إلى تحقيق شريعة العدل والكفاية والسيادة (شريعة الإسلام الخالدة) من خلال الإيمان والعلم والعمل والتعبد والعلاقة بالله تعالى.

أجهزة الخدمة لتحقيق النظرية الإصلاحية

في حدود القانون والنظام تُشْرِف مجالس ولجان علمية وأدبية مفصلة بـ (لائحة النظام الأساسي) للعشيرة المحمدية على هذه الدعوة المطهرة، التي جمعت فيما نرجو خير ما في الهيئات والتجمعات الدينية والروحية من مضامين ومفاهيم تربط بين فضائل الجديد والقديم؛ وقد اعتمدت رسميًّا على أساس القانون رقم (٣٢) لعام (٦٤)، برقم (٦٧٥) بجمهورية مصر العربية.

وللعشيرة حلقات وارتباطات في شتى أنحاء العالم، ولها علاقات قوية وطيبة مع الجمعيات والطرق الصوفية المصرية والعالمية، كما أن علاقاتها طيبة وتعاونها جيد مع الهيئات الإسلامية العاملة في حقل الدعوة رسميةً وشعبيةً. ويضطلع بالعمل والنشاط الدعوي والتربية الروحية في العشيرة المحمدية، والحمد لله، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه لهم قدرهم وذكرهم وأجرهم إن شاء الله. وفي هذا السبيل تؤسس الفروع والحلقات وتعمر المساجد والزوايا والمراكز الإسلامية، وتقام المنشآت والمراكز العلاجية والحضانات والمدارس، وتعقد الاحتفالات والندوات ومجالس الذكر، وتصدر مجلة (المسلم) والنشرات والكتب والرسائل. وكأثر طبيعي للتدين الصحيح تقوم (العشيرة المحمدية) بعدد من الخدمات الاجتماعية، على نظام إسلامي بعيد عن الجحود والجمود، نرجو أن يرضى عنه الله تعالى ثم النَّاس.

شروط الانتماء إلى الصوفية الحقة

والراغب في مؤاخاتنا يبلغ كلمة الله تعالى، ويؤدي واجب خلافته عن الله سبحانه نحو نفسه وأهله ووطنه ودينه، على طُهْر ونظافة، ووضوح وانكشاف، وتواضع مطلق، وعلى رضًا من الله تعالى، ومن الشعب المسلم، ومن الدولة المسلمة أيًّا ما كان موضعها وزمانها، بحمد الله تعالى. وليعلم أولًا وأخيرًا:

*** أننا قلة فقيرة إلى الله تعالى مؤمنة به سبحانه.**

*** وأنَّ قوتنا في قلتنا لغياب المتمسكين بالمنهج السلفي الصوفي الذي يدور مع الكتاب والسنة ولا يخرج عنهما أبدًا، وأنَّ فخرنا في فقرنا إلى الله تعالى دومًا، كثر الرجال أم قلوا، كثر المال أم قل، وأنَّ سرَّ نجاحنا هو تتبعنا للنبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، وفي بشارته بالهدى وعدم الضلال لمن تمسك بسنته وسنة أهل بيته والخلفاء الراشدين من أصحابه وعض عليها بالنواجذ.**

*** وأننا نؤمن بالتعبد والفضيلة والعلم والعمل، وأننا نكره التفاخر والتظاهر والتكاثر والادعاءات.**

*** وأنَّ سبيلنا (الحق) ولو لم يكن معنا أحد.**

*** وأنَّ وسيلتنا التعبد والدعوة، والعلم والعمل، وحسن الظن وحسن الخُلُق.**

*** وأنَّ مذهبنا (الحكمة والمسالمة في موضعها وبضوابطها الشرعية السلفية المتفق عليها).**

*** وأنَّ غايتنا الوصول إلى (الله) تعالى وحده.**

فإن كان الراغب في مؤاخاتنا قد أرضاه هذا المذهب فإن كان متصوفًا بالفعل فهو على طريقته ومشربه وبركة شيخه، يسير معنا متعاونًا في تحقيق أهدافنا، ولا نطلب منه إلا أن يتزود بـ (المحمدية) التي لا يخطئها إلا محروم؛ فـ (المحمدية) هي التسامي بما أنت عليه إلى أعلى مراقيه، وأن تحوِّل كل حركاتك وسكناتك وأفعالك إلى عبادات خالصة لله.

أمَّا إذا لم يكن الأخ قد تصوف، فإن شاء دللناه على من نرجو أن يوصله إلى الله من السادة، وإن شاء آخيناه على مشربنا الذي نمارسه في الله، سواء في ذلك الرجال والنساء والفتيان والفتيات».

انظر كيف يدعو الشيخ رحمه الله تعالى إلى الصوفية السلفية أيًّا كان الشيخ العالم أو الطريقة ما دامت صوفية شرعية، وكيف لا يتهافت على غيره أو يحتكر التزكية والسلفية لنفسه وطريقته، وهذا ما عاش قرابة السبعين عاما من عمره الذي قارب المائة يطبقه عمليًّا؛ فلقد جاءه الكثيرون من أتباع الطرق الصوفية الشرعية من المغرب والشام والترك وشرق آسيا، وجاءه من طلاب العلم والعلماء السلفية الوهابية الأماثل، فما زاد على دعوته تلك لهم جميعًا، مهما أعجبهم علمه وطريقته وبهرهم زهده وعزوفه رضي الله عنه. ويؤيد شيخنا شروط نظريته الصوفية الإصلاحية بالاستشهاد بالكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح والسادة الصوفية والعلماء والصالحين من الأمة:

(أ) يقول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(ب) ويقول النبي ﷺ: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً عَلَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»(١).

(ج) ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «الجماعة مَن كان على الحق ولو كنتَ وحدَك»(٢).

(د) ويقول السادة الصوفية:

اسْلُكْ طَرِيقَ الهُدَى * ولا تَضُرّكَ قِلَّةُ السالكين
واتْرُكْ طريقَ الرَّدَى * ولا تَغُرّك كثرةُ الهالكين

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ١٠١) برقم (٧٣١١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.
(٢) «تاريخ دمشق» (٤٦/ ٤٠٩).

(هـ) ويقول الواقع: إننا نقوم على ثغر فريد من ثغور الإسلام، له خطره وقدره لا يغني عنه غيره.

(و) ونقول نحن: إنه لا معنى لوجودنا إذا كنا نسخة مكررة من غيرنا، والمجتمع فرد مكرر، إذا صلح هذا الفرد صلح المجتمع.

(ز) ويقول الأمل: بما أن التصوف الإسلامي الصحيح هو المذهب الروحي الخالد، الذي يغطي أقطار العالم الإسلامي، فليس أعظم من الانتفاع بولاء جنوده محليًّا وعالميًّا، في تصحيح الأوضاع، وتحقيق الإصلاح، وتوجيه الأفكار، وتجميع القوى، في وحدة روحية، تكون نواة للوحدة الكبرى إن شاء الله تعالى.

(ح) وقد ناديناك في الله أن (حيَّ على الفلاح) فأقبل هاتفًا: (لبَّيك اللهمَّ لبَّيك)، ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤].

ورضي الله تعالى عن أشياخنا في الله، وعن كل ولي لله، وعن كل واقف بحق على باب الله، وعن كل داعية بصدق إلى طريق الله.

ويمكننا أن نستخرج من أقواله رضي الله عنه تلك العناصر العملية التي يربي عليها المريد نفسه، ويؤازره في ذلك إخوانه، ويراقبه ويرشده مربيه:

١) الإخوان روح واحدة في أجساد متعددة.

٢) والإخوان أغصان متعددة من شجرة واحدة.

٣) الكسل واليأس من مفاتيح الذل والضياع.

٤) عليك العمل، وعلى الله النتيجة.

٥) العمل مع الغفلة خير من الغفلة عن العمل.

٦) التوكل على غير الله تواكل، وأعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

٧) لا تكون الزهادة بالجهل والبلادة، وإنما هي بالجد والاستفادة، وإجادة العبادة.

٨) لا يكون الولي من رجال الدعاوى والظهور، وإلا فقد استدرجه زور الفجور، وغره بالله الغرور، وكان في دنياه في روض ومن أخراه في تنور.

٩) الخير والشر عدوى وتقليد، فأصلح الفرد تصلح الأسرة، وتصلح أخرى، وتصلح الناحية، فتصلح المجموعة، وتصلح الأمة.

١٠) على الأخ في الله: السمع والطاعة، فليس أضيع من الجامح في سوق الرضا، ولا أحمق من الهارب من سيف القضا.

١١) الأخ الأمي في ذمة الأخ القارئ، والأخ الفقير في ذمة الغني، والضعيف في ذمة القوي، فميثاق الأخوة يسجل الحقوق، ويرتق الفتوق.

١٢) تتألف جمعية (زاوية) الإخوان من خمسة، كما قام الإسلام من قبل على خمسة، هم:

أ - المصطفى ﷺ.

ب- أول من أسلم من الرجال (أبو بكر).

جـ - أول من أسلم من النساء (خديجة).

د - أول من أسلم من الموالي (بلال).

هـ - أول من أسلم من الفتيان (علي).

١٣) يجب أن تعظ الناس بأفعالك قبل أن تعظهم بأقوالك، فالناصح بغير حاله كالمنفق من غير ماله.

١٤) لا تورط نفسك في الكماليات، وجاهدها في ترك جميع المكيفات، ولا تجعل عليك سلطانًا لشهوة من الشهوات، واصبغ بيتك وقولك وعملك بصبغة الإسلام.

١٥) لا تفرط في الدِّين، ولا تتنطع فيه، واعمل جهدك بالسنن، واعلم أن التقوى في القلوب، والتزم الكمال والوقار والجد، وإياك وفضول القول والعمل.

١٦) التمس العزائم، واستحضر نشاطك وهمتك، واعذر النَّاس إن أخطئوا أو قصروا، وإياك والكسل، وإياك واليأس من روح الله.

١٧) لا تنقطع عن مجالس الإخوان، وارض بأحكامهم؛ إذ في الشورى ورأي المجموع من أهل العلم والتقوى دائما الرشد والنجاة من الهوى المضل، ونفذها بأمانة؛ إذ بعد صدورها والعهد إليك بشيء تنفيذي منها تكون بمثابة الوكيل المؤتمن. واحفظ تعاليمهم عن ظهر قلب التي مردها كلها إلى النظام والأمانة وحسن الظن والإحسان في العمل بأوصافها الشرعية، واستظهر ما استطعت الأوراد والأحزاب والأدعية الخاصة بهم.

١٨) عود لسانك النطق بالعربية، وثقف نفسك بالمعارف الإسلامية، وتعرف جهدك إلى السيرة النبوية، وفضِّل دائمًا كل الأشياء الوطنية، والتقاليد العربية الإسلامية، وكن عمليًّا منفذًا محسنًا ما اقتنعت به من فضائل الأعمال والنوافل، غيورًا عليه.

١٩) تواضع في تعاملك مع الصناع والتجار والمحترفين من إخوانك، فإنَّما هم قرباك، وأحق بمودتك ونداك، وسدد ديونهم من زكاة مالك، ترضِ إخوانك ومِن فوقهم مولاك.

٢٠) اجعل لنفسك وِردًا قرآنيًّا، واحمِل المصحف صديقًا ووليًّا، واحفظ على الأقل أربعين حديثًا نبويًّا، فإنها زادك إلى يوم تُبعَث حيًّا.

٢١) اكتفِ بأقل كسب ممكن في معاملة الإخوان ممن ظهر إيمانه وحسُن دينه أيًّا كانت طريقته أو مذهبه، واصدقهم، وأحسن إليهم بما فضلوك، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

٢٢) اجعل من زكاة مالك وزرعك نصيبًا مفروضًا لإخوانك، وأوص لهم بجزء من تركِتك قبل موتك، وانوِ الحج واقتصد له من مالك وإن قل.

٢٣) ارجِع في استشارتك وتفاصيلك واستفتاءاتك إلى كبار إخوانك في الله تعالى؛ فإنهم عشيرتك وحزبك؛ لئلا تضل ولا تفتضح، ولا تزعم أنك استغنيت بعلم أو عقل، فالذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية، ويد الله مع الجماعة، ولا ندِم من استشار.

٢٤) اطلب العلم حيث كان، ولا تذكر إلا مع الإخوان الذين صح اتباعهم الكتاب والسنة والطريقة السلفية الصوفية، فالعلم مطالب تأتلف، والذكر مشارب تختلف.

٢٥) اعلم أن كل من لك عليه حق الولاية مطلوب منك شرعًا أن تربيه على مبادئ الإسلام ونخوته، وتلقنه تعاليم الإخوان ودروسهم، حتى يكون بيتك حرمًا مسلمًا، فيصبح وحدة بذاتها من وحدات كتائب الإخوان في جيش الله تعالى.

ولعل في هذا البرنامج العملي التربوي المثبت، في المعتمد من تعاليم الإمام الرائد وما سبق ذكره عند الحديث عن الطريقة المحمدية، ما فيه بيان للطريقة العملية في التربية المشتركة للسالك مع نفسه وإخوانه لاحتمال غياب المرشد والمربي أحيانًا كثيرة، خصوصًا في أزمنة الفتن. فتأمل ذلك واقتطعه من الدراسة لنفسك ولمن تحب، وقد كتب قديمًا أحد علماء الأندلس رسالة شيقة عن «السبيل إلى ربي عند غياب الشيخ المربي» لما بدأت بواكير الفتن هناك، وهي مخطوط أرشدنا إليه فضيلة أستاذنا الدكتور علي جمعة جزاه الله خيرًا.

ثانيا: الدعوة إلى إبطال بدع «المتمصوفة»

التمييز بين «الصوفي» و«المتصوف» و«المتمصوف»

وسيرًا من الشيخ رحمه الله تعالى على ذات النهج القويم في تصفية طريق التصوف مما ران عليه، وكذلك في بيان فضل الطريقة وفوائد التصوف الصحيح في الدعوة والعمل الإسلامي، فقد انبرى فضيلته رضي الله عنه للمبتدعة والزنادقة الذين أرادوا

أن يستخفوا بالتصوف، بل وأسماهم بمسمى جديد تمييزًا لهم وإظهارًا لعوارهم، فأطلق عليهم طائفة «المتمصوفين»، وأسمى ما يصدر عنهم من بدع ودجل بـ«التمصوف»، وذلك إمعانًا من الشيخ ﵁ في بيان أن الدخيل من الأفعال والأقوال غير المشروعة على أصل التصوف الشرعي الصحيح ليس أمرًا يعيب التصوف أو يحسب عليه. وفي ذلك يقول فضيلته: «وعندنا (الصوفي) هو السالك إلى الله، أو الواصل إلى حضرته، و(المتصوف) هو طالب السلوك إليه تعالى أو المريد، و(المتمصوف) هو الدَّعِي الكذاب من (المتمرشدة) (المتمشيخة) وكهان المسلمين، والمتاجرين بالشعوذة والتخريف، وإضلال خلق الله، ولا شأن لنا بهؤلاء وتصوفهم، فنحن منهم براء»[1].

فما أجمل ذلك وأكمله، وما أشده غيرة على دين الله وعلى التصوف الصحيح الذي هو من دين الله تعالى الجوهر والإحسان! ولقد كان هذا النقد اللاذع الدقيق وتلك الألفاظ المنضبطة الجامعة الملخصة لكل عيوب الطريقة وما ران عليها، سببًا لتعدي جهال الطرق الصوفية وسفهائها على الشيخ ﵁، تمامًا كما تعدى عليه جهال المتمسلفة المدعين التمسك بالسلفية وغلاة المعادين للصوفية........ فجزاه الله خير الجزاء عن بلائه الحسن وجهاده الشجاع في **الدعوة الحكيمة إلى التجديد الشرعي الرشيد والإصلاح الشرعي الهادئ السديد للصوفية والسلفية في آن واحد**. ولا غرابة أن يؤذيه ويعاديه أولئك الذين أطلق عليهم تلك المسميات اللاذعة الموجعة: «المتمصوفة» و«المتمسلفة» و«المتمرشدة» و«المتمشيخة»، فكشف بها عوارهم وفنّد بها أباطيلهم، كما نبه بحزم ووضوح كل من انخدع بحججهم البراقة الواهية واتبع بحسن نية طريقهم، لكي يستفيق من مظانه ويطلب الهدى والعلم من أهلهما.

(١) «دعوة العشيرة المحمدية» الحلقة الأولى، لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، سلسلة رسائل الدعوة المحمدية، ١٩٥٤م.

فيبين الشيخ ﵁ في كتاباته المستنيرة المتعددة مفاهيمه الصوفية وتجربته الروحية الثرية للقائمين على الطرق الصوفية في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، ولهؤلاء الأتباع الذين يغلب عليهم حسن الظن ممن يطلبون الوصول إلى الحق والمعرفة. وفي إيجازٍ بليغ يفرق الشيخ ﵁ بين الحق والباطل في مسالك الصوفية فيقول: «والناس في طلب الكمال صوفي ومتصوف ومتشبه، فكن واحدًا منهم ولا تكن الرابع (المتمصوف) فتهلك»[1].

خوض غمار المعارك القضائية لإصلاح التصوف

ويدخل في هذا الباب من أبواب التجديد في أساليب الإصلاح للتصوف وإعادة سيرته السلفية الأولى أنه ﵁ قد خاض غمار المعارك القضائية لإصلاح التصوف حينًا، وللدفاع عنه حينًا آخر، عن طريق إنكاره بدع المتمصوفة والسعي إلى تغييرها باليد واللسان والقلب معًا، فلم يدخر جهدًا في محاربة بدع التصوف، وانبرى مدافعًا عن التصوف الشرعي الصحيح بشجاعة ويقين، فعاداه من لا علم لهم من الجهلاء أو المتمصوفة الذين لهم أغراض خاصة، وقد انبرى لهم وذهب إلى ساحات المحاكم لغرض حكيم رشيد قام عليه الدليل الشرعي الأكيد بنوايا تعبدية كثيرة، فهو ﵁ من كثرة علمه وفيض نور ربه عليه كان يعمل العمل الواحد ويكشف لنا العديد من النوايا التعبدية من ورائه، تعليمًا لنا وتربيةً لنفوسنا وجمعًا لأطراف العلم والفقه في كل مقاصدنا ﵁، فجزاه الله عنا خير الجزاء. وهكذا وسّع الشيخ ﵁ دائرة الحوار، ففرض بذلك على القاصي والداني من القادة والعلماء الاهتمام بموضوع إصلاح التصوف. وذلك ظاهرٌ باهرٌ في لجوء الشيخ إلى مجلس الدولة عندما تآمر عليه مَن لم يعلموا ولم يكونوا ليفقهوا ما كان يقوم به الشيخ من تجديد وإصلاح، وكانوا قد عزلوه من مشيخة الطرق الصوفية تعبيرًا عن رفضهم

---

(١) «أيها الصوفيون: دعا الداعي وصاح الديدبان» كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة الرابعة، غرة رجب ١٣٧٤هـ، ٢٤ فبراير ١٩٥٥م.

المطلق لفكره المجدد المستنير الذي يأبى التسليم بالموروثات على عواهنها دون تدبر أو تقصٍّ، فكانت مجابهات الشيخ ودخوله في مساجلات ومناظرات حتى أمام القضاء للحفاظ على التصوف وجوهره الأصيل الصافي بلا ريب؛ من أبرز ملامح التجديد في منهجه للنهوض بالطريقة الصوفية وإحياء التصوف السلفي الأصيل.
فقد دأب العلماء من شيوخ الطرق الصوفية قبل ذلك على اعتزال المجابهين والمستفزين والإعراض عن الجاهلين وعدم مجابهتهم بدعوى الحلم على الجهلاء والسفهاء، ولكن الشيخ رأى المصلحة الشرعية في إعمال قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩] ومن ثم انتصر لدين الله، وانتصر للتصوف الصحيح، ولم يترك الساحة لهؤلاء الغافلين.

ونسوق هنا طرفًا من نصوص أول حكم لمجلس الدولة في أول قضية في التاريخ الصوفي بمصر؛ لما فيه من بيان واضح لمعارك إصلاح التصوف التي خاض غمارها الشيخ زكي إبراهيم رحمه الله تعالى وطيب ثراه:

في يوم ٢١ من سبتمبر سنة ١٩٥٣م اجتمعت الجمعية العامة للطرق الصوفية اجتماعًا فوق العادة لأول مرة في التاريخ الصوفي بمصر، وكان ذلك بالمسجد الحسيني، وبرياسة المرحوم الشيخ أحمد الصاوي العمراني، وبطلب وتأييد من المجلس الصوفي وقتئذ، ذلك لتصدر الجمعية العامة -بحضور ستين شيخًا هم أعضاؤها وقتئذ- قرارًا واحدًا لا غير، وبالإجماع أيضًا، هو فصل فضيلة الإمام الصوفي المجدد المجاهد حجة التصوف الإسلامي في هذا العصر السيد محمد زكي إبراهيم رضي الله عنه من مشيخة الطرق الصوفية؛ لما يأتي[1]:

١- حملته على الواقع الصوفي.

٢- دعوته إلى تغيير اللائحة الصوفية.

٣- دعوته إلى إنشاء جامعة صوفية عالمية.

(١) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية» فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: (ص٢١٣، ٢١٤).

٤- دعوته لعقد مؤتمرات صوفية محلية ودولية.

٥- دعوته لعقد دورات تدريب عليا للمشايخ.

٦- إصداره مجلة يهاجم فيها بعض الأعراف والمصطلحات السائدة في ممارسات الطرق الصوفية والتي ليس لها أساس شرعي، وكذلك التقاليد والمواريث الصوفية التي لا سند لها شرعًا طبقًا للمنهج السلفي في استنباط الأحكام من الكتاب والسنة.. إلخ.

كما جاء في المذكرات الرسمية، وقد اعتبرت الجمعية العامة هذه الأعمال من قبل الشيخ تدميرًا للتصوف والصوفية في مصر.

ثم بعد دراسة القضية دراسة مستفيضة أصدر مجلس الدولة المصري حكمًا تاريخيًّا أنصف فيه شيخنا الجليل خاصةً، ودعاة إصلاح التصوف عامةً، وكان ذلك الحكم هو النتيجة النهائية لسجال قضائي طويل بدأ بدعوى قضائية أقامها فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم أمام محكمة القضاء الإداري حينئذ[1]. وقد أوجزنا ما جاء من حيثيات الحكم المنصف لشيخنا الجليل على النحو التالي:

«من حيث إنه يخلص مما تقدم..... أن المدعي لم يقف بغير حق موقف المهاجم من المشيخة، ولا الصوفية، بل على العكس نصب نفسه مدافعًا عن الصوفية ولم يبخل في سبيل ذلك عن بذل ما وسعه من جهود، وإنه كان حسن النية لا يهدف سوى تحقيق المصلحة العامة حسب يقينه واعتقاده فيما يدين به من الصوفية، فكان يدلي باقتراحاته أمام لجنة الإصلاح الصوفي[2]، ويتقدم إليها بمذكراته التي حرص

(١) وكانت الدعوى ضد وزير الداخلية وشيخ مشايخ الطرق الصوفية بعريضة الدعوى المودعة في سكرتارية المحكمة في أول ديسمبر ١٩٥٣م بطلب إلغاء القرار الصادر من المجلس الصوفي في ٢١ من سبتمبر ١٩٥٣م، والقضية رقم ١٢١٠ لسنة ٨ قضائية.

(٢) لجنة الإصلاح الصوفي برياسة وكيل الداخلية، وكانت أول لجنة ألفتها الوزارة لهذا الغرض في النصف الأول من سنة ١٩٥٣م، وكان مقررها صاحب القضية، كما كان هو مقرر اللجنة الرسمية الثانية التي شُكِّلت للإصلاح الصوفي برياسة وزير الأوقاف لمراجعة عمل اللجنة الأولى.

فيها دائماً على الإعلاء من شأن الصوفية، موضحًا خطر الحملات الخبيثة عليها، سواء من الناحية الدينية أو السياسية... والمدعي في كل ذلك لم يتجاوز حدود النقد المباح، ولم يهاجم شخصًا بذاته ولم يوجه معايب شخصية، وإنما تناول الحالة العامة، بمناسبة التفكير في إصلاح الطرق الصوفية، تنفيذًا لسياسة الحكومة، كما أنه كان مترسمًا الحدود التي رسمتها مشيخة الطرق الصوفية، إلى الدرجة التي استجاب فيها إلى تكليف المشيخة له بالانسحاب من اللجنة، فانسحب منها، رغم الجهود الكبيرة التي بذلها في البحث والدرس، وإيضاح الطريق للجنة التي عقدت بهذا الشأن... ومن حيث إنه إذا جاز للمجلس الصوفي بعد ذلك وأصدر قراره المطعون فيه بفصل المتهم لحملته على الصوفية، ودعوته لإنشاء (جامعة صوفية عالمية) كان قرارها هذا غير قائم على وقائع صحيحة..... ومن حيث إنه -من ناحية أخرى-... تبين من الرجوع إلى لائحة الطرق الصوفية الصادرة في سنة (١٩٠٣م) أن مادتهم الأولى على قواعد تعيين مشايخ الطرق ورفتهم من وظائفهم أو توقيفهم مدة معينة، ويتبين من استعراض نصوص اللائحة الداخلية لهذه الطرق الصادرة في (٢٣ من أبريل سنة ١٩٠٥م) أنها نظمت إجراءات الفصل في القضايا المعروضة على المجلس الصوفي، بأن نصت على وجوب مسك دفاتر تفيد بالقضايا وأسماء المتداعين، وإثبات حضور من يحضر، وغياب من يغيب، وأقوال وطلبات المتداعين، وشهادة الشهود، والقرارات التي تصدر، وأن هناك مداولات تحصل بعد استيفاء المرافعات، بغير حضور أحد من الخصوم...

والمستفاد من ذلك كله أنه وإن كانت نصوص لائحة الطرق الصوفية واللائحة الداخلية المنظمة للإجراءات، لا تنص على أحكام تفصيلية لسير الدعاوى التأديبية، ونظام المحاكمات، والشرائط التي تتوافر في الهيئات التي تتولى الفصل، إلا أنه ليس معنى ذلك أن الأمر يجري فيها بغير أصول، أو ضوابط، بل يجب استلهام هذه الضوابط وتقريرها في كنف قاعدة أساسية كلية، هي تحقيق الضمان وتوفير

الاطمئنان لذوي الشأن، وتمكن كل منهم من رد الاتهام الموجه إليه كحق أصيل من حقوقه العامة...

ولما كان شيء من ذلك لم يتبع في شأن المدعي، فلم تخطره المشيخة بالجلسة المحددة للنظر في أمره، ولم تحدد له ما يمكن أن ينسب إليه مما استوجب اتخاذ هذه الإجراءات ضده، حتى كان يمكنه أن يدافع عن نفسه ويوضح مركزه، وحيث إنه متى ثبت ذلك، فإن القرار الصادر من المجلس الصوفي الأعلى في (٢١ من سبتمبر سنة ١٩٥٣م) بفصل المدعي من مشيخة الطريقة المحمدية الشاذلية يكون قد صدر مخالفًا للقانون حقيقًا بالإلغاء...

ومن حيث إنه فيما يتعلق بطلب التعويض المؤقت ضد المدعى عليه الثاني بصفته، فقد استبان للمحكمة مما سلف من وقائع أن وظيفة المدعي في (مشيخة الطريقة المحمدية الشاذلية) وظيفة شرفية، وكل ما يمكن أن يناله من جراء هذا الفصل لا يعدو أن يكون ضررًا أدبيًّا. وفي إلغاء قرار الفصل، وما يترتب عليه من عودته إلى وظيفته ما يعوضه عن كافة الأضرار الأدبية التي لحقته...

فلهذه الأسباب حكمت المحكمة برفض الدفع بعدم قبول الدعوى، أو بقبولها، وفي الموضوع بإلغاء القرار الصادر من مشيخة الطرق الصوفية (المجلس الصوفي) بجلسة (٢١ من سبتمبر سنة ١٩٥٣) بعزل المدعي من (مشيخة الطريقة المحمدية الشاذلية)»[(١)].

ويقول شيخنا في ذلك: «أنا امرؤ أعرف -بحمد الله- نفسي، فلا أعدو قدري، ولا أستشرف إلى هذه القيمة المتسامية، لكنني لا أنكر فضل الله علي في أنني شاركت بكل طاقتي فيما زعمت لنفسي أنه يرضي الله من خدمة التصوف خاصة، والإسلام والوطن عامة، ولا أزال بحمد الله رغم ما أعاني. ولا بد من تسجيل حادث تاريخي

(١) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية» (ص٢١٤).

فريد مما عانيت في سبيل الإصلاح الصوفي (ولا أزال)؛ ففي الخمسينيات ألححت في المطالبة بالتطوير والإصلاح الصوفي، حتى استجابت الحكومة، وألفتْ لجنة للإصلاح الصوفي برياسة محافظ القاهرة، وكنت مقرر هذه اللجنة بوصفي صاحب الاقتراح، وخبيرًا في الشئون الصوفية، ثم شكلتْ لجنة من بعدها برياسة وزير الأوقاف لنفس الغرض، وكنت مقررها أيضًا لنفس السبب (وكان الوزير فضيلة الأخ الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقوري رحمه الله تعالى).

من أجل ذلك اجتمعت الجمعية العامة للطرق الصوفية من أكثر من ستين شيخًا بمسجد الإمام الحسين، وقررت بالإجماع (فصلي نهائيًّا من الطرق الصوفية) وتجريدي من النسبة إليها!

وكانت هذه أول مرة في التاريخ الصوفي الرسمي يُفصَل فيها (شيخ)! حتى رد مجلس الدولة إلي اعتباري، وكانت قصة، إنما هي غصة، وكفى التلميح إليها لتعرف كيف أحيا ماضيًا على شظايا الزجاج المحطم بين (أعداء) التصوف و(أدعيائه)، وهذا قدري، ولا يزال.

ثم كان من فضل الله أن استمرت الحكومة في النظر في هذا الإصلاح على أساس مذكراتي وتقريراتي السالفة، وغيرها، حتى صدرت اللائحة الصوفية الأخيرة بعد ولادة طويلة عسيرة كخطوة كبيرة في سبيل تطهير التصوف وتطويره وإصلاحه، وقد سجلت بعض ملاحظاتي عليها، وإن كانت اللائحة في مجملها شيئًا حسنًا في خدمة تصوف المسلمين، إن أمكن التطبيق الصحيح، رغم ما لي عليها من مآخذ أساسية».

وبهذا الحكم المنصف انتصر الشيخ الجليل في معركته الحاسمة للتمييز بين التصوف الشرعي السلفي الذي هو جزء لا يتجزأ من تراث الأمة الإسلامية، وبين مظاهر البدع والدجل المنسوبة زورًا للتصوف.

وهكذا ذهبت أباطيل المغرضين والجهلاء أدراج الرياح، وكسب التصوف الحق على يدي شيخنا الجليل الاحترام والتقدير بين صفوة المجتمع المصري، بل والدولي، من العلماء والمفكرين والباحثين عن الحقيقة في كل مكان. وإضافةً إلى المفهوم الجديد الذي نشره ﷺ للعالم عن الصوفية الحقة، فإن ذهابه لساحة القضاء للدفاع عن هذا المفهوم هو في حد ذاته تجديد على سلوك من سبقه من العلماء كما أسلفنا.

وهذه المعركة الطويلة من أبلغ الأدلة على أن الإمام الرائد هو أحد المجددين العظماء الذين أنبأ عنهم رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: «**إن اللهَ يَبْعَثُ لهذه الأُمَّةِ على رَأْسِ كلِّ مائةِ سنةٍ مَن يُجَدِّدُ لها دِينَها**»[1]. صدق رسول الله ﷺ.

وقد استمر الشيخ بعد انتصاره في تلك المعركة الحاسمة يدعو بكل السبل إلى إبطال بدع «المتمصوفة»، وتصفية طريق التصوف مما شابه من بدع وضلالات، ومن ثم فقد قال بتحريم الطبل والزمر بكل أنواعه مع الذكر، كما حرم رحمه الله المواكب المشتملة على الهوس في الموالد باسم الدين، والطبل والزمر والحركات التي تتنافى مع وقار التصوف وكرامة الإنسان الورع المتدين حقًّا وآداب الإسلام العامة.

نماذج لمجابهة الشيخ رضي الله عنه لبدع دخيلة على الصوفية[2]

على سبيل المثال يصف الشيخ رحمه الله قول أحدهم[3]: «إن فلانًا يصلي في

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٥١٢) برقم (٤٢٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٦٧) برقم (٨٥٩٢)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يلاحظ أن النظرية الإصلاحية للشيخ تعد برمتها محاربة للبدع وأهلها المندسين في الطرق الصوفية، وهي الوجه الآخر للصوفية، فتقوم نظريته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحيائه للتصوف السلفي، وسَوق الأدلة الشرعية على ما احتواه التَّصَوُّف من كنوز علمية وتربوية، وتجارب روحية لم يكن أهلها الصادقون يحرصون على توثيقها وتخريجها وربطها بالكتاب والسنة لبداهة ذلك لديهم. راجع ما سبق في منهج الشيخ في التعبد بالألفاظ غير العربية، فهو لون من ألوان الإصلاح بوجهيه؛ النهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

(٣) «أسئلة وأجوبة مجملة في التصوف»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة الثانية عشرة، غرة رجب ١٣٨٠ هـ، ديسمبر ١٩٦٠م.

الكعبة»[1] بأنه ضلال، ولو كان حقًّا ما سقطت عنه الفريضة، بمقتضى قوانين الفقه الإسلامي وأصوله، ثم بمقتضى قواعد التصوف الإسلامي وعقائده، ولو كان ذلك جائزًا ما فات الدين أن ينص عليه، أو على الأقل يشير إليه، وهذه أحكام دين الله، ما بها من هذه الشعوذة شيء. وهل هؤلاء الأفاكون أقرب إلى الله من الحبيب المصطفى ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، ثم التابعين وتابعيهم من السلف الصالح، كالأئمة الأربعة وكبار الأقطاب؟! ولم يثبت هذا عن واحد منهم ولم يروه عنهم صادق ولا كاذب. ثم هل هؤلاء يذهبون للصلاة في الكعبة بأجسامهم وأرواحهم، أم بأرواحهم فقط؟! فإن كان الذهاب بالجسد والروح فيكذبهم الواقع؛ لأننا لا نزال نرى أجسامهم في أماكنها لا تزال ولا تزول، وإن كان الذهاب بالأرواح فقط فشرط صحة الصلاة أن تكون بالجسد والروح معًا، وإلا فلا صلاة، فأينما هربوا كذبوا، وأينما هُرِفُوا عُرفوا، ورحم الله إمام الصوفية شيخنا الأخضري إذ يقول:

وجاء في الحديث عن خَيْرِ الوَرَى * لن يَخْرُجَ الدجالُ، أعني الأكبرا
فإنْ رأيتَ رجلًا يَطِيرُ * أو فوقَ ماءِ البحرِ قد يَسيرُ
ولم يقِفْ عند حدودِ الشرعِ * فإنّه مُسْتَدْرَجٌ وبِدعِي
ففِرَّ منه، إنه شيطانُ * مدلِّسٌ، مُلَبِّسٌ، خَوَّانُ

وفي سبيل دعوة الشيخ إلى إبطال بدع المتمصوفة وتصفية طريق التصوف مما شابه من قِبَل بعضهم؛ كان تحريمه للطبل والزمر بكل أنواعه مع الذِّكر قولًا وعملًا، كما حرم رَحِمَهُ اللهُ المواكب المشتمِلة على الهوس الصغير من الطبول والزمور التي تتنافى مع وقار التصوف وكرامة الإنسان الورع، وآداب الإسلام العامة، فيقول رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا أضيف إلى هذا منكر عريض آخر كحمل الرايات مع الدوران بها وتطويحها على

(١) قد يقع لبعض الصادقين الإسراء الروحي الذي يسمونه (المشاهدة الروحية) فتطوف أرواحهم وتحضر المشاهد من صلاة وحج وزيارة وسياحة في الملك والملكوت على وفق إرادة الله، ولكن ذلك كله على سبيل التمتع الروحي لا يسقط فريضة ولا واجبًا؛ لعدم اجتماع الروح والجسد، والصادقون لا يتحدثون عن هذه التجارب الروحية إلا لأهلها.

دقات الطبل وأنغام الزمر، واستهواء العامة والدهماء بتجمعها، وإغراء الجهلة والبطلة والغفلة كذبًا بأن هذا من دين الله، على ما فيه من رياء صارخ، وشرك خفي، وعلى ما فيه من مكاثرة ومكابرة، ومفاخرة ومتاجرة، وشراء للدنيا بالدين، فضلًا عن إشاعة التجهيل والتبديع، وتصوير الإسلام والصوفية أمام الأجانب وعقلاء الوطن ومتعلميهم بما يهز ثقتهم في هذا الدين العظيم، وتضطرب معه نفوسهم، فإن هذا شيء لا يقبله من يحب الله ويغار على دينه، ولا يرضى عنه إلا من لا يهمه إلا نفسه، وإن خسر آخرته ودنياه»[1].

قوله عن ادعاء بعض طلبة العلم والمريدين عصمة أشياخهم

«العصمة للأنبياء وحدهم، أما غيرهم فلو صحت لهم العصمة لكانوا أنبياء، ولا نبوة بعد سيدنا المصطفى ﷺ، ولم يقل بالعصمة لبشر بعد النبي ﷺ إلا في (الشيعة) الذين أعطوا أئمتهم هذا الحق بأدلة قبلوها هم، وليس في الصوفية الراشدين من يقول هذا القول في شيخ له، ولا عبرة بالمتمصوفة... لكنهم نقلوا عن أبي الحسن الشاذلي قوله: «إن الله يتفضل على وليه بالحفظ كما يتفضل على نبيه بالعصمة»، والفرق بين الحفظ والعصمة فسيح الأبعاد، وحسبك أن العصمة هبة ومنحة، والحفظ كسب وأثر للاجتهاد والاحتياط والورع ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقد قررنا أن المتطرفين والغلاة موجودون في كل مذهب ودين، وبغيهم على أنفسهم، لا على المذهب، ولا على الدين، كما قررنا أن الغلاة وُجدوا في عهد رسول الله ﷺ، فردهم وأمرهم بالتشبه به.

قوله عن الاعتقاد في قدرة بعض الأشياخ على الاطلاع على الغيب

لقد نفى القرآن عن الرسول ﷺ نفسه علمه بالغيب. وهذا الباب مما لا ينبغي فيه التعميم المبهم، فإن الغيب نوعان: غيب حقيقي وغيب مجازي، فالغيب

(١) «أسئلة وأجوبة مجملة في التصوف»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة الثانية عشرة، غرة رجب ١٣٨٠ هـ، ديسمبر ١٩٦٠م.

الحقيقي: ما كان في مكنون العلم الإلهي، لا يحيط به إلا الله وحده، أما الغيب المجازي فما قد كشف الله عنه لمن شاء من خلقه، فهو العلم الذي تنزل به الملائكة والروح بإذن ربهم من كل أمر، وبخاصة حين يُفرق في ليلة القدر كل أمر حكيم (ومن معاني الفرق: الكشف، والإظهار، والبيان). ومما يدخل في الغيب المجازي: ما يكون في الأحداث الكونية التي تقع في منطقة ما، فيراها من هم حولها، ولا يراها ولا يعرفها الآخرون، فالغيب الحقيقي لله وحده ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد يتفضل الله على بعض رسله فيحيطهم علماً بما يشاء من علمه؛ تأييدًا لهم، وتعجيزًا لخصمهم ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، كما كان عيسى ينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وكما حدثنا رسول الله ﷺ في إعلام نبوته عن وقائع وأحداث جاءت في حياته وبعد مماته كما حدّث بها بكل تحديد. وهناك نفر من أهل الله؛ ولله أهلون من عباده، كما صح في الحديث الكريم الذي رواه الأئمة عن سيدنا أنس رضي الله عنه: «**إنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنَ الناسِ**». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أَهْلُ القُرآنِ هم أهلُ اللهِ وخاصَّتُهُ**»[1].

ومعنى كل هذا أن الله تعالى يتعطف على بعض الخواص من عباده بما يشاء من بحر علمه، فلا أحد يستطيع أن يحيط بشيء من علمه إلا أن يشاء الله، وهو قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، أي فلا أعلم إلا ما علمني ربي، وما كَشَفَ عنه لي، ومن هذا الوجه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقوله على لسان يوسف عليه السلام في تأويله الرؤيا: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. كل هذا في الغيب الحقيقي.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: (١/ ٧٨) برقم: (٢١٥)، وأحمد: (١٩/ ٢٩٦) برقم (١٢٢٧٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أما الغيب المجازي فهو ما خرج من نطاق المكنون الرباني، فلا يمتنع أن تكون هناك وسائل للإحاطة به. وقد فصَّل الإمام الألوسي هذا الجانب تفصيلًا مفيدًا حاسمًا. وقد يكون من هذه الوسائل: صفاء النفوس بطول ملازمة العبادة والاستغراق، وعدم الانشغال بغير الله، شأن أولياء الله الصالحين. وقد يكون من هذه الوسائل ما هو آلي فلسفي، كالذي نراه في فقراء الهنود، وقد يكون من هذه الوسائل استخدام الشياطين، كما جاء في الصحيح: «**إن الملائكة تنزل في العَنان** -وهو السحاب- **فتذكُرُ الأمرَ قُضِيَ في السماء، فيَسْتَرِقُ الشيطانُ السَّمْعَ فيسمعه، فيوجهه إلى الكهان، فيَكْذِبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**»[١]. وقد يكون من هذه الوسائل تطوع بعض صالحي الجن بما لا بأس به مع بعض الصالحين من الإنس، وقد يكون بأسباب أخرى كثيرة جدًّا، فالأمر متشابه متشعب دقيق، لا تحكمه العواطف المنفعلة. وبين أيدينا من التجارب الواقعية ما يغطي كل هذه الأنواع وغيرها مما لم نُشِر إليه، وهو كثير.

وهذه الأصول كلها يجب أن يستنبطها من يتصدى للحكم على الغيب؛ فإن فتنة تعميم الأحكام، والتهويل والإيهام، كثيرًا ما تخرج بطرفي القضية عن المنهج العلمي، أو العلم المنهجي، فلا يتحقق إنصاف، ولا ينصف تحقيق[٢].

سبق أن قررنا أن للولاية مواصفات وعلامات، فمن تحققت فيه هذه العلامات فهو ولي الله، بالنص القرآني: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وفي الآية: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

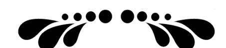
فإذا تحصلت الولاية، والإيمان والتقوى والصلاح ولها إشارات وعلامات، ولها روائح وملامح معروفة بين الناس، فإذا ما تحققت أطلق الله ألسنة خلقه بحسن

(١) أخرجه البخاري: (٤/ ١١١) برقم (٣٢١٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
(٢) قوله في تعيين ولي الله بالاسم، مع أن الولاية سر بين العبد وربه.

الذكر، وطيب السمعة، وإفاضة البركة، وفي الحديث المشهور: «**إنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ عَبْدًا نادَى جِبْرِيلَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ. ثم يُكْتَبُ له القَبُولُ في الأرضِ والسماءِ**»[1]. فالولاية وظيفة إلهية في الأصل، فإذا تسنى أن يعرف الناس صاحبها وأطلقوا عليه بمقتضى وظيفته، فلا أظن أن بذلك بأسًا، على أن من أولياء الله من هو مستور مغمور، على قدم العبد الصالح صاحب موسى عند مجمع البحرين، والعبد الصالح أُويس القَرَنِي؛ فأولياء الله نماذج للإنسانية الكاملة؛ لأنهم الممثلون الشخصيون للحضرة النبوية فيما ندبهم الله إليه.

ويجب أن يكون مفهومًا أن الولاية شيء والبلاهة شيء آخر، فمن شروط الولاية تمام العقل والفقه بدين الله، أما الأبله فلا نعتقده ولا ننتقده.

أما إطلاق الولي على من ميز نفسه بملبس خاص ووضع خاص وأسلوب حياة خاصة، ولم تتحقق فيه أوصاف الآيات، فطوى الناس تحت لواء الشعوذة والتهريج والدعوى واختلاق الكرامات والخوارق، فذلك ولي الشيطان ومن حزبه، فلا يفلح حيث أتى وإن اجتمع عليه الثَّقَلانِ، فإنما هو حينئذٍ من طلائع المسيخ الدجال، وكثير ما هم، وكثير أتباعهم، ثم تأمل: هل أحد أكثر أتباعًا من إبليس؟! فكثرة الأتباع لا تدل على حقيقة الولاية، بل قد تكون نوعًا من الفتنة والابتلاء الإلهي.



(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٤/ ١١١) برقم (٣٢٠٩)، ومسلم: (٤/ ٢٠٣٠) برقم (٢٦٣٧) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



المسألة الثانية
السلفية والتصوف

أولاً: الرد على غُلاة «المُتَمَسْلِفَة» المعادين للطريقة الصوفية إجمالاً

وفي مقابل ما قام به الشيخ ﵁ من محاربة أدعياء التصوف تجديدًا للطريقة الصوفية الشرعية السلفية المثلى، فقد انبرى رحمه الله تعالى لكشف حقيقة أولئك المنتسبين زورًا للسلفية الذين يتسم بعضهم بضيق الأفق في تلقي العلم الشرعي بعيدًا عن آفاقه الرحبة وتنوعه الخصب في مسائل الخلاف، كما يتسم بعضهم بعدم القدرة على الفهم السليم للأمور، وذلك لاستعجالهم لطلب العلم وعدم تحري معانيه الصحيحة الكامنة في السلفية الحقة، إلى آخر ما لا يخفى على أحد مما ابتُليت به الأمة.. أولئك هم «المتمسلفة» الذين اختزلوا التصوف بكل ما فيه من خير للأمة والدعوة الإسلامية، اختزلوه في البدع والمظاهر الشركية التي هو منها براء بدلًا من أن ينبروا للإصلاح ويجتهدوا في التصحيح والتصويب، كما فعل شيوخ الإسلام وعلماؤه عبر القرون، وجُلُّهم من أهل الصوفية الشرعية. وفي ذلك المنحى الذي نحاه الشيخ ﵀ إصلاح وتبيان للسلفية الحقة التي هي في جوهرها ما هي إلا الصوفية الحقة. يقول ﵀ في ذلك: «لا شك أبدًا في أن السلفية الصحيحة هي الصوفية الصحيحة، وهي الإسلام الصحيح، كما أنه لا شك أبدًا في أن الصوفية الصحيحة هي السلفية الصحيحة، وهي الإسلام الصحيح، فالإسلام كله شيء واحد، فإذا ما نحن جردنا السلفية من الدَّخَل وجردنا الصوفية من المدسوس، لم يكن هناك فارق قط بينهما، وكان ذلك هو الإسلام». ثم يعقب ﵁ مخاطبًا طلاب علمه السالكين من أبناء طريقته الصوفية المحمدية فيقول: «فالمحمديون إذًا سلفيون صوفيون، أو صوفيون سلفيون، ولكن في الحد الشرعي المحدود

للسلفية والصوفية الإسلامية الصادقة بين التفريط والتغالى»[1].

ولذلك فقد أطلق فضيلته على أدعياء السلفية المدخِلين عليها ما ليس منها اسم «المتمسلفين»، وجعل أقوالهم وأفعالهم من «التمسلف» تمييزًا لها من السلفية الحقة. وقد بين الشيخ أن المعادين للتصوف برمته هم هذه الطائفة المتمسلفة، وهم لذلك يتعامَوْن عن الجانب المضيء من التصوف، ويغضون البصر عن جوهره السلفي. وقد حاول رضي الله عنه في مراسلاته ومقالاته ومناظراته معهم أن يقيم عليهم الحجة ويردهم إلى الصواب، فعلى سبيل المثال قام رضي الله عنه بتخريج أوراد الطرق الشاذلية وغيرها من الطرق الصوفية وعمِل على ردها لأصلها السلفي الشرعي بسوق الأدلة الشرعية على كافة تلك الأوراد المشهورة للطرق الصوفية، ولو لم تكن من كتاباته رحمه الله، مما يدل على أمانته العلمية وإخلاصه لدين الله تعالى.

ويقول رضي الله عنه واضعًا هذا الأمر في نصابه الشرعي الواقعى السليم: «ليست خصومة المحمديين للتمسلف لمجرد أنه مذهب يخالف مذهبهم قليلًا أو كثيرًا، ولكن لما في هذا المذهب من الخطورة البالغة على المقومات الفكرية والاعتقادية والقومية والوطنية، وعلى المبادئ والقيم باسم السلف المظلوم»[2].

«فالمتمسلف بتقسيمه أهل القبلة إلى أديان شتى ثم إلى مشركين وموحدين، ثم إلى كذا وكذا، مما يجعل بأسهم بينهم ويشغلهم بتوافه الفتن عن كبريات الأخطار، إنما يخدم الاستعمار خدمة لا تعادلها خدمة، فقاعدة «فرق تسد» التي ينفق الاستعمار عليها كل أمواله، ويستعمل فيها كل تداهيه ولؤمه ومخابثه، ويرصد لها كل إمكاناته، إنما لا تكلفه شيئًا أبدًا إذا هو ساند أولئك المتمسلفة... ولو بهذه الدنيويات التافهة التي يقدمها لهم سحتًا.... فيهدمون أنفسهم وأمتهم غير مكترثين

(١) «القضاء على التمسلف واجب شرعي ووطني»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد السادس، السنة السابعة، غرة المحرم ١٣٧٧هـ، ٢٨ يوليو ١٩٥٧م.

(٢) «أحاديث عن التمسلف والخيام»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد العاشر، السنة التاسعة، غرة جمادى الأولى ١٣٧٩ هـ، ٢ نوفمبر ١٩٥٩م.

بعلم عالم أو آداب دعوة، وبهذا يحول السلفية الجليلة إلى تمسلفٍ مسخٍ، فيخدم الاستعمار خدمة أخرى أخطر وأنكر، هي تجريد التاريخ الإسلامي من حقائقه ومفاخره....»[(١)].

وعندما انبرى رضي الله عنه للرد على هؤلاء الغلاة من المتمسلفة الذين اشتطوا في نقد التصوف وتضليل أفق الناس بآراء غامضة لا أساس لها شرعًا، وتصدى لهم بالحجة والبرهان والجدال الحسن، آذوه وقذفوه، فلم يكتف بالرد عليهم وإنما ذهب معهم إلى ساحة القضاء[(٢)]. ومن الجدير بالذكر أن ذلك ليس للرد على أذاهم ولا طلبًا للقصاص منهم لنفسه، بل ليجعل موضوع التصوف على ساحة الفكر العام والخاص مفروضًا بقوة تستدعي اشتراك المخلصين واستثارة همم العلماء النابهين؛ وهو ما حدث بالفعل؛ فلقد اضطرت مشيخة الأزهر الشريف وجامعة الأزهر ودار الإفتاء بالديار المصرية إلى التدخل لإزالة الرين وبيان وجه الحق في هذا الأمر، وكان كل ذلك مكسبًا كبيرًا لتطور التصوف وإصلاحه وإظهار حقيقته البناءة النافعة الأصيلة، كما كان إظهارًا أيضًا لضعف حجة المنتمين لتيارات معادية للتصوف الذين كانوا لا يجدون من يرد عليهم بردود علمية تبين ضعف حجتهم، فيغالون ويتمادون في ادعاءاتهم واتهاماتهم الجائرة وإطلاق الأحكام بشكل غير علمي وغير دقيق على المتصوفة، فأضاعوا بذلك جهدهم وجهد كثير من أبناء الأمة في مثل هذه الترهات التي لا طائل من ورائها، مما دفع الشيخ إلى مجابهتهم بالحجج الدامغة في كل مجال إعلامي متاح، بل والدخول معهم إلى ساحات المحاكم ومناظرتهم عبر الجرائد والصحف وعبر مؤسسات الأزهر الشريف[(٣)].

---

(١) «أحاديث عن التمسلف والخيام»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد العاشر، السنة التاسعة، غرة جمادى الأولى ١٣٧٩ هـ، ٢ نوفمبر ١٩٥٩م.

(٢) لاحظ أن هذا المنهج المبارك هو نفسه المنهج الذي سار عليه شيخنا رضي الله عنه في التصدي للمعارضين لإصلاح التَّصَوُّف وتنقيته مما ران عليه كما أسلفنا في المسألة السابقة، وأشرنا هناك إلى الحجج الشرعية المرجحة لهذا المنهج.

(٣) من ذلك دعاوى القذف والسب التي أقامتها العشيرة المحمدية ضد القائمين على تحرير مجلة =

وقد حذر الشيخ رضي الله عنه القائمين على أمر التعليم الديني بمصر وغيرها من بلاد الإسلام من خطورة ترك اتجاه التشدد البعيد عن حقيقة السلفية ينتشر ويتوغل في المؤسسات الدينية الرسمية والأهلية دون مجابهة بالحجة والدليل العلمي الشرعي الصحيح.

صدق فراسة الإمام الرائد وتحقق ما توقعه وحذَّر منه

ولقد حذَّر رضي الله عنه من أن ترْك هؤلاء المبطلين يشوهون صورة الإسلام ويحملون بجور وظلم على التصوف وميراث الأمة وتراثها وعلمائها، سوف يؤدي إلى عودة فكر الخوارج بشقيه البغيضين: شق تكفير الناس، وشق العنف وحمل السلاح والخروج على ولاة الأمر داخل المجتمعات الإسلامية. وصدقت بصيرة الشيخ وتوقعاته فما لبثت أن ابتُليت الأمة بالشرَّين معًا، ولم يجد العلماء والقائمون على الأمر سوى التصوف الشرعي الصحيح لمحاربة هذا الباطل القديم الجديد.

ولم يجدوا خيرًا من كتب الشيخ رضي الله عنه **واتباع «طريقته الصوفية الشرعية السلفية» لمجابهة ذلك الخطر العظيم. ولا أدل على ذلك من أن كتاب «بيان للناس» الذي اعتمد عليه الأزهر الشريف في الرد على هؤلاء الخوارج عند ظهورهم بمصر قد أُخذ معظمه من كتب الشيخ، ومعظم المراجعات الفقهية التي كتبها التائبون من أمراء ورؤساء هذه الجماعات انطوت على كثير من الأصول الشرعية والفروع الفقهية التي نادى بها الإمام الرائد في مؤلفاته**[1].

أمثلة من مناظراته العلمية المفحمة مع «المتمسلفين» المعادين للسلفية الصوفية الحقة

يقول رضي الله عنه: «أما اعتراض المتمسلف على قول العارف الشيخ عبد السلام بن

= «التوحيد» بسبب مقالاتهم المتتالية حول التَّصَوُّف وأعلامه، ومن بينهم الشيخ الرائد محمد زكي إبراهيم، وقد اضطرت الجماعة الممولة لهذه المجلة إلى الاعتذار وطلب التصالح، وأقرت بوجود تصوف شرعي سلفي، وأنها لم تقصده بحملتها الصحفية المذكورة.

(١) يراجع على سبيل المثال كتاب «الورقات في الإصلاح» للمؤلف.

بَشِيش رضي الله عنه: «وانشلني من أوحال التوحيد» فاعتراض المغرض الجاهل، وليس أنكد ولا أنكر من الجمع بين الجهل والغرض، ولا أوقح ممن يحكم على شيء هو أجهل الناس به. إن علماء (التوحيد) الذي يسمونهم علماء «الكلام» أتخموا كتبهم بما أقحموه فيها من قضايا واستشكالات، وفروض وردود محيرة، صارفة عن المقاصد الكبرى، فهناك مثلًا طائفة الأشاعرة، والماتُرِيدِيَّة، والمعتزِلة بفِرَقهم الكثيرة والسلف والخلف.. إلخ، وكلهم تحدث في مسائل حَشْوِية أو هامشية معقدة، عقلية أو نقلية، فمثلًا هل صفات الله عشرون أو ثلاث عشرة أو تسع وتسعون؟ أو هي لا تتناهى؟ وكيف يحصر الكمال في العدد؟ وكيف اختير هذا العدد؟ وهل يكفي اتصافُه تعالى بصفات المعاني، أم لا بد من اتصافه تعالى بالصفات المعنوية أيضًا؟ وتكلموا فيما وصف الله نفسه به من الاستواء واليد والعين والوجه والجنب، ونحو ذلك، وهل يؤخذ هذا على ظاهره فيكون تجسيمًا وتشبيهًا، أم يئول على أصول اللغة بما يناسب التنزيه الإلهي مثلًا، وتكلموا في القضاء والقدر، والجبر والاختيار، فزادوا الطين بِلَّة، وتاهوا في السراديب والدروب، والمخابئ والمغارات، بقدر ما ضلوا في تيه الصحارى والبراري، والوِهاد والنجود، وهكذا تكلموا في قضايا الإيمان وحقيقته، والمنزلة بين المنزلتين، وفي إحاطة العلم القديم بالجزئيات، أو وقوفه عند الكليات، وهل يخلق الله الشر وهل يريده، وهل يخلق العبد أعمال نفسه بإرادته؟ وكيف تعلق الإرادة البشرية بالإرادة الإلهية، وهل الله يتكلم، وهل القرآن كلامه، وهل هو أزلي أو مخلوق محدث؟ ثم انتقلوا إلى الأنبياء فتكلموا في العصمة النبوية وحدودها ومداها، قبل وبعد النبوة، وثبوتها في منطقة ونفيها في منطقة أخرى، إلى آخر هذه المشاكل التي قدمنا نموذجًا من أيسرها، وهو مما تضطرب معه القلوب والأفهام، وربما هوى بصاحبه إلى الشكوك والأوهام، فهذه صورة من «أوحال التوحيد» التي خافها ابن بَشِيش، فقد رأى أن كل ما يشغله عن ربه «أوحال» لا يجب أن يخوض فيها، وسأل الله أن ينشله منها ليغسله في بحار الأحدية، ويغرقه في عين بحر الوحدة، بالفتوح العقلي والشهود القلبي، والإدراك الروحي، والمعرفة

بالحقيقة على ما هي عليه؛ ليصفو يقينه، ويتم إيمانه، فكيف يعترض أحد على طلب الوصول إلى عين اليقين، والخلوص من أوحال المغالين والغافلين؟ اللهم انشلنا من أوحال التوحيد إلى أقداس الأحدية والتجريد! آمين!»[1].

ويستمر الشيخ ﷺ في بذل الجهود الحميدة بالعلم والحكمة والموعظة الحسنة لرد هؤلاء الغلاة؛ أملًا في تأليف القلوب وتجميع الأمة الإسلامية تحت لواءٍ واحد، وذلك **بسوق الأدلة الشرعية على مصطلحات الصوفية والرد على الجهلاء الرافضين للتصوف بإطلاق**، وإليك السردَ التالي من كتابات الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الصدد، فما أبدعه:

«أما اعتراض المعترض على قول ابن بَشيش أن الرسول ﷺ حجاب الله الأعظم، فجهل جديد بفقه اللغة وفقه العقيدة، فقد قال ابن بشيش في ابتهاله: «اللهم إنه -أي النبي ﷺ- سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك» فقرر بذلك أن الرسول ﷺ في مقام سبق القدر بالهداية، دال عليه تعالى، وفي مقام سبق القدر بالغواية حجاب قائم بين يديه تعالى؛ فإنه ﷺ قرآن الله المجسم، أو هو ﷺ التفسير الحي لمعاني القرآن الكريم، والله تعالى يقول عن القرآن: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، فبمقدار ما يكون القرآن سببًا للهداية عند قوم يكون هو نفسه سببًا للغواية عند آخرين، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، فهذا وجه.

والنبي ﷺ هو القائم بين الله تبارك وتعالى وخلقه، فلا يصل واصل إلى الله تبارك وتعالى بإيمان ولا بمحبة ولا بعلم ولا بعمل إلا من خلاله ﷺ، فلا إيمان بالله إلا وإيمان برسوله، ولا محبة لله إلا ومحبة لرسوله، وكذلك أخذ العلم والعمل. فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله، وجعلنا ممن يُعزِّرُونه ويوقِّرونه ويتبعون هَدْيَه وينالون شفاعته، آمين.

---

(١) «أسئلة وأجوبة مجملة في التصوف»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثانى عشر، السنة الثانية عشرة، غرة رجب ١٣٨٠هـ، ١٩ ديسمبر ١٩٦٠م.

ووجه آخر: يتضح في قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧]، فبمقدار ما كان هذا الحال من أكله الطعام ومشيه في الأسواق سببًا في هداية العقلاء الذين فهموا حقيقة النبوة على أنها بشرية مصطفاة، بمقدار ما كان هذا الحال نفسه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق سببًا في غواية آخرين! فهو ضلال أن النبوة ملائكية أو ملوكية، فالشيء هو هو يكون هداية وغواية في وقت معًا، وعلى هذا المعنى الواقعي تجري أحداث شتى من معاملاتنا الخاصة والعامة، فيأتي الرجل بالأمر يكون عند قوم فعلًا مقبولًا، ويكون هو هو عند آخرين فعلًا مرذولًا، فذلك ناموس طبيعي في قانون الكون لا محيص عنه، فعندما يقول ابن بَشِيش: إن رسول الله ﷺ (السر الجامع الدال على الله، والحجاب الأعظم القائم بين يدي الله) فإنما يقرر القانون الكوني العام في إطار متفق مع اللغة وفقه الدين، لا يعترض عليه إلا من اتسم بالجهل.

ووجه ثالث، فإذا عرفنا أن رسول الله ﷺ هو القرآن الحي المجسم، كان بالتالي هو الإسلام الحي المجسم، ثم إنه ﷺ حجاب الله الأعظم، فلا بد للداخل على الله من رفع حجابه، ورفع الحجاب هنا هو حقيقة الإيمان به، وإلا فلا دخول على الله أبدًا ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ولو لم يكن إلا هذا الوجه وحده لكفى»[1].

خلاصة الضبط الشرعي لاصطلاحات الصوفية

وفي نص بديع مفحِم حوى أدلة أصولية امتزجت بأدلة لغوية معتبرة شرعًا، وعلى طريقة علماء الحديث، أجمل الشيخ ﵁ رأيه الأثير في مصطلحات أهل التصوف بما لم نقرأه لأحد من قبله، فما سمعت من مخالفيه من العلماء معترضًا على ما ساقه سوى الاكتفاء بالاعتراض بقولهم: «نحن لا نرى ذلك». وقد راسلت كثيرًا

(١) «أسئلة وأجوبة مجملة في التصوف»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة الثانية عشرة، غرة رجب ١٣٨٠هـ، ١٩ ديسمبر ١٩٦٠م.

من أتباع المذهب السلفي الوهَّابي المبجلين، وكذلك فعل غيري من تلاميذ الإمام في تراسل أشبه بالتناظر يحقق نوعًا من التواصل والتحاور، أمرَنا به الشيخ رحمه الله تعالى وبدأ به بنفسه، عسى الله أن يجمع ما تفرق من الفرقة الناجية المنصورة الظاهرة على الحق، جعلنا الله تعالى منهم، وهدى الله تعالى بهم من خلفهم من المسلمين في جميع أرجاء المعمورة[1].

وبهذا الصدد يقول رضي الله عنه: «ويظهر أن بعض إخواننا -هداهم الله- لا يزالون عند القول الجاهل بأن كل كلمة أو عبارة أو اصطلاح لم يذكر في القرآن والسنة، فهو أكثر من بدعة، وأكبر من كفر، ولو تتبعنا هذا لما بقي على وجه الأرض شيء إلا وهو بدعة أو كفر، ولو صدر هذا القول من غير أهل قرننا لعذرناهم، ولكنهم من أهل جلدتنا، يعيشون في زماننا، وينطقون بألسنتنا، ولكنهم يفكرون بعقول ما قبل التاريخ.

وقد قلنا: إن مجرد التسميات والاصطلاحات لا تغير شيئًا من الحقائق الذاتية في واقع الأشياء، وقلنا: إن الأمة أجمعت سلفًا وخلفًا على اتخاذ التعريفات والمصطلحات اللازمة في كل طائفة ولكل علم وفن بحسبه، وقلنا: إن بين أيدينا عشرات القواميس من التسميات والمصطلحات العلمية والفنية التي لم ترد على لسان بشر من قبل، وقد ارتضتها الأمة واعتبرتها ضرورة لازمة ملزمة، لا هي كفر ولا هي بدعة، فليس بدعًا إذن أن يكون للصوفية مصطلح معين يراد به معنى معين، سواء ورد أو لم يرد في تقويم مفردات اللغة ما يعبر عنه، فقولهم مثلًا: «قطب، أو بدل، أو خمر، أو سكر، أو صحو...إلخ» يريدون به التعبير عن المعاني الشريفة والأحوال الروحية التي يجدها المُقْبِل على الله، والسالك إليه، كل ذلك أمر كما ترى عادي للغاية، لم يقل عاقل ولا مجنون من قبل: إنه يتحتم أن يكون من نصوص

(١) راجع المزيد حول الموضوع ص ١١٠ وما بعدها من الكتاب.

الوارد في الكتاب والسنة اللذين لم ينزلا للتعريف بالأسامي والمصطلحات. وها نحن أولاء نجد هذه المصطلحات تموج بها علومُ الدين واللغة، فنجد في الفقه والأصول مثلًا اصطلاح: «الفرض، والواجب» ومصطلحات السنة بأقسامها، و«الرغيبة، والفضيلة»، ونجد اصطلاح: «الحلال والحرام، والمكروه، والمندوب، والمباح»، ونجد اصطلاح: «الكتاب والسنة، والإجماع، والقياس، والاستنباط، والاستصحاب والاستئناس»، ونجد اصطلاح: «المُرسَل والمُسَلْسَل، والمُعَنْعَن والمرفوع، والموقوف، والموضوع، والمُعْضَل والمعتضد... إلخ»، وفي النحو نجد اصطلاح: «المُعْرَب، والمَبْنِي، والمبتدأ والخبر، والحال، والتمييز، والتحذير، والإغراء، والاستثناء.. إلخ»، ونجد عشرات المصطلحات الخاصة في العَرُوض والصرف والوضع والمنطق وغيره من العلوم الموصولة أساسًا بعلوم الدين، مما يطول إحصاؤه واستقصاؤه، ولم يعترض عليها مخلوق عاقل أو عالم.

إذن فالحملة على اصطلاحات الصوفية بالذات حملة جائرة حانقة، لا يسيغها علم ولا عقل، فهي ساقطة الاعتبار، مردودة بالطبع، فاقدة القيمة والوضع، لا تستوجب شيئًا من الاهتمام على الإطلاق»[1].

ويستطرد الإمام رضي الله عنه متبعًا ذات المنهج العلمي الشرعي في توضيح المقصود من بعض المصطلحات الصوفية الشائعة، وتفنيد الأباطيل المثارة حولها، فيقول[2]: «طبيعة الأكوان تقتضي حتمًا أن يكون هناك المفضول والفاضل والفضل؛ والمنطق الحاكم لا يصدق بالتساوي المطلق بين أي اثنين، كما أن المنطق الحكيم يحتم بالقطع أن درجات الأفضلية لا تزال تتدرج هرميًّا من الأكثر إلى الكثير إلى القليل إلى الأقل،

(١) «كليمات مكملات لموضوع الأقطاب»، العدد الثامن، السنة الخامسة عشرة، غرة ربيع الأول ١٣٨٥هـ، ٣٠ يونيه ١٩٦٥ .

(٢) «مع الشيخ والمجاهد البدوي رضي الله عنه المفترى عليه وحديث عن الأربعة وعن التصريف وعن الولاية وعن الديوان»، العدد السابع، السنة الخامسة عشرة، غرة صفر ١٣٨٥هـ، ١ يونيو ١٩٦٥م.

إلى فرد واحد يجتمع له من الفضل ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره، فذلك الذي سماه الصوفية بالقطب الفرد الجامع، يريدون الشخصية الفريدة التي جمعت من أنماط الكمال ما لم يتوفر لغيرها في عصرها.

التسمية بالقطب

والتسمية بالقطب[1] عند الصوفية كناية اصطلاحية، لا ينسحب عليها اعتراض؛ لأن البشرية أجمعت على أن لكل طائفة حريتها في اختيار الأسماء الاصطلاحية لمسميات موضوعاتها، وبين أيدينا الآن موسوعات ضخمة للمصطلحات العلمية القديمة والمستحدثة، في كل علم، وفي كل فن، ليس لعاقل عادل على شيء منها اعتراض، وليس في دين الله السمح الفسيح الخالد ما يمنع أبدًا من ذلك، وبذلك انقطع اللَّجاج حول هذه التسمية، ثم حول ما يليها بالقياس.

تدرج القطبانية

ولما كان رأس البشرية وأكملها على الإطلاق هو سيدنا المصطفى ﷺ، كان القطب الفرد عند الصوفية المسلمين هو من اجتمع له من الكمالات ما لم يجتمع لغيره في عصره، فهو القائم على قدم سيدنا رسول الله ﷺ.

ولما كانت الأمة قد اجتمعت على أن أكمل الناس بعد الرسول ﷺ هم الخلفاء الراشدون الأربعة، اعتبر الصوفية أن أكمل أربعة في عصرهم بعد القطب الفرد هم خلفاؤه ووزراؤه على أقدام الراشدين الأربعة.

ولما لم يكن بقية الصحابة -على فضلهم المؤكد- ليسوا في رتبة واحدة من القرب، بحكم الشرع والعقل، كان منهم الأبدال الأخيار[2] الذين هم في المرتبة التي تلى

---

(١) راجع المزيد حول القطب: «تحفة الإخوان من الصوفية بالكشف عن حال من يدعي القطبية» لعلوان الحَمَوِيِّ، «شموس المواسم في معرفة الولي والقطب والغوث والخاتم» للمغربي، «حلية الرجال في الأقطاب والأوتاد والنجباء والأبدال» للسيوطي.

(٢) راجع المزيد حول الأبدال في: «نظم اللآل في الأبدال» للسخاوي، «كتاب الأبدال» لأبي حمزة الصوفي، «حلية الأبدال» لابن عربي.

الأربعة مباشرة، وهم الذين أشار الحديث النبوي بأنهم على قدم سيدنا إبراهيم، وأنه لا تخلو الأرض منهم حتى تقوم الساعة، وأولئك هم الأقطاب عمومًا عند الصوفية، والاختلاف في عددهم غير ذي بال، فالجمع بين روايات الحديث ممكنة.

ثم يأتي من بعد هؤلاء «النجباء» الذين أشار إليهم الحديث كذلك، ثم «المفردون»، الذين بشرهم النبي ﷺ بالسبق، ثم «الضعفاء» الذين يُرزق المسلمون وينصرون بهم، على ما في الحديث الثابت، ثم يأتي من بعدهم طوائف الأبرار، وكل أولئك هم أولياء الله.

ثم يرى السادة أن صفوة آل بيت الرسول ﷺ هم أئمة كل طائفة، والمقدمون في كل مرتبة، حتى يكون آخرهم المهدي عليه سلام الله[1]، وبه يكون ختم القطبانية والولاية في الأمة.

مذهب ثابت بدليل

وإذ قد عرفت هذا الإجمال فقد وجب أن تعرف أنه ليس عقيدة حتمية، ولا هو شرط لصحة الدين، ولكنه مذهب ثابت بدليله شرعًا وعقلًا عند أهله، وهو فضيلة يحصلها من شاء، ويدعها من شاء، وهم لا يحبون أن يُكرهوا أحدًا على رأي يعتنقونه، وبخاصة إذا كانوا يحسبون في مخالفته -بدليلهم- معصيةً لله، أو انحرافًا عن صواب ثابت عندهم، وبهذا نريد أن نحسم اللجاجة في هذا الجانب.

الأربعة أحياء وموتى

ومن المقرر عند القوم رضي الله عنهم أنه لا يزال من الأحياء أربعة على أقدام الراشدين الأربعة، يرثون مقامهم الروحي الكبير عند الله، حتى إذا انتقل منهم رجل إلى الرفيق الأعلى قام مقامه غيره من السادة، فلا تخلو الأرض من بركات وجود

---

(١) راجع المزيد حول المهدي المنتظر: «البرهان في علامة المهدي آخر الزمان» للسيوطي، «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» لابن حجر الهيتمي، «التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح» للشوكاني، «دار السلام في أحوال المهدي المنتظر الإمام» للعراقي.

هؤلاء الأربعة الأحياء، غير أن منهم من كتب الله له الاشتهارَ، ومنهم من كتب الله له الاستتار، طبقًا للفطرة والقدر السابق.

فمن اشتهر ممن ورث أقدام الأربعة مثلًا: الإمام الرِّفاعي، والجِيلاني، والبَدَوِي، والدُّسوقي، والشاذلي، وشاه نقشبند، وجلال الدين الرُّومي، والغزالي، والتِّجاني، وألوف لا تحصى في المشارق والمغارب، ممن انتقلوا إلى رحمة الله ولا تزال أقدامهم موروثة من بعدهم فيمن هم لذلك أهل من الأحياء حتى تقوم الساعة، إن شاء الله، ولا يعيب تاريخهم دس الدساسين، أو اختلاف الكذابين.

وعند القوم رضي الله عنهم أن لكل قدم من الأقدام الأربعة شخصية مستقلة، وكيانًا ذاتيًّا، فمن كان على قدم أبي بكر غلبت عليه خصائص أبي بكر، ومن كان على قدم عمر وضحت فيه مميزات عمر، وهكذا من يكون على قدم عثمان وعلي، ثم من يكون على أقدام بقية الصحابة رضي الله عنهم بما حُفظ عنهم وما لم يحفظ».

ومن ذلك أيضًا ما قاله الشيخ رضي الله عنه مرارًا دفاعًا عن عوام الطريق المخلصين في التوجه إلى الله تعالى، متوسلين إليه بما وبمن شرع، يقول رحمه الله تعالى: «أما قولهم: «مدد يا سيدي فلان» فهو إن كان حيًّا فطَلَبُ المدد منه بمعنى طلب الدعاء، وإن كان ميتًا فطلب المدد بمعنى طلب شفاعته إلى الله، والمطلوبُ منه المدد حيًّا كان أو ميتًا قادرٌ على الدعاء والتماس الإذن بالشفاعة إلى الله، فنحن لا نطلب المدد إلا من خصيصة إلهية، على أن للقلوب والأرواح أثرًا أكيدًا فيما وراء المنظور، يظهر مثلًا في التنويم والحسد وبعض أنواع السحر، فهناك في النفس قوى باطنية لا تفارقها في الحياة ولا في الممات، وهذه القوى قد تُسدَّد إلى الرجل فتوجهه أو تبعث ملكاته، أو تغذي باطنه، فالمدد بهذا المعنى أمر في مستطاع البشر، وهذا غير هذا قولًا ونية وفعلًا»[1]، ولا محل هنا إطلاقًا لذكر آية ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ

(١) «إجابات صوفية شرعية قاطعة على خمسة عشر سؤالًا أساسيًّا جامعًا»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العددان: الحادي عشر والثاني عشر، السنة الثانية عشرة، شهرا: جمادى الآخرة ورجب ١٣٧٢هـ، ٦ مارس ١٩٥٤م.

لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥]. فهذه الآية نزلت في المشركين عبدة الأوثان، وسحب أحكام هؤلاء على الموحدين من أعمال الخوارج كما أثبته البخاري، والقياس مع الفارق من وجوه شتى ملحوظة لا تحتاج إلى بيان»[(١)].

ويقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى قول الشيخ البكري: «اللهم صرفني في عالم الملك والملكوت، اللهم اجعلْ لي مرادي فانيًا في مرادك، حتى لا يجري على قلبي ولا لساني ولا يدي إلا ما سبقت به إرادتك»: «فإذا فهمنا هذا عرفنا أن استجابة الله لهذا الدعاء تسلخ الداعي من حوله وقوته، إلى حول الله وقوته، فلا يجري على يده ولا على قلبه ولا على لسانه إلا ما جرى به القلم الأعلى، فكأنما قد ولاه الله تصريفَ ما شاء من أموره على ما سبق من علمه القديم، فهو أداة من أدوات التنفيذ التي لا قيومية لها من ذاتها، وإنما هي موجهة مكلفة؛ إذ ليس لأحد مع الله تعالى تصريف مستقل، بل هو على ما جاء في معنى «**الْمُدَبِّرَات أَمْرًا**» عند بعض المفسرين، فأهل التصريف هم أهل الفناء المطلق في الله، أولئك الذين تجرَّدوا من كل رغبة وكل شهوة، ولم يبق لهم من نفسهم منزع إلى هوى، فهم يسيرون في فلك الإرادة السرمدية، وقد يكرمهم مولاهم فيجري بقدرته على أيديهم ما يتحقق به مراده الأول، علموا ذلك أو جهلوه، وربما بدا للناس أنهم بذلك يتصرفون على مشيئتهم في الكون على حين أنهم أدوات تنفيذية على سنة كونية بمشيئة إلهية، والله يفعل ما يشاء، وذلك قوله تعالى في الحديث القدسي عمن أحبه: إنه يكون له سمعًا وبصرًا ويدًا ولسانًا؛ أي أنه يصبح عبدًا ربانيًّا يقول للشيء: كن فيكون بإذن الله، وعلى سابق مراد الله»[(٢)].

«فالقول بأن فلانًا من «أهل التصريف» يريدون أنه من أهل الوجاهة عند الله والقبول لديه، وأنه من أهل استجابة الدعاء، سواء كان نطقًا باللسان أو توجهًا

(١) المرجع السابق.

(٢) فضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم: «أجوبة على البريد الخاص حول التَّصَوُّف والصوفية»، مجلة المسلم، العدد الخامس، السنة الثامنة، غرة ذي الحجة ١٣٧٧هـ، ١٩ يونيو ١٩٥٨م، كلمة الرائد، مطبوعات العشيرة المحمدية.

بالقلب، أو تحركًا للإرادة وكنه الهمة، في حدود ما جاء في الحديث القدسي الصحيح: «**ولئنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّهُ، ولئنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**»(١)، وحديث: «**مَن شَغَلَه ذِكْرِي عن مَسْأَلَتِي، أَعْطَيْتُه أَفْضَلَ مما أُعْطِي السائِلِينَ**»(٢)، أو كما قال ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ مَدْفُوعٍ بالأَبْوَابِ لو أَقْسَمَ على اللهِ لأَبَرَّهُ**»(٣)، وهو معنى قول السادة: «إنَّ للهِ عبادًا إذا أرادوا أراد»؛ ترجمة لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر: ٦٠] فافهم!(٤) فالمراد بـ«التصريف» هنا هو تفضل الله تعالى على عبده بإيقاعه تعالى الأمر -كما سبق علمه القديم- على مراد عبده الظاهر، بما يجيء في دعائه القولي، أو التوجه القلبي، أو تحرك إرادته الروحية، وذلك تنفيذًا لترتيب الأسباب والمسببات، على مقتضى ما في اللوح وأم الكتاب».

معنى قولهم: «هذا مقام الربانيين»(٥)

هذا المقام خاص بالربانيين الذين هم على أقدام الأنبياء، ما يصدر عنهم ليس منهم، فقد ذابت بشريتهم وفنيت إرادتهم وبقيت روحانياتهم أثرًا لقيامهم في مقام المحبوبية، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح عن الله تعالى، يقول: «**فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ التي يَمْشِي بها**»(٦)، ومعنى هذا تجردُه من كل شيء، إلا من مظاهر انعكاس الصفات الإلهية عليه، فتظهر شئونه كأنها منه، وما هي إلا من الله، وهو مقام: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [ص: ٣٩].

---

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي: (٥/ ١٨٤) برقم (٢٩٢٦)، والدارمي: (٢/ ٥٣٣) برقم (٣٣٥٦)، كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي: (٥/ ٦٩٢) برقم (٣٨٥٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) «أصول الوصول» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، (ص٢١٦) مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية، الطبعة الرابعة، ١٩٩٥م.

(٥) «أصول الوصول» (ص٢٢٢).

(٦) أخرجه البخاري: (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث القدسي الشريف: «**ما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حتى أُحِبَّهُ**»[1]. وقد بين الله طريق الدخول إلى هذا المقام فقال: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] فالربانية الإسلامية نتيجة العلم والدراسة والتطبيق، وهذا مقام الاهتداء والإنابة، وهو غير مقام الاجتباء والإفاضة، وفي القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم تأمل بعمق قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وقولَه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، وقوله تعالى عن الماء: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩]، وقوله تعالى عن النار: ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] فالفاعل في الحقيقة هو الله.

التصريف من الله ظاهراً وباطناً

ويستطرد الشيخ رضي الله عنه قائلًا: «فليس العبد مصرِّفًا شيئًا من الله تعالى، ولكن الله تعالى يتفضل فيصرِّف الأشياء كما هي في علمه، على مراد أوليائه وأحبائه ظاهرًا فقط، تنفيذًا لسبق إرادته، فأهل التصريف يعنى بهم «أهل الفضل الإلهي» الذين يكرمهم الله بتحقيق مرادهم الظاهر، وهو مراد الله الحقيقي الباطن فيما يطلبونه من الكونيات، سواء كان الطلب بالقول أو الفعل أو الهمة. والهمة يعني بها كثير من الصوفية: تحرك الإرادة الروحية التي يجعلها الله سببًا عاديًا من أسباب انفعال الأكوان بقدرته تعالى ليحقق بها المطلوب لعباده الصالحين في ظاهر الأمر، على ما سبق في العلم القديم، فالمراد مراده، والأمر أمره، يجريه كما يشاء على يد من يشاء.

(١) أخرجه البخاري: (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبمعنى آخر: إن الله تعالى يجعل عبده الصالح نفسه أداة من أدوات تنفيذ المراد الإلهي الأزلي، الذي قد يظهر في صورة مراد العبد البشري، فيما يراه الناس. ومثال ذلك: أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يُبْرِئ الأَكْمَهَ والأبرص ويُحْيِي الموتى بإذن الله، وكان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وهو ليس إلا عبدًا أنعم الله عليه، وليس له من الأمر شيء ككل عبد، لكن الله جعل إرادة هذا العبد سببًا عاديًّا في سابق علمه، وجعل العبد أداة لتنفيذ سابق المراد الإلهي الذي انفعلت به إرادة العبد البشرية، على مقتضى العلم القديم، ففاضت به من عالم الغيب إلى عالم الشهود. ولذا من الكذب المخزي والبهتان الخرافي ومن ذرائع الكفر والشرك والزندقة أن يقال: إن وليًّا لله مهما كان شأنه يتصرَّف في الكون كما يشاء، أو إن الله فوض الأمر إلى الولي ليفعل ما يشاء، أو إن الله بعد أن خلق الكون سلمه للأولياء ليدبروه كما يشاءون!»(١).

وفي بيان معانى **(الأحدية، والواحدية، والوحدة، والوحدانية، والتوحيد)** والفروق بينها يقول الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نص جامع بديع: «والجواب -والله أعلم- أن الأحدية هي الذات الصرفة المجردة عن الأسماء والصفات والأعداد، فلا تنسب إلى غيرها، ولا تضاف إليه، ولا تثنيه سابقة أو لاحقة، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ولم يقل: واحد؛ فإن الواحد بعده الاثنان، وإن لم يكن قبله ولا بعده تعالى شيء، أما الأحد فلا شيء بعده، وقد يجوز لك أن تنعت المخلوق بأنه واحد ولكنك لا تنعته أبدًا بأنه أحد.

أما **الواحدية** فهي الذات المسماة الموصوفة المنسوبة إلى غيرها المضافة إليه، ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، و﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٢٢]، و﴿قَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١]، و﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فالأحدية مقامُ خصوصٍ، والواحدية مقامُ عمومٍ.

(١) «أصول الوصول» (ص٢٢٢).

أما **الوحدة** فهي نسبة بين الأحدية والواحدية، فهي رابط بين شيئين، والرابط بين الشيئين يكون كل منهما طرفًا له، وإذا كان البرزخ اجتماعًا أول بين شيئين، غير مسبوق بافتراق، فالوحدة هي البرزخ بين الأحدية والواحدية.

وأما **الوحدانية** فهي الجمع بين خصائص الأحدية والواحدية والوحدة جميعًا، فهي مرتبة التشريف الأقدس الجامع الشامل.

وأما **التوحيد** فهو الإيمان بالوحدانية، إيمانًا يقينيًّا عقليًّا وقلبيًّا لا شك معه، وقد ارتقى الصوفية في مراتب التوحيد إلى مراقي التفريد والتجريد، وهذه مقامات روحية تأتي نتيجة التقلب في كمالات التوحيد، وهي درجات لا تتناهى. هذا ما فتح الله به علينا مجتهدين، وفوق كل ذي علم عليم»[1].

ثم يسترسل الشيخ موضحًا الدوافع وراء كثرة استعمال علماء الصوفية من السلف والخلف لهذه المصطلحات، فيقول رضي الله عنه: «إن للصوفيين اصطلاحاتهم التي قامت بعض الشيء مقام العبارة في تصوير مدركاتهم ومواجيدهم، حين عجزت اللغة عن ذلك، فلا يفهم الصوفي إلا الصوفي، فالتصوف علم وفن وإدراك ونور، فالصوفي إذا قرأ ما تعيبه أنت -إذا صح النقل- من نحو قول بعضهم مثلًا: «خلق الله الأشياء وهو عينها، أو هو حقيقتها»؛ فهِم الصوفي على الفور أن المراد أنه قيومها من قبل ومن بعد؛ لأنه لا قيومية لها من ذاتها، ففي العدم كانت وإلى العدم ستصير، ولن يبقى إلا قيومها سبحانه، «**كَانَ اللهُ وَلَا شَيءَ مَعَهُ، وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا عَلَيهِ كَان**» وليس في هذا وحدة وجود بالمعنى الوثني الحلولي المكفر أبدًا، فالأكوان جميعًا مادتها العدم، وقد انتقلت بالقيومية الأزلية من العدم المستور إلى العدم المنظور، ومتى ما استنفدت نصيبها المقرر من التمتع بالقيومية عادت إلى مادتها الأصلية إلى العدم، ولا شك أن ما بين العدمين عدم، فلم يبق إلا الله في قداسة تجليات

(١) «نفحات ولفحات في الله»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العددان: الثالث والرابع، السنة التاسعة، غرة ذي القعدة ١٣٧٨هـ، ٩ مايو ١٩٥٩م.

صفاته وآثارها، أعني هذه الصورة الكونية الفانية في الواقع والطبيعة ونفس الأمر كما رأيت»[1].

خلاصة التجديد الذي أحدثه الإمام الرائد في المسألة المثارة

ويختم الشيخ رحمه الله تعالى هذا البيان العلمي الموضوعي بتأكيد خطورة النتائج المترتبة على إساءة الظن بالمسلمين خاصةً في مسائل العقيدة، ويشير إلى المبدأ العام المتفق عليه بين علماء السلف في هذا الشأن، فيقول رحمه الله تعالى: «كررنا ما قرره أئمتنا الأصوليون من أن أمر المسلم -قوله أو فعله- إذا احتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا، واحتمل الإيمان من وجه واحد، وجب وجوبًا حمله على هذا الوجه الواحد أدبًا وتحرزًا وحفظًا لوحدة المسلمين، على أن أقبح الحرام أن ننظر إلى التصوف من جانب العوج والمعوجين فقط وندعَ منه جانب الاستقامة والمستقيمين. فلو طبقنا هذه القاعدة على كل علوم الدين لما بقي منها واحد يعمل به»[2].

ثانيًا: بيان آراء علماء الدعوة السلفية المعاصرة المؤيدين للتصوف الشرعي

وهذا منحى جديد هدى الله إليه الشيخ ﵁ تقريبًا وتوحيدًا بين طوائف المسلمين. ووجه التجديد فيه أنه أول من نبه الأمة الإسلامية المستهدفة من قبل أعداء الإسلام في العصر الحديث بالحاكمية المشتركة لجميع فرق المسلمين، ألا وهي الكتاب والسنة، فبهما وفيهما يجتهد العلماء المجتهدون من جميع الطوائف على اختلاف مشاربهم، ومن ثم يؤكد الشيخ أنه ليس هناك رفضٌ لعالِم بعينه ما دام يقول ويجتهد على أساس الشرع الحنيف، ومن منطلق علمٍ ومنهجِ السلف الصالح. ومن هذا المنطلَق أيضًا يأتي تودد الشيخ الجليل ﵀ للمخالفين من أهل الإسلام لطريق

(١) «نفحات ولفحات في الله»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العددان: الثالث والرابع، السنة التاسعة، غرة ذي القعدة ١٣٧٨هـ، ٩ مايو ١٩٥٩م.

(٢) «أيها الصوفيون: دعا الداعي وصاح الديدبان»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة الرابعة، غرة رجب ١٣٧٤هـ، ٢٤ فبراير ١٩٥٥م.

التصوف على غير علم صحيح منهم بحقيقته السلفية المحمدية المحضة، فيَذكُر ويُذكِّر بأقوال أئمتهم المُنصِفة والمؤيِّدة للتصوف الحق والتي يغفلها البعض؛ إما جهلًا وإما عمدًا. وهذا من ممارساته الدعوية والعلمية الدائمة ﵁ من أجل التقريب بين المذاهب الإسلامية بطريقة علمية وعملية، وذلك دون تزلُّف أو مُداهَنة في الحق.

والجديد في هذا المضمار أيضًا أن الشيخ في سعيه للتقريب والتجميع بين طوائف الأمة، بما في ذلك الطرق الصوفية الشرعية بأورادها والتجارب الروحية لمشايخها وطرائقها الخاصة لتربية النفوس[1] قد استشهد بأقوال بعض العلماء الذين اشتُهر عنهم خطأً معاداتهم لمُجمل التصوف. وعلى رأس هؤلاء شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة والإمام ابن قيِّم الجَوْزِيَّة رحمهما الله تعالى، فساق من أقوالهم ما يؤكد به أنهم كانوا يفرِّقون بين التصوف الشرعي السلفي الذي هو جزء رصين من تراث الإسلام وميراث النبوة، وبين ما أُلصق بالتصوف في القرون المتأخرة من بدع وفلسفات ليست منه أصلًا. والجدير بالذكر أن الشيخ ﵁ كثيرًا ما يسوق في جُل أبحاثه العلمية وتخريجاته لأوراد طرق التصوف الشرعي **من أقوال هذين الإمامين بالذات -ابن تيميَّة وابن القَيِّم- ما يستدل به على وحدة أهل السنة والجماعة والتزامهم جميعًا بالمنهج السلفي، وإن تعددت مذاهبهم ومشاربهم، وإن عُرفوا باسم «السلفية» أو باسم «الصوفية»**.

وفي ذلك يقول الشيخ ﵁: «إن ما بيننا وبين هؤلاء السادة -لاحظ أدبه الجَمَّ

---

(١) راجع على سبيل المثال من مؤلفات الشيخ ﵁:
- (اسم الله الأعظم).
- (أصول الوصول).
- (مفاتح القرب).
- (قضية الإمام المهدي).
- (وظيفة الحديث الضعيف).

في التحدث عن مخالفيه- لا يتعدى الخصومة العلمية، وهي حقيقة ثابتة دائمة بدوام مقتضياتها الكونية الخالدة، في الإنسان والزمان والمكان. وقد يكون مع القبيح شيء حسن يشفع له، وقد يكون مع الحسن شيء قبيح لا يُعتذَر عنه، والوقوف مع الصواب اجتهادًا لا يمنع الوقوع في الخطأ، والسقوط في الخطأ اجتهادًا لا يمنع الإيمان بالصواب، ومعنى هذا أنه ما من جانب إلا وله وعليه، فإذا صدقت النيات، وساد قانون ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، أمكن العلاج والتلاقي عند نقطة وسط، لا يتمزق عندها الشمل، ولا تُهدَر من حولها الجهود والفضائل. فأنا مثلًا أخاصم الشيخ ابن تيميَّة وتلميذَه ابن القيِّم في أشياء معينة، وبقدر ما أحمل عليهما فيما أُخالفهما فيه باعتبارنا جميعًا بشرًا، بمقدار ما أرجع إليهما وأستفتيهما وأنتفع بعلمهما فيما أوافقهما عليه، ثم أولًا وأخيرًا أعتذر عن نفسي لهما، وأستغفر الله لنا جميعًا. وذلك شأني مع غيرهما ممن كتب الله لهم الشهرة بين الناس، من أمثال جمال الدين، ومحمد عبده، بل حتى الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ شلتوت، إلى آخرين كثيرين، أخالفهم وأحمل عليهم فيما أعتقد أنهم أخطئوا فيه بلا سند، وأوافقهم وأستشهد بهم فيما أرى أنهم أصابوا فيه، ثم أخيرًا أيضًا أعتذر لنفسي ولهم، وأستغفر الله لى ولهم، وكما أفرض جواز الخطأ عليهم أفرض جوازه عليَّ، وأفوض أمري إلى الله، ولا أرتب على ذلك حقدًا ولا غلًّا ولا مفسدة، ولا سوء أدب على أحد، بل ولا أرتب عليه ما لا يقين لي به من تبديع ولا تشريك»[1].

وفي ذلك النهج النبيل الفريد من الفوائد الجمة ما فيه؛ **ففضلًا عما ينطوي عليه من تقريب بين طوائف المسلمين -كما سلف القول- فإنه يفتح المجال أمام عوام الطوائف المختلفة، ومن باب أولى علمائها، لِتَعَرُّفِ كلٍّ على الآخر، فيجذبهم أفواجًا أفواجًا إلى «الطريقة الصوفية» بمفهومها التربوي الإصلاحي للنفس والمجتمع.**

(١) «على هامش المحيط السلفي والصوفي.. تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد التاسع، السنة التاسعة عشرة، غرة ربيع الآخر ١٣٨٩هـ، يونيو ١٩٦٩م.

وقـد خفَّف هـذا النهج الـرشيـد من الشيخ ﷺ على مرِّ الأيـام وكثرة البحـوث والدراسات والمقالات والخطب التي ألقاها فضيلته، والتي استوعبها وعمل بها هو ومن سار على هداه ونَهج نهجه من تلاميذه -قد خفف هذا النهج السامي من غلواء المعاداة غير الموضوعية وغير المنصفة للصوفية، وألقى بظلال الشك والارتياب على كل من يحاول الحمل الجائر على التصوف، مستغلًّا أسماء طائفة من العلماء الأفاضل، متشبثًا بأقوالهم وآرائهم بعد سوقها مبتورة، مشوهة المعنى ومأخوذة في غير سياقها الصحيح.

وفي ذلك يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ابن تيمية ينصف الصوفية؛** حيث يقول الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة حُجَّة السَّلَفِية وإمامهم وفقيههم في كتابه (الفتاوى الكبرى) الجزء الحادي عشر، وبالصحيفة السابعة عشرة ما نصه: «والصوفيون قد يكونـون من أجلِّ الصدِّيقين، بحسب زمانهم، فهم من أكمل صـدِّيقي زمـانهم، والصدِّيقون في العصر الأول أكمل منهم، والصدِّيقون درجات وأنواع..... ولأجل ما يقع من كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس فيه، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدِعون خارجون عن السنة، وطائفة غالت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أجل طاعة الله، ففيهم السابق المقرَّب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كلٍّ من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب، أو لا يتوب»[1].

كذلك نقل (الكلام ما زال لشيخنا الإمام الرائد) نص رأي الإمام ابـن تيميَّة في صحة كرامة الأولياء من أواخر كتابه الذي أسماه (العقيدة الواسطية)، فهو يقول بالحرف الواحد: «ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء، وما يجيء على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة

(١) «أصول الوصول» (ص٣٥٧).

والتأثيرات... والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وسائر فرق الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة». وتأمل مرة أخرى.. وبعد، فهذا هو عين اعتقاد الصوفية الذي لا يعجب اليوم أتباع ابن تيمية»[1].

ويسترسل الشيخ داعيًا المتمسكين بالسلفية للدخول في الطريقة الصوفية الشرعية، مستشهدًا بأقوال وآراء الإمام ابنِ قيِّم الجَوْزِيَّةِ باعتباره أحد كبار أئمة علماء المنهج السلفي، فيقول: «**ابن القيم يُنْصِفُ الصوفية**، حيث أنصف الشيخ ابن القيم السادة الصوفية الأبرار في شرحه العظيم لكتاب الشيخ الهروي رضي الله عنه، فمن ذلك قوله في (مدارج السالكين) ما نصه: «وهذه الشَّطَحات[2] أوجبت فتنة على طائفتين من الناس؛ إحداهما حُجبت عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملاتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بها مطلقًا، وهذا عدوان وإسراف، فلو كان من أخطأ أو غلط جملةً أُهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم، وتعطلت معالمها. والثانية حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملتهم عن عيوب شطحاتهم ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجرَوْا عليها حكم القبول والانتصار، وهؤلاء معتدون مفرطون أيضًا. أما الطائفة الثالثة فهم أهل العدل والإنصاف، الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح»[3].

وقال أيضًا بعد الكلام عن الإمام الجنيد -رحمة الله على أبي القاسم-: «فما أَتبَعَه

(١) المرجع السابق (ص٣٥٨).

(٢) راجع المزيد حول الشطح عند الصوفية في: «الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح» للشَّعْرَانِي، «المسلك الجلي في حكم شطح الولي» للكُوراني.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠).

لسنة الرسول ﷺ، وما أقفاه لطريقته، وطريقته طريقة أصحابه رضي الله عنهم»[1].

وقال أيضًا لدى كلامه على الوجد والتواجد ما نصه: «والتواجد استدعاء الوجد بنوع اختيار وتكلف، واختلف الناس: هل يُسلَّم لصاحبه؟ على قولين، والتحقيق أن صاحب التواجد إن تكلفه لحظ وشهوة لم يُسلَّم له، وإن به تكلفه لاستجلاب حال أو مقام مع الله، سُلِّم له»[2].

وفي ذات الإطار يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «إن المحدث السلفي الشيخ الذَّهَبِي يعترف بالتصوف وبالكرامات والأحوال والمقامات؛ ففي ترجمته للعارف بالله تعالى أبي الرجال عبد الرحمن بن مري بن بحتر، قال الذهبي في (العبر) ما نصه: «وكان صاحب حال وكشف[3]، وله عظمة في النفوس، توفي سنة أربع وتسعين وستمائة، ثم دفن بقرية مَنِين بزاويته، ومزاره معروف (والدعاء عند ضريحه مُستجاب من كل عبد ملهوف)، وكان أبو الرجال من ذوي الأحوال، وكان ناسكًا زاهدًا عابدًا ورعًا»[4].اهـ.

وقال في (تاريخ الإسلام) ما نصه: «علي الفَرْنَثِيُّ، الرجل الصالح كبير القدر صاحب كرامات[5] ورياضات وسياحة، وله أصحاب ومريدون، وله زاوية بسفح قاسِيون، ثم له حكايات تدل على ولايته». إلى أن قال: «تُوفي في جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وستمائة بقاسِيون، وبنوا على قبره قبة»[6].

وعن الشيخ العارف بالله تعالى أبي بكر العرودكي -بسكون الدال- يقول الذهبي ما نصه: «سكن بسفح قاسيون، وكان زاهدًا، له أحوال وكرامات ومقامات،

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٧٦). (٢) المرجع السابق (٣/ ٦٥).

(٣) هذا الإمام الذَّهَبِي يقر الصوفية على الحال والكشف، وهو مَن هو عَلَمًا من أعلام السنَّة، وينكرها المتمسلفون في هذه الأيام! كما أنه يقر استجابة الدعاء عند أضرحة الصالحين وهم ينكرونها!

(٤) «العبر في خبر من غبر» (٥ / ٣٨٥).

(٥) هنا يعترف الإمام بالمقامات والكرامات والأحوال، كما أنه لم ينكر بناء القُبة.

(٦) «تاريخ الإسلام» (١ / ٤٥٦٠).

وله شعر كثير رأيته في ديوان مفرد، وهو شعر طيب يقع على القلب ويحرك الساكن ويثير العزم، توفي في جُمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وستمائة»[1].

ويستطرد الإمام الرائد رَحِمَهُ اللَّهُ مستشهدًا بأئمة السلفيين قائلًا: «الإمام الشاطبي السلفي ينصف الصوفية، رحم الله الإمام العلامة الأصولي الشيخ أبا إسحاق الشاطبي حيث قال في كتابه (الاعتصام) ما نصه: «وأما الكلام في دقائق التصوف فليس ببدعة بإطلاق، ولا هو مما صح الدليل فيه بإطلاق، بل الأمر ينقسم، ولفظ التصوف لا بد من شرحه أولًا حتى يقع الحكم على أمر مفهوم؛ لأنه أمر مجمل عند هؤلاء المتأخرين؛ فلْنرجع إلى ما قال فيه المتقدمون.

وحاصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيان: أحدهما: «التخلق بكل خُلُق سَنِيٍّ، والتجرد عن كل خلق رَدِيٍّ»، والآخر أنه «الفناء عن نفسه، والبقاء بربه»، وهما في التحقيق بمعنى واحد، إلا أن أحدهما يصلح التعبير به عن البداية، والآخر يصلح به التعبير عن النهاية، كلاهما إنصاف، إلا أن الأول لا يلزمه الحال، والثاني يلزمه الحال، وقد يعبر فيهما بلفظ آخر، وإذا ثبت هذا فالتصوف بالمعنى الأول لا بدعة في الكلام فيه؛ لأنه إنما يرجع إلى التفقه الذي ينبني عليه العمل وتفصيل آفاقه وعوارضه وأوجه تلافي الفساد الواقع فيه بالإصلاح. وهو فقه صحيح وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة، فلا يقال في مثله: بدعة، إلا إذا أطلق على فروع الفقه التي لم يقل مثلها في السلف الصالح: إنها بدعة كفروع أبواب السلم، والإجارات، ومسائل السهو والرجوع عن الشهادات، وبيوع الآجال، وما أشبه ذلك، وليس من شأن العلماء إطلاقُ البدع على الفروع المستنبطة التي لم تكن فيما سلف، وإن دقت مسائلها، فكذلك لا يطلق على دقائق فروع الأخلاق الظاهرة والباطنة أنها بدعة؛ لأن الجميع يرجع إلى أصول الشريعة»[2].

(١) «أصول الوصول» (ص٣٦٠).

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٢٠٧).

أمثلة من المخالفين المنصفين من العلماء والدعاة المنتمين للسلفية المعاصرة الذين تأثروا بدعوة الشيخ وعلماء الأزهر وجامعة القرويين في إصلاح ونشر التصوف السلفي

وأود أن أشير في هذه المثابة إلى كوكبة مباركة من علماء الاتجاه السلفي المعتدل الرائق الذين يسيرون على نفس النهج الذي يسير عليه الإمام الرائد في الدعوة إلى الإصلاح، والذين قاموا بهمة وشجاعة وإخلاص ببذل النفس والنفيس لبلوغ ذلك المأرب السامي لتوحيد كلمة الأمة لكي تعود كما كانت في أول عهدها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن أبرز هؤلاء العلماء في الجزيرة العربية، مهد الحضارة الإسلامية المجيدة، الأستاذ الدكتور الجليند بمؤلفاته العلمية الرصينة المطبوعة بجامعة المدينة المنورة، والأستاذ الدكتور سلمان العودة بجرأته الدعوية الرشيدة وتأصيله العلمي الرصين، والداعية الأديب العالمي الدكتور عائض القرني، والشيخ الدكتور محمد الشريف، وغيرهم من علماء المملكة الأماثل، خاصةً من السادة القضاة المدرسين بمعهد تدريب القضاة بالمملكة، والذين قد أكسبتهم الخبرة العملية مع الدراسة الشرعية ملكة خاصة وسعة أفق وقدرة على الاجتهاد الرزين تمكنهم من الغور في مقاصد الشرع الخفية، وعدم الاقتصار على الظاهر[١]. وقد تعرض الكثيرون من الجيل السابق من علماء الجزيرة العربية الداعين إلى التصوف السلفي[٢] إلى انتقادات شديدة تخرج عن الموضوعية من غلاة التمسلف كدأب غلاة التمصوف الذين

(١) ويلمس هذه الحقيقة كل قارئ لكتبهم وأبحاثهم الشرعية المتخصصة، كما يلمسها كل مستمع لمحاضراتهم وخطبهم، مما يقتضي من كل طالبٍ عمل مراجعة متأنية لمكتبة هذا المعهد المرموق للاطلاع على ما فيها من أبحاث نفيسة.

(٢) ومن أبرز هؤلاء:

- الشيخ السيد يوسف هاشم الرفاعي، الوزير بدولة الكويت ونقيب السادة الأشراف بها.
- الشيخ السيد محمد علوي المالكي رحمه الله الأستاذ بجامعة أم القرى سابقًا.
- السيد علي الهاشمي المستشار القضائي لحاكم دولة الإمارات، ونقيب السادة الأشراف بها.

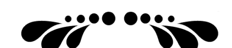
هاجموا الإمام الرائد عند إصلاحه التصوف، وكدأب المهاجمين للشيخ الغُماري حين حاول التقريب العلمي الرصين بين السنة والشيعة.

وقد أجمع علماء التربية -محدثون وقدامى- على أن من طرائق البناء التربوي السليم للشباب أن ينشأ على الاستماع لأكثر من رأي -وإن كانت آراء متناقضة أحيانًا- في كل اهتماماته، وعلى رأسها مسائله الدينية بصفة خاصة والثقافية بصفة عامة، ولذا فقد ألمحتْ كتابات هؤلاء العلماء الأفاضل وغيرهم من دعاة الإصلاح في جميع أرجاء العالم الإسلامي إلى مدى خطورة الثقافة الدينية المتأسسة على رأي واحد، وإن كان لا جدال في أفضليته وتناسبه لمجتمع معين في عصر معين، كما بينتْ خطورة الفهم السطحي لظاهر النصوص والرفض المطلق للنظر في المقاصد والمعاني لهذه النصوص بالضوابط الشرعية الأصولية المعروفة، تلك النظرة أحادية الجانب ظاهرية الفهم التي أدت في نهاية الأمر ببعض معتنقيها من طلبة العلم إلى تكفير المسلمين ومحاربة عموم المجتمع المسلم وغير المسلم، وازدراء مؤسساته وترويع الآمنين، والخروج على ولاة الأمور؛ كل ذلك بالتذرع بأباطيل ومغالطات غير صحيحة. ويُرجى من هؤلاء الدعاة المصلحين وممن هم أكثر منا علمًا وخبرةً وعزمًا أن يأتي اليوم الذي يلزمون فيه رجال الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأساتذة الجامعات ورجال التعليم وخطباء المساجد، وكل من ينبري للحديث العام في الصحافة والإعلام عن الأمور الدينية بضرورة ذكر عدة آراء في كل مسألة فقهية تُطرَح أو تُنشَر من مسائل الخلاف المشهور بين المذاهب الأربعة، والمُجمَع على صحتها جميعًا، وجواز العمل بأي منها. وذلك كله من باب الأمانة العلمية وضرورات الإصلاح البنَّاء المستنير. ثم بعد ذلك لولي الأمر أن يُلزِم الناس بالرأي الشرعي الذي يرجحه في مسائل الخلاف على ما يراه صالحًا لشعبه ومجتمعه؛ طبقًا للشروط الشرعية المفصلة في كتب أصول الفقه.

ونرى باغتباط هذا الاتجاه واضحًا جليًّا في العقلية الرشيدة لخادم الحرمين

الشريفين حفظه الله وولاة الأمر في المملكة العربية السعودية الحبيبة إلى قلوب المسلمين في جميع أنحاء الأرض، مما سيفضي حتمًا ومع مرور الوقت إلى تحرر عقلية الشباب المسلم من الانحرافات الفكرية التي أدت -بكل أسف- إلى انتشار التخريب والهدم من قبل من يدعون زورًا الانتماء لديننا الحنيف، دين التسامح والأخوة الإنسانية والحب والسلام.

وهكذا نرى أن من أهم ملامح التجديد أثرًا وأنجعها وقعًا لدى الإمام الرائد، نشره وبيانه لآراء علماء الدعوة السلفية المعاصرة المؤيدين للتصوف الشرعي، التي لم تكن شائعة لدى عامة السلفية؛ مما فتح الباب للتقريب بين طوائف الأمة المختلفة وتذويب الخلافات الفرعية بينها، والسير قُدُمًا على طريق وحدة الأمة الإسلامية وعودتها لمجدها القديم. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].



(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٤/ ١١١) برقم (٣٢٠٩)، ومسلم: (٤/ ٢٠٣٠) برقم (٢٦٣٧) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



المسألة الثالثة

التــراث الصــوفي

أولا: التحقيق العلمي للتراث الصوفي

من ملامح التجديد في هذا المنحى من الطريقة الصوفية، حرص الإمام الرائد على تنقية التصوف مما ران عليه من أفعال أدعياء التصوف وأقوالهم، ورفضه رَحِمَهُ ٱللَّهُ للطلاسم والكلمات غير المفهومة في الأوراد[1]، فمع احترامه لمن سبقه من أئمة التصوف، فقد أوجب على متبعيه ترك كل ما لا يُفهم معناه وكل ما ليس له أصل في السنة الصحيحة، وقد تعرض لهذا الأمر في العديد من كتبه ومقالاته بصياغات لغوية متعددة وأساليب دعوية متنوعة ليصل إلى لب مقصوده. وقد كانت دعوته هذه في البداية مستغربة، بل ومستهجنة من البعض، وخاصةً من عوام الطرق الصوفية الذين كان يزعجهم جدًّا الخروج على ما ألفوه وورثوه من الأوراد. غير أن الشيخ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تحمل أذاهم والتمس لهم المعاذير وأحسن بهم الظنون؛ مما دعا معظمهم في النهاية إلى التسليم له والتأسي به واتباع منهجه في هذا المضمار.

وهذا الجانب من التجديد لا يعتمد -كغيره من ملامح التجديد- على الإضافة والاستحداث، وإنما على الحذف والاستبعاد، فقد حذف من الأوراد التي تلقاها عن أشياخه من أهل الطرق الصوفية المعتمدة كل ما لا يُعرَف أصله، واعتذر لهم بمعاذير طيبة رقيقة، مهذبة، نبينها في السرد التالي من كتاباته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. ومما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) راجع المزيد حول مشروعية التعبد بالأوراد في: «الدر المنتقى المرفوع في أوراد اليوم والليلة والأسبوع» لأبي الصفا الصالحي، «جامع الأدعية من الحضرة النبوية» لعبد الجميل الصافي، «المنهل الوراد في الحث على قراءة الأوراد» لابن سالم الدمشقي، «الأوراد» للبهائي والزيني وابن أسامة والهمداني، «بيان المغنم في الورد الأعظم» لابن النحاس، «إتحاف الوراد بأشعة الأوراد» لمحمد حسنين مخلوف العدوي.

في ذلك: «يجب وجوبًا حتميًّا العلم بأن ما جاء منسوبًا إلى أولياء الله من الألفاظ غير العربية في أحزابهم وأورادهم، لم تتأكد نسبته إليهم يقينًا بالطريق العلمي، وهذا وحده كافٍ في صرف النظر عن الموضوع، وتجريد الأحزاب والأوراد من هذه الألفاظ، ولكننا مع هذا نؤكد أننا تتبعنا أسماء (الجلجلوتية) و(البرهتية) وما ورد منسوبًا إلى الإمام الدسوقي بصفة خاصة، وما ورد مما يجري على ألسنة الكثيرين من أصحاب النوايا السليمة مما ينسب إلى الإمام علي وغيره بلا دليل، تتبعنا هذا كله وعرضناه على أصول اللغات القديمة؛ فكان منها القليل بل النادر الذي يمكن نسبته ترجيحًا إلى إحدى اللغات القديمة؛ كاللاتِينِيَّة، والفِينِيقِيَّة والقِبْطِيَّة والعِبْرَانِيَّة والنَّبَطِية والهِيروغليفية، وبخاصة السُّريانية التي يُدّعى أن كل هذه الألفاظ تنتسب إليها. ومعنى هذا (علميًّا وشرعيًّا) أن الكثرة الغالبة من هذه الألفاظ أصوات جزافية مجردة بلا أي معنى، ونحن ننزه أولياء الله عن هذا اللغط والهَذَيان والتفاهة. وما جاء في بعض الكتب القديمة شرحًا لهذه الألفاظ لم يصحَّ منه شيء عند علماء اللغات القديمة، وهم أعرف الناس بكل ذلك، فلا اعتبار له على الإطلاق».

ويواصل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ شرحه وتأصيله حول هذه المسألة فيقول: «والذين ينسبون هذه الألفاظ إلى السريانية يجب أن يعلموا أنها نسبة باطلة تمامًا، ولو فرضنا صحتها لكان معنى هذا أن السريانية أفضل من العربية، فهي إذن أفضل من لغة القرآن ومن لغة حديث الرسول ﷺ، ونستغفر الله؛ فلو كانت هناك لغة أفضل من العربية لنزَّل الله بها كتابه المجيد، ولعلمها رسوله ﷺ. كما أن قولهم: إن السريانية هي لغة الملائكة قول باطل فاسد غير صحيح على الإطلاق، فللملائكة لغتهم الربانية الشريفة الخاصة بهم، ولا علاقة لها أبدًا بلغات أهل الأرض، ولا يعلمها غيره، سبحانه. وإذا سلمنا جدلًا بصحة نسبة هذه الألفاظ إلى بعض أهل الله، فتكون هذه الألفاظ معبرة عن لغة خاصة بهم نستطيع أن نسميها (لغة أهل الله)، وهي لغة يُلهَمون بها في مقامات القرب ولحظات التجلي من ولي إلى ولي، ومن مقام

إلى مقام. وهذا هو قول أئمة المذاهب جميعًا. وفيما جاءنا من الكتاب والسنة وأذكار السلف العربية كفاية المكتفي، وهداية المهتدي».

أوجه الدفاع الشرعي المنضبط عما صح من مستغرَب الألفاظ والمصطلحات بالأوراد الصوفية الشرعية

ويدخل في هذا الباب ما قاله الشيخ رحمه الله تعالى في معاني بعض كلمات الأوراد المشهورة عن كبار أهل الطريق المعروفين بالتزامهم التام بالشرع؛ كالإمام الشاذلي والإمام الدسوقي رضي الله عنهم، ومن ذلك قوله في تفسير ألفاظ الحزب الدسوقي: «أحمى حميثًا: عبارة يراد بها أن الله أشد حماية للمستغيث اللاجئ إلى حماه.. أطمى طميثًا: عبارة يراد بها أن الله أشد طمسًا على قلب كل مستكبر جبار (وهي لغة خاصة بأهل الله) لا تنسب إلى سريانية ولا عبرانية ولا غيرهما كما يظن بعضهم، وهو خطأ فاحش. وهذا شأن كثير من ألفاظ الخاصة التي نجدها في بعض أحزاب وأوراد سادتنا الصوفية رضي الله عنهم، وينسبها بعضهم جهلًا إلى اللغة السريانية، وما هي من السريانية ولا غيرها، إنما هي لغة روحية خاصة: (لغة أهل الله). **ولهذا وجب ألا يتعبد المتعبِّد بهذه الكلمات إلا بعد أن يعرف معناها بيقين؛ خشيةَ أن تكون شركًا أو كفرًا مدسوسًا على السادة، وإلا تركها.** ويجب أن نعلم أن كثيرًا من الألفاظ قد دسها بعضهم لغرض ماكر في أحزاب أهل الله، وليست من كلامهم على الإطلاق»[1].

وهكذا نرى أن دفاع الشيخ رضي الله عنه عما حذفه من أوراد السادة الصوفية كان يأتى دائمًا بدافع حسن الظن بالأئمة الأعلام السابقين، فكان يشير إلى احتمال الخطأ في الاجتهاد أو غياب الضبط العلمي في النقل عن العلماء في بعض المنسوب إليهم في أورادهم أو كتبهم، كما كان أحيانًا دفاعه رضي الله عنه مبنيًّا على أن ما ورد من الحشو في

(١) «مفاتح القرب» فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم ص ١٩٩، مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية، ط (٨)، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

أورادهم وكتبهم، مما ليس له أساس شرعي، قد يكون مدسوسًا عليهم من أعداء الدين، كما صرح بذلك بعض كبار الأئمة مثل الإمام السُّيُوطِي والإمام الشَّعْرَانِي رحمهما الله. وقد نهج الشيخ هذا الأسلوب الدعوي اللين الحكيم لنفي الحرج عن العلماء وأئمة التصوف الشرعي الذين لا خلاف على غزارة علمهم وعِظَم قدرهم، والذين قد يوجد في بعض كتبهم أو أورادهم بعض المدسوس الذي ليس له أساس من الشرع.

وانظر إلى النص البديع التالي وما يحويه من عمق وحب وحسن ظن بالأئمة الأعلام السابقين، يقول الشيخ ﵁: «غير أنه يجب أن نلاحظ ملاحظة أساسية هنا، هي أن السادة الصوفية قد اختاروا لأنفسهم لونًا استقلاليًّا من الفهم والتعبير، أساسه التلويح والمجاز والكناية والإشارة ونحوها في المواطن التي تضيق بها العبارة، ولا يوجد في اللغة ما يدل عليها دلالة ذاتية، كذلك هم يلوذون بالألغاز والتحجية والتعريض والتورية في التعبير عن منازلاتهم وتسجيل وجدانياتهم في شعرهم ونثرهم، كما هو ثابت في كتبهم»[1]. وذلك لشدة تقديسهم للذات العلية ولجميع الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للحق سبحانه وتعالى.

وفي بيان شافٍ وافٍ لا أعلم أن أحدًا سبق شيخنا الجليل في **جمعه وعرضه لمبررات بعض المستغرب من الألفاظ والتشبيهات فيما روي عن السادة أئمة التصوف الشرعي الذين لا خلاف على إمامتهم حتى عند مخالفيهم من علماء أزمانهم**، يقول الشيخ ﵀: «اختار بعض الصوفية الألغاز والإشارة والتحجية باستعمال المجاز والكناية، والاستعارات، والرموز اللغوية، تعبيرًا عن أذواقهم، ومواجيدهم، وأشواقهم، حتى اختصوا بذلك وعُرفوا بأهل الإشارة؛ لأسباب عدة، منها[2]:

(١) «معارف إجمالية عن التصوف.. درس أساسي هام يجب أن يستوعبه كل صوفي»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة الثامنة، غرة رجب ١٣٧٨هـ، ١٠ يناير ١٩٨٥م.

(٢) «أبجدية التصوُّف الإسلامي» (٨٢ وما بعدها).

عدم مقدرة الألفاظ والعبارات المألوفة لتصوير مداركهم ومشاعرهم، فكان اللجوء إلى الإشارة والرمز ضرورة، لقربها من حسن عرض المشاعر والأحاسيس، وتصويرها، والتعبير عنها. ثم إن لكل علم مصطلحًا مستحدثًا، وهذا اصطلاحهم الخاص بهم[1]، فلماذا يؤاخذون على أنهم استقلوا بنوع من الاصطلاح، ولا يؤاخذ بقية أصحاب العلوم والفنون والحرف وغيرها على مثل ذلك؟؟؟؟ ثم إن ظروف البيئة قد اقتضت ذلك: فساد البيئة بانتشار التسلط والبطش، والقهر، والعدوان، واضطراب الرأي، ثم رغبة بعض السادة الصوفية في إثبات الكيان الذاتي والشخصية المستقلة للدعوة، والحرص على عدم تميع خصائصها، والتلويح بأنها طريق الخاصة في محاولة لإنقاذ الأمة مما دهاها، وتقويم ما اعوج منها عندما استشرى الفساد، وتحكم السوط والسيف في الرقاب حتى لم يبق للحرية أثر، ومِن ثَم كانت ثورة الصوفية في العهد الأول على الترف والاستعجام والانحلال الذي غزا البيوت والأسواق وحافظت عليه الطبقة «البرجوازية» كما نسميهم الآن، ومن ثم تعرض كل ناقد أو منذر إلى ما لا يخطر بالبال من العدوان عليه، والمكر به، والتدبير له، والبطش بأعوانه، شأن عصور الدكتاتورية والقهر في كل أمة حتى اليوم. لهذا ولغيره لجأ الصوفية في كثير من أشعارهم وأناشيدهم وأحاديثهم إلى الرمز والإشارة، واستعمال المجاز والاستعارة، وربما إلى ما يشبه الإلغاز والتحجية. أما فكرة الكبت والتنفيس والتصعيد، تطبيقًا لنظرية فرويد؛ فقد أثبت زملاؤه وتلاميذه أنفسهم أنها نظرية غير

(١) راجع المزيد حول اصطلاحات الصوفية في: «رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال» للكاشي، «النبذ الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية» لابن أبي الربيع، «حل الرموز ومِفتاح الكنوز» لابن غانم المَقْدِسِي، «منشأ الأغاليط في اصطلاح الصوفية» لابن الشماع، «اصطلاح الصوفية» للكاشاني، وابن عربي، «اصطلاحات الصوفية» للأهدل.

- ومن العلماء المعاصرين المؤلف العظيم عن التصوُّف الشرعي السلفي ومصطلحاته والأدلة الشرعية عليها مولانا العلامة الشيخ محمود خطاب السبكي، مؤسس الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة، من كبار علماء الأزهر الذين أدركوا أهمية التصوُّف وخطر مهاجمته من بعض طلبة العلم، وأحد رواد إصلاح التصوف وتنقيته من البِدَع مع شيخنا.

مطردة، ولا غالبة، وقرروا جميعًا أن فرويد نفسه كان مشحونًا بالأزمات والعقد التي لم ينفع معها تصعيد ولا تنفيس، ولا تطبيق لشيء من نظريته الجنسية الفاجرة[1].

ولو سلمنا بأن أقوال الصوفية فيها نوع من التصعيد والتنفيس عن انفعالات حبهم لله ولرسوله، ولما يحبه الله ورسوله، وفنائهم عن الكون بالمُكوِّن، وعن الأثر بالمؤثِّر، لكان تسربًا محمودًا، لطبيعة طيبة مكبوتة، في مستودع الحب الرباني المكنون، فتصبح عبادة أشبه بدعاء المضطر الذي يناجي ويبتهل تنفيسًا عما يجد، فيرق ويروق ويرقى، حتى يكون أهلًا لاستجابة الدعاء، أليس كذلك؟

أما معاني المصطلحات، فتطلب من كتبهم، وخصوصًا ما كتبه فيها الشيخ ابن عجيبة، والشيخ علي وفا، ومن قبلهم وبعدهم، وفيها الشكوى من العجز وقلة الحيلة مع النفس التي تكون السبب في شعورهم بالهجر والبعد والحجب المسبب لاشتعال أنوار الحب بنوره ونيرانه في قلوبهم وأكبادهم»[2].

منهج الشيخ رضي الله عنه تجاه ما استبعده من بعض الأوراد الصوفية السابقة

الجدير بالتنويه قبل عرض هذا المنهج التجديدي الإصلاحي الراشد الذي أقامه وشيده وتوافر على نشره وتدريسه الإمام الرائد مع إخوان له من شيوخ التصوف والأزهر الشريف، أنه قد لقي عنتًا شديدًا وأذًى بالغًا من عوام الطرق الصوفية الذين -ككل أتباع المذاهب الأخرى من مذاهب السلفية- لا يحبون تغيير ما اعتادوا عليه وورثوه. والناس جُبلت على عدم بذل الجهد ومراجعة الذات ونقدها وإصلاح القلب والجوارح بتتبع الكتاب والسنة في كل ما ورثته من دين الله تعالى. ورغم شدة المعارضة للإصلاح من البعض فقد تمسك الإمام الرائد وهذا الرهط المبارك من

(١) كان رضي الله عنه يرد على بعض الذين توالت مقالاتهم في مصر والشام والمغرب تلوك ألسنتهم فيها التَّصَوُّف بالفرايا والاستهزاء والسخرية المستترة.

(٢) «أبجدية التصوُّف الإسلامي» (ص٨٢ وما بعدها). وسنعاود تناول الموضوع في المسألة الرابعة من زاوية أخرى عند الحديث عن رد الإمام ومجابهته للمتمسلفة الغلاة، ولن يخلو الأمر أحيانًا من بعض التكرار للنصوص والأفكار يفيد في تفهم أوجه مختلفة لهذه النصوص، فتأمل!

علماء الأزهر وشيوخ التصوف بهذا المنهج الرشيد الصابر على الأذى، المتمسك بالمنهج السلفي في المراجعة والتدقيق على الكتاب والسنة، مع حسن الظن بالمخالف والتماس العذر الشرعي للعوام والسعي الحثيث الدائم والدائب، مع خلوص النية، فجزى الله عنا وعن الإسلام كل من سعى ليصلح على هذا النهج أيَّ مذهب أو طائفة ينتمي إليها حتى يلتقي الجميع لإعلاء كلمة الله والتمسك بالكتاب والسنة في كل جوانب الحياة، مع بقاء التنوع الراشد والاختلاف المباح تحت الراية الواحدة.

ويتسم منهج الشيخ رضي الله عنه -مع الالتزام بالضوابط الشرعية- بحسن الظن بالأئمة أصحاب الأوراد التي استبعدها أو غض الطرف عن ذكر بيانها أو أعرض عن الحكم عليها من جهتي صحة الثبوت أو التعبد بها، فيقول رضي الله عنه بهذا الصدد: «لمجرد الإحاطة والتثقيف نثبت هنا بعض هذه النقول، إن صحت نسبتها، ولا نظن ذلك... ذهب كثير من الصالحين -بحسن النية والترخص- إلى أن اسم الله الأعظم وارد في غير اللغة العربية، ثم لكل لغة بركتها وأسرارها كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، وهو استدلال فيه مقال طويل».

ثم يستطرد الشيخ رضي الله عنه: «نقل الشيخ السباعي في رسالته أن اسم الله الأعظم هو هذه الكلمات: (أهم سقك، حلع، يص، طرن)، وهذه في مجموعة الحروف المعروفة بالنورانية، من حيث إنها فواتح السور القرآنية، ولكن لا دليل عليها من الكتاب أو السنة. ونقلوا عن الجِيلاني رضي الله عنه في ورد البسملة أنه: (طهور، بدعق، محببه، صوره، محببه، سقفاقيس، بط، زهج، واح، سقاطيم، أحون، قاف، أدم، حم، هاء، أمين)، وهي ألفاظ ساذجة ليس لها دليل علمي قط، على أنها أو منها أو فيها الاسم الأعظم!! ونقلوا عن الإمام الشاذلي ما جاء في (دائرته) المعروفة، وإن كان أكثر أشياخنا -ونحن معهم- ينكر نسبتها إليه لا محالة. ونقلوا عن الإمام الدسوقي في أحزابه نحو قوله (بهيابهات) أو (كدكد، كردد، كردد ده ده) إلى آخره، وشأنها شأن

المنسوب إلى الشيخ الكيلاني تمامًا، ونستغفر الله. ونقلوا عن بعض الأولياء أن الاسم الأعظم (لمقفنجل) أو (أهطم فشذ)، كما نقلوا عن غير هؤلاء أنه: (أهيا شراهيا، أدونأي، أصباءوت، آل شدأي)، كما نقلوا كذلك عن بعضهم ما يسمى (التهاطيل السبعة).. إلخ. أما لفظ (آه، وهو) فليس من الأعجمية في شيء، وللإمام الرازي في تفسيره للفاتحة بحث عظيم للفظ (هو) يُرجَع إليه، ولبعض الشاذلية كلام في (آه). أما ما قد يجده الذاكرون بهذه الألفاظ من آثار مختلفة؛ فهي إما من ألاعيب الشياطين، أو من أثر حسن النية، أو من صدق التوجه القلبي، أو محض الصدفة العابرة»[1].

فضل اللغة العربية وتميزها الشرعي بلا تعصب عرقي مقيت

وهنا لا بد من ملاحظة أمرين غاية في الأهمية أوضحهما الشيخ رضي الله عنه في بيان جامع مانع، مزج فيه بين الاجتهاد الشرعي والعلم اللغوي والذوق الأدبي الرفيع الذي يُنهي البحث بما يشفي العليل من الغلاة ويئد فتن البغاة:

١ - أنه ليس في جميع لغات الأرض لغة أشرف ولا أسمى، ولا أحب إلى الله ورسوله من العربية، ويكفيها مجدًا وشرفًا وقدسًا أن نزل بها القرآن الكريم، وأنها لغة المصطفى خاتم النبيين، وهي لغة أهل الجنة، وهي اللغة الجامعة الموجودة التي هي بمثابة العلامة المميزة للإسلام العالمي، ومعنى هذا أن بها من الأسرار والأنوار والبركات والغيوب ما لا يمكن أن يكون في غيرها من اللغات الأخرى على الإطلاق بلا نزاع؛ ذلك كله بالإضافة إلى خصيصة سمو البيان والبلاغة، وأبهة التركيب، وإعجاز الأداء، وخلود المعنى، وإشراق الحرف واللفظ، وحلاوة الجملة والديباجة، وإحاطة المضامين والمفاهيم؛ وحسبك ما جاء من أنها اللغة التي سوف يحدث الله بها عباده في الجنة.

---

(١) «فواتح المفاتح» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم (ص٦٣ وما بعدها)، مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م.

٢- إنه لم يأتِ في لفظ آية أو معناها ولا في صحيح أو ضعيف من نص حديث نبوي أو قول صحابي أو تابعي، أو معنى حديث، تفضيل عبادة الله أو ذكره والابتهال إليه بغير اللغة العربية، أو أن في غيرها أية ميزة عليها؛ فاللجوء إلى غيرها إذن استدبار للأفضل، وتعلق بالأدنى، وسقوط في الشُّبَه والمحاذير، في مقام لا يرتبط العبد فيه بغير الأسمى والأسنى؛ ليرتقي في معارج القرب إلى حضرات الأنس والمدد الإلهي. وحسبك الخلاف بين علمائنا في حكم جواز قراءة الفاتحة بغير العربية في الصلاة، وهل تجزئ أم لا؟ بل هل تصح بها الصلاة أم لا؟ وهو بحث طويل متشعب يرجع إليه في كتب الفقه والأصول.

الضوابط الشرعية للتعبد بألفاظ غير عربية مروية في بعض أحزاب وأدعية أئمة التصوف السلفي، ولا يعلم مدى صحة نسبتها إليهم

إذن فليس من الجائز -فيما نعتقد ونقرر- الالتفات إلى التعبد بهذه الألفاظ إلا في حالتين:

الأولى: عند التأكد من تمام مطابقة الترجمة وصحة المعنى، حتى لا يكون اللفظ شركًا أو كفرًا أو معصية أو من أسماء الملائكة الأعلياء، كما يزعمون، أو أسماء الجن أو ألفاظ السحر أو عبثًا يُحاسب عليه، فنحن إنما نعبد الله ونذكره، لا نعبد الملائكة ولا الجن فنكفر أو نشرك ونحن لا ندري.

الثانية: تكون القراءة لمجرد تحصيل بركة هذه اللغة الأعجمية على فرض أن فيها روائح بركة، إضافة إلى بركة اللغة العربية، ثم تيمنًا بالقدوة، وحسن الظن بالأشياخ فقط، إذا صحت نسبة هذه الألفاظ إليهم، (ولا نظن ذلك، ولا نجادل مَن يظن)؛ فالذي دسوه زورًا على أولياء الله كثير في كل جانب، ولا قوة إلا بالله.

وحول معاني الكلمات الأعجمية المشهورة على ألسنة العامة، يبين الإمام الرائد رضي الله عنه الجهد العلمي اللغوي الفريد الذي قام به مع كوكبة من إخوانه العلماء

لتقصي جوانب هذه المسألة والفصل فيها، فيوضح ﷺ أن هذه الألفاظ ونحوها من المُعَمَّيَات مما جاء في بعض الأحزاب والأوراد... مثل منظومة (الجلجلوتية) أو (البرهتية)... تُنسب بالحق أو الباطل إلى بعض أئمة الصوفية، الذين جمعوا فيها -بحسن نية- الكثير من الكلمات الأعجمية، بترجماتها المشبوهة علميًّا، ظنًّا منهم أنها أسماء أخرى لله، قد تكون سببًا في تقربهم إلى الله!

ثم يستطرد قائلًا: «إن المشهور عند هؤلاء جميعًا أنها أسماء أو كلمات (سريانية)، وليس الأمر كذلك أبدًا؛ فإن اللغة السريانية لغة حية معروفة مدروسة مستعملة متداولة، وخصوصًا بين سريان الشام جميعًا؛ فقواعد هذه اللغة وآدابها وأشعارها وقواميسها، كل ذلك موجود ومعروف، وهي لغة تُدرس في مصر ضمن اللغات الشرقية بالجامعات والمعاهد، ولها علماؤها ورجالها، وأنت لا تجد فيها الكثير من هذه الألفاظ التي أشرنا إليها. وبزعم أنها من كلام الأشياخ، فلا يمكن أن تنتسب إلى اللغة السريانية بأية حال، وذلك بتحقيق كبار علماء اللغات!

ولقد أحصينا مع بعض إخواننا في الله من علماء هذه اللغات مجموعة كبيرة من هذه الكلمات؛ فوجدنا منها مع التحريف والاضطراب والمسخ ما هو سُرياني، وما هو نَبَطِي، وما هو قِبْطِي، وما هو عِبْرَانِي، وما هو فِينِيقِي، وما هو بَابِلِيّ، أو هيروغليفي أو إغريقي... إلخ، ومنها ما لم ينتسب إلى أية لغة قديمة أو جديدة، شرقية أو غربية. فإطلاق (السريانية) عليها جميعًا كما هو شائع الآن عند بعضهم إطلاق عامي خاطئ ولا يضاف أبدًا إلى العلم الصحيح، ثم إنه برغم هذه الترجمات المغلوطة والمختلفة التي نقلتها بعض تلك الكتب القديمة وصدقها بعض الصالحين بحسن النية فيما زعموا أنها هي أسماء الله الحسنى، فدليلها العقلي أو العلمي مع كل ذلك مفقود تمامًا. وما دام قد دخل الشك بهذه الصورة العلمية الحاسمة في هذه الألفاظ فلم يعد لها حكم شرعي مقبول للتعبد بها، إلا بما قدمنا من الشروط على طريق التيسير والتسامح وحسن الظن».

ويستطرد الشيخ رضي الله عنه في الأدلة المفحِمة والمعلمة لينهي بحثه للمسألة فيقول:

«إن القول بأن السريانية لغة الملائكة قول جاهل، فللملائكة لغتهم التي خصهم الله بها دون غيرهم، وكذلك القول بأن سؤال القبر بالسرياني قول مردود، انفرد به الشيخ البُلْقِينِي، بلا سند عقلي أو نقلي. ويظهر أن تعلق الناس بالمجهول والمحجب والمعمى والتماس الأمل من كل ما فيه غرابة أو إلغاز أو تعتيم أو تحجية أو إبهام أو رمز، هو السبب في الاهتمام بهذا الجانب الأعمى المستبعَد المرفوض!».

ويقول رضي الله عنه: «**والتعبد بالمتفق عليه أفضل ألف مرة من التعبد بالمختلف فيه، فكيف بالألفاظ المجهولة الأصل، المشبوهة المعاني؟!** وهنا يجب أن ننبه إلى حرمة التعبد بما يزعمون أنه من أسماء ملائكة الملأ الأعلى، فالعبادة لله وحده، خصوصًا ما يسمونه (التهاطيل) على حروف جمعوها في (لمقفنجل) إلى آخر هذه التُّرُّهَات والألفاظ التي تنتهي بلفظ (إيل)، والتي تنتهي بصاحبها إلى الكفر أو الجنون. ويلحق بها ما صاغوه من (الحروف النورانية) وزعموا أنه من أسماء الله الحسنى، وقد حدد الله الأمر تحديدًا فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] لا بشيء أبدًا سواها. وقد نبهنا وبينا، والله شهيد ووكيل»[1].

«وهم لا ينطقون بها إلا في غيبة تامة، وهي دندنة أهل الله، وهم في حال «السكر»[2]. أما في صحوتهم ودندنتهم فهم يتقيدون باللغة العربية الفصحى والأدب التام. فإذا سلمنا بذلك **تؤخذ هذه اللغة على علاتها -إن صحت- بلا تأويل ولا تفسير، واكتفاءً بحسن الظن، وإن كنا نفضل تركها مطلقًا خيفة أن يكون في هذه الألفاظ ما هو كفر أو سحر أو شرك**».

«غير أن بعض كبار السادة من الأشياخ في مقام «السكر أو المحو أو الغيبوبة

(١) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية»، لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم (ص٢١٢، ٢١٣)، مطبوعات العشيرة المحمدية.

(٢) راجع ما سبق حول المعاني والأدلة الشرعية لمصطلحات السالكين طرق التصوف من لدن السلف الصالح إلى الآن.

أو الفناء» تجري على لسانه ألفاظ، أو جمل تلقائية من عالم الغيب، أو يُلهم عبارات «مَلَكُوتية» لا تعرفها لغاتنا الأرضية المختلفة، وهذا ما نسميه نحن بلغة «أهل الله»، وهي بحكم مجالاتها ومصادرها الخاصة والعامة يستحيل ترجمتها إلى لغات بني الإنسان؛ فإنما هي مدارك وأذواق، ومواجيد وأشواق، وأحوال تتحول إلى أصوات وألفاظ. وبمقدار ما ينبغي لهذه اللغة من الاحترام والتسليم بالنسبة إلى كنهها الذاتي، ثم إلى مَن جرت على ألسنتهم من الرجال العظام، بمقدار ما يجب -إن صح أمرها- أن نتركها لهم، وإنما يكون نقلها عنهم للتاريخ والإحاطة والاعتبار والتفكير والعلم المجرد أو للبركة في أحسن الفروض، ونكرر عبارة «إن صحت نسبتها إليهم». **أما التعبد بها فإن الله لا يُعبَد إلا بالمفهوم المعلوم، وبالمعقول اليقيني، وبالمشروع الواضح المشرق الصريح الثابت الصحيح النسبة إلى الكتاب والسنة، وقد جاء في الحديث الشريف قال ﷺ: «لَيْسَ لِلْمَرْءِ مِنْ صَلاتِهِ -أي عبادته جميعًا- إلَّا ما عَقَلَ منها». وإلا فقد كان النبي ﷺ والصحابة أولى بالتعبُّد بمثل ذلك الكلام المستغلق المردود!»**[1].

ثانياً: إعطاء العهد والإجازات العلمية بصورة محققة علمياً[2]

وحيث إن إعطاء العهود والإجازات العلمية من قبل الشيوخ لمريديهم وتلاميذهم جزء لا يتجزأ من التراث الصوفي الأصيل؛ فقد أولاها الإمام الرائد اهتمامًا خاصًّا واهتم بتحقيقها؛ حيث إن العهود التي يمنحها الشيخ لتلاميذه إما

(١) إعادة عرض بعض الأفكار بصياغات متنوعة من جوانب مختلفة، تليق بكل موضع لأجزاء مهمة ومليئة بالفوائد الفقهية والأصولية بهذا الفصل والفصلين التاليين، ترمي إلى إبراز الفكرة المطلوب إبرازها من زوايا متعددة.

(٢) نظرًا لأن فكرة الإجازات والعهود لدى علماء المسلمين بصفة عامة وشيوخ الطرق الصوفية بصفة خاصة أمر قديم متوارث، فكان لزامًا علينا أن نعيد ترتيب وتبويب مضمون إجازات الإمام الرائد رضي الله عنه وأذونه وعهوده لطلاب علمه بما يبين جوانب التجديد عنده رضي الله عنه في هذا الأمر الذي يدور مُجمله على ربطها بالكتاب والسنة وعمل السلف الصالح بشكل أكاديمي عصري، مع توسع غير مسبوق في إعطائها ونشرها.

«عهد عام» مُجَمِّع للطرق الصوفية وأتباعها، وإما «عهد خاص» كما هو معلوم عند أهله. ومعنى العهد ودليله الشرعي وضوابطه وآثاره أمر قد أفاض الشيخ في شرحه وتأصيله، ويبدو ذلك جليًّا من صيغ عهوده ومضمونها التي تدل على رسوخه رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب وقيامه على هذا الميراث العظيم خير قيام.

موجز الحكم الشرعي لتلقي العهد في الطرق الصوفية السلفية[1]

في نص وجيز محكم يلخص الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الحكم الشرعي في تلقي العهد الصوفي[2] على ثلاثة وجوه، فيقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«أولًا: إن المريد المتقلب بين الطرق، المتردد على الأشياخ، بلا سبب شرعي مقرر، ناقض للعهد مسلوب للبركة، فلا خير فيه، ولا في الاهتمام بشأنه.

ثانيًا: إن تجديد العهد للمريد الذي توفي شيخه، أو للمريد الذي كان مقتديًا بمضلل أو مبتدِع أو نحوه أمر موجب؛ إنقاذًا للدين وللتصوف وللمريد نفسه.

ثالثًا: إن تلقي عهود البركة والسند الروحي للمريد الواصل الراشد بإذن شيخه جائز لمن يستطيع الوفاء بحق ما تلقاه جميعًا، كما كان شأن كبار أئمتنا الراشدين عليهم رضوان الله»[3].

الإذن بالتلقي والبيعة وأخذ العهد والإجازة وسندها الشرعي وأصلها التاريخي واللُّغوي

فمما جرى عليه السلف الصالح أن يَمنح الأستاذ مريده أو تلميذه «إجازة» كانوا يسمونها ثَبْتًا -بفتح الثاء وسكون الباء- وتسمى «إذنًا» أيضًا كما تسمى

---

(١) أسهب كثير من علماء الأزهر الشريف وعلماء جامعة القرويين بالمغرب في سرد الأدلة الشرعية على هذه الأحكام المذكورة بالمتن. كما عدَّد تلك الأدلة شيخنا الرائد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أكثر من موضع من كتبه ومقالاته.

(٢) مدلول مصطلح «العهد» عند الصوفية سيُبيَّن بيانًا وافيًا في عرضنا التالي لصيغ العهد والإجازة للطريقة المحمدية الصوفية للإمام الرائد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية الشاذلية» (ص١٦١).

شهادة. فيها يُؤذن الطالب أو المريد برواية ما تلقى من علم بعد التحقق من تميزه فيه، أو يؤذن بالدعوة إلى الله تعالى على أساس مذهب الشيخ الذي منحه الإجازة بسنده عن رجاله مع الوصية اللازمة. وقد اهتم بهذا الشأن علماء الحديث.

وللعلماء في هذا الباب تواليف شتى تدل على عنايتهم بحفظ الإسناد ووصايا الأشياخ ومذاهبهم. وممن ألف في هذا الباب الشيخ النَّبْهاني وغيره. والإجازات على ثلاث مراتب: عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة، وهي الإجازة العلمية التي تمكن صاحبها من تعليم غيره، وتتوافر فيها الشروط القديمة في الرواية؛ مثل التلقي والسماع من الشيخ ﵁، أو القراءة عليه، أو إملاء الشيخ له[1].

وعن الإجازة يقول الإمام الرائد ﵀: «روينا عن شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى والدنا السيد إبراهيم خليل، أن هذا الإذن راجع في أصله إلى الإذن الأول الذي تلقاه سيدنا الرسول ﷺ عن الله في آيات الأمر بالعلم والدعوة والجهاد والعبادة الواردة في القرآن المجيد. وعن رسول الله ﷺ تلقى الإذن شفويًّا صحابته، وهم ورَّثوه التابعين، وأولئك خلفوه فيمن تبعهم، وتسلسل الأمر، وأدركته سنة الحضارة، فقُيِّد الإذن كتابةً، ثم سُمِّي إجازة وثَبْتًا وغير ذلك، وما الشهادة التي تمنحها دور العلم في أيامنا هذه إلا إذنًا على طريقة عصرية»[2].

ويصعب التعليق في هذا البحث الموجز على الفروق بين الإجازات المختلفة، وعلى الصياغة والأثر العلمي لكل منها، وذلك لكونها تحتاج لبحث مستقل متكامل. وكما يقرر شيخنا الجليل ﵁ فإنه «لا خلاف على إباحة هذا الأمر لما فيه

---

(١) راجع المزيد حول الإجازة: «الإجازة إلى معرفة أحكام الإجازة» لعبد الحي الكتاني، «الإلماع في إفساد إجازة الطباع» لأبي حيان الأندلسي، «المطالب العالية بالإجازة العامة الأسيوطية» للقرافي، «روض الأنام في الإجازة في المنام» للنابلسي، «المناولة والإجازة» لابن منده.

(٢) «الكفاية.. ردًّا على أهل الغواية» أو: «رسالة حكم الله»، لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، مطبوعات الإخوان الشاذلية الشرعيين، ١٩٣٨م.

من الخير والبركة والمدد، بل لقد ألحقه بعض أهل العلم بالواجب؛ لأنه مما لا يتم الواجب إلا به في رأيهم»[1].

الإحياء العلمي والعملي لإعطاء الإجازات العلمية الشرعية

١- البيعة والعهد

ونص التلقي والبيعة لدى شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ كما يلي:

«من توفيق الله ونعمته أن أخانا وولدنا في الله تعالى، صاحب هذا الإذن والإجازة المباركة السيد.......... قد تلقى البيعة الشرعية، والعهد الصوفي السلفي، بالطريقة المحمدية الشاذلية، الشرعية السنية، عن شيخه في الله تعالى سيدي أبي البركات العارف بالله فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، عن والده فضيلة الشيخ إبراهيم الخليل، بسنده عن سيدي محمود أبي عليان، إلى سيدي علي أبي الحسن الشاذلي، إلى سيدنا رسول الله ﷺ.

ثم هو اليوم بفضل الله قد جدد العهد والبيعة، وأقسم اليمين المعظم على التزام العمل بالكتاب والسنة، والاعتصام بكل خصائص الطريقة المحمدية؛ أقوالًا وأعمالًا وأحوالًا، ظاهرًا وباطنًا، شريعةً وحقيقةً، خصوصًا وعمومًا، في نفسه وغيره، ودينه ودنياه، وقد أشهد الله ألا يخون الطريقة في سرٍّ ولا عَلَن، وأن يدعو لها بكل طاقاته وأن يخدمها ويتعاون معها في كل زمان ومكان، بقدر الإمكان.

وعليه قد استخرنا الله، وقلدناه برجاء إخوانه وظيفة.......... ودعونا له بالخير كله، والله المستعان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

---

(١) راجع حول ذلك: «سلسلة النسبة المتواترة بين المريدين في لبس الخرقة وأخذ العهد والتلقين» لإسماعيل الجوهري، «مرشد العبد لسلوك الطريق وأخذ العهد» للسملاوي، «العقد الثمين في طرق الإلباس والتلقين» للزَّبيدِي، «إتحاف الأصفياء بسلاسل الأولياء» للزَّبيدي، «إتحاف الفرقة برفو الخرقة» للسيوطي.

توقيع الشاهد الأول، توقيع الشاهد الثاني، توقيع صاحب الإجازة والإذن، رقم التسجيل والتاريخ، توقيع مسجل المشيخة، اعتماد السيد شيخ الطريقة».

٢- الإجازة والإذن

أما نص الإذن والإجازة المحمدية (الصوفية السلفية) فهو:

«هذا إذن شرعي إسلامي بالدعوة إلى الله، وبالخدمة الإسلامية الجامعة على أساس الكتاب والسنة، صدر بمشيئته تعالى، وعلى بركته سبحانه، وابتغاء رضوانه عن (البيت المحمدي)، وباسم الله، أستعينه وأستهديه، قد استخرت الله تعالى وأجزت ولدي وأخي فيه سبحانه السيد.......... بوظيفة............ في طريقتنا الشرعية، الشاذلية المحمدية، الصوفية السلفية، وأذنته بكل ما تلقيته عن أشياخي في التصوف، من دعوة وإرشاد، وتربية وسلوك ومجاهدة ورياضة، وروحانية وعبادة، في الخلوة والجلوة، على عمومها وخصوصها، قلبًا وقالبًا، لسانًا وروحًا، سندًا ومددًا، تبركًا وتيمنًا، أقوالًا وأعمالًا وأحوالًا.

وقد أذنته كذلك بكل ما أذنني به أساتذتي في العلوم الدينية والمدنية والإسلامية والعربية، عقليةً ونقليةً، درايةً وروايةً، تلقيًا واجتهادًا، كتابةً ومشافهةً.

وإنى أوصي ولدي وأخي صاحب هذا الإذن بكل ما أوصى به النبي ﷺ أصحابه، وبكل ما أوصى به سادة السلف وقادة الخلف، من الاعتصام المطلق بالكتاب والسنة، والتحلي الدائم بأدب النبوة، والتمسك بالعمق واليسر والحكمة، وبعد النظر والتنزه عن أسباب الفتن والمشاكل، والتخلص من دواعي الرياء والسمعة، وبوائق الشرك الخفي، ومحبطات العمل؛ وأوصيه أن يعلق قلبه بالله فلا يغفل عن ذكره طرفة عين، وأن يعتبر هذه الدعوة ملكًا شخصيًّا له، وأنه وحده المسئول عنها أمام الله والناس، ولا عليه من غيره، ثم إن من أوثق عهودي عليه أن يحفظ كل أثر لي في الحس والمعنى، وأن يؤدي كل حق لي عليه في الحياة وبعد الممات.

وأسأل الله أن يأخذ بيدنا جميعًا إلى معاقد العز من قربه، وإلى مشارق السر من غيبه، وأن يسلكنا في زمرة أوليائه، وأن يحسن خواتيمنا في الأمور كلها.

وكتب أصله بخطه، الفقير إليه وحده،
خادم العلم والصوفية وخويدم الطريقة المحمدية
المعتصم بالله أبو البركات
(محمد زكي إبراهيم بن إبراهيم الخليل بن علي)
الشريف الحسيني، الصوفي السلفي، الشاذلي المحمدي، عفا الله عنه».

ثم أجاز الشيخ كافة رجال الطريقة المحمدية بالإذن العام ما نصه:

«تخفيفًا على جميع الإخوة والأخوات، وتيسيرًا لهم، وتشجيعًا على الاستمتاع بحلاوة الإيمان والذكر والعبادة، والتزود من موارد الأذواق والمواجيد والفيوض، والمدارك، والأنوار والأسرار، قد أذنا الجميع بكل ما في رسالة (البداية، منهج التعبد بالأوراد، وجميع أوراد وأحزاب كتاب مفاتح القرب، والمحمديات، وملحقاتهما) إذنًا عامًّا موصولًا تامًّا لا حاجة معه إلى مراجعة، كما تلقينا هذا الإذن الموصول بالسند الثابت عن أشياخنا الأبرار إلى سيدنا رسول الله المصطفى المختار ﷺ، عن طريق مولانا أبي الحسن الشاذلي، كما تلقيناه روحيًّا مباشرًا صحيحًا أكيدًا عنه ﷺ، ثم عن كبار سلسلة أشياخنا في الله على مختلف مناهجهم ومذاهبهم ومرائيهم عند الله، وعلى اختلاف أسماء طرقهم مما سجلناه أو مما أشرنا إليه من مطبوعاتنا المختلفة، وتحقيقاتنا الروحية، ولا ندعي العصمة، ونستغفر الله»[(١)].

وفي كتابه (البداية) قال رحمه الله تعالى:

«حمدًا لله، وصلاة وسلامًا على مصطفاه ومن والاه، في مبدأ الأمر ومنتهاه، وبعد، فقد أحسن بي الظن أولادي في الله راغبين في أن آذنهم بمروياتي في الحديث الشريف، وبعض مذاهب سادتنا أئمة الفقه ﷺ. ولما كان مرضي الدائم،

(١) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «البداية»، مرجع سبق ذكره.

والتزاماتي المتعددة المتلاحقة، تحول بيني وبين ما لا بد منه لخدمة الدعوة إلى الله، مع مواصلة مطالب العيش، وطوارئ الحياة، كل ذلك وما يتعلق به لا يمكنني من الإجازة المفصلة بالأساليب المعروفة المتكاملة.

مسلسل المحبة

وقد أجازنا السيد الوالد بأسانيده المفصلة، عن شيخه سيدي محمد ياسين بن عيسى الفاداني المكي رضي الله عنه، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال لي رسول الله ﷺ: «**يَا مُعَاذُ، إِنِّي أُحِبُّكَ، فَقُلِ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعْهُنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ**»(1).

قال شيخنا رضي الله عنه: وإني أحبك. وذكر الحديث، وهكذا يستمر مسلسل المحبة المبارك إن شاء الله.

مسلسل المشابكة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: شبَّك بيدي أبو القاسم وقال: «**خَلَقَ اللهُ الأرضَ يومَ السَّبْتِ، والجِبَالَ يومَ الأَحَدِ، والشجَرَ يومَ الاثنينِ، والمَكْرُوهَ يومَ الثُّلاثاءِ، والنُّورَ يومَ الأَرْبِعاءِ، والدَّوَابَّ يومَ الخَميسِ، وآدَمَ يومَ الجُمُعةِ**»(2). ثم شابك شيخنا رضي الله عنه بين يدي ويده. وهكذا يستمر المسلسل المبارك إن شاء الله.

مسلسل المصافحة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صافحتُ بكفِّي هذه رسول الله ﷺ، فما مَسِسْتُ خَزًّا ولا حريرًا ألينَ من كفِّ رسولِ الله ﷺ(3).

---

(1) أخرجه أبو داود: (١/ ٤٧٥) برقم (١٥٢٢)، والنسائي: (٣/ ٥٣) برقم (١٣٠٣)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم: (٤/ ٢١٤٩)، برقم (٢٧٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري: (٤/ ١٨٩) برقم (٣٥٦١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وعن أبي عبد الله معمر عن غير واحد على اختلافٍ في الحكم قال: صافحني رسولُ الله ﷺ وقال: «**مَن صافَحَنِي أو صافَحَ مَن صَافَحَنِي إلى يومِ القيامةِ دخَلَ الجنَّةَ**». ثم صافحني شيخي ﷺ. وهكذا يستمر المسلسل المبارك إن شاء الله.

أقول: بكل ذلك آذن وأجيز أولادي في الله إجازة عامة مطلقة شاملة بشرطها المعتبر عند أهل الأثر، والعلم والنظر، وله أن يجيز بكل ذلك مَن يرى أنه أهل لذلك، كما أذنني وأجازني به مشايخي رضي الله عنهم ثم بمؤلفاتي، ومحاضراتي ودروسي، وإفتاءاتي، سائلًا صالح الدعوات، مبتهلًا إلى الله في طلب العفو والمغفرة وحسن الخاتمة ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، الحمد لله رب العالمين».

٣- نشره لإجازته الخاصة

وقد نشر فضيلته إجازته الخاصة لكي يتعلم منها العلماء والمريدون وليُعَلِّم الناس أن يسألوا مَن يأخذون عنهم العلم عن سندهم من غير وَجَل أو استحياء. وللإمام الرائد نفسه ثَبْت بمروياته وشيوخه في الحديث، وقد لخصها للتاريخ والسند، وإليك طرفًا مما كتبه رحمه الله تعالى في هذا المضمار، وما لقنه وأجاز به تلاميذه ومريديه من كافة أقطار العالم الإسلامي:

«وقد أذنني شيخي الوالد بهذا وبمروياته عن شيخه الفاداني في لقائهما بالحرم الشريف بمكة، خصوصًا صحيحي البخاري ومسلم بالسند العالي، وبينه وبين سيدي الإمام البخاري ثلاث عشرة واسطة، فيكون بيني وبين البخاري من هذا الوجه بعد أبي أربع عشرة واسطة. وتلقيت الإذن بالبخاري ومسلم عن شيخنا ومن أول من أسس معنا (العشيرة المحمدية)، وبقي في خدمتها إلى أن لقي ربه تعالى السيد البركة المعمر الشيخ محمد عبد الله بن إبراهيم العقوري المصري بسنده، وقد شهدنا في دار العشيرة إذنه ﷺ لمولانا وشيخنا الشيخ علوي بن عباس المالكي إمام الحرم يومئذ في زيارته الأخيرة للقاهرة، وكرر لنا الإذن برواية كتابي الشيخين

البخاري ومسلم رضي الله عنهما، كما أذنني بصحيح ابن حبان، وابن خزيمة، وابن السني، وأذكار النووي، والأربعين له، مشافهةً وكتابةً.

وتلقيت الإذن برواية البخاري ومسلم أيضًا عن مولانا الإمام الشيخ علوي بن عباس الحسيني المالكي، وبجميع مروياته، وتلقيت الإجازة بالصحيحين أيضًا عن مولانا الشيخ محمد الحافظ التجاني المصري، وعن والد شيخه المشاط، وعن الشيخ عبد الكبير الكتاني المغربي بسنده المعروف.

وآذنني السيد الوالد برواية مسلم عن أشياخه إلى الأمير الكبير، عن السقاط، عن الفيومي، عن الفرقادي، عن الأجهوري، عن القرافي، عن الحافظ السيوطي، عن البُلقيني، عن التَّنُوخِي، عن ابن أبي جمرة، عن القير عن السلامي، عن ابن منده، عن الحافظ أبي بكر، عن النيسابوري، عن مسلم.

وأذنني أيضًا برواية مسلم عن أشياخه إلى أبي الحسن البكري، عن الشيخ البكري، عن ابن حَجَر الهيتمي، عن الشيخ زكريا الأنصاري بسنده إلى مسلم.

وأروي: «الجامع الصغير» عن الشيخ الحسيني أبي هاشم، وأروي: مسلم والبخاري وأبي داوود والترمذي والنَّسائي وابن ماجه، عن شيخنا الإمام الشيخ حبيب الله الشنقيطي بأسانيده المسجلة بثَبْتِه.

وأروي: «الأم» للشافعي عن والدي رضي الله عنه، وأروي: الموطأ والمدوَّنة عن أبي عن جدي لأمي الشيخ أبي عليان الصعيدي، عن الشيخ حسن العدوي بسنده، والشيخ محمد عليش أيضًا بسنده.

كما أروي: مسند الشافعي والأم، ومسند أبي حنيفة، عن شيخنا الجليل الشيخ إبراهيم الفلابيني مفتي سوريا بدمشق عند زيارته لدار العشيرة بمصر مع شيخنا العلامة الشيخ حسن حنبكة الميداني السوري رضي الله عنهما.

وأروي: النسائي، وابن ماجه، والموطأ، عن شيخنا الإمام الشيخ أحمد بن

الصديق الغُماري المغربي، قراءة عليه في زيارته لمصر، كما قرأت عليه المدونة، ومختصر خليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأيضًا أروي: مسند أحمد، عن شيخنا الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، والد الشيخ حسن البنا (مؤسس جمعية الإخوان المسلمين)، وأروي: البيهقي، والطبراني (المعاجم الثلاثة)، وابن عبد البر، وعبد الرزاق، عن والدي، عن شيخه أبي عليان جدي لأمي، عن شيخه المحدث الحافظ الشيخ سليم البشري المصري (شيخ الأزهر لعهده).

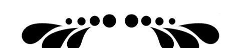
وأروي: أربعين النووي، وأذكاره، عن الشيخ الحسيني أبي هاشم الأزهري من خيرة علماء الأزهر.

وقد أذنني شيخي الإمام الشيخ علوي بن عباس المالكي بجميع مروياته في الحديث، كما ذكرها في كتابه (الطالع السعيد)، وغيره، والحمد لله رب العالمين.

وأخيرًا وبالتالي وعلى الإجمال فإنني أروي قراءةً وسماعًا ووِجادةً وإجادةً بالإذن الموصول بالأثبات والجوامع والفهارس والأسانيد والمعاجم والمسلسلات والمختصرات، عن أشياخي سيدي محمد حبيب الله الشنقيطي، وسيدي علوي بن عباس المالكي الحسني، وعن سيدي أحمد الصديق الغماري، وشقيقه السيد عبد الله الصديق الغماري، وسيدي محمد زاهد الكوثري، وسيدي أحمد عبد الرحمن البنا، وسيدي الشيخ المعمر السيد محمد عبد الله العربي العاقوري المصري، وسيدي الشيخ إبراهيم الغلاييني الدمشقي، وسيدي الشيخ حسن حنبكة الميداني السوري، وسيدي الشيخ الببلاوي، وسيدي الشيخ مخلوف، والشيخ أبي هاشم، والشيخ المبشر الطرازي، والشيخ يوسف الدجوي، وسيدي الشيخ محمد بخيت المطيعي (المفتي)، وسيدي الشيخ محمد الحافظ التجاني، وبقية أشياخي رضي الله عنهم وعن والدي السيد إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي بأسانيدهم المحررة بأثباتهم، عن أشياخهم عمومًا بمروياتهم من التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والمنطق، والسيرة،

والمصطلح، وعلم الرجال، والتوحيد، وعلوم القرآن، والعقائد، واللغة العربية، والثقافة العامة، والتصوف، وخصوصًا كتب القُشَيْرِيّ.

ثم بخاصة أروي: مُوَطَّأ مالك ومسند أحمد والشافعي وأبي حَنيفة، وصحيحي البخاري ومسلم، والسنن المعروفة لأبي داود والترمذي والنَّسائي وابن ماجَهْ والدَّارَقُطْنِي والدارِمِي، والبَيْهَقِي، ومصنفات أبي يَعْلَى والنَّوَوِي وابن حَجَر، والقاضي عِيَاض، والحاكم، والشَّوْكَاني، والدَّيْلَمِي، وابن السُّنِّيِّ، والصَّنْعَانِي، والنَّبْهاني، والشَّعْرَانِي، وابن القَيِّم، والسُّنوسي، والعيدروس، وغيرهم، بالإضافة إلى أسانيد الطرق الصوفية السلفية الشرعية، خصوصًا الشاذلية بأورادها وأحزابها وأذكارها، مع الإجازات بالأسانيد العوالي لأحاديث الأولية (الرحمة) ويوم العيد والمصافحة والمشابكة ومسلسل المحبة وسورة (الصف)، ومسلسل الضيافة على الأسودين (التمر والماء)، ومسلسل وضع اليد على الرأس عند قراءة آخر (الحشر)، ومسلسل مناولة المسبحة، ومسلسل قول الرواة: (الدعاء عبادة)، ومسلسل قراءة (الكوثر)، ومسلسل عاشوراء، وختم المجالس بالدعاء»[1].



(١) «الإجازة المحمدية» للشيخ محمد زكي إبراهيم.



المسألة الرابعة
الأوراد الصوفية المشروعة

أولاً: الاجتهاد الشرعي بالحذف والإضافة والمزج في الأوراد الصوفية

إن دروب التجديد التي وُفِّق إليها الإمام الرائد في مسائل الأوراد والأذكار والأدعية والأحزاب كثيرة ومتشعبة، ويمكن ردها إلى ثلاثة فروع رئيسة:

الفرع الأول: التجديد بالحذف والاستبعاد.

والثاني: التجديد بسوق الأدلة الشرعية وتخريج الأوراد من الأحاديث النبوية الشريفة.

وهذان الفرعان قد تناولناهما بإسهاب في المسألة الثانية عند الحديث عن تحقيق وتنقية التراث الصوفي اللذين قام بهما الإمام الرائد عبر سنين حياته المباركة.

وفي هذه المسألة نقدم تفصيل الفرع الثالث من طرائق التجديد في الأوراد والأحزاب الصوفية:

التجديد بالإضافة والمزج والجمع بين أوراد مشايخ الطرق الصوفية المختلفة على مر العصور

١- الأوراد الشاذلية

لم يكتفِ الإمام الرائد رضي الله عنه بما ورثه وتلقاه من أشياخه، ولكنه أضاف إليه؛ فمما جاء به مما لم يسبقه إليه أحد: وِرد «الاسم الأعظم» المسمى بورد «المعراج»، وورد «التسبيح»، وورد «الاستغاثة الجامعة»، وورد «الصلاة المحيطة»، وكلها من الأوراد المستحدَث جمعُها[1]، وهي جميعها أوراد وأذكار لها أصل في كتاب الله

(١) وكلها مطبوعة ومتوافرة بحمد الله، ومتيسر الحصول عليها من المركز الرئيسي للعشيرة المحمدية =

سبحانه وتعالى والسنة المطهرة. ومن ذلك أيضًا ورد «التسبيح الأكبر»، وورد «الحسبلة»، وورد «الآيات المختارة»، وورد «استغاثة المضطرين»، وورد «ختم الاسترحام»، وورد «التشريف بدعوة يا لطيف»، وورد «العزة»، ودعاء «الصمدية». وكل ذلك لم يسبق إليه أحد، وهو على ضربين؛ إما أنه إلهامٌ غير مسبوق، وإما أن فيه مقتطفاتٍ جديدةً تمامًا مضافة إلى أوراد وأذكار يَرجِع أصلُها إلى الكتاب والسنة المطهرة، جمَعها فضيلة الشيخ مما تلقَّاه من أشياخه وأضاف إليها.

انظر مثلًا إلى هذه المقتطفات الساطعة الأنوار من ورد «الصلاة المحيطة» لتلمس جانبًا هامًّا من جوانب التجديد في الطريقة عند الشيخ رحمه الله تعالى: «اللَّهُمَّ واجْزِهِ عنَّا ما أنتَ أَهْلُهُ وما هو أهلُه صَلاةً وسَلامًا، سَعَةَ الأَزَلِ والأَبَدِ، وزِنَةَ الغَيْبِ والشَّهَادَة، وقَدَاسَةَ العَرْشِ والسِّدْرَة، وإحاطَةَ العِلْمِ والقُدْرَة، وكمالَ الغَيبِ والحَضْرَة، وخُلُودَ الذاتِ والصِّفات، عَدَدَ المعلومِ والمَجْهُولِ، والمَنْظُورِ والمَسْتُورِ، والشَّفْعِ والوَتْرِ، والسَّابِقِ واللَّاحِقِ، وما كانَ وما يكونُ إلى يومِ الدِّينِ».

ويسترسل قائلًا ﵁: «اللهمَّ وضاعِفِ الصلاةَ والسلامَ عليه في كلِّ الأَنْفَاسِ واللَّمَحَاتِ، على تَلَاحُقِ الأزمانِ والأوقاتِ، بقَدْرِ ما في الوُجُودِ مِن حَرَكَاتٍ وسَكَنَات، وصَوَامِتَ وناطِقَات، ومَعَالِمَ وعَلامَات، وهِمَمٍ وإرادات، وخَفَقَاتٍ وخَلَجَات، وعَجَائِبَ ومُغَيَّبَات، وعَدَدَ كلِّ المخلوقات المعروفات والمجهولات، ثُمَّ ضَاعِفْهَا اللَّهُمَّ بعَدَدِ ما في المُلْكِ والمَلَكُوت بما اختصصتَ به من أَسْرَار وتَجَلِّيَات، وإفاضات وإضافات، وشُئُون إلهيات قُدُسِيَّات».

ويقول ﵁: «اللهمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه صلاةً وسلامًا يَلِيقَانِ بحُبِّكَ له، وحُبِّه لك، وحُبِّ عَوَالِمِ الإنسِ والجِنِّ والرُّوحِ والمَلَك، صَلاةً لها فَضْلُ معالِمِ أكوانِ ما فوقَ المدارِكِ والتصوُّرات، وما تَعْجِزُ عنه الألفاظُ والعِبَارَات، وما لا تُحِيطُ به

= بمسجد المشايخ، ٨٠ ش السلطان أحمد قايتباي، الدراسة، أو مسجد سيدي حسن العدوي بميدان سيدنا الحسين بالقاهرة.

الرموزُ والإشارات، في جَوَامِعِ كافَّةِ الأَلْسُنِ واللُّغَات، وما يُسَبِّحُ لكَ من شيء في الأرضِ والسماوات، بأَلْسِنَةِ الحالِ أو أَلْسِنَةِ المَقَال، من كل ماضٍ وتَال».

ويقول رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عليه صلاةً تُحِيطُ بفَضْلِ كلِّ صَلاةٍ سابقة، وتَخْتَصُّ بخَصِيصَةِ كلِّ صلاةٍ لاحِقَة، وتَفُوقُ ما يَخْطِرُ على كلِّ نَفْسٍ صَامِتَة أو ناطِقَة، وتُحَصِّلُ أسرارَ صلواتِ ما فوقَ الأَلباب، في مَكنونِ اللَّوْحِ وأُمِّ الكِتَاب، من كلِّ ما أَثْمَرَتْهُ العقولُ والفُهُوم، وكل ما تُثْمِرُه إلى يومِ الوَقْتِ المعلوم».

ويقول رضي الله عنه: «اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه صلاةً نَامِيَةً مُضَاعفَةً أَبَدًا، لا تُحْصَى عَدَدًا، ولا تُحْصَرُ أَمَدًا، ولا تُوصَفُ مَدَدًا، دائمةً سَرْمَدًا، حتى تَرْضَى يا ربِّ ويَرْضَى، وحتَّى يَعُمَّنا رِضَاكَ ورِضَاه، فنَسْتَعِزَّ ونَرْضَى».

ويقول رضي الله عنه: «اللهمَّ أَغْنِنَا بِهَذِهِ الصَّلَاةِ عَنْ كُلِّ صَلَاة، واعْذِرْنَا بِالْعَجْزِ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِّهِ وَمَدَاه، ووَفِّقْنَا بها إلى كلِّ ما تُحِبُّهُ وتَرْضَاه، واصْرِفْ عنَّا بها مِنَ السُّوءِ ما نَخَافُهُ ونَخْشَاهُ».

ويقول رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ اخْلُفْنَا على مَن بَعْدَنا بالخَيْرَاتِ والبَرَكَات، ولا تَكْشِفْ عنَّا ولا عنهم سِتْرَكَ في الحياةِ ولا بعدَ المَمَات، واعْصِمْنَا وإيَّاهم مِنَ الفَوَاجِعِ والمفاجآت».

وفي وِرْد «الابتهال الكبير» يقول رحمه الله تعالى: «الحَمْدُ للهِ ثِقَةً بالله، الحمدُ للهِ على كلِّ مرادِ الله، الحمدُ للهِ حتَّى لا يَبْقَى شيءٌ مِن حَمْدِ الله، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِنا محمدٍ رسولِ اللهِ، نبيِّ الله، صَفِيِّ الله، نَجِيِّ الله، وَلِيِّ الله، وعلى آلِهِ وصَحْبِه وأَوْلِيَائِه وأحِبَّاء الله، في سَمَاءِ الله وأَرْضِ الله، ومَلَكُوت الله».

ويقول رضي الله عنه: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ حَيَاءً مِنَ الله، أَسْتَغْفِرُ اللهَ حتَّى يَرْضَى الله، أَسْتَغْفِرُ اللهَ طَمَعًا في فَضْلِ الله».

ويقول رضي الله عنه: «لنْ يَخِيبَ الشاكِي إلى الله، ولنْ يَذِلَّ المُعْتَزُّ بِجَاهِ الله، ولنْ يَضِيعَ

النازِلُ في سَاحَةِ الله، المُتَعَرِّضُ لِنَفَحَات الله، المُتَلَهِّفُ على مَدَدٍ من لُطْفِ الله، وحِفْظِ الله، وسِتْرِ الله، وغَوْثِ الله».

ويقول ﷺ: «فَرَرْتُ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله».

ويقول ﷺ: «اكْتَفَيْتُ بجَلالِ الرَّهَبُوت والعَظَمُوت مِن بَطْشِ الله».

ويقول ﷺ: «ولُذْتُ بأَكْنَافِ أَلْطَافِ الغَيْبِ مِن أَقْدَاسِ عَرْشِ الله».

ويقول ﷺ: «احْتَجَبْتُ بالحِجَابِ المَسْتُور، خَلْفَ أمواجِ النُّور، مِن سُبُحَاتِ وَجْهِ الله، واعْتَصَمْتُ من مَخَاوِفِ المُلْكِ والمَلَكُوت، بمَعَاقِدِ العِزِّ والمَجْدِ والجَبَرُوت، وبلا إلهَ إلا الله».

ويقول ﷺ: «يَفْنَى الكُلُّ ويَبْقَى الله».

ولم يقتصر التجديد عند نص الورد نفسه، بل تخطاه ليشمل المقدمة المؤثرة البليغة لهذا الورد العظيم التي جاءت في مجلة (المسلم) احتفالًا بذكرى مولد سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام إلى يوم الدين، فيقول رحمه الله تعالى في مقدمة وِرْد «الصلاة المحيطة»:

«السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، السلامُ علينا وعلى عِبَادِ اللهِ الصالحينَ، في مُناسبةِ ذِكْرَى مَوْلِدِكَ الأَقْدَس، وفي زَحْمَةِ التسابُقِ التقليديِّ للكلام عن سِيرتك المُطَهَّرَة، وفي مَوْسِمِ الدَّفْع المعتاد إلى الكتابة عن تاريخك الخالِد، نَسْتَلْهِمُه ونتأسَّى به، ونَتَزَوَّد منه، لو كنا صادقين، أو كان مع القول شيء من العمل.

وعلى مَسيرة الأشواقِ الهادِرَة في طَلَبِك، والمواكب الربَّانية الداعيَة إليك، والحانية عليك، والباكِية بحقٍّ بينَ يَدَيْك، وفي مُضْطَرَب آلام الابتلاء الملتهِب بوَقُود المِحَن المدمرة، ودُخَان الفِتَن المتحدِّرة، وذُهُول الذاهلين عن كل عِبْرَة وتَذْكِرَة، والمتاعِب الذاتية المتوترة، وفي غَفْلَة الغافلين عن ربِّهم وعنك، والجاهلين بربهم

وبك، والمغامرين المقامرين بالمبدأ والمنتهَى، وبالآخرة والأولى؛ أُهْرِعُ هاربًا ببقية أنفاسي، إلى رواق القدس الأعلى، مُبْتَهِلًا في سِدْرَتِه إلى الله سبحانه وتعالى، في شأن ديني ووطني، وشأن نفسي، فإنه ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨]، مُهْدِيًا من الحضرة إلى الحضرة -على خَجَلي ووَجَلي- هذه الصلاة التي أُلْهِمْتُها الآن يا جَدَّ كل تَقِيٍّ، شوقًا إليك، وضراعةً إلى الله بينَ يديك، وكأنما جَرَتْ من عصير كياني على قلمي، وارْتَسَمَتْ من حرارة أنفاسي على قولي، بلا تَعمُّل، بل ولا تأمل، بلا تكلُّف وبلا صناعة، عسى أن تنالني ببركتها شفاعة، ولو كانت دعوات الخاطئينَ تُقْبَل لدعوتُ اللهَ أن يُغِيثَ ببركتِها الناس، وها هي هذه على صورتها التقليدية المقصودة»[1].

ويقول رضي الله عنه في ورد « دعاء عند باب الله»: «اللهمَّ اسْتُرْنِي واجْبُرْنِي، وأَجِرْنِي وأْجُرْنِي، ولا تُذِلَّني ولا تُزِلَّني، ولا تَضُرَّني، ولا تَفْضَحْنِي، ولا تَكْشِفْ سِتْرَكَ عني، ولا تُخْزِني في الدنيا والآخرة، يا سَتَّار، يا غَفَّار».

ويقول رضي الله عنه: «احْتَمَيْنَا بحِمَايةِ الله، واكْتَفَيْنَا بكِفايةِ الله، وتَوَقَّيْنَا بوِقَايةِ الله، ورَعَتْنَا رِعايةُ الله، فقد رَضِينَا بما يَرْضَاه، وهو يُدْرِكُنا بخَفِيِّ لُطْفِه فيما علينا قضاه».

ويقول رضي الله عنه في وِرد «مُناجاة المُضْطَرِّينَ»: «يا حيُّ حِينَ لا حَي، يا حَيُّ قبلَ كلِّ حَي، يا حَيُّ بعدَ كلِّ حَي، يا حَيُّ يومَ لا حَي، هَبْ لِيَ القَلْبَ الحَي، والدِّينَ الحَي، والعِلْمَ الحَي، والخُلُقَ الحَي، والرِّزْقَ الحَي، والسِّتْرَ الحَي، والمَدَدَ الحَي. يا هو، يا مَن لا هو إلا هو، يا مَن لا يعلم ما هو إلا هو، يا هو، يا هو».

ويقول رضي الله عنه في وِرد «الاستغاثة الجامعة»: «يا مَن يَكْفِي عن كلِّ أَحَد ولا يكفي عنه أَحَد، أغْنِنِي بك عن كُلِّ أَحَد، ولا تَشْغَلْنِي عنك بأيِّ أَحَد، يا أَحَد، يا أَحَد، يا أَحَد».

---

(١) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «يا جد كل تقي: الصلاة والسلام عليك.. الصلاة المحيطة»: هدية الذكرى، مجلة المسلم، العدد الثامن، السنة الثامنة عشرة، غرة ربيع الأول ١٣٨٨هـ، مايو ١٩٦٨م.

وأما وِرد «العِزَّة» بالكامل فهو دُرَّة مكنونة، ومِن أعز ما تركه الشيخ لمريديه، بل للتراث الصوفي، ولذا نسوق منه ما يوضح درَّ معانيه المكنونة، يقول الشيخ ﷺ:

«أَسْتَفْتِحُ مُستعينًا باسمِ الذاتِ المَخْصُوصِ بالأَزَلِيَّة والأَبَدِيَّة، مُعْتَرِفًا بالعَجْزِ والإذعـانِ في الإسرارِ والإعلان، مُعتـذِرًا عنِ التقصيرِ في حَضْرَةِ التبصيرِ بنِعمةِ العُبُودِيَّة، مُسْتَجْلِيًا أسرارَ أنوارِ الرحيمِ الرحمن».

ويقـول ﷺ: «حَمْـدًا للهِ تعـالَى على آلائِـه السَّـرْمَـدِيَّـة، علَّـم القُـرْآنَ ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] وقدَّرَ الأَقْدَار، وأَحْدَثَ الأَغْيَار على مَشِيئَتِه الغَيْبِيَّـة، ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۝ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٥، ٦] وشَرَّف الإنسانَ بشُرُوقِ بُرُوق مَوْلِـد خَيْـرِ البَرِيَّـة، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] وفتَـحَ بـه للقُصَّاد أَرْصَاد حَضْرَتِه العَلِيَّـة، قاطعًا بـه الحُجَّـةَ على ما قـد يكونُ ومـا قـد كـان، وحَرَّر بـه رِقَّ الألبـاب والرِّقـاب البَشَـرِيَّـة، وكـتَـبَ بـه كُتُب اليُمـن والأمان والإيمان».

ويقول ﷺ: «النبيُّ قَبَسُ القَبْضَة الأَزَلِيَّة، مِنَ الأَنْوَار الرَّبَّانِيَّة، التي تَرَعْرَعَتْ على إِشْعَاعِها أَفْنَانُ سَرْحَةِ الأَكْوَان».

ويقـول ﷺ: «النبيُّ سِرُّ السَّجْدَةِ المَلائِكِيَّة في الحَضْرَةِ الإِلَهِيَّة، للصَّلْصَالَةِ الآدَمِيَّة، والعُذْرُ المَأْمُول لآدَمَ المَقْبُول على مَعْصِيَتِه في الجِنَان».

ويقـول ﷺ: «النبيُّ المَخْصُوص بشَرَفِ النُّطْق المَنْصُوص بالآيَـةِ القُرْآنِيَّة، في الحَضْرَة الرَّحْمَانِيَّة، قـائل: (بلى) في سِفارتـه الرُّوحية الأَزَلِيَّـة، يومَ قـالَ الدَّيَّان: ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] يا ابنَ الإنسانِ».

ويقـول ﷺ: «النبيُّ ذَرَّة الإِقْرَار بِقَرَارِ الطَّاعَة السِّرِّيَّة والعَلَنِيَّـة، حِينَ تَجَلَّى الدَّيَّان، واسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وهِيَ دُخَان».

ويقول ﷺ: «النَّبِيُّ دَعْوَة إبراهيمَ، وبِشَارَةُ عِيسَى، ووَصِيَّةُ أَهْلِ الوَصِيَّة،

الجامعُ طَرَفَي الكَمَال مِنَ الجَمَالِ والجَلال، على مَشَارِفِ شَرَائِفِ مَرَاتِبِ الإحسانِ والإيقان».

ويقول ﷺ: «النبيُّ الذي بايَعَ له الأَنْبِيَاءُ بالأرواح قبلَ الأشباح الآدَمِيَّةِ فأَقَرُّوا، وشَهِدَ اللهُ تَعَالَى وسَجَّلَ القُرآنُ».

ويقول ﷺ: «النبيُّ بَرْزَخُ الوَصْلِ والبَيْن، بينَ العِلْمِ والعَيْن، طَهُور الرَّيْن، وكاشِفُ الغَيْن والبَيْن، ومُجَلِّي مَشَاهِد الرَّبَّانِيَّات السَّرْمَدِيَّة، أَوَّلُ الإرادة وآخِرُ العَمَل، وَلَدُ آدَم في الأَشْبَاح، ووالِدُ آدَمَ في الأَرْوَاح، ومَرْكَزُ أَسْرَار حالةِ الاستحالةِ والإمْكَان».

ويقول ﷺ: «النبيُّ مَشْرِقُ حَقَائِقِ اللَّاهُوت، ومَغْرِبُ دَقَائِقِ النَّاسُوت، ومَجْمَعُ الأَسْرَارِ القَيُّومِيَّة، قُطْبُ رَحَى الرَّهَبُوت، وشَمْسُ ضُحَى الرَّغَبُوت، ومُلْتَقَى أَطْرَاف كَيْنُونَة العيان، في الغَيْبِ والعِيَان».

ويقول ﷺ: «النبيُّ كَوْكَبُ الرَّحْمَة والجَبَرُوت، في المُلْكِ والمَلَكُوت، قُرآنُ الجَمْعِ، وفُرْقَانُ الفَرْقِ بينَ العوالِمِ العُلْوِيَّةِ والسُّفْلِيَّة، طُور التَّجَلِّيَات في الأسماء والصِّفات، ونَبْع نَفَحَات التَّعَيُّنَات في عامَّةِ مَرَاتِبِ التَّنَزُّلَات على كافَّة الصُّوَر والألوان».

ويقول ﷺ: «النبيُّ شاهِدُ الشُّهُود، في اليومِ المَشْهُود، الشافِع المَوْعُود، بالمَقَامِ المَحْمُود، واللِّوَاء المَعْقُود في هَوْل الغَمْرَةِ الحَشْرِيَّة، يومَ يُنَادِي الحَقُّ الدَّيَّانُ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]».

ويقول ﷺ: «السلامُ عليكَ أيُّها النَّبِيُّ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه، السلامُ علينا وعلى عِبَادِ اللهِ الصالحينَ، لكَ مِنَ اللهِ تعالى صلاتُه وإمدادُه ونَفَحَاتُه، ولنا بك منه الهدايةُ، والحِمَايَةُ، والعِنايةُ، والرِّعايةُ، والوَلايَة، والكِفَايَة، والوِقَايَة، والتَّمْكِين، وعلى آلِه وصَحْبِه وسَلم، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ».

ويُعتبر ورد «نهج الوظيفة الزَّرُّوقِيَّة» تجديدًا بما أُضيف فيه وخُرِّج من أحاديث شريفة، وعلى الرغم من هذا التجديد الواضح في «نهج الوظيفة الزروقية» إلا أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بأمانته العلمية المعهودة، وعرفانه الدائم بفضل كل ذي فضل قدَّم لها بقوله: «يُعتبر ورد «نهج الوظيفة الزروقية» مجموعة فريدة من الأذكار النبوية التي جاءت السنة بالحث على ملازمتها في الصباح والمساء معًا، وكشفت عن كنوز أجورها وأسرارها وخصائصها؛ وللمتعبد بها أن يلاحظ الوقت فيأتي باللفظ المناسب لوقت العبادة صباحًا كان أو مساءً.

ومن الدين أن نقرر أنه قد جمع الإمام العارف أحمد بن زروق -من أئمة المالكية، وكبار الشاذلية- طائفة من أدعية الصباح والمساء الواردة وسماها «الوظيفة»، فله فضل السبق والتوجيه، ولذلك أسمينا هذه الأدعية «نهج الوظيفة»، متممًا الوظيفة؛ إذ لا معنى للتكرار وغمط الحقوق في مقام الخدمة الإلهية. وللإمام ابن عَجِيبة المحدث العارِف على الوظيفة الزروقية شرح فريد، وقد هذَّبه العالم الصالح الشيخ أحمد عبد الرحمن البنَّا والد الشيخ حسن البنَّا رحمهما الله تعالى في رسالة لطيفة سمَّاها «تنوير الأفئدة الزكية في شرح وأدلة الوظيفة الزروقية» خرَّج بها أحاديث هذه الوظيفة وبيَّن فضائلها.

ولبعض العلماء العارفين أيضًا شروح أخرى على هذه الوظيفة، كان منهم أخونا العارف الشيخ البهي الخصوصي عليه رحمة الله تعالى، وأخونا الشيخ محمد خليل الخطيب الطنطاوي رحمه الله تعالى، وقد زاد الشيخ حسن البنَّا رحمه الله تعالى عليها بعض أدعية الرسول ﷺ وسمَّاها (المأثورات)»[1].

٢- الأوراد الممزوجة

وقد مزج فضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بين الكثير من هذه الأوراد، وبيْن ما ألهمه الله

(١) «الطيب من القول» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

تعالى به يقظةً ومنامًا ليخرج أورادًا جامعة فريدة تملأ النفس إيمانًا وطمأنينة. وهذا نوع جديد من التجديد، وهو المزج بين الأوراد المختلفة، ومن تلك الأوراد المزوجة وِرد «الصلاة الممزوجة» التي مزج فيها بين إلهامه وبين ما ورد عن الشيخ إبراهيم الدسوقي؛ حيث يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في حزب الإمام إبراهيم الدسوقي الممزوج: «في ذِكرى مَوْلِد الإمام الشيخ إبراهيم الدُّسُوقِي أَخَذَني شوقٌ عَنيف إلى زيارةِ ضَريحه في إلحاحٍ وإلحاف، ولكن مَنَعَنِي كعادتي أنني لا أستطيعُ رُؤية مناكِر الموالد ثم أسكُت عنها فأحتمل الإثم، وقد يُئَـوَّل هذا السكوت بنوع من الرضا، فيُستغَل خطأً، وقد أتحدَّث فتكون فتنة فيها استهداف لما لا طاقة لصحتي وظروفي به الآن.

وفي حدة الشوق إلى زيارة قبر مولاي الدسوقي زارتني رُوحُه الشريفة ليلًا في رؤيا صادقة بحمد الله، وآذنتني روحه بأن أمزُج حِزْبَه الصغير: «باسم الإله الخالِق الأكبر» وأتوجه به أنا وإخواني إلى الله فيما أَهَمَّنا، وكأنما فعلتُ ذلك في حضرته، وتَلَوْتُه عليه، فأذِن به، وكأنما كان في مسجده، وعلى باب ضَريحه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ثم قمتُ من نومي فرِحًا، وأنا أحفَظُ ذلك حرفًا حرفًا كما هو مسجل»[1].

ويقول الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «دعاء سورة الإخلاص»: «في نحو عام ١٩٢٩م كلفني الشيخ الوالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أضع دعاءً شعريًّا يتلوه الإخوان بعد التوسُّل إلى الله بسورة الإخلاص، المشهورة بالصمدية، تصحيحًا لدعاء غير منتظِم عندهم، وكانوا يقرءون السورة ٥٢ مرة بعدد حروفها، مع اعتبار الحرف المشدد حرفين كقاعدتهم، وقد وضعت هذا الدعاء كما آذنني على طُهر بعد صلاة السَّحَر وقبل الفجر من ليلة الجُمُعة في نحو عشرين بيتًا، وقد حاز رضاه رَحِمَهُ اللَّهُ، فآذَنَ به الإخوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقرءونه بعد الإخلاص ثلاث مرات صباحًا ومساءً، وشاع بينهم هذا بالتلقي الشفوي رجلًا عن رجل، وانتفعوا ببركته»[2].

وهكذا قد مزج فضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الأوراد وغيرها بين القديم من

(١) «مفاتح القرب» (ص١٩٥).
(٢) المرجع السابق (ص٢٠٦).

الأوراد التي تلقاها من أشياخه إلهامًا وعلمًا، ثم أضاف إليها ومزج بها الجديد الذي ألهمه اللهُ به وفتح به عليه، فخرجت أوراده الجامعة بين القديم والجديد رائعة الجمال تسطَع نورًا وتملأ الرُّوح والنفس فرحًا وراحةً وسرورًا.

أما في وِرد الآيات المختارة فقد جمع الإمام الرائد السور والآيات في بيتين من الشعر لسهولة التذكر عند التلاوة:

كُرْسِي، وآمن، خلْق، سبحوه به * وآخِر الحشر فيها جاء تحبيذُ
فتح، وقدر، وزلزال، تكاثره * وكوثر، كافرون، النصر تعويذُ

٣- الأوراد الخاصة بطُرُق صوفية راشدة شرعية غير الطريق الشاذلي

ومن ملامح التجديد في مسألة الأوراد أيضًا أن الشيخ محمد زكي إبراهيم ﵁ لم يكتفِ بأوراد طريقته الشاذلية الأصلية، ولكنه جمع في أوراده وكتبه بصفة عامة المسائل المشتركة بين كل الطرق الصوفية الشرعية والأوراد المشهورة المقبولة التي لها أصل عند كل الطرق، وقد جمع شَتات كل ذلك وأرشد إليه تلاميذه ومريديه، وقام بإحياء هذه السنة الطيبة في الجمع بين أوراد ومرويات مشايخ الطرق على اختلافهم، وجمعها في كتابيه (مفاتح القرب) و(المحمديات)، وهما كتابا الأوراد للطريقة والعشيرة المحمدية.

وجدير بالذكر أن شيخنا الإمام الرائد ﵁ جعل رسالته (المحمديات) أحزابًا وأورادًا ليس فيها لأحد كلمة واحدة غير الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ.

وهذا أيضًا من جوانب التجديد في طريقته ﵁، فالأمر القائم عند الصوفية هو ترديد أوراد مشايخهم التي تلقوها فقط وعدم ذكرهم لأوراد غيرهم من مشايخ الطرق.

ومن هنا جاءت توصيته لمريديه وحثه لهم على ترديد الصلوات النبوية المباركة التالية:

- «الصلاة النورانية» لسيدي أحمد البَدَوِي.
- «الصلاة النارية» أو «التازية» لسيدي علي التازي.
- «صلاة الفاتح» لسيدي أحمد التِّجاني.
- «الصلاة العظيمية» لسيدي أحمد بن إدريس.
- «دلائل الخيرات» للإمام الجازولي.
- «البُردة» للإمام البُوصِيرِي.

وقد سُردت هذه الصلوات المباركات جنبًا إلى جنب مع «الصلاة المحيطة» الخاصة بالشيخ نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ في كُتُب الأوراد الخاصة بالطريقة المحمدية الشاذلية.

الضبط الشرعي لمسألة جواز عدم اقتصار المريد على أوراد شيخه

حسم الشيخ هذه المسألة وأقام الأدلة الشرعية على اجتهاده المستنير فيها، ثم سار بأسلوبه الدَّعوي الهادئ لتطبيق هذا الاجتهاد بين أتباع الطرق الصوفية مبتدئًا بأبناء طريقته وطلاب علمه، فلقَّنهم ما صحَّ لديه من أوراد الطرق الصوفية الأخرى، وبيَّن لهم الحدود الشرعية للالتزام بورد الطريقة.

ومن أوفى وأسمى مواقف الشيخ رحمه الله تعالى في هذا المضمار دفاعه المخلص المقنع عن «دلائل الخيرات»؛ إذ يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «شاء الله تعالى أن يُكتب لرسالة «دلائل الخيرات» إقبال من الناس ومحبة وثقة لم نعرف لكتاب ولا رسالة في الصلوات على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثله على مرور الزمان، وقد أوقعها هذا في تنافس شديد مع أشباهها، مما لا نرى به بأسًا كلما خلصت النية واتجهت إلى استباق الخير، فذلك من مطالب الإسلام، لكن هناك حماقة يضيق بها العلم، ويضيق بها الفهم، ويضيق بها الأدب مع الله، ومع أولياء الله، ومع قداسة الغيب الإلهي».

ويضرب مثالًا لهذا الغلو المرفوض والتعصب المذموم الحادث من بعض عوام الطرق الصوفية حين يتعلق الأمر بأوراد مشايخهم فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «زارنا مرة جماعة من بلاد الشام، وكانت قد أُهديت إلينا نُسخ جيبية لطيفة من طبعة خاصة من

(الدلائل)، فقدمنا إليهم منها قدرًا على سبيل التحية والتكريم والهدية، فقال كبيرهم: ما هذا؟ قلنا: «دلائل الخيرات». قال: وما حاجتنا إليها وعندنا الصلاة (الفلانية) تلقيناها عن شيخنا، وكل مرة منها بكذا ألف مرة من الدلائل؟! قلنا: وما دليلك على هذا؟ قال: كلام شيخنا. قلنا: كلام المشايخ لا يكون في ذاته دليلًا من غير سند منصوص في كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس. قال: بل كلام شيخنا نص، والإيمان به فرض، والبحث عن دليله شك وزندقة!

ولقد سمعتُ مثل هذا وقرأته مدسوسًا على بعض سادتنا التِّجانية والإدريسية والأحمدية وغيرهم.

ولا أنسى ليلةً جاءني فيها شاب تكاد تحطمه الأوهام، فقد آذنه الشيخ أن يكتفي بتلاوة الصلاة المنسوبة للطريقة، ثم أعجبته صيغة أخرى، فطلب من الشيخ الإذن له بالتعبد بها، فاستشاط الشيخ وهدد المريد بالويل والثُّبور، وفواجع الدهور، إذا هو فكر مرة أخرى في هذا أو فعله، وقال له: إن قراءة مرة من هذه الصلاة تعدل قراءة القرآن كله مائة مرة! وتعدِل «دلائل الخيرات» ألف ألف مرة، ومن شك في هذا أُحيط بالبلايا والمِحَن!

فختام هذا ليس إلا التغالي المسرِف في التعصب والحزبية، وإهدار حق الشرع والعقل والناس، واتهام الأشياخ بما هم منه براء».

ويستطرد الشيخ ﷺ: «إن كثرة القياس على (دلائل الخيرات) هو وحده الدليل على رتبتها الفريدة غير المكررة، ولو كان هناك ما هو في مستواها ما كانت هي المثل الأعلى في القياس والموازنة، ومع هذا نقول: مسكينة «دلائل الخيرات»، ومسكينة عقول ونفوس كثير من المتصوفة[1]! وصدق الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]».

(١) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «حول مسائل لها قيمتها في العلم والدين»، مجلة المسلم، العدد العاشر، السنة التاسعة عشرة، غرة جمادى الأولى ١٣٨٩هـ.

وأُنهي هذه المسألة بسَوْق المشاعر الصادقة لأحد المتعبدين بالأوراد التي جمعها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وأضاف إليها وأجاز بعلمه الراسخ ونبله المعهود التعبد بها لكل من أسعده الحظ بالوقوف عليها، حيث أرسل إلي رسالةً قال فيها:

«لقد أحببتُ أوراد شيخكم الإمام الرائد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتمثلة في هـذين السِّفـرين الجامعين: (المحمديات) و(مفاتح القرب)، والتزمت بما فيهما التزامًا أَعُدُّ به نفسي أحد أبناء هذا الشيخ الجليل ومن طلابه ومريديه، ولو أنني لم أحظَ برؤيته والجلوس بين يديه في هذه الحياة الدنيا، وكلما قرأت فيها انشرح صدري، وزال همي، وامتلأ قلبي امتنانًا عميقًا وتقديرًا عظيمًا لشيخنا الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لإجازته قراءة ما يروق منها لكل مسلم ومسلمة أسعدهم الحظ بالوقوف عليها دونما قيد ولا شرط إلا القيود والشروط الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة، فأعظِم به من إمام على الكتاب والسنة جمَّع وألَّف، وما فرق وما خالف!».

وقد أرسلتُ أُبشِّر هذا الأخ الفاضل بدعاء الشيخ لأبناء له في الطريق لم يحظوا برؤيته في هذه الدار الدنيا، أبناء يأتون بعد رحيله رآهم بنور بصيرته وكأنهم من أقرب أبنائه إليه، وكأنهم يجلسون بين يديه، فهم حريصون كل الحرص على الانتفاع بعلمه والالتزام بأوراده والسير على نهجه القويم، وفي مثل هؤلاء الطالبين للحق يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مَرِيضٌ قَدْ أَتَى شِعْرًا مَرِيضًا * فَعُـذْرًا، إِنَّنِي مِنْهُ اسْتَحَيْتُ
فَمَـا أَدْرِي أَهَلْ هَـذَا وَدَاعٌ * لِشِعْرِي؟! أَمْ عَلَى نَفْسِي جَنَيْتُ؟
وَدَاعًـا أَيُّهَـا الـدُّنْيَـا وَدَاعًـا * إِلَى دَارِ الْخُلُـودِ وَإِنْ عَصَيْتُ
فَلَيْـسَ اللهُ يَنْفَعُهُ سُجُـودِي * وَلَيْـسَ يَضُـرُّهُ أَنِّي أَبَيْتُ
فَرَحْمَتُهُ التي وَسِعَتْ وَعَمَّتْ * سَتَشْمَلُنِي وَحَتَّى لَوْ غَوَيْتُ
فَيَـا كَمْ ذَا تَعَـالَمْتُ افْتِـرَاءً * وَيَـا كَمْ ذَا عَلَى اللهِ اجْتَـرَيْتُ
وَكَمْ قَـالُـوا: وَلِيٌّ أَوْ إِمَـامٌ * وَيَا عَجَبًا بِمَا قَالُوا ارْتَضَيْتُ

فَمَغْفِــرَةً إِلَهِـي وَاعْفُ عَنِّـي * فَفي أَحْضَـانِ رُحْمَـاكَ ارْتَمَيْتُ

* * *

ولي فِي بَعْضِ مَنْ حَـولي رِجَـالٌ * وَهُـمْ أَهْلُ الْهُـدَى فِيمَـا رَأَيْتُ
وَهُـمْ للهِ جُنْـدٌ مُـسْتَنِيـرٌ * وَرَغْمِـي أَتَّقِي فِيمَـا اتَّقَيْتُ
رِجَـالٌ كُلُّهُـمْ رَجُلٌ بِـأَلْفٍ * مَعِي هُمْ قَـدْ بَنَـوْا فِيمَـا بَنَيْتُ
تَرَكْـتُ الْمَنْهَجَ الْكَافِي لِمَنْ قَدْ * يُـوَفَّقُ فِي الْجِهَـادِ كَمـا اشْتَهَيْتُ
فَلَيْسَتْ دَعْـوَتِي هَـذي بِمِلْكٍ * لِشَخْصٍ مَـا، وَلَا وَقْفًـا عَنَيْتُ
فَيَـا رَبَّ الْعَـشِيرَةِ صُنْ حِمَاهَـا * إِذَا أَنَـا فِي غَـدٍ رَبِّ انْـتَهَيْتُ
وَخُذْ بِرِجَالِهَـا نَحْـوَ التَّسَـامِي * لِتَحْقِيقِ الـذي مِنكَ ارْتَجَيْتُ
وَبَـارِكْهُـمْ بِـدَاعِيَـةٍ رَشِيـدٍ * عَـسَـاهُ أَنْ يُتَمِّمَ مَـا بَـدَيْتُ

ثانيًا: إحياء الذكر الجماعي بضوابطه الشرعية

إن الذِّكر الجماعي الجهري أمر مشهور في كافة الطرق الصوفية[1]، بيد أن الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ قد جدد حتى في هذا الجانب من وجوه عدة؛ فمن ناحيةٍ ساق الأدلة الشرعية على مشروعية الذكر بهذه الكيفية، بل وعلى ندبه أحيانًا، ومن ناحيةٍ ثانية خلَّص الذكر الجماعي في الطريقة من بِدَع أُلصقت به وأدت إلى الهجوم المجحِف على الذكر الجماعي برمته، ومن ذلك منعه لتحريف النطق أو مرافقة المعازف أو اللهو لحلْقة الذكر، وغير ذلك مما فصَّله الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تفصيلًا علميًّا أتبعه بالتطبيق العملي المشهود في جلسات وحلقات الذكر التي بدأها الشيخ

(١) راجع المزيد حول الجهر بالذكر: «تنوير السالكين وترغيب الطالبين في الأحاديث الواردة في فضل الذكر سرًّا وجهرًا والتهليل صريحًا وضمنًا» لابن ولي الدين، «حجة المريدين في الجهر بالذكر على المريدين» لابن ماء العينين، «رسالة في تحريم الجهر بالذكر والرقص والسماع» للأرمنكي، «التفصيل الجامع في رفع الأصوات بالمجامع» لابن عزوز، «بيان الذكر الخفي المستجلب للأجر الوفي» للسمناني، «إثارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر» للبقاعي، «رسالة في جهر الذكر وجوازه» للتوقاني، «سباحة الفكر بالجهر بالذكر» للكنوي، «نتيجة الفكر في الجهر بالذكر» للسيوطي.

ثم ما انفكت تقام على هدي الشرع الحنيف إلى اليوم، وقد اقتدت طرق صوفية كثيرة بنهج الشيخ ﷺ وقامت بتطهير مجالس الذكر من البدع، فحقق بذلك -رحمه الله تعالى- ما صبا إليه من إصلاح في هذا الأمر الهام في الطرق الصوفية.

يقول الشيخ في تبيان مذهبه الشرعي في هذه المسألة: «كانت حلقات الذكر في جماعة موجودة مكررة فعلًا على عهد سيدنا رسول الله ﷺ، وقد رآها ﷺ، واشترك فيها، وبشَّر أهلها، وحث على ارتيادها حثًّا ما عليه من مزيد. وكل ما جاء في كتب الأحاديث الصحيحة وغيرها من ذكر لفظ (حِلَق، أو حَلَقَات الذِّكر) يفيد لغةً وعقلًا معنى التجمع والمشاركة، وإذا أُطلق لفظ الذكر من غير مخصِّص ملحوظ أو ملفوظ، فقد أُريد به كل ما ذُكِرَ اللهُ تعالى فيه أو به، سواء كان صلاةً، أو علمًا، أو قرآنًا، أو تسبيحًا، أو تحميدًا، أو تهليلًا، أو تكبيرًا، فأيما شيء من ذلك فهو مشمول بعموم النص ومستحق للثواب، حتى الفكر، فهو ذكر قلبي مأثور. ولكن الذكر هنا مخصَّص بمعنى التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد والتفريد والتمجيد، وما هو منه بالتصريح والقرينة»[1].

وقد كتب الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللهُ كتابه (نتيجة الفِكر في الجَهر بالذِّكر) فجمع فيه أكثر من ستة عشر حديثًا في ذلك. وقد استوفى شيخنا الرائد هذا الموضوع في كتابه (أصول الوصول)، الجزء الأول.

والخلاصة: أن جمهور علماء الأمة على استحباب الاجتماع على الذكر والجهر به، وقد كان الرسول ﷺ يخرج على حِلَق الذكر من أصحابه فيبشرهم كما هو ثابت.

وعمومًا، الجماعة في الطاعات مستحبة في ذاتها. ومن فوائد الاجتماع على قراءة الأوراد والأذكار جماعةً: تآلف القلوب، وجمع الناس على المحبة والمودة، وتقوية الأواصر والروابط، وتعليم الأُمِّي الذي لا يُحسِن القراءة، وإظهار شعائر الإسلام،

(١) «الرسائل الصوفية الثلاث.. من دعائم التَّصَوُّف الإسلامي الراشد»، المجموعة الأولى، لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: سلسلة منشورات العشيرة المحمدية ١٩٧٢م.

وقضاء الوقت في طاعة الله، والاجتماع على الخير، وكل ذلك مطلوب شرعًا.

وتُكرَه الجماعة في الذِّكر إذا ترتب عليها أمر محظور في الشرع؛ كالاختلاف أو اللهو واللعب أو المفاسد أو تحريف الذكر، أو نحو ذلك.

«وأفضل الذكر ما كان بالوارد كتابًا وسنةً، ثم ما كان عن الصحابة والسلف الصالح، ثم ما كان عن صالحي الشيوخ والعلماء العاملين، ثم ما يجري به لسان المرء في أحواله المختلفة مما يوفقه الله إليه، ويشترط في القراءة جماعةً التناسق، والوضوح، وحسن التوجه، والالتزام، وصحة النطق بقدر الإمكان»(1).

وفي هذا الصدد يقول الشيخ ﵁ منبهًا على أمرٍ جَلَل: «ومن أخطر الأمور المحظورة التي تقع أحيانًا من بعض الجهلاء في حَلَقات الذِّكر تحريف أسماء الله الحسنى في حلقات الذكر، فإجماع أئمة التصوف على أنه حرام مُوبِق، وحسْبُك فيه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فهنا أَمْر بالذكر، مع نهي شديد عن تحريفه، والتحذير من الصلة بمن يحرفونه، أي يلحدون فيه، وإعلان أنهم سُيجزَون بسوء عملهم، فيكون هذا الإعلان بمثابة إنذار، ونهي شديد مغلَّظ. فإذا كان التحذير من الصلة بمن يحرفون أسماءه تعالى، فكيف بحكم المحرفين أنفسهم؟!».

وقد تناولنا هذا الموضوع بإسهاب في المسألة السادسة.

ثالثًا: إحياء الخَلوة الصوفية الشرعية السلفية بشروطها وضوابطها

قد بدأ الشيخ رحمه الله تعالى في إزالة الرَّين عن معنى الخلوة وعن مشروعيتها بسوق الأدلة المطولة من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح بما لم يسبقْه إليه أحد فيما نعلم، وذلك مع تبيان فوائدها الرُّوحية والبدنية والذِّهنية، فيقول ﵁:

(١) «الطيب من القول» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

«أصل الخلوة عند الصوفية[1] هو استحباب الاعتكاف، كما جاء الندب إليه في الإسلام، والخلوة نوع من الفرار إلى الله، وقد ألزمنا الله به، فقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وهي هجرة إليه: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. وقد كان الاعتكاف أو الخلوة سنة ماضية في الأديان السابقة، فموسى واعد ربه ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ومريم ابنة عمران كان لها اعتكافها وميقاتها ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ [مريم: ١٧] في المِحراب، وكان لزَكَرِيَّا اعتكافه وميقاته ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٠]. وكل ذلك ثابت في كتاب الله، فالخلوة ذهاب وفرار وهجرة إلى الله كما قال إبراهيم ولوط عليهما السلام من قبل[2].

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ اختلى قبل البعثة في حراء، كما كان يختلي بعد البعثة في العشرين أو في العشر الأواخر من رمضان، وربما في غيرها كذلك، فأصبحت الخلوة سنة نبوية من سنن الهدى الثوابت.

إذن فدين الله أن يخلو العبد القادر المستطيع إلى ربه فترة ترويض ورياضة، يتخلص فيها من عقده وأزماته ورواسبه النفسية، ويتطهر فيها من خطاياه وآثامه ونزواته، ويتضلع فيها بشحنة الإيمان واليقين والقرب من الله، فيخرج وقد صفا قلبه، واستنار باطنه، وانسلخ من أمراضه القلبية والنفسية والخلقية، إن صح توجهه إلى الله وأُخْلِصَتْ نواياه في خلوته، بل إنه لينسلخ تبعًا لهذا من بعض أمراضه

---

(١) راجع المزيد حول الخلوة عند الصوفية: «هدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب» لمصطفى البكري، «الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم» للشعراني، «الأنوار فيما يُفتَح على صاحب الخلوة من الأسرار» لابن عربي، «السلوة في شرائط الخلوة» لأبي المؤيد الخاصي، «دوام الراحات في اتخاذ الخلوات» للفَيُّومِي، «العروة لأهل الخلوة والجلوة» للسِّمْنَانِي، «آداب الخلوة» للسِّمْنَانِي، «كتاب الخلوة» لابن عربي.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: ٢٦] و﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

الجسمية والبدنية كذلك، فكأنما وُلد ولادة أخرى إن وفقه الله، إضافة إلى الشحنة الإيمانية التي يحصلها»[1].

ثم يجدد الشيخ تجديدًا هامًّا من الناحية العلمية والسلوكية بتبيان فوائد الخلوة بصورة عصرية وعلمية تعين المريد السالك وتحثه عليها بمخاطبته بلغة العصر، فيقول: «ومتى ما ثبت أن الخلوة علاج رُوحي للأمراض النفسية والخُلقية، ثم هي علاج للأمراض الجسمية المترتبة على الأزمات والعقد والانفعالات المختلفة، فقد علمت إذن أن الخلوة تُعد بالتالي بوجه من الوجوه نوعًا من عزل المريض حتى يشفى، فلا يُعدي غيره خلقيًّا ولا نفسيًّا، ولا يتعرض هو للهلاك، شأن الأمراض الجسمية المعدية سواء بسواء، وشر الأمراض أمراض الباطن، وشر الآثار آثارها المدمرة، وشر الموتى موتى الأحياء. أما خلوة السليم فإنما هي لمضاعفة الشحنة الإيمانية والترقي في معارج القرب وطلب مفاتيح المدد، أو على الأقل زيادة طاقة اليقين والعلاقة بالله في نفس المريد، شأن خلوة الرسول ﷺ في رمضان، وبهذا تصبح الخلوة ضرورة إنسانية، وكما يؤكد أطباء الصحة الجسمية والنفسية ضرورة تعيين يوم دوري للراحة والاستجمام واستعادة الحيوية والنشاط، فكذلك يقرر أطباء الأرواح ضرورة تعيين فترة للتخلص من كافة الرواسب والمشاغل والشواغل، والمهام والهموم، والانصراف المطلق إلى الله، والاستمداد من الطاقة المقدسة للتخلص من المتاعب والاجتهادات والمعايب المعنوية، والعودة إلى مواجهة الحياة بما هي أهله، من حيوية وفهم وطاقة ورُشد ونظافة، وإنتاج حسي ومعنوي.

فليس أمر الخلوة -كما يفهمه المتحاملون والحمقى- نوعًا من الانطواء والسلبية، أو الهرب من مواجهة مرارة الواقع، أبدًا، إنما الخلوة استعداد وتدريب، وتربية إيجابية، وقوة ومثابرة، وكفاح مرير لا يعرفه إلا مُمارسوه، ولو أن أحدًا من أولئك القوالين حاول الاعتكاف والخلوة يومًا واحدًا على متعارَف الصوفية لما أطاق ولفَرَّ فِرارَ الجَدْي الجبان من الأسد!»[2].

---

(١) «أصول الوصول» (ص١٠٨).

(٢) المرجع السابق.



المسألة الخامسة

الجمع بين مجالس العلم والذكر في إقامة «الحضرة» و«الختمة»

ومن جوانب التجديد أيضًا في الطريقة المحمدية عند الشيخ مُحَمَّد زَكِي إِبْرَاهِيم رَحِمَهُ اللَّهُ دروسُ العلم؛ فقد جعل العلم الشرعي أساسًا يتلقَّاه المريد كما يتلقى الأذكار، وهذا أيضًا أمر قد أحياه الشيخ وأحيا الطريقة به، ثم ما لبثت أن اسْتَنَّتْ بهذه السُّنَّةِ الحسنة بعضُ الطرق الصوفية، ولم يكن هناك قبل الشيخ محمد زكي إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الاهتمامُ بتَلَقِّي المريدين العلم الشرعي كصِنوٍ للأوراد ومجالس الذكر.

وهذا التجديد في أسلوب ممارسة أبناء الطريقة لقراءة أورادهم في المجالس الجماعية للذكر يدخل أيضًا في الطرق المتعددة التي جمعها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ «لتحقيق التصوف»؛ أي ربط العلم الشرعي والدليل العلمي من الكتاب والسُّنَّةِ وأقوال السلف الصالح وأعمالهم بالذكر الجماعي ومجالس المديح والإنشاد في المناسبات الدينية.

فلم تَعُدِ الحضرة أو الختمة تقتصر -كما كانت من قبل- على الذكر (سواءً بالدُّعَاءِ أو ما ورد من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك)، على عِظم قدرِ ذلك الذكر وجلاله، ولكن أصبحت أيضًا جلسة تعليم وتعلُّم وتدبُّر وتفكر في كتاب الله العليم الحكيم وسنة رسوله ﷺ، وكذلك تبيان السند والتخريج لكلِّ وِرد يتعبد به الحاضرون.

وحيث إن الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ قد جعل القرآن الكريم الرحى التي تدور حولها مجالس

الذكر والعلم في الطريقة الصوفية السلفية المحمدية التي ورث ريادتها من أشياخه، فقد يكون من النافع والمفيد تلخيص رحلته الروحية العلمية مع الكتاب العزيز.

بدأت رحلة شيخنا الإمام محمد زكي إبراهيم رائد العشيرة المحمدية رَحِمَهُ اللهُ مع القرآن الكريم منذ صغره، فبدأ بحفظ القرآن الكريم مبكرًا -كما ذكرنا آنفًا- على يد الشيخ جاد الله عطية، بمسجد السلطان أبي العلاء، حيث كانت تقيم أسرته، وأتم حفظه عن ظهر قلب على يد الشيخ أحمد الشريف بمسجد سيدي معروف، وكان حينئذٍ بين التاسعة والعاشرة من عمره.

وفي الأزهر الشريف اعتنى بكتاب الله تعالى وتفاسيره، وكُتُبِ إعرابه ومعانيه، وقراءاته، وعلومه بأنواعها، وقد ظهر أثر ذلك واضحًا في حياته (خطابةً وتدريسًا وتأليفًا وفتوى وإرشادًا)؛ فقد كان مجلس درسه رَحِمَهُ اللهُ مليئًا بفرائد الفوائد القرآنية النادرة، قلَّما ذكر حادثةً أو حكمًا أو موعظةً إلا ودليلها من كتاب الله تعالى في المقدمة، والكثيرُ من دروسه هو شرح مستنير مُحدَث لآيات من كتاب الله تعالى.

ولا أنسى يوم شرح في درسه سورة «الرحمن» آيةً آية، فبدأ بمعنى اسمه تعالى «الرحمن» وأنه جامع لصفات الجمال والجلال، ثم ذكر أسماء سورة الرحمن، ومنها أنها تسمى «عروس القرآن»، ثم عرَّج على قصة سيدنا عبد الله بن مَسْعُود وجهرِهِ بآيات من سورة الرحمن على أهل الشرك وعبادة الأوثان ووقعها المذهل على نفوسهم المظلمة، ثم انطلق في المعاني العميقة وراء آيات تلك السورة الفريدة، حتى جاء إلى وقعها العجيب على الجن، كلما سمعوا قول الحق: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] قالوا بخضوع وخشوع: «لا بشيء من نعمك ربَّنا نُكذِّب، فلك الحمد». فكانوا أحسن مردودًا من الإنس. إلى آخر ما في هذه السورة العظيمة من معانٍ جليلة تَمَسُّ شَغَافَ القلوب، وتسبُر أعماق النفوس، فتنقُلها من الظلمات إلى النور، ومن الغفلة إلى الوعي، ومن الموت إلى الحياة.

وكم تجد بين ثنايا دروس فضيلة الإمام الرائد من الفوائد العظيمة والمعاني

العميقة الجديدة، فقد شرح يومًا معنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وأفاض في تاريخ البيت الحرام، ومعنى بكة ومكة... إلخ. فكان شرحه -كما كان دائمًا- مستنيرًا، منيرًا، ملهمًا، ممتعًا، يفتح آفاقًا جديدة، ويكشف أسرارًا خفية، وينير لنا الطريق في كيفية إحياء التصوف السلفي في تلك المجالس العلمية الروحانية، بمزجه السلس بين العلم الشرعي والحس الصوفي المرهَف، مما يؤدي إلى التفكر والتدبر في كل ما يُتعبَّد به، وما ينطوي عليه ذلك من تزكية النفوس، أو كما يقول السادة الصوفية من «تخليتها وتحليتها»[(١)].

وفي يوم ما كان يشرح قول الحق تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦]، فكان مما قال: إن من رضي اللهُ تعالى عنهم يلهمهم الإجابة، فيقول أحدهم: «غرني كرمك يا رب»، ألا ترى أنه لم يقل: «ما غرك بربك الجبار أو القهار أو المنتقم؟».

وقد تميزت الاحتفالات الدينية التي كان يقيمها رَحِمَهُ اللهُ بأصوات الشيوخ الأجِلَّاء من الحُفَّاظِ المتقنين أصحاب الأداء المميز، وهنا أذكر أول لقاء للقارئ الطبيب أحمد نعينع بالشيخ رَحِمَهُ اللهُ؛ إذ بعد أن قرأ انطلق الشيخ يبين للحاضرين خفايا بعض أحكام التلاوة عند حفص، ويشرح بعض وجوه القراءات ممَّا يبهر العقول.

وهكذا جعل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تلاوة القرآن الكريم وتدارُسَ معانيه جزءًا أساسيًّا من الأوراد والأذكار اليومية لمريديه، ثم ضَبط قواعد قراءة أورادهم في المجالس الجماعية للذكر، ثم ربَط العلم الشرعي والدليل العلمي من الكتاب والأحاديث النبوية والسُّنَّةِ المشرَّفَة وأقوال السلف الصالح وأعمالهم بالذكر الجماعي ومجالس المديح والإنشاد، خاصةً في المناسبات الدينية، ثم بيَّن حكم الدعاء بغير الأوراد والأحزاب، كما بيَّن ما هو مباح وما هو محظور في الأوراد والأحزاب.

---

(١) راجع: كلمة الرائد (مجموعة المقالات الخاصة بتفسير القرآن الكريم). والمكتبة الصوتية للشيخ في طور التحديث، فهي تعج بالذخائر، العشيرة المحمدية، القاهرة.

وتنقسم الأوراد والأذكار والأحزاب في الطريقة المحمدية[1] إلى ثلاثة أقسام:

١- الورد القرآني.

٢- الأوراد من الأحاديث الشريفة.

٣- الأوراد والأحزاب والأدعية: المُتَلَقَّاة عن الأشياخ، والمؤلَّفة منظومة أو منثورة، وأذكار الصالحين من السلف والخلف.

أولاً: الورِد القرآني

وقد كان الشيخ رضي الله عنه يحث مريديه على المحافظة على الورد القرآني اليومي؛ وتفصيله كما يلي:

أ) قراءة ما تيسَّر من القرآن يوميًّا، ولو آيات قليلة، حتى يختم القرآن، ثم يبدأ فيه من جديد، وهذا شأن الحالّ المرتحِل كما ورد في الحديث الشريف.

ب) قراءة سورة (الواقعة) بعد صلاة الفجر، و(الرحمن) بعد العصر، و(يس) بعد المغرب، و(تبارك الملك) بعد العشاء، و(الدخان) ليلة الجمعة، و(الكهف) يوم الجمعة. وقد فصل دليل قراءة هذه السور وفضلها في كتابه «أصول الوصول» وفي غيره من كتبه رضي الله عنه.

ج) قراءة السور والآيات ذات الخصائص والفضل العظيم والأجر الكبير، مما ورد فيها أنها تعدل ثلث القرآن أو ربعه، كسورة (الإخلاص)، و(الكافرون)، و(الزلزلة)، وآية الكرسي، وخواتيم البقرة، ونحو ذلك.

فكلُّ هذا من السُّنَنِ المؤكدة والمستحبات والفضائل، مما هو ضروري للسالك إلى الله تعالى، المترقي في درجات الكمال، بعد محافظته على الفرائض والواجبات، وأدائها على أكمل وجه في أوقاتها؛ إذ لا بد للسالك إلى الله من معرفة مراتب الأعمال،

(١) والطريقة المحمدية هي النموذج الأمثل للطرق الصوفية الشرعية بمصر والوطن العربي والعالم الإسلامي، حيث ينتشر أتباع الإمام الرائد محافظين دومًا على تلك الأوراد كمًّا وجوهرًا.

وأن يكون فقيهًا بالأولويات، عليمًا بالضروريات، فلا يهتم بالفروع ويترك الأصول، ويقضي وقته في النوافل مع إهماله الواجبات، فيكون كمن يزين جدارًا هشًّا لا أساس له، يوشك أن ينهار، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفضلًا عن اهتمام شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ بالقرآن في مجالس علمه، فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ كثير التلاوة له، يحث على مجالس تلاوته ومدارسته، فعمرت مساجده بالمجالس القرآنية تلاوة وتحفيظًا وتعليم أحكام، واهتم بالكتاتيب، وحث على إنشائها ورعايتها والمحافظة عليها.

وقد كتب عدة مؤلفات قيمة[1] حول كتاب الله عزَّ وجل، منها:

- «**الإسكات في بركات القرآن على الأحياء والأموات**»، وهو مطبوع، حول الأوراد القرآنية، ومعاني الاختيار والتفضيل بين السور والآيات، وهو بحث نادر عن خصائص القرآن وفضائل بعض سوره، وانتفاع الميت به، والتداوي والرقية والعلاج بالقرآن.

- «**حول معالم القرآن**»، وهو مطبوع، عبارة عن معلومات وحقائق لا يستغني عنها عالم ولا معلِّم ولا متعلِّم، وثقافة قرآنية أساسية، بمنهج علمي، مع ذكر الدليل، على طريقة تجمع بين الفقه والحديث.

- «**معارج البهاء الأقدس**» لمحات من فقه المعرفة، ودرس في التوحيد من (سورة الإخلاص)، وخواطر حول (سورة الإخلاص) وفضلها وما حوته من معاني التوحيد؛ جمعًا بين العقيدة والتفسير والتصوف. وعلى الرغم من صغر حجم هذا الكتاب فإن مادته العلمية غزيرة، وعباراته مُحقَّقة وموجزة، وقد طُبع مؤخرًا بفضل الله.

- «**تفسير آيات مختارة من كتاب الله تعالى**»، كآيات البر من (سورة البقرة)،

(١) راجع المكتبة العلمية للإمام محمد زكي إبراهيم، بالعشيرة المحمدية، الدَّرَّاسَة، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

وأوائل (سورة الإنسان)، وغيرها، وهو ما زال مخطوطًا، نسأل الله تعالى أن نُوَفَّقَ لطباعته.

- «**لحظات التجلي**»، تفسير مختارات من سور القرآن، منها (التوبة) و(الحجرات)، كُتيِّب مفقود لم نعثر عليه بعد.

- «**بحوث في لغة القرآن**»: وهي مجموعة من البحوث في مفردات القرآن وكلماته، وما فيها من إعجاز لُغوي وتركيب فريد، وقد تَطَرَّقَ فيها لشيءٍ من علوم القرآن الكريم، وقد نشر بعض هذه البحوث بمجلة «منبر الإسلام» التي يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وبعضها أذيع في البرنامج الإذاعي «لغة القرآن».

هذا، غير الدراسات والبحوث والمقالات القرآنية المتناثرة بالمجلات الإسلامية وفي أعداد من مجلته «المسلم». وأخص بالذكر منها بحثًا نادرًا عن التفسير الإشاري وتفاسير السادة الصوفية[1]، وقد اتخذه تلميذه مُحيي الدين الأَسْنَوِيُّ عمدة في رسالته «التفسير الإشاري للقرآن - دراسة علمية تأصيلية»، كما اعتمدتُ أنا أيضًا على هذا البحث القيِّم نفسه في كتابة بحث قصير حول الموضوع بعنوان «المشروع والممنوع في التفسير الإشاري للقرآن العظيم - مذهب الشيخ محمد زكي إبراهيم». وقد اتخذتُ منه سندًا علميًّا عند التحقيق مع مجموعة من الزنادقة المدسوسين على التصوف إبان عملي بالنيابة العامة، وقد أعان هذا البحث زملاءنا بالنيابة والقضاء لفهم أبعاد الموضوع وكيف أن الزندقة والبدع تدخل في نطاق جريمة «ازدراء الأديان» المنصوص عليها في القانون المصري، وهذا ما يُعمَل به الآن بفضل الله عند ممارسة القضاء بمصر الحبيبة، بدلًا مما كان سائدًا قبل ذلك من ترك مثل هؤلاء المارقين بدعوى حرية الفكر وعدم وجود نص قانوني يمكن معاقبتهم بمقتضاه.

---

(١) من تفاسير السادة الصوفية: «إعجاز البيان في كشف بعض أسرار أم القرآن» للقُونَوي، «إعجاز القرآن» للواسطي، «حقائق التفسير» للسلمي، «عرائس البيان في حقائق القرآن» لروزبهان، «لطائف الإشارات» للقُشَيْرِي.

وللإمام الرائد أيضًا مقالات قيِّمة[1] عن التداوي بالقرآن، يرجع فيها إلى ما سبق كتابته في ذات الموضوع من أمهاتِ الكتب -خاصة لعلماء المنهج السلفي الصوفي- جامعًا، مقارنًا، ومضيفًا من اللطائف النافعة والتعليقات التربوية المفيدة لطالب العلم والساعي لبلوغ الحقيقة. ويبين في هذه المقالات كيف أن التداوي بالقرآن أمرٌ ثابت في الشريعة لا يمكن إنكاره، وكيف أن القرآن العظيم فيه -بإذن الله- شفاء من كل داء، بدنيًّا كان أو قلبيًّا، حسيًّا أو معنويًّا، ويسوق الأدلة على ذلك من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، كما يسوق الأدلة من السنة النبوية المشرفة على فضل التداوي بالقرآن، فيستشهد بما كان النبي ﷺ يفعله إذا اشتكى شيئًا، فقد كان ﷺ يقرأ في كفَّيْهِ عند النوم سورة (قل هو الله أحد) و(المعوِّذتين) ثلاث مرات، ثم يمسح في كل مرة على ما استطاع من جسده، فيبدأ برأسه ووجهه وصدره في كل مرة عند النوم، كما صح الحديث بذلك عن عائشة رضي الله عنها[2].

ثم يبين كيف أن هناك من أمراض القلب والنفس ما لا يُشفى إلا «بالشحنة الرُّوحانية النقية القوية، والرياضة الربانية العميقة الغنية التي لا طريق لها إلا الود مع الله، بمناجاته والعلاقة به، بلزوم ذكره والتعبد له، خصوصًا بما ورد في كتابه» كما ذكر رضي الله عنه ذلك أيضًا في كتاب «المحمديات»، وهو مجموعة من الأوراد والأحزاب النبوية الخالصة، كلها إما آيات من كتاب الله عز وجل، وإما أدعية ومأثورات وردت عن النبي ﷺ[1].

---

(١) نُشرت تلك المقالات في أعداد مختلفة من مجلة (المسلم)؛ لبيان الحقيقة الشرعية في موضوع التداوي بالقرآن، وما اصطلح على تسميته بـ (الطب النبوي)، وليرد على المغالين في هذا الأمر سواء بالرفض أو القبول.

- راجع: «الطب النبوي» للإمام ابن القيِّم والإمام النَّوَوِي والإمام السُّيُوطِي.

(٢) أخرجه البخاري: (٦/ ١٩٠) برقم (٥٠١٧).

(٣) «المحمديات» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية، الطبعة السادسة، ٢٠٠٥م.

ومما ينبغي أن يُذْكَر -في مجال ذكر الفضل لأهله- أنَّ شيخنا رحمه الله تعالى كان من أول من نادَوْا بتسجيل القرآن الكريم برواية الدُّورِيِّ وبقية القراءات، وهذا مسجل في مجلة «المسلم» في وقته، وقد كان الأستاذ لبيب السعيد الوكيل العام لوزارة الأوقاف والأمين الثقافي للعشيرة المحمدية وقتها هو أول من سجل تلاوة القرآن على أُسطوانات[1].

ثانياً: الأوراد من الأحاديث الشريفة

وكما جمع الإمام الرائد في الورد القرآني بين تلاوة القرآن الكريم والتفكر والتدبر في معانيه، فقد سار على نفس النهج في الأوراد المأخوذة من الأحاديث الشريفة، فجعل من حلقات الذكر عنده تدارسًا لهذه الأحاديث النبوية الشريفة، مع ضبطه لبعض المسائل الشرعية الهامة المتعلقة بصحتها وجوازِ العمل بها، وخاصةً فيما يتعلَّق بالحديث الضعيف الذي كثُر حوله اللغط والتشكيك والبلبلة، إضافةً إلى توضيحه ﵁ توضيحًا جليًّا لشرعية الورد والحزب والوظيفة.

فمن المعروف أن معظم أوراد السادة الصوفية مأخوذة عن السلف والخلف، وقد جمعت آثارًا نبوية بعضُها وارد في الصِّحَاح وبعضها يُعَدّ من قَبيل الحسن أو الضعيف. ولما قام بعض العلماء وطلبة العلم يقترحون تقطيعَ أوصال تلك الأوراد والأحزاب من التراث الشرعي الصوفي الرائق؛ بدعوى تنقيتها من كل ما هو ليس في الصحاح -وهو كلام ظاهره حق وغِيرة على التصوف، ولكنه في حقيقته نقيض ذلك، ولا أساس له من الشرع الحنيف- قام الشيخ ومعه رهط مبارك من علماء الأزهر الشريف وعلماء جامعة القرويين بالمغرب يفنِّدون بالأدلة هذه الدعاوى الجاهلة.

وفي ذلك الشأن يقول ﵁: «مِنَ البِدَع المُسْتَهْجَنَة التي تَجري بكل بساطة

(١) راجع أرشيف الإذاعة المصرية وصوت القاهرة، الموقع الإلكتروني للعشيرة المحمدية على الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت).

على ألسنة كثير من المُغْرَمِينَ بالانتساب إلى السُّنَّةِ والتوحيد والتجديد: مجازفتُه بالقول بضعف الحديث على معنى أنه باطل مكذوب، ويعتبر العمل به رجسًا وفسقًا، أو على الأقل جهلًا وتجاوزًا». وهنا انبرى الشيخ لإصلاح هذا المعنى الخاطئ. ويعد ما كتبه في شأن حُجِّيَّة الحديث الضعيف ليس فحسْب جمعًا لما قاله علماء السلف وإحياءً له، بل تجديدًا كذلك للتصوف بربط الأحزاب والأوراد بأدلتها الشرعية من الكتاب والسنة، وإليك طرفًا من أقوال الشيخ رضي الله عنه الدامغة حول هذه المسألة وتبيانه للمبهم منها؛ توضيحًا لما غاب عن العامة بشأنها:

*** أقسام الحديث**

اتفق أهل العلم على أنَّ أهم أقسام الحديث ثلاثة:

١) الحديث الصحيح، وهو أعلاها.

٢) الحديث الحسن، وهو أوسطها.

٣) الحديث الضعيف، وهو أدناها؛ لأنه قد اختل فيه شرط من شروط «الحسن»، ففيه صحة لا محالة.

أما الحديث الموضوع «المكذوب»، فهو خارج عن الدائرة التي نتحدث فيها الآن؛ لأنه رجس ساقط بالحكم وبالذات قولًا واحدًا، من حيث المتنُ أو السند أو كلاهما.

*** تعدد الكتب الصحاح**

إن الأحاديث الصحاح ليست هي وحدها ما جمعها كتاب البخاري أو الإمام مسلم فقط، ولا أعرف في دين الله نصًّا ولا إشارة تدل على حصر الصحيح فيهما بالتحديد؛ فالتحدي بهما نوع من العصبية والإبهام بالعلم بلا علم[1].

(١) في «هدي الساري»: قال البخاري رحمه الله: «لم أُخرِّج في هذا الكتاب إلا صحيحًا، وما تركتُ من الصحيح أكثر». وفي رواية: «ما أدخلتُ في كتابي «الجامع» إلا ما صحَّ، وتركتُ من الصحيح حتى لا يطول».

جاء في «هدى الأبرار على طلعة الأنوار» للإمام ابن الحاج العَلَوِيِّ، وفي «إضاءة الحالك» للشنقيطي، وفي «الجامع» لصَفِيِّ الدِّين الهِندي، وما حَرَّرَهُ صاحب «المنهل اللطيف» ما جملته: «إن الكتب التي كلُّ ما يُعزى إليها صحيح باتفاق جمهور المحدثين -إلا أحرفًا يسيرة انتقدها بعض العلماء- هي:

١) صحيح البُخَارِيِّ «الجامع الصحيح».

٢) صحيح مسلم.

٣) «المنتقى» لابن الجَارُود (إلا ما أرسله).

٤) «صحيح ابن خُزَيْمَةَ».

٥) «صحيح أبي عَوَانَةَ».

٦) «صحيح ابن السَّكَنِ».

٧) «صحيح ابن حِبَّانَ».

٨) «مستدرَك الحاكم» مع استظهار الذَّهَبِي والعِرَاقِي[١].

٩) «مسند أحمد»، كما أضاف بعضهم، وهو ما نراه أيضًا.

١٠) «موطَّأ مالك» على الأحق[٢].

---

(١) جمع الحافظ أبو عبد الله الحَاكِمُ في كتابه «المستدرك» ما كان من صحيح الحديث على شرط الشيخين أو أحدهما ولم يخرِّجاه، وقد نُسِبَ رَحِمَهُ اللهُ إلى التساهل، وقد اعتذروا عنه لِكِبَر سنه عند تأليفه لهذا الكتاب، وذكر ابنُ حَجَر أنه سوَّد الكتاب لينقحه فأعجلته المَنِيَّة. وقد اهتمَّ العلماء بـ«المستدرك»، فانتقده ابنُ عبد الهادي، ولخصه الذَّهَبِيُّ، واختصر ابن الْمُلَقِّنِ تلخيص الذهبي، وعمِل العِرَاقِيُّ مستخرَجًا عليه، ولابن حَجَر العَسْقَلَانِيِّ تعليق عليه لم يتمه، وكذا للسُّيُوطِيِّ، وجمع الذهبي جزءًا فيما فيه من الموضوع. وعلى الجملة فإن فائدة الكتاب عظيمة مع خدمة هؤلاء الأئمة الأعلام له.

(٢) إذ إن الضعيف منه في مرتبة الحسن أو قريب من الحسن، وقد قال الحافظ أبو القاسم إسماعيل التَّيْمِيُّ رحمه الله تعالى: «لا يجوز أن يقال: فيه السقيم. بل فيه الصحيح المشهور والحسن والقريب». وقال الحافظ أبو موسى الْمَدِينِيُّ: «ولم يورد فيه إلا ما صح عنده»، وقد أورَدَ ابن الجَوْزِيِّ في موضوعاته عددًا من أحاديث «المسند»، فتعقبه الحافظ ابن حَجَر بكتاب «القول المسدد في الذَّبِّ عن مسند الإمام أحمد» وهو مطبوع، كما تعقبه السُّيُوطِيُّ تذييلًا على الحافظ ابن حجر، فرحم الله الأئمة الأعلام حفَّاظ الحديث.

ثم «المستخرجات»، وهي معروفة للعلماء؛ فهذه الكتب المعروفة للعلماء ليس فيها إلا «الصحيح» بوجه عام، علميًّا وفنيًّا، أما ما عدا هذه الكتب ففيها الصحيح والحسن والضعيف، ومنها الموضوع أيضًا.

والقاعدة: «ألَّا يُقَدَّمَ أحد على البخاري في العزو، وإن كان الحديث فيه وفي مسلم ساقوا لفظ مسلم لمبالغته في تحري اللفظ النبوي».

فالتحدي بلزوم ما جاء في البخاري ومسلم وحدهما على أن الصحيح ما فيهما فقط، ليس من العلم ولا من الدين.

*** وظيفة الحديث الضعيف في الإسلام، وأقوال كبار أئمة السلف والخلف فيه**[1]

يقول الشيخ رضي الله عنه: «إن للحديثِ الضعيف مجالًا شرعيًّا يدور فيه، وله وظيفة أساسية في دين الله، ومِن ظُلْمِ العلم والدين أن يؤخَذَ الحديث الضعيف بحكم الحديث المكذوب[2]؛ ذلك أن الحديث الضعيف حديث أصيل، ولكن لم تُستكمَل فيه شروط الصحة؛ أي إن فيه جانبًا من الصحة، أي فيه بعض شروط ما يتوقف عليه قبول الحديث، لكنها غير كاملة، ولهذا عدَّهُ العلماء من قسم المقبول، خصوصًا في فضائل الأعمال، أو في غير الأحكام، فهو ليس من قسم المرفوض على أي حال؛ ولهذا استحب بعض العلماء العمل به في موضعه، وقد رفعوه إلى درجة «الحسن»

---

(١) «وظيفة الحديث الضعيف في الإسلام وأقوال كبار أئمة السلف والخلف فيه» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم (ص٣ وما بعدها)، الطبعة الثالثة منقحة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية.

(٢) راجع في ذلك:

- «نهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف» لأحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، دار الكتب المصرية.
- «فتح اللطيف على قسم الضعيف والموضوع والواهي» لمحمد بن محمد الطرابلسي، دار الكتب المصرية.
- «رفع العتاب والملام عمَّن قال: العمل بالحديث الضعيف حرام» للقادري.
- «تمييز المرفوع عن الموضوع» لمُلَّا علي القارِي، دار الكتب المصرية.

بشروطه المقررة، وأنا أعلم أن هذا الكلام لن يرضي بعض الناس، ولكن إرضاء الحق مُتَعَيِّنٌ ولو غضب كل الناس.

ودرءًا للشبهة التي لا يزال يثيرها بعضهم حول الحديث «الضعيف» وتصويره أمام العامة وأشباههم في صورة الحديث المكذوب المدمر للكتاب والسنة، واستخدامهم ذلك لتقويض صرح الجانب الرباني والروحي في الإسلام، نقدم هنا ملخصًا علميًّا لأحكام الحديث «الضعيف»؛ حتى لا تنطلق حناجر وأقلام لا تعيش إلا في مثارات الفتن وظُلُمات الفُرقة وإشاعة الاضطراب والبلبلة في العقائد والأحكام.

*** أقسام الضعيف**

القسم الأول: ما يَنجبِر ضعفُه اتفاقًا؛ لاعتضاده بالشهرة، أو بوروده من طرق أخرى، أو إذا ساندته شواهِدُ مقبولَةٌ، خصوصًا إذا كان الراوي ضعيفَ الحفظ، أو كان الضعف للإرسال، أو الستر، فيرتفع إلى درجة «الحسن لغيره»، ويكون من جملة المقبول، ويُحتج به حتى في الأحكام، كما هو مقرر عند علماء هذا الفن، ولا نظر إلى أدعياء هذا العلم والمتطفلين عليه والفضوليين فيه، ولا المتعالمين الذين علموا شيئًا وغابت عنهم أشياء، فهم يتخذون أسلوب الحَمَاقة والتشدد لتشويه الحقائق والدعاية لأنفسهم.

القسم الثاني من الضعيف: ما لا يَنجبِر ضعفُه وإن كثُرت طُرُقه، وهو «الواهي»، وذلك إذا كان الراوي فاسقًا أو مُتَّهَمًا بالكذِب.

قال علماؤنا: إن مثل هذا الحديث إذا تعضَّدَ بغيره، وكانت له شواهد ومتابعات أخرى؛ فإنه يرتقي من رتبة الحديث «المنكر» و«الواهي» أو «ما لا أصل له» إلى رتبة أعلى، وعندئذ يجوز الأخذ به في فضائل الأعمال؛ أي يجوز الأخذ به فيما عدا المتعلق منها بـ:

١- العقائد.

٢- الأحكام.

٣- التفسير (كما أضاف بعضهم)، وفيه نظر؛ حيث إن الحديث -وإن كان ضعيفًا- مقدَّم على الرأي المطلق.

فيجوز اعتبار الحديث الضعيف في كافة أنواع الترغيب والترهيب، والرقائق والآداب، والتواريخ والمناقب والمغازي ونحوها. وهو ما نقل الإجماع عليه الإمام النَّوَوِيُّ وابن عبد البَرِّ وغيرهما، بل نقل النَّوَوِيُّ استحباب العمل به، والاستحباب -كما هو معلوم- من جملة أصول الدين وأحكام الشرع الشريف؛ إذن فجمهور العلماء من سلف وخلف يرون العمل بالحديث الضعيف ولكن بشروط يمكن إيجازها في شروط محددة هي:

١) ألَّا يشتد ضعفه، فيخرج ما ينفرد به أحد الكذابين، أو من فحش غلطه.

٢) أن يكون -أساسًا- مندرجًا تحت عموم قاعدة شرعية كلية، فيخرج ما ليس له أصل يندرج تحته، ويخرج ما وجد في بابه ما يتعارض مع ما صح وثبت.

٣) ألَّا يُعتقَد عند العمل به ثبوته؛ لئلَّا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله.

وهو رأي ابن حَجَر والسَّخَاوِيِّ[1] وغيرهما من أئِمَّة هذا العلم الشريف».

ثم يستطرد الإمام الرائد مبينًا أن ما قاله في الحديث الضعيف ليس رأيًا خاصًّا به، وإنما هو قول العديد من علماء السلف والخلف الذين لا جِدَالَ حول غزارة علمهم وأرجحية آرائهم وشيوع الاحتجاج بها بين علماء الأمة من السلفية والصوفية على السواء، فيقول رضي الله عنه:

«وعن جابر رضي الله عنه مرفوعًا: «**مَن بَلَغَهُ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شَيْءٌ فِيهِ فَضِيلَةٌ فَأَخَذَ بِهِ**

(١) راجع رأيهما في «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع»، ط. دار الكتاب العربي.

إِيمَانًا بِهِ وَرَجَاءً لِثَوَابِهِ أَعْطَاهُ اللهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ»[1].

وهـذا الحديث أصل كبير في أحكـام الحـديث الـضعيف؛ لأنه لا يمكـن أن يكون صادرًا عن رأي بلا سماع؛ بل هو دليل على أن للحديث الضعيف أصلًا ووظيفة إيجابية.

وقد نقلوا عن الإمام أحمد أنه كان يأخذ في الأحكام بالحديث الضعيف إذا جُبر بالشهرة، كما كان يقدم الحديث في الرقائق والفضائل، وكذلك غيره من علماء أجلاءَ كابن المُبَارَك والعنبري وسُفيان الثَّوْرِي ومَن والاهم ﭭ.

وكذلك الحنفية يقدمون الحديث الضعيف على الرأي، كما نقله الزَّرْكَشِي وابن حَزْم وغيرهما؛ أي إن للضعيف اعتبارًا ذاتيًّا وحركة علمية شرعية لتوفر بعض شروط الصحة فيه. فوَضْعُ الضعيف في موضع المكذوب خطيئة علمية موبِقَة.

ومذهب أبي دَاوُد هو مذهب الحنفية والحنابلة في تفضيل الحديث الضعيف على الرأي، إذا لم يكن في الباب غيره.

ولـم يخالف في الإجماع على العمل بالضعيفِ إلا أبو بكر بن العَربي[2]، على ما نقله ابن الصَّلَاح، ولمخالفته هذه وجوهٌ يُرَدّ عليه منها، أو يُحمَل قولُه عليها، فلا تعارُضَ بينه وبين الإجماع بجواز واستحسان العمل بالضعيف في موضعه».

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٨/ ٢٩٥) برقم (٤٣٩٨)، ويشهد له حديث أبي أسيد ﭬ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا سمِعتم الحديثَ عني تَعْرِفُه قُلُوبُكم وتَلِينُ له أشعارُكم وأَبْشَارُكُم، وتَرَوْنَ أنه منكم قريبٌ؛ فأنا أولاكم به، وإذا سَمِعْتُمُ الحديثَ عنِّي تُنْكِرُه قُلُوبُكم وتَنْفِرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم، وترونَ أنه منكم بعيدٌ؛ فأنَا أَبْعَدُكُم منه**». أخرجه أحمد (٢٥/ ٤٥٦) برقم (١٦٠٥٨)، وابن حبان (١/ ٢٦٤) برقم (٦٣).

وانظر أيضًا: (جواز العمل بالحديث الضعيف في غير الأحكام والعقائد) في «اللُّمع في تجلية البدع» للداعية المعاصر الشيخ محمد حسين عيسى، ٢٠٠٣م.

(٢) وثبت أيضًا أخذ القاضي أبي بكر بن العربي بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال في مواضع من شرحه على التِّرْمِذِي، كما أنه مالكي المذهب، والسادة المالكية يأخذون بالحديث المرسَل بوصفه العام، والمرسل من أقسام الضعيف. ووجه بعض العلماء كلام ابن العربي بأنه أراد بالحديث الضعيف: الذي اشتد ضعفه جدًّا حتى سقط عن درجة الاحتجاج والاعتبار.

ثم يتطرق الشيخ ﷺ إلى أقسام الحديث الثلاثة المتفق عليها، مبينًا الفروق بينها، وموضحًا ما غاب عن العامة من درجاتها وأفضلية بعضها على البعض، والوظائف المنوطة بكل منها.

*** الصحيح والضعيف والمضعَّف**

«وهناك قسمٌ رجالُه قوم لم يجرِّحهم علماء ووثَّقهم آخرون، وهذا القسم من الأحاديث يقع بين الصحيح والضعيف؛ أي أنه دون الصحيح وفوق الضعيف، فهو أخو الحسن، أو هو نوع عالٍ منه؛ ولهذا أجازوه وأدخلوه الكتب الصحيحة التي ذكرناها من قبل».

وبعد تبيان الفروق بين الصحيح والحسن والضعيف والـمُضَعَّف، يؤكد الشيخ أن الأحاديث المضعفة تُذكر في الصحاح على سبيل المتابعة والاستشهاد، أو عُلُوّ الإسناد في الأعم الأغلب:

«وقد انفرد البخاري بالإخراج -دون مسلم- لأربعمائة وبضعة وثمانين رجلًا، تكلم بالضعف في ثمانين منهم، وأما رجال مسلم فستمائة وعشرون رجلًا، تكلَّم بالضعف في مائة وستين منهم، وكل هؤلاء وَثَّقَهُم آخرونَ كثيرونَ، فما رأي أصحاب الدعاوى والدعايات في ذلك كله؟!

قال ابن الصَّلَاح: «ما انفرد به (البخاري) أو (مسلم) مندرج في قبيل ما يقطع بصحته لتلقي الأمة كل واحد من كتابيهما بالقبول على الوجه الذي فصلناه من حالهما فيما سبق سوى أحرف يسيرة تكلم عليها بعض أهل النقد»[1] لا كلُّهم.

قلنا: فهذه الأحرف من قسم «المضعف» الذي يجوزُ إدخالُه الكتب الصحاح بلا معابة كما بَيَّنَّا.

ثم: إن الحكم على الحديث بالصحة أو الحسن أو الضعف، إنما هو لظاهر

(١) «مقدمة ابن الصلاح» (١/ ٢٩).

الإسناد، لا لما هو في نفس الأمر، فنفسُ الأمر هو اليقين المطلق لا يعلمه إلا الله وحده؛ ولذلك قالوا: «كم من حديثٍ صحيح هو في نفس الأمر ضعيفٌ، وكم حديث ضعيف هو في نفس الأمر صحيح، وإنما علينا التحري والاجتهاد»، قالوا: لأنَّه لا يجوز الخطأ والنسيان على العدل الصدوق، كما يجوز الصدق على غيره، فاليقين هنا اعتباري محضٌ[1].

ورواية «العدل» عن «الضعيف» تعديل له عند الأصوليين.

قال صاحب «المنهل»: «وقياسه أنه تصحيح له أيضًا عندهم».

*** أخذ السادة الصوفية بالحديث الضعيف على منهج السلف**

ولعل إخواننا من الكتاب والمرشدين بعد هذا يتورعون عن حمل المجازفة بإطلاق حكم الضعف على ما لم يوافقهم من الحديث، يريدون بذلك أنه «موضوع، مكذوب، مفترى»، لا ينبغي الانتفاع به ولا احترامه ولا تناقله، ولا الاستئناس بلفظه ولا معناه. وأَنْكَرُ المُنْكَرِ ألَّا تخف أزمة هؤلاء الإخوة إلا حين يتهمون الصوفية بالاقتصار على الأخذ بالحديث الضعيف، حتى في المقامات التي أجمع على استحبابها علماءُ الحديث والأصوليون في المشارق والمغارب، علمًا بأن من كبار علماء الحديث وأئمته عدد كبير من الصوفية الراشدين، كما هو مسجل في أثباتهم وأسانيدهم ومروياتهم، ولا يزال يحتج بهم المَرضى بداءِ الحديث الضعيف.

قال ابن عبد البر: «أحاديث الفضائل لا نحتاج فيها إلى مَن يُحْتَجّ به»[2]. وقال أيضًا: «أهل العلم بجماعتهم يتساهلون في الفضائل فيَرْوُونها عن كُلٍّ، وإنما يتشددون في أحاديث الأحكام»[3].

---

(١) ومن هنا كان الحديث المتواتر قطعي الثبوت؛ لأنه من رواية جمع عن جمع تستحيل العادة تواطؤهم على الكذب، كما يستحيل على المجموع الاتفاق على الخطأ أو النسيان.

(٢) ذكره السَّخَاوِيُّ في «فتح المغيث» (١/ ٢٦٧).

(٣) «جامع بيان العلم» (١/ ٢٢).

ولفظ ابن مَهْدِيٍّ في «المدخل إلى كتاب الإكليل» لأبي عبد الله الحاكم (٢٩): «إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب تساهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال»[(١)].

ويقول الإمام الرَّمْلِي: «الأحاديث الشديدة الضعف (يعني الواهية) إذا انضم بعضها إلى بعض يُحتج بها في هذا الباب» يعني الفضائل، والرقائق، والمواعظ، والمناقب، والتواريخ، ونحوها. وبهذا أخذ المنذري في «الترغيب والترهيب»، وكذلك سائر المحققين.

وهذا الذي أخذ به سلف المتخصصين في علم الحديث هو ما أخذ به الفقهاء والصوفية، وبه نأخذ، فكثيرًا ما نجد في متن الحديث الضعيف حكمًا ومعارفَ ودقائق وآدابًا، تحمل كلها روائح النبوة، والحكمة ضالة المؤمن. وهذا مذهب السادة علماء الأزهر الشريف وعلماء جامعة القرويين ممن يجمعون مع علمهم الشرعي ريادتهم للطرق الصوفية السلفية ببلاد الإسلام.

وهذا ما جاء عن السلف كما قدمنا كالثَّوْرِيّ، وابن الصَّلَاح، وابن عُيَيْنَةَ، وابن حَنْبَلٍ، وابن الْمُبَارَك، وابن مَهْدِيٍّ، وابن مَعِينٍ، والنَّوَوِيِّ، وابن عبد البَرِّ، وبَوَّبَ له ابن عَدِيٍّ في «الكامل»، والخطيب في «الكفاية»[(٢)]، وابن أبي حاتم في

---

(١) «المدخل إلى كتاب الإكليل» (ص٢٩).

ونحو ذلك حكاه الخطيب في «الكفاية» (١/ ١٣٤) عن أحمد بن حنبل، وذكر عن أبي زكريا العنبري قوله: (الخبر إذا ورد لم يحرم حلالًا، ولم يحل حرامًا، ولم يوجب حكمًا، وكان في ترغيب أو ترهيب أو تشديد أو ترخيص؛ وجب الإغماض عنه، والتساهل في رواته). اهـ.

(٢) وننقل هنا بعض كلام الحافظ أبي بكر الخَطِيب لأهميته، قال في «الكفاية» (١/ ١٣٣): «باب التشدد في أحاديث الأحكام، والتجوز في فضائل الأعمال: قد ورد عن غير واحد من السلف أنه لا يجوز حمل الأحاديث المتعلقة بالتحليل والتحريم إلا عمن كان بريئًا من التهمة، بعيدًا عن المَظِنَّة، وأما أحاديث الترغيب والمواعظ ونحو ذلك فإنه يجوز كتابتها عن سائر المشايخ». ثم ذكر آثارًا عن سفيان الثوري وابن عُيَيْنَةَ وأحمد والعَنْبَرِيِّ، ذكر بعضها شيخنا الإمام الرائد رحمه الله تعالى في صُلب رسالته.

مقدمة «الجرح والتعديل»، والبَيْهَقِيُّ في «المدخل الصغير».

وقد رأينا في عصرنا هذا -مع الألم الشديد- مَن يرفض أحاديث البخاري؛ لأنها لا تتفق مع مفهومه، ولا تتناسب مع مزاجه باسم «الانتصار للسنة».

بل رأينا مَن ألّف في هذا الباب -وليس هو من أهله- على الإطلاق، وقد وجد من أعداء الإسلام من يعينه على طباعة كتابه هذا وتوزيعه بالمجان في كل مكان، رغم ضخامة تكاليفه التي تبوح بالعمالة وسوء النية واكتساح بقايا الحق الصريح.

ولولا لطف الله ووقفة «مجلة المسلم» وبعض علماء الحديث الأجلاء في مصر والجزيرة العربية والمغرب والشام؛ لدخل الشك بمثل هذا الكتاب في كل ما روى البخاري ومسلم وبقية الصحاح، فضلًا عن غيرهم، ولأشرفت السُّنَّةُ الشريفة الثابتة علميًّا على فتنة كاسحة -وقانا الله إياها- من جانب المتمسلفين أدعياء السلفية ومحتكري العلم بها دون خلق الله، وقد كفروا الناس وحكموا عليهم بالشرك والفسوق إلا من اتبع هواهم.

ثم يعضد الإمام الرائد مذهب السادة الصوفية في قَبول الحديث الضعيف والعمل به بشروطه، محتجًّا بمذهب الإمام النَّسَائِي في علوم الحديث ومنهجه في قبول الرجال والجرح والتعديل، ومنهج تلاميذه من كبار علماء الحديث عبر العصور الذين يحتج بهم معظم العلماء المعاصرين وأشياخهم من أتباع المنهج السلفي الكريم، فيقول: «هذا، وقد خرَّج النسائي في «السنن الصغرى والكبرى» لكل مَن لم يُجمَع على تركه، والمتروكُ عنده مَن لا يُروى الحديث إلا من جهته وكان كذابًا.

وليس فيما وقع لنا مما يرويه السادة الصوفية والدعاة إلى الله سندٌ فيه رجل كذاب أو وضَّاع، وكفى بهذا دليلًا على جواز العمل بالضعيف في موضعه وموقف السادة الصوفية وما جاء في كتبهم منه»[1].

(١) مقال غرة رمضان ١٣٨٢هـ، ٢يناير ١٩٦٣م، العدد ٢ السنة ١٣، جـ٢، ص (٣٢١-٣٢٣)، =

ومع هذا، فما زلنا -للأسف- بين الفَيْنة والفينة نجد من يهاجم السُّنة النبوية المطهرة، من داخل الأمة ومن خارجها، بشتى أنواع السبل والحيل، وقد قَيَّضَ الله لدينه علماء عاملين يدفعون عنه غُلُوَّ المغالين وانتحال المبطِلين، وإن ادَّعَوْا أنهم ينصرون السنة ويحافظون عليها من حيث أرادوا هدمها والقضاء عليها!!

ثالثًا: الأوراد والأحزاب والأدعية المتلقاة عن الأشياخ، والمؤلفة منظومة أو منثورة، وأذكار الصالحين من السلف والخلف:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولما كان من المستحيل على الناس -عامتهم وخاصتهم- أن يفترضوا كل الفروض ثم يبحثوا في بطون الصحاح عمَّا يلائمهم من المأثور ليحفظوه، فإذا ما جاء وقته أو سببه دعوا به؛ لما كان ذلك متعذرًا مستحيلًا، يَسَّرَ اللهُ لهم الأمر إطلاقًا بالوارد وغيره، وفي الصحيح قال النبي ﷺ: «**ما أَمَرْتُكُم به فأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ**»[(١)]، وأفسح الأمر أكثر مِن هذا فقال فيما أخرجه التِّرْمِذِيُّ: «**ما على الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بدَعْوَةٍ إلَّا آتَاهُ إيَّاها أو صَرَفَ عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا ما لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ**»[(٢)]، ومنه يُفْهَمُ حديثُ: «**ليسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ على اللهِ عَزَّ وجَلَّ**

= تم طبع هذا المقال مؤيدًا ومنقحًا في رسالة من مطبوعات العشيرة المحمدية، وقد أحدث وقتها أثرًا محمودًا كبيرًا، فأثنى على مضمونه كثير من علماء مصر والسعودية والمغرب والشام؛ تصحيحًا للمفاهيم ودرءًا للغلو الذي أحدثه بعض الأدعياء بادِّعائِهم البدعة والشرك لكل المنتسبين للتصوف، ولا يخفى أنَّ كل علماء العالم الإسلامي -حتى غير المتصوفة- شيوخُهم من الصوفية. فانظر إلى حجم الفتنة والبلبلة الحادثة. والفضل والتوفيق من الله تعالى للشيخ وطائفة من العلماء الذين انبروا لإخماد هذه الفتنة في ذلك الزمان الذي تزاوجت فيه أفكار التكفير من المتمسلفين مع أفكار الخروج بالسلاح على أولي الأمر من أدعياء إصلاح الإسلام السياسي.

(١) أخرجه البخاري: (٩/ ٩٤) برقم (٧٢٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي: (٥/ ٥٦٦) برقم (٣٥٧٣)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

مِنَ **الدُّعَاءِ**»[1]، وحديثُ أصحاب السُّنَن: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»[2]. ولذلك كان الترغيب فيه مطلقًا من كل قيد، ولم يَرِدْ حرف واحد ينص على حرمة الدعاء بغير الوارد؛ وذلك أن الداعي إنما يبتغي بدعائه استباقَ الخير وفضل الله، والله العظيم يقول: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ولا حرج على فضله، فليس ثمة شرط مطلقًا بوارد ولا غير وارد في القرآن، وهو بين أيدينا متنًا وشرحًا وتعليقًا.

أما الحديث فلا يعارض القرآن البَتَّةَ، وإنما هو مفسِّر له ومفصل لإجماله؛ ففي حديث ابن مسعود قال: التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «**إذا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ: التَّحِيَّاتُ لله**»... إلخ «**ثُمَّ لْيَتَخَيَّرْ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إليه فَيَدْعُو**»[3].

وقيده صاحب «شرح بلوغ المرام» بالدعاء بخير الدنيا والآخرة، ولم يشترط واردًا ولا غيره، بل رَدَّ على القائِلِينَ بلزومِ المأثور بقوله: «ويرد القولين قوله ﷺ: «**فلْيَتَخَيَّرْ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ**»، وفي لفظٍ: «**ما أَحَبَّ**»، للبخاري: «**مِنَ الثَّنَاءِ مَا شَاءَ**» فهو إطلاق للداعي أن يدعوَ بما أراد»[4].

قلت: وهذا في صلب الصلاة، فكيف بالدعاء في غيرها؟!

وفي حديث فَضَالة أن النبي ﷺ قال: «**وإذا صلَّى أَحَدُكُم فلْيَبْدَأْ بتَحْمِيدِ رَبِّهِ والثَّنَاءِ عليه**»[5].

قلنا: وهو مؤيد لحديث ابن مسعود السابق ذكرُه، وفيه قَيْدٌ واحد، هو وجوب

---

(١) أخرجه الترمذي: (٤/ ٤٥٥) برقم (٣٣٧٠)، وابن ماجه: (٢/ ١٢٥٨) برقم (٣٨٢٩)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود: (١/ ٤٦٦) برقم (١٤٧٩)، والترمذي: (٥/ ٢١١) برقم (٢٩٦٩) كلاهما من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري: (١/ ٢٨٧) برقم (٨٠٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) راجع: «سبل السلام شرح بلوغ المرام» (١/ ١٩١).

(٥) أخرجه أبو داود: (١/ ٤٦٧) برقم (١٤٨١)، والترمذي: (٥/ ٥١٧) برقم (٣٤٧٧) كلاهما من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

تقديم الثناء على الله والصلاة على النبي ﷺ قبل كل دعاء، ونقول: إن اشتراط المأثور -فضلًا عن الحرج الذي ذكرناه- غُلٌّ لألسن العباد وأفكارها أن تتفنن في الثناء على الله، وفيه إيقاف للقلوب والعقول والأفواه عن أداءِ واجب ربها عليها كما يحلو لها وكما تحس به وما تُوفق بفضل الله إليه؛ فهو تعطيل فيه تحجير وتضليل، وفيه رد لحديث فَضالة المذكور.

وقد أخرج أبو داود بسند جيد عن بعض الصحابة أن النبي ﷺ قال لرجل: «**كيفَ تَقُولُ في الصَّلاةِ؟**». قال الرجل: أتشهَّد ثم أقول: اللهم إني أسألُك الجنة وأعوذ بك من النار. ثم قال الرجل للرسول ﷺ: أما إني لا أُحسِن دَنْدَنَتَك -أي نص قولك في الدعاء- ولا دندنة معاذ. فقال النبي ﷺ: «**حَوْلَ ذَلِكَ نُدَنْدِنُ أَنَا وَمُعَاذٌ**»(١). قال الصَّنْعَانِي: ففيه أن يدعو الإنسانُ بأي لفظٍ شاءَ من مأثورٍ وغيرِهِ. قلنا: ولو كان غير الوارد منكرًا لنهاه ﷺ عن قوله وألزمه المأثور بالذات(٢).

فتعرف ممَّا قدمناه أنه لا حجة بالمَرَّةِ للقائلين بعدم جواز تلاوة الأحزاب والأوراد والأدعية والتوجيهات المتلقّاة عن الأشياخ، والمؤلَّفة منظومة أو منثورة؛ لعدم ورودها في الحديث بلفظها كما يزعمون، بل تعرف مما أجملناه لك أنَّهَا وإن لم تكن واجبة فهي مندوب إليها لدخولها في عموم الأمر بالدعاء.

على أن النبي ﷺ لم يَتْرُكْ بجوامع الكلم معنًى إلا ضمه إليه، فكل دعاء خيري هو مردود إلى دعائه ﷺ، إن لم يكن بالنص فبالمعنى، وما ورد بالمعنى أخذ حكم الوارد باللفظ، وإن لم يأخذ فضله، وفي الصحاح قال ﷺ: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ٢٧٠) برقم (٧٩٢).

(٢) «سبل السلام شرح بلوغ المرام» (١/ ١٩٥).

(٣) أخرجه البخاري: (٩/ ٣٦) برقم (٧٠١٣)، ومسلم (٢/ ٦٤) برقم (١١٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد روى الترمذي كذلك عنه ﷺ: «**ما من مُسْلِمٍ يدعو اللهَ تعالى إلا استجابَ له**» ولم يشترط واردًا ولا غيره، ولا تصريحًا ولا تلويحًا، لا فيما ذكرنا ولا فيما لم نذكر. والميزان الأصولي: أنه إذا كان المأثور مأمورًا به، فالدعاء غير المأثور بشروطه وحدوده غير منهي عنه، فهو عفو مباح، وعليه جاءت الأدعِيَةُ عن الصحابة والتابعين والعلماء والأولياء والصالحين، وكان للدعاء بها أثر بَيِّنٌ في المَدَدِ من الله وفي الاستجابة، مما يرثه الأكابر كابرًا عن كابر. وأفضلية المأثور لا تحرم الدعاء بغيره، ولا تمنع الثواب فيما عداه، وصدق المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وبعد الشرح الوافي المستفيض للأوراد والأحزاب والأذكار المندوبة وشرعية التعبد بها، يتطرق الشيخ ﵁ إلى المباح والمقبول شرعًا ودليله. ومن أمثال ذلك ما يُعرف في الكثير من الطرق الصوفية باستحضار النية وجمع الذهن وتصوُّر المتعبِّد أنه بين يدي شيخه ومربيه، والاعتراف للشيخ بالذنوب والمعايب. وكل هذه الأمور مباحة، وكثيرًا ما تكون مندوبة كما سنوضح.

ومن الجانب الآخر، يبين الشيخ المُحرَّم والمحظور الذي أدخله المُضلُّون والجهلة على بعض الأوراد والأحزاب، مثل استخدام الطبل والزمر(١) والرقص والحركات غير اللائقة في كثير من حلقات الذكر، والأدهى من ذلك تحريف أسماء الله تعالى، وإصدار الأصوات الساذجة بنحو «ها» «آه، آه» أو «هه، هه»، وإليكم تفصيل حكم الإمام الرائد في هذه الأمور؛ يقول ﵁:

أما فيما يتعلق باشتراط تصور المريد شيخه عند الذكر، فهو أمر ليس محرمًا، ولكنه ليس ضرورة لا يصح الذكر إلا بها، كما يظن البعض.

---

(١) والجدير بالذكر أن كلام الشيخ في هذا المتن لا تندرج تحته مسألة الأناشيد والمدائح المصحوبة ببعض الآلات الموسيقية. فهذه لها أحكام أخرى مفصلة في مواضع أخرى.

فهم يقولون: إنَّ المراد الأساسي من هذا هو استجماعُ الهمة، وطرد الشواغل، وتفريغ القلب لحسن التوجُّهِ، والاستعداد للاستمداد، فهو وسيلة -مؤقتة- للتجهيز لدخول حضرة الحق، فإذا ما انحصرت الطاقة في تصور الشيخ والنبي ﷺ وهما يدفعان المريد إلى الله ويهيئانه للعمل، ثم إذا أخذ المريد في الذكر، فلا يبقى في ذهنه إلا الله الباقي. هذا هو أصل الموضوع عندهم.

وتخيُّلُ صورة الشيخ ليست شرطًا، ولكنها من الوسائل الاجتهادية والتجريبية النافلة؛ ولهذا لم يقل بها كثير من الشيوخ؛ اكتفاءً بصدق المحبة، والربط بين المريد وشيخه ونبيه ﷺ، حتى كأنه بينهما، وفي هذا الموضوع بحوث نفسية عميقة، وهذه الحالة -عندهم- إنما تكون قبيل البدء في التعبد، ولمدة لحظات فقط، ثم يكون الذكر الذي يستغرق كل أحاسيس الذاكر.

إنَّ تَـخَيُّل النبي ﷺ والشيخ عند الذكر أشبه شيء بما يخطر على بال المصلي من أخيِلَةِ الجنة والنار، والإنس والجن، وأهوال الحشر، وعظمة الله. وهذه صورة لا تبطل الصلاة، ولا تتهم بالوثنية، فالموقف هنا وهنا واحد، وبالتالي يكون الحكم واحدًا، فقد انتفت دعوى الوثنية التي يُرمى بها الصوفية -أو بعضهم- في هذا المجال تهورًا ومجازفة.

*** قضية اعتراف المريد لشيخه بذنوبه وعيوبه**

أي حرام في هذا؟! فكأنه يستغفر الله ويتوب إليه سبحانه مع شيخه؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، فهو على سبيل التعاون على البر والتقوى، وإدراك المريد أن يد الله مع الجماعة، وأن الشيطان كالذئب يأكل من الغنم القاصية عن ركب الجماعة.

ثم أليس كان يأتي الناس إلى رسول الله ﷺ فيقول أحدُهُم مثلًا: «هلكتُ يا رسول الله؛ فقد فعلت كذا وكذا»، كما حدث مثلًا في قصة ماعِز وقصة الغامدية

واعترافهما بارتكاب الخطيئة لرسول الله ﷺ؟ فالمريد قد يعترف لشيخه بخطئه ليدله على عمل لو عَمِلَ به تقبَّله الله وعفا عنه؛ فإن من الفطرة ضرورة الإفضاء والاستنصاح. و«**الدِّين نصيحة**»[1]، أليس الله يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧]؟.

ثم إن الآيات القرآنية كلها تدل على أن المؤمنين -بل وغير المؤمنين- كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ يستنبئونه ويستفتونه، في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٦٤]. وقوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

فكلها حث على المجيء إلى أهل الصلاح وطلب النصح منهم أو الفتوى أو التوجيه، ولا يكون ذلك إلا مع بيانِ طلب الاستيضاح أو الاستفتاء، فكان هذا جميعه من أسباب الإفضاء إلى الشيخ بالذنوب أو العيوب؛ طلبًا للتعرف على ما يرضي الله، وما يكون سببًا للإنابة والمتاب.

ثم أليس يستشير الرجل من هو أعلم منه؛ ليستفيد من تجرِبَتِهِ أو خبرته أو سوابقه في معاناة الأمور؟ إنَّك عندما تذهب إلى الطبيب تذكر له كل ما تشكوه وما يؤلمك، وهذا الشيخ هو طبيبك الروحي في الله، وعقدةُ الذنب تؤرق صاحبها، فهو يسأل طبيبه الروحي عما عسى أن يطهره ويغسله من خطاياه، وينقذه من آلامه ووخز الضمير، وهو (النفس اللوامة) في لغة القرآن والتصوف.

أليس يفضي الأخُ إلى الأخِ بما يُؤَرِّقُهُ ويقلقه طالبًا نصحَه وتوجيهه؟ وهل اتخاذ الشيخ إلا من أجل تنقية النفس من أوضارها وترقيتها في معارج السالكين؟ فلست أرى ممنوعًا -شرعًا أو وضعًا- أن يطلب المريد نصيحة شيخه فيما واقَعَه من

(١) أخرجه الترمذي: (٤/ ٣٢٤) برقم (١٩٢٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مثالبَ وخطايا؛ ليدله على وسيلة النجاة، وفي القرآن: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وأظن ما قدمته كافيًا الآن في هذا المجال، ولا اعتراض بأن هذا يشبه نوعًا من الكهنوت في الاعترافِ «لرجال الدين»، وهي كلمة «كَنَسِيَّة»، وأما كلمة الإسلام فهي «علماء الشريعة» وفرق كبير بين هذا وذاك.

فالفارق هائل ضخم؛ فهناك يعتقدون أن مجرد الاعتراف كافٍ في محو الخطيئة، وأن الاعتراف الذي يقبله الكاهن يقبله الله حتمًا.

أما هُنَا فإنَّمَا يَدُلُّ الشيخ مريدَه على ما بِهِ يرضى اللهُ عنه، من توبة واستغفار أو صدقة أو عبادة، ثم يدع ما وراء ذلك لله وحده، إن شاء قبل وإن شاء لم يقبل، وهذا فارق ما بين الشرك والتوحيد.

ثم ينتقل الشيخ من المباح الذي أزال عنه الشبهات إلى المُحرَّم الذي يجب منعه من ممارسات عوام المتصوفة، فيقولُ:

أما فيما يتعلَّقُ باستخدامِ الرقص والطبل والزمر فيما يسمى حلقات الذكر، فليس من دين الله في شيء. وذلك (قولًا واحدًا) سواء عند أئمة الصوفية أو غير الصوفية، وإنما هو من الدخيل والدسيس الذي تسلل إلى التصوف فأفسده وأساء إليه[1].

ينقل الشيخ ابْنُ الحَاجِّ في «مدخل الشرع الشريف»: قلنا: وقد عاب الله نحو

---

(١) راجع المزيد حول رفض الرقص والحركات غير اللائقة في حلقات الذكر عند الصوفية: «رسالة في دوران الصوفية ورقصهم» للقراماني وسنبل وابن كمال باشا وابن حمزة وابن أيوب والأنقروي وأمير الأشتيبي، «التحقيق فيما ذهب إليه أهل الطريق من جواز الرقص والتصفيق» ليوسف بن إبراهيم بن محمد، «تشنيف الأسماع بحكم الحركة في الذكر والسماع» لعبد السلام بن زياد، «برهان الألحان في حكم الرقص والدوران» للنكساري، «رسالة في حكم اجتماع الذاكرين وحركاتهم» لليافعي، «الرهص والوقص لمستحل الرقص» للحَلَبِي، «منع الثوران عن الدوران» للسُّيُوطِيِّ.

ذلك على المشركين من قبل، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. يعني تصفيرًا وتصفيقًا، وهما من لوازم الطبل والزمر والرقص.

إن الرقص والطبل والزمر لا شك هو لهو ولعب، فإذا اتخذناه دينًا كان افتراء على الله، وهو تعالى يقول: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠]، و﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١]، كما في آيَتَيْ (الأنعام) و(الأعراف)، والله لا يأمر بترك شيء هو قُربة إليه، فإذا كرر الأمر كان معنى هذا أنه شيء يغضب له غضبًا مضاعفًا؛ لما فيه من تَعَدٍّ على حدوده تعالى.

وعلى حدوده يقول شاعر الصوفية:

يَـا عُصْبَـةٌ مَـا ضَرَّ أُمَّـةَ أَحْمَـدٍ * وَسَعَـى عَلَى إِفْسَـادِهَـا إِلَّا هِي
طَـارٌ، وَمِـزْمَـارٌ، وَنَغْمَـةُ شَـادِنٍ * أَتَكُـونُ قَطُّ عِبَـادَةٌ بِمَلَاهِي؟!

وإنما يُعبد الله بما شرع، وفيما شرع تعالى سعة وكفاية ومتعة روحية بغير حدود، والعبادة جِدٌّ كلها، وهو تعالى يقول: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٧، ١٨]، ومن شاء لهوًا مباحًا فليبتعد به عن العبادة وعن التصوف.

ولوجهِ الله تعالى وللحقِّ في ذاته ورغم ما أصابنا -ولا يزال- في سبيل التجديد والإصلاح الصوفي، نقرر أنَّ مشيخة الطرق الصوفية المعاصرة أصدرت عدة منشورات تنهى فيها عن هذا العبث، ولكن هناك أهواء وخلفيات ومواريث ومصالح ونوع من الجَهَلُوت (الجهل المتأصل في النفس المستحكم، والاقتدار، بل الإصرار على المخالفة)، وكل ذلك يقف دون التنفيذ الواقعي لهذه المنشورات، حتى كأنها لم تكن، ولكن لا بد لهذا الليل من آخر.

وحيث إن البعض قد يخلط بين الرقص والطبل والزمر وبين الغناء والإنشاد بصفة عامة، فقد قام الشيخ بإزالة هذا اللبس وتبيان هذا الأمر بصورة واضحة

جلية، وسوف نتطرق إلى حكم الشيخ في الإنشاد الديني على وجه الخصوص في نهاية هذا الفصل؛ إذ إنه يمثل أحد ملامح التجديد الهامَّةِ في المنهج التعبدي الصوفي السلفي للشيخ رضي الله عنه.

*** تحريف أسماء الله الحسنى في حلقات الذكر**

والأخطر من الرقص والطبل والزمر تحريف أسماء الله الحسنى في حلقات الذكر، وقد اهتم الإمام الرائد بظاهرة تحريف الأسماء الحسنى جهلًا من بعض العوام في بعض حلقات الذكر؛ لأن الله تعالى «**لا يَقْبَلُ الدُّعَاءَ مِنْ قَلْبٍ غافلٍ لَاهٍ**»[1] كما جاء في الحديث الشريف، ويقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

فكان الشيخ رضي الله عنه يؤكد على تلاميذه من العلماء وجوب تعليم العوام المرتادين لحلقات الذكرِ الصوفي النطق الصحيح وفهم المعاني الصحيحة لما يقرءونه ويذكرون به، فيقول رضي الله عنه مُحذِّرًا:

«فقد أجمع أئمة التصوف على أنه حرام موبِق، وحسْبك فيه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهنا أمر بالذكر مع نهي شديد عن تحريف أسماء الله الحسنى، والتحذير من الصلة بمن يحرفونها، أي يلحدون فيها، وإعلان أنهم سيُجْزَوْنَ بسوءِ عملهم، فيكون هذا الإعلان بمثابة إنذار ونهي شديد مكرر، حتى نَدَع مَن يحرِّفون أسماءه تعالى، فكيف بحكم المحرفين أنفسهم؟!

وهذا الإلحاد يشمل نحو قولهم «ها، ها» أو «هي، هي» أو «آه، آه» وغير ذلك من الأصوات الساذجة الحمقاء التي لا تكون أبدًا من كرام الناس ولا أفاضلهم،

(١) أخرجه الترمذي: (٥/ ٥١٧) برقم (٣٤٧٩)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٤٩٢)، برقم (١٨١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا أسلوبًا ولا أداءً، وفي هذا يقول الشيخ الأخضري في أرجوزته الصوفية:

أَبْقَوْا مِنَ اسْمِ اللهِ حَرْفَ الْهَاءِ * فَأَلْحَدُوا فِي أَعْظَمِ الْأَسْمَاءِ
لَقَدْ أَتَوْا وَاللهِ شَيْئًا إِدًّا * تَخِرُّ مِنْهُ الشَّامِخَاتُ هَدًّا

ويلحق بهذا نطقهم باسم «الله» على غير وضعه الشريف، من نحو ضم ألفه الأولى أو كسرها، مع قصر ألفه الوسطى، ومع تخفيف لامِه أو تغليظها، مما يُخرجه من منطوقه القرآني إلى منطوق سوقي محرم، وخصوصًا مع ما يسمونه «الدوكة» أي تغليظ الصوت»[1].

ومن سعة علم الشيخ ودقته في ضبط المسألة المعروضة شرعًا، يذكر الاستثناءات بعد ذكر القاعدة العامة، فيقول موضحًا:

«لكن المأخوذ عن نفسه لا يؤاخَذُ؛ لأنه مِمَّن رُفع عنه القلم، ولهذا وجبت التفرقة الشرعية بين هذا وذاك». ثم يستطرد قائلًا:

«**أما قولهم «هو، هو»** فهذا اللفظ (ضمير الغائب) لغة، وقد ورد في القرآن الكريم كثيرًا، من نحو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]؛ فهو الغائب عن النظر المشهود بالبصيرة، وقد أفرد الإمام الفخر الرازي في تفسير الفاتحة بحثًا ضافيًّا أثبت فيه أن لفظ «هو» ربما كان اسم الله الأعظم، بنحو عشرين دليلًا، ونحن في ذلك معه.

فالمسألة في لفظ «هو» -على أسوأ الأحوال- خلافية، وما دام في الأمر وجهان ودليلان فإنه يسعنا ما يسع غيرنا، وليس من العدل تجريمُ من اختار أحد الوجهين لصحة دليله عنده، والفروع كلها محل خلاف.

والقاعدة: «متى دخل الاحتمال بطل الاستدلال».

---

(١) وغنيٌّ عن البيان أن المقصود بكل هذا الوعيد هو المتعمِّد سيئ النية، وليس العوامَّ الذين لا يحسنون النطق أو الفهم لما يقولون.

أما لفظ «آه»: فلم يثبت علميًّا أنه ذكر به إمام الشاذلية (أبو الحسن) رضي الله عنه، ولا كبار تلاميذه من أمثال: أبي العَبَّاس المُرْسِي وابن عَطَاءِ الله والشيخ الحنفي، ولم يرِد له ذكر في أهم مراجع التاريخ الشاذلي، كـ «درة الأسرار» و«المفاخر العلية»، و«اللطائف»، ولكنه منسوب إلى بعض كبار أئمة الشاذلية المتأخرين، ولهم على مشروعية الذكر به أدلة شتَّى، لعل من أقواها وأحكمها ما كتبه المرحوم الشيخ الظَّوَاهري شيخ الأزهر السابق، ثم ما كتبه المرحوم الشيخ عِمْران الشاذلي في عصرنا الحديث.

ثم إنَّ الذاكرين بهذا الاسم يقررون أن له أثرًا عظيمًا بالممارسة والتجربة، ولا بد من مراجعة أدلتهم قبل الحكم لهم أو عليهم.

فهو أيضًا نمط من الخلافات الفرعية، ومن الشاذلية من لا يذكرون به، (كالحصافية، والحامدية، والمحمدية)، ومن أشد الناس تمسكًا به فروع (الفاسية الشاذلية).

وكان والدي رضي الله عنه لا يستهجنه ولا يستحسنه، ويقول: «أنا لا آمر بهذا الاسم، ولا أنهى عنه»، وكان يقول: «إن عذري معي في التوقف في هذا الاسم بما له وما عليه، وما لا خلاف عليه خير مما فيه الخلاف». قلنا: ونحن على الأثر، لا نعيب على من يذكر به بدليله، ولا نلوم من لا يذكر به لدليله».

*** الإنشاد الصوفي وحكمه الشرعي وضوابطه الشرعية**

وأُنهي هذه المسألة بسَوْق حكم الإمام الرائد في الإنشاد الصوفي وحكمه الشرعي وضوابطه الشرعية وفنونه؛ إذ إن من سمات التجديد الرائعة عنده رضي الله عنه جمعُه للأدلة الشافية الوافية، وبيان تكاثرها البليغ وتدافعها السَّلِسِ الرشيد لإظهار الحق في هذا الأمر، يرى الشيخ أن الإنشاد الصوفي سُنَّةٌ نبوية ثابتة في أعلى درجات الحديث الصحيح، وأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه -وهو يشارك في بناء مسجده الشريف- كانوا ينشدون:

وَاللهِ لَـوْلَا اللهُ مَـا اهْتَـدَيْنَـا * وَلَا تَـصَـدَّقْنَـا وَلَا صَلَّيْنَـا
فَـأَنْـزِلَنْ سَـكِينَـةً عَلَيْنَـا * وَثَبِّتِ الْأَقْـدَامَ إِنْ لَاقَيْنَـا[1]

إلى آخر ما قالوا بأصوات منغمة طبعًا على لحون العرب.

كما ورد أنه ﷺ كان يردد نحو هذه المقاطع منشدًا مع صحابته رضوان الله عليهم، سواء في بناء المسجد أو حفر الخندق أو غيره، وكان لرسول الله ﷺ حادٍ يحدو له، وينشد بلحون العرب وأصواتهم الجميلة، وكان رسول الله ﷺ يستمع إليه ويستحسن منه ذلك، وهو عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وكان لإنشاده الشجي تأثير بليغ في رفع الهمم، حتى إنه لما أخذ يغني بمدح الرسول ﷺ شعرًا في مُنْصَرَفِ المسلمين من خيبر، تأثَّر الركب وأسرعت النُّوق، واهتزت هوادج النساء، فقال النبي ﷺ: «**رُوَيْدَكَ، رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ**»[2]، وفي هذا التعبير معنى التقدير والرضا وطلب الزيادة.

كما تواتر أنه ﷺ استمع إلى المرأة التي نذرت أن تضرب له الدف وتغني[3].

وقد ثبت أنه ﷺ كان يستمع لبعض «الأراجيز» في بعض المناسبات، والأراجيز شعر يُنشَد منغمًا بلحن عربي موروث، فهو ضرب جادٌّ من الغناء العفيف. فضلًا عمَّا كان يستمعه من الشعر (بلحون العرب) وأصواتها بمسجده.

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٤/ ٢٦) برقم (٢٨٣٧)، ومسلم: (٣/ ١٤٢٧) برقم (١٨٠٢)، من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٨/ ٣٥) برقم (٦١٤٩)، ومسلم (٤/ ١٨١١) برقم (٢٣٢٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي: (٥/ ٦٢٠) برقم (٣٦٩٠)، من حديث بريدة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله، إني كنت نذرت إن ردك الله صالحًا أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى. فقال لها رسول الله ﷺ: «**إن كنتِ نذرت فاضربي، وإلا فلا**». فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخل عمر فألقت الدف تحت استها ثم قعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الشيطانَ لَيَخافُ مِنك يا عُمَرُ، إني كنتُ جالسًا وهي تَضرِبُ، فدخل أبو بكرٍ وهي تَضرِبُ، ثم دخل عَليٌّ وهي تَضْرِبُ، ثم دخل عثمانُ وهي تَضْرِبُ، فلما دَخَلْتَ أنتَ يا عمرُ ألقتِ الدُّفَّ**».

ويقول الشيخ في هذا الصدد[1]: «أما المدح النبوي بالتلحين، فإن كان اللحن ما جاء في الحديث (من لحون العرب) وهي اللحون المشجية من غير تَكَسُّرٍ ولا تَخَنُّثٍ ولا إخراج للكلام عن طبيعته، بل هي مما يوضح المعنى، ويدخل على القلب بالرقة والنور؛ فهذا مستحبٌّ مندوب إليه، ولهذا أمرنا النبي ﷺ أن نقرأ القرآن بهذه اللحون[2]، وكان ﷺ يستمع إليها من أصحابه ذوي الصوت الجميل وهم يقرءون القرآن له بها، وعليه أُنزل.

ولقد استمع ﷺ لصوت أبي موسى الأشعري فقال: «**لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[3].

ولهذا أمر ﷺ صاحب رؤيا الأذان أن يعلمه بِلَالًا رضي الله عنه؛ لأنه أندى صوتًا[4]، وكذلك كان بقية مؤذني رسول الله ﷺ حسني الصوت كأبي مَحْذُورَةَ وابْن أُمِّ مَكْتُوم، وكذلك كان شأن النبي ﷺ مع أَنَس بن مالك خادم الرسول ﷺ ومنشده الثاني رضي الله عنه.

وقد ثبت أن الرسول ﷺ أقام منبرًا لحَسَّان بن ثابت في المسجد ينشد الشعر عليه منافحًا عن سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم وآله، وعن دين الحق الذي جاء به[5]، كما ثبت أنه ﷺ سمع مدحه شعرًا أيضًا من ابن زُهَيْرٍ[6] وغيره من الشعراء، وكان يأذن لهم بالقول ويدعو لهم.

---

(١) «أسئلة وأجوبة مجملة في التصوف»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة الثانية عشرة، غرة رجب ١٣٨٠هـ، ديسمبر ١٩٦٠م.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ١٨٣) برقم «٧٢٢٣»، من حديث حُذَيْفة بن اليَمان رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٦/ ١٩٥) برقم (٥٠٤٨)، ومسلم: (١/ ٥٤٦) برقم (٧٩٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود: (١/ ١٨٩) برقم (٤٩٩)، والترمذي: (١/ ٣٥٨) برقم (١٨٩)، من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أبو داود: (٢/ ٧٢١) برقم (٥٠١٥)، والترمذي: (٥/ ١٣٨) برقم (٢٨٤٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٧٩) برقم (٦٤٧٧).

وبهذا يكون رسول الله ﷺ قد سمع المنشد المنفرد يتغنى بمدحه، كما سمع جماعة المنشدين يتغنون بمدحه يوم دخوله إلى المدينة في حادث الهجرة، بل إن الرسول ﷺ أذن في الاستماع إلى أغاني العزة والمجد كأغاني يوم بُعَاثٍ، وعنها أُخذت الأناشيد الوطنية والقومية، وأذن للنساء بالتغني بالطَّيِّب من القول في الأفراح بعضهن لبعض؛ حتى يعلم الناس أن في الإسلام فسحة، وأنه الملة البيضاء السمحة.

وبهذا يصبح سماع الإنشاد الديني والمدائح النبوية بأسلوب لا يتنافى مع آداب الدين الحنيف أمرًا محمودًا مندوبًا إليه؛ تأسيسًا على كل ما قدمناه عن السُّنَّةِ المحمدية، سواء كان المادح فردًا أو جماعة، ما دام الأمر في حدود الضوابط الإسلامية، أما هذا التخنث والتكسر وترديد الكلمة الواحدة بلا معنى عشرات المرات بعشرات الألحان كما يفعله (الموالدية) أو (الصييتة) في هذه الأيام؛ فهذا لا يدخل في حكم الجواز؛ بل قد يصل إلى رتبة التحريم الغليظ في كثير من الأحيان.

وعندما يكون مدح الرسول ﷺ في المسجد فينبغي أن يكون في غير أوقات الصلاة؛ حتى لا يشوش على المتعبدين، إلا في الزوايا[1] التي أسست أصلًا لممارسة هذه العبادات».

ويسترسل الشيخ قائلًا: «وتَأَثُّر النفس الشريفة باللحن والصوت الجميل طبيعة في الإنسان الكامل، لا ينكرها رجل سَوِيّ قَطُّ، ألا ترى أنه سوف يكون من متع الجنة أن يستمع أهلوها كلام الرحمن عز وجل؟ ثم ألا ترى أنَّ الله يبغض الصوت

---

(١) راجع المزيد حول وظيفة الزوايا عند الصوفية:
- «المزايا فيما حدث من البدع في أم الزوايا» لابن عبد السلام الناصري.
- «سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية» للزبادي.
- «البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية» للحوات.
- «تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا» للشَّعْراني.
- «الأنفاس العلية في بعض الزوايا الفاسية» للكتاني.
- «خبايا الزوايا» للعجيمي.

الكريه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]. وقد أُثِرَ عن بعضِ كبار شيوخ الأزهر قوله: «من لم تُطْرِبْه الأوتار، على شواطئ الأنهار، في ظِلال الأشجار، وتغريد الأطيار، وجوار الأزهار، والنسيم المعطار، ذاكرًا فردوس العزيز الغفار؛ فهو محروم» يعني أحد مشايخه رضي الله عنه.

ومن مجموع هذا وما هو نحوه -وهو كثير- يمكن الحكم على الإنشاد الملتزم بالمشروعية على أقل صور الأحكام، إن لم يكن من السنة أو الندب أو الاستحسان؛ فإن من الإنشاد ما يرتقي بالمرء إلى أسمى معارج الأرواح، إذا كان رقيق القلب شفيف الروح».

انظر -رعاك الله- كم حوت هذه النصوص الموجزة التي اخترناها لك من أقوال الشيخ رضي الله عنه في القضايا المختلفة المطروحة في هذه المسألة من آثار نبوية وقواعد أصولية وأحكام فقهية فرعية، ثم أعد قراءتها مرة تلو المرة، فمرة تقرؤها بقصد التعرف على الحكم الشرعي في كلٍّ منها، ومرات ومرات لتنهل من معين العلم الكامن فيها، فتتعلم وتتزود وتتدرب على البحث عن الحقيقة بقواعد سلفية خالصة، صوفية شرعية متينة.

وقد أوجد هذا الأسلوب ربطًا حميدًا في نفوس أهل الطريقة وعقولهم بين العلم الشرعي والعبادة، بحيث يدخل ذلك في باب إصلاح الطرق الصوفية وتنقيتها من ممارسات بعض أتباعها من البدع، ومما لا أصل له في الشرع الحنيف.

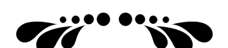
أضف إلى ذلك أن ربط مجالس العلم بمجالس الذكر والإنشاد والاحتفالات الدينية قد أكسب المريد والسالك راحة وثقة في شرعية «الطريقة» التي تَعَلَّمَ أن ينقِّي بها قلبه من أمراضه وعقله من جهله بالأحكام الشرعية؛ وذلك اتباعًا لتعاليم وتوجيهات مرشده وشيخه.

وقد جمع الشيخ رضي الله عنه بهذا الأسلوب بين إصلاح التصوف وديمومة عملية الإصلاح هذه؛ حيث إن العلم الشرعي يجري التذكير به دومًا مقرونًا بحلقات الذكر

والمديح، ومن ناحية أخرى فإن ذلك الأسلوب الرشيد أوحى لمريدي الطريقة بضرورة الالتزام بالعلم الشرعي والعبادة على هَدْي هذا العلم، سواء عند انفراد المريد بذكره وعبادته بمفرده أو عند ذكره وعبادته في جماعة في المسجد أو في بيته وبين أسرته.

ومن ناحية ثالثة، حصَّن هذا الأسلوب الفريد من قبل الشيخ ﷺ أبناءَ الطريقة الصوفية بتزويدهم بالدليل الشرعي على ما يقومون به من طقوس دينية في طريقتهم؛ إذ يقيهم هذا الدليل الشرعي هجوم أعداء التصوف عليهم، وبذلك يقيهم تشويش المتمسلفين والمتنطعين المتجنين على الطريقة الصوفية في التعبد لله عز وجل.

ويمكن استقراء هذا الأسلوب المُسْتَحْدَث بوضوح من مطالعة كتب الشيخ رحمه الله ووصاياه ومقالاته التي يوجه فيها أبناء طريقته لكيفية ممارسة الجانبين الروحي والعلمي معًا في عبادتهم لله جلَّ وعلا[1].



(١) راجع: «البداية»، «أصول الوصول»، «الزيارة النبوية ومشروعية شد الرحال، مع التحديد العلمي لمعاني الأحاديث النبوية».



المسألة السادسة

الجمع بين الطريقة المحمدية التعبدية و«العشيرة المحمدية» كمؤسسة اجتماعية

أولاً: الطريقة المحمدية التعبدية لإصلاح وتزكية النفوس

ومن ملامح التجديد هنا: ربط الشيخ رحمه الله تعالى بين الطريقة المحمدية التعبدية إصلاحًا وتزكيةً للنفوس، وبين فعاليات «العشيرة» كمؤسسة اجتماعية تعمل جاهدةً لإصلاح المجتمع تعاونًا على البر والتقوى.

فالعشيرة تقوم بأعمال شتَّى من التعليم وكفالة الأيتام والإشراف على الحضانات والمصحات، وهذا تجديد آخر لمعنَى التصوف ولسلوك أهل الطريقة، وقد نجح الشيخ رضي الله عنه نجاحًا باهرًا في الجمع بين الأمرين، فلم تَعُدِ الطريقة عند الشيخ محمد زكي إبراهيم رضي الله عنه خلواتٍ وأورادًا وحلقاتِ ذِكر فحسب؛ بل أعادها إلى سيرتها الأولى التي كان عليها أئمة هذا الدين الحنيف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فمزج رحمه الله بين الاجتماع على الذكر وتلقي العلم الشرعي كأساس للتربية والتأديب الروحي والقلبي، وبين التعاون على البر كسلوك يظهر في العمل الاجتماعي الإنساني.

يقول الشيخ رضي الله عنه بهذا الشأن: «إن الغرض الأساسي الذي تسعى العشيرة إلى تحقيقه هو جمع الخَلق على الحق وصلحهم مع ربهم، وتوجيههم إلى رسالتهم الربانية الرفيعة، والتسامي بمستواهم العام إلى المستوى الروحي الراقي الذي يعصمهم من أوضار المادية والتدني والانحلال والإلحاد، ويحميهم من آثار الوجودية واللادينية والشيوعية، وما هو من كل هذا بسبيل، وفي ذات الوقت يحفظ

عليهم مواريث الإسلام والعروبة والقيم العُليا في أصولها وفروعها، ويهيئ الأمة لأداء رسالتها الكبرى في الخلافة على أرض الله، والترفع عن التفرقة والتعصب، والاعتصام بالتقدم الحضاري القائم على أساس المحبة والسماحة والسلام وخدمة الإنسانية، والعلاقة بالله، ومن سبيل ذلك التصوف الإسلامي على أرقى مستوياته وأوسع معانيه».

ثانيًا: العشيرة المحمدية كمؤسسة اجتماعية دينية تعليمية صوفية خيرية

وهكذا أضحَتِ الطَّرِيقَةُ المحمَّدِيَّةُ متداخلة عضويًا وعمليًا مع العشيرة المحمدية كمؤسسة اجتماعية دينية تعليمية صوفية خيرية؛ ففي ذلك يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجانب الصوفي الذي عُرِفَت به العشيرة هو أهم وجه من نشاطها الديني الذي تلقَّاه -على صورته المحمدية عن العشيرة- كثير ممن يشتغلون الآن بالدعوة الصوفية، وقد أوقفت العشيرة عليه أكثر جهودها وطاقاتها، وجعلته أساس دعوتها الجديدة الجامعة بين التصوف النظيف السليم وبين مقتضيات الحياة الفاضلة التي هي الوجه الأول من الإسلام، وبالتالي من التصوف، فيكون التصوف على المعنى الذي نفهمه وندعو إليه ونكافح دونه، هو الإسلام الشامل المتكامل في سماحته ويسره ومرونته وتساميه وجماله وخلوده»[1].

وهنا لا يفرق الشيخ بين العشيرة -كمؤسسة اجتماعية- والمنهج الصوفي الذي تتبناه الطريقة، فيقول «ودعوة العشيرة أو التصوف هي دعوة أهل الصفة على هذه الصورة الإيجابية الفعالة التي فهمناها، فوسيلتها: الحكمة والمسالمة، وأركانها: الخير والأخلاق والربانية، وحقيقتها: الثقة بالله والعلاقة به والتضحية فيه، وسبيلها: الإصلاح الروحي الشامل، ومنهجها: العلم والعمل، وثمرتها: الإيمان والفضيلة

(١) «ملخص من نشاط العشيرة في عام، في المحيط الديني والثقافي والاجتماعي والصوفي»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد السادس، السنة الأولى، غرة المحرم ١٣٧٩هـ - ٧ يوليو ١٩٥٩م.

والمجد، وسلاحها: المحبة والسلام والمعرفة، فهي دعوة تربية وإعداد وإنتاج، ثم عمل وسلوك ووصول»[(١)].

وعن الدور الصوفي الخالص للعشيرة المحمدية يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «والعشيرة تبدأ بإصلاحِ الفردِ، وذلك بإصلاح قَلْبِهِ، وصُلحه على ربه، وعلاج نفسياته وأخلاقه وروحانياته وجسمانياته؛ حتى يتخلَّى عن كل دَنِيٍّ، ويتحلَّى بكل سَنِيٍّ، وسبيل كل ذلك عبادة الله على علم، فالعبادة -أساسًا- أصل الفضيلة، والفضيلة أصل المجد؛ مجد الدنيا والآخرة»[(٢)].

وهنا جَعل الشيخُ العشيرةَ أو الصوفية مفهومًا واحدًا، أو إن شئت فقل: وجهين لعملة واحدة، من حيث إعداد الفرد الصوفي، أو ما أطلق عليه الشيخ «العشير المحمدي»، أو «الأخ» فيقول: «العشيرة أو الصوفية تتلقَّى قُصَّادَهَا خصوصًا أولئك الذين لا تُؤَهِّلُهُم حالاتُهُم للقُوَّةِ والخدمة في الصَّفِّ، تقطع بهم مرحلة التربية والإعداد، ثم توجههم في عملهم إلى الإنتاج، كلًّا فيما هو أهل له، يعملون لعَيشهم تعبُّدًا لله، ويكملون أنفسهم حبًّا في الله، ويجاهدون في سبيل الله ويبلغون رسالاته تعالى في خدمة الدين والوطن والإنسانية الرفيعة، التي لا تفرقها الأحزاب ولا الجمعيات ولا التكتلات المادية»[(٣)].

وفي النهاية يُجمِل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الشخصية الواحدة والهدف الواحد للعشيرة والطريقة في قوله: «إن هذه الرسالة الضخمة تستغرق أكثر المجهود الموصول المبذول من القائمين على الدعوة وفلسفتها، والتبشير بها، وعرضها، والإقناع بضرورتها، ولا ريب أن هذا أَشَقُّ وأعْصَى في الواقع من بناء المؤسسات والمساجد، وإنشاء المشاغل والمدارس، وهو أشق من الانقطاع للتأليف ونحوه، ومن احتراف

(١) «هذه هي دعوتنا وهذا هو تصوفنا بين الصف والصُّفَّة»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثالث، السنة الخامسة، غرة شوال ١٣٧٤هـ - ٢٣ مايو ١٩٥٥م.

(٢) المرجع السابق. (٣) المرجع السابق.

الدعوة والاعتصام بالقشور، في وقت يتقلص فيه الإيمان بالسماء يومًا بعد يوم»[1].

ثالثًا: الممارسة الفعلية لمبدأ الشورى في إدارة مؤسسات العشيرة المحمدية

من ملامح التجديد في هذا الصدد عند الشيخ محمد زكي إبراهيم ﵁ أنه فتح مجالًا واسعًا لتلاميذه لممارسة الشورى، ليس فقط في إدارة العشيرة المحمدية، بل وفي الطريقة المحمدية التعبُّديَّة أيضًا، فقد أتاح لأبنائه ومريديه أن يتعلموا ويمارسوا سويًّا طرائق الدعوة وآداب الذكر وخبرة العمل التطوعي، كلٌّ على قدر طاقاته وملكاته. من ذلك مثلًا قيام طلابه ومريديه بين يديه بتلاوة الأوراد وإدارة الحلقات العلمية ومجالس الذكر، والمعاونة والمشاركة في القيام بشعائر إلقاء دروس العلم والمواعظ والخطب ومباشرة جلسات الذكر وكتابة المقالات والخطابات لنصح أولي الأمر، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصورة عملية، وذلك في وجوده وتحت إشرافه وتوجيهه ومتابعته، وفي سبيل تفعيل هذا النهج كأساس للدعوة إلى النهضة الصوفية الجديدة أُنشئت أَمَانَةٌ للدعوة وأنشئ معهد إعداد الدعاة، كما أنشئ المركز العلمي الصوفي العالمي[2].

وهذا أمرٌ لم يكن مألوفًا، فقد عهدنا في كل الطرق الصوفية أن يتصدر جميع احتفالاتها وندواتها ومجالس علمها شيخ الطريقة، أما عند الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم ﵁ فإنه قد يحضر مع إخوانه ومريديه وأبنائه، ويترك منهم من يتكلم ومن يحاضر ومن يتولى إدارة الذكر أو يخطب خطبة الجمعة أو يعطي درس العلم.

ومنهم من يذهب مندوبًا عن الشيخ ﵁ في مناسبة ما عند إخوانه في بلد أو مكان أو حي، ويتجلى هذا الأسلوب على وجه الخصوص في مشاركة الأبناء

---

(١) «قانون العشيرة الإداري» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، الحلقة الثالثة، سلسلة رسائل الدعوة المحمدية، ١٩٦٠م.

(٢) «أسمار وخواطر في الله مع أبنائي وأحبائي»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني، السنة التاسعة عشرة، غرة رمضان ١٣٨٨هـ - ٢٢ نوفمبر ١٩٦٨م.

والمريدين للشيخ في إدارة العشيرة المحمدية، وشئون مجلة «المسلم»، ومؤسسات العشيرة التربوية والتعليمية والاجتماعية والتكافلية مثل الحضانات ورعاية الأيتام ومراكز تأهيل الفتيات، والوحدات العلاجية، والمركز العلمي الصوفي، وغيرها. وعندما يشرك فيها أشخاصًا مختلفي الثقافات والدرجات العلمية الدينية والدنيوية فكأنه يجمعهم على قلب واحد في مدرسة واحدة؛ وفي ذلك أسرار ومعانٍ عميقة في التخلق بالزهد في الرياسة، ولو توافرت مسوغاتها، وحمل الإخوان على التكاتف والتكامل، وإنماء الشعور بالمشاركة في المسئولية وإشراك الضعيف والمبتدئ ليقوى حاله، وإعطاء كل منهم فرصة لإظهار ملكاته وأوجه تميزه ليستفيد منها إخوانه، وليستفيد منها المجتمع المسلم تحت إشراف الشيخ رضي الله عنه وتنفيذًا لأوامره.

وقد أثمر كل ذلك في تلاميذه صفاءً في القلوب ينضح بالخير في الجوارح وعلى الألسنة، وميزهم بسمتٍ يعرفه ويُقِرُّ به العالمون المنصفون ممَّن زاروا العشيرة المحمدية وخالطوا رجالاتها وسيداتها الفُضليات.

رابعًا: الإعلام والبيان الدوري الدائم عن الدعوة الإسلامية الرُّوحِيَّة الإصلاحية وعن أنشطة العشيرة المحمدية من خلال مجلة «المسلم».

ومجلة المسلم هي مجلة الطريقة الصوفية الجديدة، وهي تبين بصفة دورية التصوفَ الحق وآدابه وعلومه وممارساته في أنشطة العشيرة المحمدية الاجتماعية المتعددة، وهي نتاج علمي مشترك لأبناء الطريقة والعشيرة وتلاميذ الشيخ تحت إشرافه رضي الله عنه.

وقد كان يكتفي مولانا الشيخ رحمه الله بكتابة الكلمة الأولى «كلمة الرائد» في افتتاحية المجلة، ويترك باقي صفحات المجلة لأبنائه بما يراه مناسبًا ونافعًا للطريقة، وقد أسس هذه المجلة ليس لأبناء طريقته فقط وإنما لكل أهل الطريق الصوفي، بل لأهل الإسلام أجمعين ممن لم يحظوا بالانتماء لمدارس التصوف.

وفي كلمات وجيزة جامعة بليغة، عبَّر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مرارًا عن المكانة الرفيعة لهذه المجلَّة الإسلامية الفريدة، مبينًا قيمتها العلمية العالية وأسباب صدورها وغاياتها، ورسالتها الخالدة للعالم الإسلامي قاطبةً، بل ورسالتها العامة للمخلصين وطلاب الكمال الباحثين عن الحقيقة في جميع أنحاء المعمورة، ومُعبرًا عن كل تلك المعاني، ومُظهرًا لنا طرفًا مما يؤلمه، يقول الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مجلة المسلم وحيدة فريدة في الشرق الإسلامي كله، تحمي حمى التصوف الطاهر، وتكافح التصوف الأعوج، وتدافع عن حرم أهل البيت الشريف، وترد اللطمات عن الأئمة والأولياء، وتحرس وحدة القبلة، وتعالج أخطاء الجمهور بالحكمة، وتُقرِّب بين مذاهبهم وجماعاتهم، وتربط بين الربانية والحياة العملية، وتُذكِّر المسلمين بسالف المجد، وتقدم لهم نوادر البراهين ومكنوز الحُجج، وتكشف لهم الأستار عن أسرار الدعوات المستأجَرة والتديُّن الزائف، وتدفعهم إلى النهضة والسيادة والبعث، وتجاهد أعداء الدين والوطن وعبيد المادة الإباحية»[1].

وفي تعريفه لهذه المجلة الفريدة يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مجلة المسلم هي مجلة العشيرة المحمدية، مجلة الفقراء إلى الله، الأغنياء عن الناس، مجلة طلاب الكمال والباحثين عن الحقيقة، مجلة الخير والأخلاق والربانية، مجلة النور والتسامي والحق والجمال، المجلة الصوفية المحمدية الوحيدة الفريدة في العالم الإسلامي، المجلة التي لا تُقلَّد ولا تُنافَسُ، بل تعيد الناس إلى الثقة بالله، وتربط الود بينهم وبين الغيب الأقدس، وتعرِض عليهم مبادئ التسامي عرضًا عصريًّا محببًا، مُبَرهنًا عليه من العقل والنقل والذوق[2] والقلب والعاطفة، وتُمهِّد بإصلاح القلب إلى إصلاح الفرد، وبإصلاح

(١) «إليكم أيها الأحباب جميعًا.. أموال تأسيس العيادة ذهبت في إصدار الجريدة.. كلمات لا يعوزها الوضوح ولا الصراحة ولا الإخلاص ولا الإيمان»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الرابع، السنة الأولى، غرة ذي القعدة ١٣٧٠هـ، أغسطس ١٩٥٠م.

(٢) راجع في معنى «الذوق» عند الصوفية: «بغية أهل الشوق في تعريف معنى الذوق»، لنصري بن أحمد الحصري، «نفحات الزهر في ذوق أهل العصر» لابن طولون، «رسالة في الذوق السليم» للسيوطي.

الفرد إلى إصلاح المجموع، وتبني بهذا الإصلاح صرح المحمدية الإيجابية الفعالة البعيدة المدى والتي تتعلق بها الآمال ويُناط بها كرائم الغايات»[١].

ثم عن رسالة مجلة المسلم يقول الشيخ رضي الله عنه: «(المسلم) مجلة دعوة أثيرة خطيرة، فهي تقوم مقام الأستاذ المربي الذي يرفع الناس إلى علمه ومستواه، ويكشف عن أبصارهم وبصائرهم الغشاوات والعَمايات، وترفعهم من طفولة الحياة إلى رجولتها وجلالها، وتهديهم إلى سواء الصراط بإذن الله، لله، وفي الله»[٢].

ويقول رحمه الله عن سبب صدور المجلة: «لقد صدرت مجلة المسلم لسد فراغٍ في الدعوة الإسلامية ظل كذلك الدهر كله أو جله، فهي المجلة التي أوجدَتْها الحاجةُ إليها، ولا يزال كذلك الأمر، فهي لا تُنافِس سِوَاهَا أو تُنازِع غيرها، بل هي تقف على ثَغْرٍ فريدٍ من ثغور الإسلام، وتدعو بدعوة رُوحية إصلاحية مستقلَّة، وتحافظ على التراث الصوفي الغالي، فتُبقي صِرْفه وتُنقّي زَيْفه، وتكافح دونَه وتدفع عنه غوائل المتحاملين وجهل الجاهلين، فهي تقاوم عدوَّيْنِ لدودين هما: أعداء التصوف ثم أدعياؤه الذين هم أَضَرُّ به من أعدائه، وهي بذلك تؤسِّس المدرسة الجديدة العالمية التي ترتقي بالتصوف وأهله وتهيئ له فاعلية أساسية لا تستغني عنها الحياة الإنسانية عامة، والإسلامية خاصة، فلا يكون الإصلاح الحق إلا بها، ولا يتأتَّى مجد بدونها»[٣].

ومن ثَمَّ فقد أتاحت هذه المجلة الفريدة لطلاب العلم والساعين لتزكية النفس والسالكين إلى الله تعالى (الذين يسمُّون أنفسهم في مصر بالمريدين وفي المغرب بالفقراء) معرفة الأدلة الشرعية على المظاهِرِ التعبُّدِيَّة الصوفية المعروفة، مثل

(١) «هذه رسالتنا في عهد ومنهج. موقفنا من العداء والأدعياء ومن الدعوة»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الأول، السنة الرابعة، ٤ أبريل ١٩٥٤م.

(٢) «بين حرارة الدعوة ومرارة الجهاد. اللهم هذا الجهد وعليك التكلان»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، غرة شعبان ١٣٧١هـ - ٢٥ مارس ١٩٥٢م.

(٣) المرجع السابق.

حلقات الذِّكر والاحتفالات وغيرها، كما بينت المجلَّة بوضوح الصحيح وغير الصحيح شرعًا منها، كما كانت بمثابة المنهل الذي ينهل منه «المريدون» في معرفة الأدلة الشرعية على ما يرشدهم إليه الشيخ من أفعال وأذكار وأوراد وعبادات قد يختلف عليها البعض ويشكك في مدى توافُقِهَا مع ما جاء في الكتاب والسنة.

وإمعانًا في حرص الإمام الرائد على نشر هذه البراهين الدامغة بلُغة الواثق بالله، المرتشف من علمه العظيم، كان رضي الله عنه كثيرًا ما ينشر أبحاثًا خاصة في كتيِّبات توزع مجانًا مع بعض الأعداد، يكون موضوع كل منها إحدى القضايا الخلافية التي تعترض سبيل الإخوان من أبناء الطريقة المحمدية[1].

وقد حقق رضي الله عنه بذلك غايتين هامتين: أولاهما: التأكُّدُ من وصول المعلومة السليمة إلى المريدين، وثانيهما: رغبة الشيخ رضي الله عنه كأب حنون في رفع الحرج عنهم في تحمل نفقة شراء الكتب القيِّمة التي تتناول تلك القضايا التي غالبًا ما تكون غالية الثمن.

فتلك الكتيبات القيِّمة الملحقة ببعض أعداد المجلة والتي قدمها الشيخ رضي الله عنه كهدية مجانية لأبنائه طلاب العلم المخلصين، تشمل دراسات أكاديمية متعمقة لشَتَّى الموضوعات الفقهية الخلافية من كل جوانبها؛ سعيًا منه رضي الله عنه لتبيان الحق لهم فيها.

ومن الجدير بالذكر أنَّ تلك المؤلفات القيِّمة المتعددة للشيخ رضي الله عنه لم تكن أبدًا محلًّا للربح المادي، بل كان رضي الله عنه -على عكس معظم إخوانِه من كبار المؤلفين- يجيز كل راغب في نشر العلم و كل راغب في المشاركة في طباعة أو إعادة نشر مؤلفاته الفريدة، كان رضي الله عنه يجيزهم، بل ويشجعهم على ذلك دونما قيد ولا شرط إلا نقلها بأمانة تَامَّةٍ، وعدم تكسُّب أي ربح مادي من ورائها، وهذا

(١) في إطار هذا النهج نُشرت العديد من الأبحاث القيمة، وعلى سبيل المثال «فقه الصلوات»، و«المدائح»، و«المحمديات»، وغيرها.

دليل قاطع على مدى حرصه ﵁ على نشر العلم والتصوف الصحيح الراشد، ليس فقط بين المريدين وإنما أيضًا بين عامَّة المسلمين؛ ابتغاء مرضاة الله وليس لأي هدف آخر.

ومن التجديد في هذا الشأن أيضًا حرص الشيخ ﵀ -في هذه الأعداد الخاصة المرفق بها الكتيِّبات العلمية سالفة الذكر- على تناول القضية الشرعية الخلافية المطروحة في كل كتيِّب بالعرض والتحليل في ذات العدد الذي يصدر معه الكتيِّب، وسواءً كانت القضية سلفية أو صوفية فقد كان ﵁ يحرص على تناولها بأقلام كبار العلماء والمفكرين من الصوفيين والسلفيين معًا، كلٌّ يُدلي بدلوه بشكلٍ متكاملٍ تحت إشراف إمامنا الرائد ﵁ وبتنسيقٍ منه، وبذا يتكون لدى القارئ -سواءً كان عالمًا أو طالب علم- ملكة النظر إلى المسائل من أكثر من زاوية بسعة أفق، ومع مرور الوقت تصبح لدى القارئ سجية التسامح التي يَتَّسِمُ بها العلماء المنصفون، ممَّا يورثه التحمل المحمود لاختلاف الرأي والرؤى بين المسلمين، ما دام سياجها الكتاب والسنة وأداتها وسائل الاستنباط الشرعي المنضبط الذي يمارسه المجتهدون من العلماء المعتمدين.

وكذلك فقد قام ﵁ عن طريق هذه المجلة الفريدة بربط أبناء الطريقة بالمجتمع والأحداثِ الجارية، كما أوجد تواصلًا ثقافيًّا بين أبناء الطريقة؛ إذ مكَّن لهم معرفة أخبار بعضهم البعض وتَفقُّد أحوالهم في كل مكان، فخص المجلة بأبواب ثابتة هامَّة بهذا الشأن بعنوان: «أخبار العالم الإسلامي»، «أخبار وتعليقات»، «في مجلس أهل الصفة».

ومن أبواب المجلة الثابتة أيضًا التي كان الشيخ ﵁ يعلق فيها على أهم الأحداث الجارية في العالم الإسلامي: «كلمة الرائد»، «نحو المجتمع الرباني»، «من بدائع التفسير»، «في رياض علوم الحديث»، «الأخت المسلمة»، «قضية العدد»، «من ديوان رجال الله»، «كلمة ذات معنى»، «عظة المجلس والمنبر».

وبالإضافة لهذه الأبواب المفيدة المتنوعة، فقد حرص الشيخ حرصًا شديدًا على استمرارية باب «الكتب والكُتَّاب» الذي يعتبر نافذة على أهم الإصدارات من الكتب الصوفية بشكل خاص والدينية بشكل عام، وكان يتضمن تعريفًا بالكتاب ومؤلفه وناشره، كما يعطي فكرة كافية حول موضوعه.

ومن الأبواب الثابتة التي تملأ القلوب حبًّا واحترامًا وتقديرًا للإمام الرائد رضي الله عنه باب: «بين المحرر وأحبائه»، وفي هذا الباب يرد الشيخ رحمه الله على قُرَّاءِ المجلة، وينشر لهم تعليقاتهم ومكاتباتهم وأشعارهم، **وكذلك ينشر بكل أمانة وشجاعة جميع تساؤلاتِهم وانتقاداتهم، ثم يرد عليها بوضوح العلماء وحُنُوّ الآباء.**

وكما أسلفنا، فإنَّ الأساتذة الكُتَّاب بالمجلة ينتمون ليس فقط إلى طرق التصوف، وإنما أيضًا إلى كل مذاهب الفكر الإسلامي السلفي الصحيح، والشرط الوحيد الذي كان يشترطه الشيخ فيمن يكتب بالمجلة هو العلم الشرعي الراسخ بالأصول والقواعد الفقهية؛ ولذا فقد كان كبار شيوخ الأزهر وعلماؤه حريصين على الكتابة فيها والإدلاء بما لديهم من علوم في هذا المنهل الصافي الذي ترتشف منه الأمة الإسلامية قاطبةً.

ولا ريب أنَّ نشر هذه المجلة الدينية الصوفية المتكاملة يُعد تجديدًا وفق الله سبحانه إليه الشيخ رضي الله عنه، ولم يسبِق له مثيل فيما نعلم، وقد استنَّ به وسار على نهجه عدد غير قليل من علماء التصوف السلفي في مصر والمغرب والشام وتركيا، بعضهم من تلاميذه رضي الله عنهم.

وقد حقق ذلك فوائد جَمَّةً كما ذكرنا، من أهمها أن المجلة قد أضحت بمثابة رباط بين أهل التصوف الشرعي الصحيح في كل الطرق الصوفية على اختلاف مشاربها وأصولها، ويتجلى ذلك في تتبع المقالات والدراسات التي زخرت بها المجلة، فلم تقتصر على أقوال وأبحاث أبناء الطريقة المحمدية الشاذلية التي هي

أصلًا طريقة الشيخ وأجداده ﵃ فحسب، بل شملت مقالات قيِّمة لأبناءِ جميع الطرق الصوفية الشرعية الأخرى. فعلى سبيل المثال نجد أنه لم يَخْلُ عدد من أعدادها منذ إصدارها من مقالات لعدد من العلماء والمشايخ الأَجِلَّاءِ من طرق صوفية أخرى؛ إذ أصبحت المجلة منبرًا عامًّا لعلماء التصوف الشرعي السلفي في مصر والبلاد العربية، وأداةً لإصلاح التصوف ومحاربة «التمصوف» و«التمسلف» والغلو بصفة عامة. وانظر على سبيل المثال إلى مجموعة المقالات التي نُشرت تباعًا لنخبة من أفاضل العلماء الذين لا ينتمون للطريقة الشاذلية الصوفية التي ينتمي إليها إمامنا الرائد ﵁، ومن أبرزهم فضيلة العارف بالله الشيخ سلامة العزامي، والعلَّامة المُحدِّث العارف محمد الحافظ التِّجاني، والعالم العارف السيد الشيخ أحمد رضوان، والعلَّامة المُحدِّث عبد الله الصديق الغُماري، والأستاذ الشيخ زين العابدين قرارة، والإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ووكيل العشيرة المحمدية، والإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، والأستاذ الشيخ محمد الغزالي السقا، والأستاذ الشيخ إبراهيم الدسوقي مرعي وزير الأوقاف ومفتي الديار المصرية، وفضيلة الشيخ حسنين مخلوف، وفضيلة الدكتور نصر فريد واصل، وفضيلة الدكتور أحمد الطيب، وانتهاءً بفضيلة الدكتور علي جمعة، ورؤساء ونواب جامعة الأزهر الدكتور أحمد عمر هاشم، والدكتور طه أبو كريشة، والعالم العارف السيد الشيخ محمد سعد بدران رضي الله عنهم.

ومن صفوة رجالات المجتمع من المفكرين والأدباء والشعراء وأساتذة الجامعات ورجال الدولة الذين كانوا يحرصون على المشاركة بالرأي في هذا الصرح الثقافي الديني العظيم؛ الأستاذ محمد العشماوي باشا، والدكتور منصور فهمي باشا، والسيد عبد الرحمن عزام باشا أول أمين عام لجامعة الدول العربية، والعالم الصوفي الدكتور حسن عباس زكي وزير الاقتصاد الأسبق، والأستاذ عباس محمود العقاد،

والعلامة الأستاذ أحمد أمين، والداعية أبو الحسن الندوي، والأستاذ أحمد بهاء الدين، والأستاذ فهمي هويدي، والأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة، والدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، والدكتور مصطفى محمود، والدكتور محمد فؤاد شاكر. ومن أساتذة وعمداء الكليات الدكتور الحسيني أبو فرحة، والدكتور محمد أبو ليلة، والدكتور مصطفى الشكعة، والدكتور إبراهيم الجيوشي. ومن الشعراء شاعر أهل البيت الأستاذ محمود جبر، والشاعر حسن مظهر، والشاعر عبد الله شمس الدين، والشاعر عبد الغفار الدلاش، والشاعر قاسم مظهر، والدكتور سعد ظلام، والشاعر علاء الديب، والشاعرة علية الجعار. وهذه الأسماء لصفوة الأمة من العلماء والمفكرين والكتاب إنما هي على سبيل المثال لا الحصر.

وكما هو جلي فإن توفيق الله سبحانه وتعالى قد حالف الإمام الرائد رضي الله عنه ليس فقط في المضمون العلمي للمجلة، وإنما أيضًا في التوقيت المناسب التي صدرت فيه. وفي هذا المعنى يقول رضي الله عنه: «صدرت مجلة المسلم والعالم الصوفي أحوج ما يكون إليها، ورسمت لنفسها الطريق، طريق الجرأة في الحق، وكفاح كل باطل كيفما كان وأينما كان ومن أي كائن كان، وسايرت منهج الإسلام، فنزلت إلى حياة الناس تنتقد وتوجه وتدفع وترفع، وتشترك في كل كفاح، ولا تدس رأسها في التراب؛ نفاقًا أو مجاملة أو مخاتلة، أو التماسًا لبعض الغايات الدفينة»[1].

ومن مآثر وآثار تلك المجلة الفريدة أنها كانت وما زالت بمثابة المَعين العلمي الصافي للتصوف الشرعي، تمد أبناء الطريقة بالحجج الشرعية التي يردون بها على طائفتين ضالتين ظاهرهما التناقض، غير أنهما طرفا باطل يتوسطه الحق. فالحق دائمًا -كما يقول علماؤنا- يتوسط باطلين، وهاتان الطائفتان اللتان قد جانبهما الصواب هما أدعياء التصوف، أو بتعبير الشيخ رضي الله عنه

(١) «هذه الدعوة وهذه المجلة»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثالث، السنة الثامنة، غرة شوال ١٣٧٧هـ، ٢٠ أبريل ١٩٥٨م.

«المتمصوفة»، وأدعياء السلفية، أو بتعبيره أيضًا «المتمسلفة»[1].

ويسترسل الشيخ ﷺ مشيرًا إلى دور المجلة في توضيح الصوفية الحقة للعالم الإسلامي، قائلًا: «ولقد أخذت المجامع العلمية والجامعات العالمية تهتَمُّ بصوت الصوفيين الجديد، وتشترك في مجلتهم، وتترجِمُ عنها وتستشهد بها، وتتفاهم معها، وتعتمد عليها، وها هي هذه الحلقات الصوفية والندوات تعقد اليوم في كل مكان، وها هم الشعراء قد أخذوا يستردون اعتبارهم الصوفي فيَتَغَنَّوْنَ بالإلهيات والنبويات، وها هم الشباب وقد أقبلوا على تذوُّق حلاوة هذا المَعين الرائق الرقيق، وها هي الأقلام ذات القيمة الخاصة أخذت تعالج التصوف في قصد واعتدال وتصحح من فهومها الخاطئة ونُقُولِهَا الببغاوية المأثورة وتمثيلها القردي القديم!»[2].

«وهكذا –بحمد الله– قد خطت «المسلم» إلى غاياتها المتعددة خطواتها الموفقة، فنشرت الوعي الصوفي الحر، وأنشأت البيئةَ الصوفية الطاهرة، وأدمجت التصوف في الحياة العملية فتفاعلت معه وأفادَتْ منه، وأخذت تتعرف على كنوزِه وأسراره، وأصبح الصوفي الآن قادرًا على أن يرفع رأسه لله في سبيل الله فخورًا قائلًا: هأنذا، وها هي هذه صحيفتي، وذلك بعد أن كان يعيش مستخفيًا بالليل أو ساربًا بالنهار، كأنما هو آثم هارب!»[3].

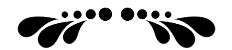
«فأينما سرت في الوطن الإسلامي بأطراف الأرض جميعًا وجدت أمامك «المسلم» في القارات الخمس والجزر وفي بلاد العرب والعجم، في الأوطان والمَهاجر وغيرها، فالعرب والمستشرقون والجاليات الإسلامية بأمريكا وأوربا كلها

(١) تنبه بعض الباحثين إلى أهمية هذه المجلة وأنشئوا عنها أبحاثًا ودراسات ومواقع إلكترونية عديدة، انظر على سبيل المثال رسالة دكتوراه بعنوان «مذهب الإمام محمد زكي الدين إبراهيم في الدعوة إلى الإسلام» الدكتور مصطفى خليل، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر الشريف.

(٢) «بين حرارة الدعوة ومرارة الجهاد»، كلمة الرائد.

(٣) المرجع السابق.

تعرف «المسلم» وتنتظره وتؤيده؛ لأنه يسد فراغًا خاصًّا، ويعالج ناحية مستقلة حساسة في قلوب الداعين إلى الله والمقبلين عليه، ويهتم بما تهمله الصحف الأخرى ويقدم الغذاء طيبًا طاهرًا خالصًا لوجه الله مهما كان عنيفًا أو لطيفًا»[1].



(١) المرجع السابق.

هذا، وقد توقفت مجلة «المسلم» بوفاة مولانا الإمام الرائد رضي الله عنه عام ١٩٩٨م؛ لانتهاء الترخيص، حيث كان ترخيصها باسم الإمام الرائد شخصيًّا، ثم تم إعادة إصدارها باسم الطريقة المحمدية الشاذلية بعد محاولات موفَّقة قام بها نجله وخليفته السيد عصام الدين زكي ورهط مبارك من تلاميذ الشيخ رضي الله عنه، حيث يبذلون قصارى الجهد لتستمر المجلة شكلًا وموضوعًا على سيرتها الأولى بمدد الله وتوفيقه.



المسألة السابعة

الدور الفعلي للعشيرة المحمدية في إصلاح أحوال المسلمين

أولاً: التواصل و التراسل مع الملوك والحكام والوزراء؛ نصحًا أمينًا وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر

ومن أهم وأنجع جوانب التجديد في ممارسة التصوف الشرعي السلفي من خلال الطريقة المحمدية الشاذلية، ما درج عليه رائدها مولانا الشيخ محمد زكي إبراهيم ﷺ من تصديه للأمور العامة، وبعثه البعوث والخطابات التي تحمل الرأي السديد والوعظ الرشيد والنصيحة المخلصة الليِّنة لأولي الأمر لعلهم يتذكرون وإلى الحق يعودون!

ولم يكن قيامه بهذه السنة الحميدة مقصورًا على هموم المجتمع المسلم في مصر فحسب؛ بل شمل هموم العالم الإسلامي بأسره، وجديرٌ بالذكر أننا لم نعهد في طريقة علماء الصوفية المعاصرين له ولا الذين سبقوه في الأزمنة القريبة مَن تَنَبَّه إلى أهمية هذا المنحى وجدواه، بل كان غالب حالهم الانكفاء على أنفسهم؛ اعتزالًا للفتن واستيئاسًا من استجابة أولي الأمر للنصح.

ولقد قام الشيخ ﷺ بعزيمة الأولين السابقين يُحْيِي سنة المصطفى ﷺ في نصح الحكام بالحكمة والموعظة الحسنة ومراسلتهم وموالاة تذكيرهم بالحق في كل مجال يخدم المسلمين، مفوضًا إلى الله تعالى في النتائج وغير آبهٍ بمدى استجابتهم.

وكان ﷺ يذَكِّرُنَا دومًا برسائل نبينا ﷺ ورسله إلى أولي الأمر في مشارق الأرض ومغاربها، فمنهم من استجاب واهتدى ومنهم من سَخِرَ واستهزأ ومنهم من تلطَّف وهادن[1].

(١) في الكلام إشارة إلى مواقف النَّجَاشِي والمُقَوْقِس وكِسْرَى وهِرَقْل.

ورغم أنَّ النبي ﷺ كان مؤَيَّدًا بالوحي إلا أنه لم يكتف بإرسال رسله إلى من سبقت لهم من الله سبحانه الهداية فحسب، بل أرسلها كذلك لمن علم الله أنهم سيسخرون ويستهزئون بها؛ ليكون ذلك حجة عليهم ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وسيرًا على نهج رسول الله ﷺ بعث الشيخ رضي الله عنه برسائله إلى الملوك والرؤساء في مصر والسعودية واليمن وغيرها من البلدان العربية يطالبهم فيها بأمور محددة، ويدلي لهم بالنصائح في شئون الدين والدنيا مُصلحًا ومُجددًا ومُعلمًا، فلم يترك مؤتمرًا يعقد في مصر يتناول شأنًا من شئون المسلمين إلا بادر بتسجيل رأي العشيرة المحمدية فيه، مُزودًا إياه بالمقترحات والتوصيات العملية التي يمكن تفعيلها على سبيل الإصلاح والنهوض بالمجتمع تحت مظلة الشرع الحنيف.

ولقد أحيا الشيخ رضي الله عنه السنن الحميدة التي كان عليها شيوخ التصوف الأوائل أمثال الشيخ أبي الحسن الشاذلي، والشيخ عبد القادر الجِيلاني والشيخ السيد أحمد البَدَوِي رضي الله عنهم[1]؛ إذ أعاد ربط الطريقة الصوفية بالمجتمع الذي نعيش فيه، فلقد كان هؤلاء الأوائل رضي الله عنهم يمارسون التصوف الصحيح كما ورثوه من صاحب الرسالة ﷺ، وفي الحديث الصحيح: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**للهِ ورَسُولِهِ ولِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعَامَّتِهِمْ**»[2].

وهكذا لم تعد الطريقة الصوفية -بعد شيخنا الإمام الرائد رضي الله عنه- خلوة في أقصى المدينة ومجلس ذكر وإحياء ليلة ويوم من أيام الله تعالى فحسب، كما اختُزلت منذ قرون في الغالب الأعم من الطرق الصوفية؛ بل عادت على يديه رحمه الله تعالى -كما كانت عند السلف الصالح- مركزًا للعلم والدرس الشرعي ومجلسًا

(١) إذ كانت حياتهم رضي الله عنهم مليئة بألوان من هذا المسلك الشرعي لأداء النصح للحاكمين وولاة الأمر وأصحاب الرأي في عصورهم؛ راجع سِيَرهم في «حِلْيَة الأولياء» لأبي نُعَيْم، ومن المراجع الحديثة «سير الأولياء» لفضيلة الدكتور جودة المهدي. حفظه الله.

(٢) أخرجه مسلم: (١/ ٧٤) برقم (٥٥)، من حديث تَميم الداري رضي الله عنه.

للنصح والإرشاد يُدعى إليه العلماء والقضاة والضباط والأساتذة والمهندسون والأطباء والمفكرون رجالًا ونساءً.

ثم علَّم الشيخ رضي الله عنه أبناءه من كل طوائف المجتمع كيفية النصيحة المهذبة الموضوعية في السر والعلن بآدابها الشرعية للحكام والوزراء والعلماء والكُتَّاب ورجال الصحافة والإعلام، فما من مسألة تسترعي الانتباه أو تستدعي الاهتمام من أمور المسلمين العامة أو الأمور الخاصة بالطريقة المحمدية أو بمؤسسات العشيرة الخيرية المتعددة من ملاجئ أو حضانات أو وحدات صحية؛ إلا ويقوم الشيخ بدعوة أبنائه المتخصصين في المسألة محل البحث وذوي الصلة بها من الناشطين في المجتمع المدني وموظفي الجهات الحكومية المعنية، ثم يُجري معهم حوارات ومشاورات تنتهي غالبًا إما برسالة يكتبها الشيخ بنفسه أو بإرسال مندوب إلى هذا الوزير أو ذاك الحاكم يناصحه فيها، آمرًا بمعروفٍ أو ناهيًا عن منكرٍ أو محذرًا مما يُخشى منه أو مُبصِّرًا بعواقب الأمور، وكل ذلك بأدبٍ جَمٍّ وحكمة ورشاد وعلم يستوقف كل مخلص ويأخذ بألباب المنصفين.

ومثال ذلك ما سطره الشيخ في رسالة بعث بها إلى خادم الحرمين الشريفين عاهل السعودية السابق الملك فهد بن عبد العزيز، رحمه الله وطيب ثراه، وقد كان لها أثر عظيم في نفوس علماء المملكة المنصفين. وفي هذه الرسالة استنكر الشيخ عدم المحافظة على بعض الآثار الإسلامية الهامة، وأوضح مخاوفه من خطورة استمرار هذه السياسة حيث أزيلت بالفعل بعض الآثار الإسلامية الهامة، وعلى سبيل المثال بيت أم المؤمنين خديجة الكبرى، وبيت سيدنا الإمام علي رضي الله عنه، ودار الأرقم رضي الله عنه، وغير ذلك من الآثار الشريفة الهامة التي كانت تعج بها مكة وجبل أبي قُبَيْسٍ، مما يُعتبر من ذخائر الدنيا، ونوادر ذكريات دعوة الإسلام. كما أُزيل من قبل بالمدينة المنورة الكثير من الآثار والفرائد التاريخية العظمى، ومنها بيت الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، وبيت أبي أيوب الأنصاري، وبستان سَلْمان

الفارسي. كما أُزيلت بئر (حاء)، وبئر (الخاتم)، كما أُزيل (الخندق) الذي حُفر عند موقعة الخندق الحاسمة في تاريخ انتصار الإسلام، كما أُزيل مسجدان من المساجد السبعة التي بنيت على أرضِ معركة (الأحزابِ). كل هذه الآثار وغيرها من مفاخر التاريخ الإسلامي إنما أُزيلت وأُبيدت باسم التوحيد والخوف من الشرك. وقد بين الشيخ رضي الله عنه بطلان هذا الرأي مستندًا إلى أدلة شرعية عديدة ضمَّنها رسالته، منها ما يلي:

أن الرسول ﷺ ضرب المثل المعقول المقبول في مثل هذا المقام بالذات؛ فإنه لمّا فتح مكة لم يأمر بهدم الكعبة لِمَا كان حولها من الأصنام، ولِمَا كان يأتيه الجاهليون من أقوال الشرك الصريح وأفعاله، ولكنه ﷺ طَهَّر الكعبة المشرفة من الرجس وأرشد الناس إلى الحق.

ثم استطرد الشيخ رضي الله عنه مستشهدًا ببعض ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عن كيفية معاملة الآثار والانتفاع بها في دعوة التوحيد وتأكيده:

١) ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

٣) ﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ [يوسف: ٩٣].

٤) ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢].

٥) قصة الكهف وأصحابه وكلبهم (بسورة الكهف).

٦) قصة السامِرِيّ والقبضة التي قبضها من أثر الرسول (بسورة طه).

٧) وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

٨) وقال تعالى: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [غافر: ٢١].

٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر: ٦-١٠].

١٠) ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٢].

١١) ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

١٢) ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

ثم أشار الشيخ رضي الله عنه إلى عدد من الأدلة من السنة الشريفة حول ذات الموضوع، منها:

١) قصة عتبان بن مالك الذي زاره الرسول صلى الله عليه وسلم، وصلى في بيته، واستأذن أن يصلي مكان صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم فأذن له[1].

٢) قصة فاطمة بنت أَسَدٍ، وكيف نام النبي صلى الله عليه وسلم في قبرها بعد أن كَفَّنَهَا ببُردته[2].

٣) قصة الجِذع الذي كان يَتَّكِئُ عليه النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في خطبته وكيف أكرمه الرسول صلى الله عليه وسلم ودفنه ولم يُلْقِ به في العراء[3].

٤) قصة الشعرات التي كان يتبرك بها خالد بن الوليد[4].

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٤٣٤) برقم (٤٢٤)، من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» : (١٨/ ٨٢) برقم (٢٠٣٢٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري: (٤/ ١٩٥) برقم (٣٥٨٣)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٣/ ١٠٦) برقم (٧١٨٣)، من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه.

٥) قصة مُعاوية وكيف طلب قطعة من قُصاصة أظافر النبي ﷺ لتُوضع على وجهه عند دفنه[١].

٦) قصة الإمام مالك كيف كان يمشي حافيًا بالمدينة؛ احترامًا وتبركًا لآثار رسول الله ﷺ.

٧) قصة أبي بُرْدَةَ إذ قال: «قدِمت المدينة فلقيني عبدُ الله بنُ سَلَامٍ، فقال لي: انطلق إلى المنزل فأسقيك في قدح شرب فيه رسول الله ﷺ، وتصلي في مسجد صلى فيه النبي ﷺ. فانطلقت معه فسقاني سَوِيقًا، وأطعمني تمرًا، وصليت في مسجده»[٢].

٨) قصة أبي مِجْلَزٍ إذ قال: «إن أبا موسى كان بين مكة والمدينة فصلى العشاء ركعتين، ثم قام فصلى ركعة أوتر بها فقرأ فيها بمائة آية من النساء، ثم قال: ما أَلَوْتُ أن أضع قَدَمَيَّ حيثُ وضع رسول الله ﷺ قدميه وأنا أقرأ بما قرأ به رسول الله ﷺ»[٣].

٩) وما رواه نافع، أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبرَهُ أنَّ الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهَرِيقُوا ما تسقوا، ويعلفوا للإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تَرِدُهَا الناقة[٤].

قال النووي: وفي هذا الحديث من الفوائد التبرك بآثار الصالحين[٥].

ثم يعرض الشيخ رضي الله عنه بعض آراء الفقهاء المعتبرين لدى العلماء بالمملكة العربية السعودية بادئًا برأي شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ رضي الله عنه الذي يقول في موضوع الاهتمام بالآثار والتبرك بها:

---

(١) ذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٣٢١).

(٢) أخرجه البخاري: (٩/ ١٠٦) برقم (٧٣٤١)، من حديث أبي بُردة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي: (٣/ ٢٤٣) برقم (١٧٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم: (٤/ ٢٢٨٦) برقم (٢٩٨١).

(٥) «شرح صحيح مسلم» (٨/ ١١٨).

«فالذي بلغني في ذلك قولانِ عن العلماء المشهورين: أحدهما: النهي عن ذلك وكراهته». ويعلق الشيخ ﵁ على هذا القول أنَّه حتى من رأى النهي عن التعبد عندها والتبرك بآثار الأنبياء والصالحين لم يروا هدمَهَا، ثم يسترسل في الاستشهاد برأي الشيخ ابن تيمية ﵁: «والقول الثاني: أنه لا بأس باليسير من ذلك كما نُقل عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يتحرى قصد المواضع التي سلكها النبي ﷺ، وإن كان النبي ﷺ قد سلكها اتفاقًا لا قصدًا».

ويضيف الإمامُ الرائد ﵁ على هَذَا القول أيضًا قائلًا: «بل كان يأخذ بخطامِ ناقته حتى تنزل في الموضع الذي نزلت فيه ناقة رسول الله ﷺ».

ويستطرد الإمام الرائد ﵁ قائلًا: «قال الخواتيمي الحنبلي: سألنا أبا عبد الله عن الرجل يأتي هذه المشاهد يذهب إليها كيف ترى ذلك؟ قلنا: أمَّا عن حديث ابن أم مكتوم أنه سأل النبي ﷺ أن يصلي في بيته حتى يتخذ ذلك مصلى، وعن ما كان يفعله ابن عمر بتتبع مواضِعِ النبي ﷺ وأثره، فلا بأس بذلك أن يأتي الرجل المشاهد إلا أن الناس قد أفرطوا في هذا وأكثروا فيه».

ثم يستطرد مستشهدًا برأي عالم جليل آخر في نفس الشأن، فيقول «وكذلك نُقل عن أحمد بن القاسم: أنه سُئل عن الرجل يأتي هذه المشاهد التي بالمدينة المنورة وغيرها يذهب إليها، فقال: أمَّا عن حديث ابن أم مكتوم «أنه سأل النبي ﷺ أن يأتيه فيصلي في بيته حتى يتخذه مسجدًا» أو عمَّا كان يفعل ابن عمر: كان يتتبع مواضع سير النبي ﷺ حتى إنه رؤي يصب في موضع ماء، فسئل عن ذلك، فقال: كان النبي ﷺ يصب هاهنا ماءً. قال: أما على هذا فلا بأس. قال: ورخص فيه. ثم قال: ولكن قد أفرط الناس جدًّا وأكثروا في هذا المعنى».

ثم نقل قول الإمام أحمد بن حنبل ﵁: «واستَحَبَّ آخرونَ من العلماء المتأخرين إتيانها. وذكر طائفة من المصنفين من أصحابنا وغيرهم في «المناسك» استحباب زيارة هذه المشاهد، وعدوا منها مواضع وسموها. وأما أحمد فرَخَّصَ منها

فيما جاء به الأثر من ذلك، إلا إذا اتُّخذت عيدًا مثل أن تُنتَاب لذلك، ويُجتمَع عندها في وقت معلوم؛ كما يرخص في صلاة النساء في المساجد جماعات، وإن كانت بيوتهن خيرًا لهن إلا إذا تَبَرَّجْنَ، وجمع بذلك بين الآثار، واحتج بحديث ابن أم مكتوم»[1].اهـ.

وبعد كل مثال يستشهد به من أقوال العلماء الأجلَّاء في هذا الأمر يعقب الشيخ رضي الله عنه قائلًا: «**هنا يجب الإرشاد والتوجيه، لا الهدم ولا التخريب**»، ثم ينهي احتجاجَه بهذه الأمثلة موضحًا ما يُستخلَص من الأقوال والأفعال والوقائع التي ذكرها، فيقول رضي الله عنه: «**ومما تقدم من كلام الشيخ ابن تيمية رضي الله عنه وما استشهد به من قول علماء آخرين نأخذ أن آثار الأنبياء والصالحين لها أهميتها التاريخية والروحية والحضارية، وبذلك تقوم الحجة على الخطأ الجسيم الذي ينبني على فتوى الهدم والإبادة، خصوصًا على آخر آثار الإسلام بالبلد التي نبع منها الإسلام،** ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ومما يُذكر بالخير للحكومة السعودية مدى إدراكها لمقتضيات السابق واللاحق من أمور التاريخ وأصول الحكم ومقتضيات الحضارة أن تحررت من الضغوط المعرقلة للتقدم الحضاري، **فأنشأت بها (إدارة الآثار) بالمرسوم الملكي (رقم ٢٦ في ٣/ ٢/ ١٣٩٦هـ) وشكلت لها مجلسًا أعلى بقرار مجلس الوزراء رقم (٢٣٥ في ٢١/ ٢/ ١٣٩٨هـ).**

وقد حدد القانون أن من الآثار التي يجب المحافظة عليها بالنص «الأبنية التاريخية والمناطق التي يوجد في نطاقها آثار»، وحرم إزالتها أو المساس بها «إلا بعد أخذ موافقة دائرة الآثار عليها، وعلى دائرة الآثار تحديد الأماكن التي يوجد فيها معالم أثرية وإحاطة جهاز تخطيط المدن علمًا بذلك».

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٤٥ وما بعدها).

وقد رأينا آثار اليهود في (خيبر)، وفي (الحرة الشرقية بالمدينة المنورة) قائمة ومحافظًا عليها، ومكتوبًا عندَهَا «ممنوع اللمس أو الاقتراب بأمر الآثار» كما هو على حصن كعب بن الأشرف مثلًا، ورأينا آثار (ثمود - قوم صالح) بمنطقة (العلا) غير بعيد من المدينة النبوية، وبها مركز سياحي سعودي وحرس يحافظ عليها، ومعروف أن الحكومة السعودية استقدمت خبراء من أوربا وغيرها للبحث عن الآثار بـ (الدرعية) وغيرها من أرض الجزيرة.

فهل ما أشرنا إليه من بقايا الآثار الإسلامية التاريخية العظمى أقل خطرًا من حصن كعب بن الأشرف وبقايا أرض ثمود والدرعية؟

ويسترسل الشيخ ﷺ: «والذي حدث والذي يحدث والذي يطلبه الطالبون الآن من الحكومة السعودية هو إزالة آخر آثار النبوة من أرض النبوة، أي إزالة المكان الذي ولد فيه الرسول ﷺ (وقد كان مسجدًا فهُدِمَ ثم جُعل مكتبة)، هذا الطلب مخالف كل المخالفة للقانون سالف الذكر، فضلًا عن مخالفته كما أسلفنا للكتاب والسنة، ولفتاوى إمام السلفية الشيخ أحمد ابن تيميَّة ﷺ، بالإضافة إلى مخالفة المعقول والمنقول الإنساني والحضاري والعالمي». ويرد الشيخ ﷺ على المطالبين بإبادة هذا الأثر التاريخي الهام بحجة سَدِّ الذرائع ودرء الشبهات، فيقول: «فليبقَ الأثر وليُمنع الناس من إتيان التجاوزات التي يمنعها المانعون بالحجاز، كما هو حادث في المسجد النبوي وغيره، ولتكن القدوة برسول الله ﷺ حين طَهَّرَ الكعبة ولم يمسها بسوء».

ومع ذلك فلا ينكر الشيخ ﷺ «أن ما دخل من هذه الآثار في توسعات الحرمين إنما هو فضل اختص به أصحاب هذه الآثار، ومن أدخلها، ولم يبق إلا الإشارة إلى مواضعها على الأعمدة والسواري التي قامت على أنقاضها؛ احتفاظًا بحقها التاريخي والديني، وتثقيفًا لزوار الحرمين بمعرفة جانب من مراحل التاريخ الإسلامي العظيم، فما لم يكن ذلك ممكنًا، فلعله ممَّا يرضي الله وعلماء التاريخ

والثقافة أن يسجل في المداخل الكبرى للحرمين على الرخام أو غيره ذكر الأبنية والشعاب وغيرها، فذلك هو الواجب التاريخي والعلمي والشرعي والحضاري، وهو الحق المبين».

وهكذا فتح الشيخ محمد زكي إبراهيم رحمه الله تعالى بدعوته الحكيمة وحججه المقنعة وسلوكه الرشيد باب الوحدة بين المسلمين، داعيًا علماء الأمة من جميع الطوائف المختلفة إلى التواصل والتراحم والتقريب المشروع بلا مداهنة أو مراءاة أو غَمْط لِحق.

ثانيًا: الدعوة إلى تطبيق رشيد للشريعة الإسلامية الغراء

ولم يقتصر الشيخ -في محاولاته الدائبة لإصلاح أحوال المسلمين- على تصديه للأمور العامة، وبعثه البعوث والخطابات التي تحمل الرأي السديد والوعظ الرشيد والنصيحة المخلصة الليِّنة لأولي الأمر في كل شئون المسلمين في جميع أرجاء الوطن الإسلامي، وإنما كان يتصدَّى لكل أمر فيه إصلاح للأمة مهما جابه في ذلك من صعاب وتحديات، ومثال على ذلك تَصَدِّيهِ لموضوع ضرورةِ التطبيقِ الرشيد للشريعة الإسلامية الغراء في بلاد الإسلام بالمفهوم الصحيح لهذا التطبيق، ولم يكتفِ في ذلك الأمر بالدعوةِ الشفوية في خطبه ومحاضراته وكتاباته كما يفعل الكثير من علماء الأمَّة المخلصين، وإنما كان من أوائل أولئك الذين اتخذوا خطوات عملية لتحقيق ذلك المأرب السامي؛ إعلاءً لكلمة الله سبحانه وتعالى وانتصارًا لدينه الحق.

فقد قام الشيخ مع رهطٍ مبارك من علماء الأزهر الشريف بعقد المؤتمرات الدورية العامة والخاصة، وجمع العلماء، ونصح الحاكمين؛ شحذًا للهمم، وتبديدًا للمخاوف، وإعدادًا رصينًا للتطبيق الدائم بحكمة ورشد للشريعة الإسلامية في العالم الإسلامي قاطبةً. الشريعة الإسلامية بالمفهوم الصحيح لهذا الشعار البراق الذي للأسف كثيرًا ما يُساء فهمُه ويُساء استخدامه.

وفي هذا المَنْحَى أيضًا لمحة من أبرز ملامح التجديد في حياة الشيخ الزاخرة،

رحمه الله رحمةً واسعةً وطيَّبَ ثراه، فقد جَهَد جهده طيلة حياته من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية، ومن أجل التقريب بين طوائف المسلمين، فانبرى للأمرين معًا، فكان أول من دعا إلى مؤتمر تطبيق الشريعة الإسلامية الذي عُقد تحت إشراف العشيرة المحمدية برعاية مولانا الشيخ، ودُعي إليه كبار علماء الأزهر وكبار علماء المسلمين، واجتمع لأول مرة هذا الرهط العظيم من علمائنا في العشيرة يطالبون الحاكم بتطبيق الشريعة، ويعالجون النتائج التي يمكن أن تنتج عن التطبيق، ويُبَيِّنُونَ طرق تطبيق الشريعة الغراء في كل الميادين، وأولها الميدان القانوني، فلم يكن عهد المتصوفة في خلواتهم وحلقات ذكرهم أن يهتمُّوا بأمور متعلقة بالشريعة أكثر منها بالحقيقة، وأمور متعلقة بإصلاح المجتمع أكثر منها بإصلاح النفوس.

ولكن الشيخ انبرى لها مجدِّدًا عائدًا بالتصوف لسيرته الأولى لما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ومن تبعهم بإحسان، فلم يشغله بناء نفوس أبنائه ومريديه وتربية قلوبهم على الطاعة عن إصلاح المجتمع والنصح للحاكمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصورة التي تناسب المجتمع والدولة، ولم يكتفِ الشيخ بإحياء سنة «النصيحة» للحكام والعلماء فيما يَعِنُّ له إزاء كل حادثة أو واقعة أو ظاهرة أو قرار يستدعي توجيه النصح كما سلف البيان، بل تجاوز هذا المدى وأحيا فريضة «الدعوة للتطبيق الكامل للشريعة الإسلامية» بالمفهوم الصحيح لهذا الشعار البَرَّاقِ الذي كثيرًا ما أطلق من غير أهله -وما أهله إلا العلماء- أو كثيرًا ما أريد به غير الحق الذي ينبئ عنه.

لقد رأى الشيخ رحمه الله تعالى أن رحلته في إصلاح الطريقة وإحيائها قد قطع شوطًا محمودًا بتوفيق الله تعالى له، ورأى أن عليه الأخذَ بأعرافِ العصر وأنماط التجمع المعاصر بإقامة المؤتمرات والندوات وورش العمل واللجان العلمية، فبعد معاركه في إصلاح التصوف واستنقاذه مما رَانَ عليه من ألوانِ البدع، وبعد أن أصبح العلم الشرعي قرينًا ملازمًا لمجالس الذكر والاحتفالِ والخلوة والأوراد، وبعد أن

استَتَبَّ النظر الشرعي، وبعد أن أضحت الطريقة المحمدية الشاذلية بيتَ تجميع لكل الطرق الصوفية الشرعية لدعوة التقريب بين طوائف المسلمين في مدلولها الصحيح، وبعد أن استقرَّت معالم وأساليب «النصيحة الشرعية» لعامَّة طوائف المجتمع والقائمين على أمر الناس من خلال المبعوثينَ والرسائل والمكاتبات والندوات، وبعد بناء الصرح الإسلامي العظيم «مجلة المسلم»؛ أذن الله تعالى للشيخ أن يكون له السبق في تجميع العلماء والقضاة والساسة لهدف جليل؛ ألا وهو التمهيد المستنير لتطبيق الشريعة الغراء.

والجدير بالذكر أنَّ المفهوم الشرعي الدقيق لشعار تطبيق الشريعة الغراء لم يتضح فيما نعلم في الكتابات المعاصرة إلا على يد الشيخ رضي الله عنه وتلاميذه من علماء الأزهر؛ إذ إن دعاة الإسلام السياسي -مع احترامنا لفريق مخلص منهم- ودعاة السلفية المنحصرين في مذهب واحد من مذاهبنا الرحبة؛ قد أضَرُّوا كثيرًا بالشعار؛ إذ حصروه في تصور تطبيقي معين لبعض الأحكام أو الحدود، أو جعلوه فَضْفَاضًا لا حدود له، مما أَضَلَّ الحاكم والمحكوم عن بلوغ الحق فيه.

وحول مفهوم تطبيق الشريعة عند الشيخ رحمه الله يقول: «كنا ولا نزال نرى أن تطبيق الشريعة ليس هو إقامة الحدود فقط، ولكنه أيضًا التربية الإسلامية الشاملة، والالتزام الديني السمح الرفيق النابع عن الضمير والإيمان في كل مطالب الحياة الإنسانية، فتطبيق الشريعة كما يكون بالقانون، يكون قبلَ ذلك وبعده بالعلاقة بالله، يطبقه العامل في مصنعه، والطبيب في عيادته، والموظف في مكتبه، ويطبقه الرجل على نفسه وأسرته، والتاجر في متجره، والطالب في معهده، والزارع في حقله، والأستاذ في مدرسته وجامعته، وبالجملة يطبقه كل إنسان في ناحية اختصاصه أو رعايته ومسئوليته إيمانًا واحتسابًا، قبل الخوف من عصا القانون، أو سوط الإلزام الخارجي كيفما كان، وهذا هو التصوف»[1].

(١) «السلفية المعاصرة.. إلى أين؟ ومن هم أهل السنة؟» (ص١٣).

وهذا الجانب هو ما ينبغي ألَّا يهمل حتى تقنن الشريعة، أو حتى يبدأ التطبيق بالمفهوم الصحيح، وهذه هي وظيفة المعهد والمدرسة والجامعة والإعلام ووظيفة العلماء والوعاظ والأئمة والأساتذة والدعاة إلى الله والصوفية الصحيحة والجمعيات الإسلامية، على أن تكون بالحكمة والإقناع، والاستمرار والدأب في مَحَبَّة ورِفْقٍ وتواضُع وكياسة وتجميع وتكتيل، لا في عُنْجُهِيَّةٍ وعُبُوسٍ وغطرسة واحتقارٍ للآخرينَ وما اختاروا لأنفسهم من مذاهب أو مشارب في حدود الكتاب والسُّنَّةِ، وإن اختلفت المفاهيم، بل دون تعصُّبٍ لمذهب معين أو رأي بالذات، بل إلى سماحة الدين ومرونته وسعته وعالميته وسلمه وأناه وسكينته، لا تطرف، ولا إرهاب، ولا تخريب، ولنفرض أنَّ أمورنا كلها بين الرخصة والعزيمة، فمن أخذ بأحدهما فقد أصاب (وحسبنا من المسلم ما يصير به مسلمًا) ثم نتناصح تناصُحَ الأحباء والإخوة، فنتواصل ولا نتقاطع أفرادًا وجماعات، وكأننا أعداء ألداء لا تخمد بيننا نيران الخصومة، كما هو الآن، نسجل هذا لوجه الله، والله سميع عليم.

فكان هذا المؤتمر العَامُّ المبارك للدعوة والإعداد لتطبيق الشريعة الإسلامية بمصر والدول العربية والإسلامية على يد الإمام الرائد رضي الله عنه.

وقد عُقد هذا المؤتمر العلمي الدعوي العام بدار العشيرة المحمدية، موئل الطريقة المحمدية الشاذلية ومركزها الرئيسي بالدَّرَّاسَةِ، وقد حضره لفيف من أئمة العلم بالأزهر الشريف وقادة الفكر والسياسة والقضاء والصحافة، وعلى رأسهم فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر عندئذٍ، وفضيلة الشيخ محمد متولي الشَّعْرَاوِي وزير الأوقاف والأزهر آنذاك، وتحدث فيه فضيلة الشيخ حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية عن كبار العلماء، وفضيلة الشيخ محمد خاطر مفتي الديار المصرية السابق، وفضيلة الشيخ إبراهيم الدسوقي مرعي عن الأوقاف، وفضيلة الشيخ عبد الجليل شلبي عن مجمع البحوث الإسلامية، وفضيلة الدكتور أحمد الشرباصي عن جمعية الشبان المسلمين، وفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن

العدوي عن جامعة الأزهر، وفضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل عن نواب الشعب، وفضيلة الشيخ عبد اللطيف المشتهري عن الجمعية الشرعية، وفضيلة الدكتور علي عبد العظيم عن الطرق الصوفية، والأستاذ إبراهيم البطاوي عن العشيرة المحمدية، والأستاذ عمر التِّلمساني عن الصحافة الإسلامية، كما حضره العديد من مندوبي الهيئات والجمعيات الإسلامية.

وقد رُفعت توصِيَات المؤتمر والبحوث التي قدمت فيه إلى السيد رئيس الجمهورية محمد أنور السادات رحمه الله تعالى، وأرسلت فيما بعد إلى كل المعنيين بالقضاء والأحزاب في مصر ثم في دول عربية وإسلامية عديدة.

وقد نشأت فكرة انعقاد مؤتمر الجماعات والهيئات الإسلامية للمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، كأثر للدعوة إلى «ملتقى الفكر الصوفي»، وانعقد المؤتمر بعد أن اجتاز صعابًا شتى، وعراقيل أكثر من أن تحصر أو تُحْصَى، وبعد أن وُضِعَت في طريقه كل الأشواك؛ ما كان منتظرًا منها وما لم يكن في الحسبان.

وفي رصد وتوثيق هذه التجربة الرائعة والفريدة كتب الشيخ رحمه الله تعالى يقول: «إنَّ الإيمان بموعود الله، وقوة الثقة فيه تعالى، والتصميم المطلق على الوصول إلى الغاية بإذن الله، هو ما تحققت به الإرادة، وتم على أساسه إدراك الهدف المقصود، لقد جاء يوم قال فيه رجل: (إنه لو لم يكن إلا أنا وفلان معي، والله معنا، لخطب واحدنا واستمع الآخر). وأُقيم المؤتمر، وصدرت القرارات، وسارت الأمور وبلغت غايتها بإذن الله».

ويواصل الشيخ رحمه الله تعالى سردَ تفاصيل هذه الوقائع التاريخية الهامة فيقول: «لقد كُنَّا نَطْرُقُ أبوابَ المسلمين أفرادًا وجماعاتٍ، مراتٍ ومراتٍ ومراتٍ، معتصمين بكل ما وهبنا الله من صبر وحلم وأمل وأدب وتضحية لا يحلم بمثلها كثير من المثبِّطين والمبطِّئين والمعوِّقين والمتشائمين والحاقدين على خلق الله أجمعين، والناعمين بالترف وأحلام المراهقين، لقد قدمنا لله أوقاتنا وجهودنا وأفكارنا،

وكل ما يقدم أصحاب الرِّسَالَاتِ خالصةً لوَجْهِ اللهِ، وقد كنا ومن وفقهم الله معنا من الرجال الذين سهروا وعملوا وتحركوا واستهدفوا، وتحملوا سخرية الساخرين وعبث العابثين من صغار وكبار المغرورين، وطوائف الممترين، وموقدي نيران الفتن والمحن والإحن.

كان هؤلاء الجنود -ولا يزالون، وسوف يبقون (برغبتهم)- مجهولين يكتفون بأنهم في السماء أعرف منهم في الأرض!! إنه لا يزال في هذه الدنيا من يعملون لله والدار الآخرة ولا يعملون تعالـمًا أو تطاولًا أو رياءً أو كبرياءً، أولئك الذين يرحم الله بهم العباد، وينزل بهم الغيث، ويحقق ببركتهم المقاصد».

وقد خرج هذا المؤتمر بقرارات تاريخية أثمرت الكثير من النتائج الهامة على طريق التطبيق الشامل والكامل للشرع الحنيف، إن شاء الله تعالى، وجاءت هذه القرارات على النحو التالي:

*** كلمات التمهيد للقرارات**

من أجل استعادة مجد هذه الأمة الإسلامية.

ومن أجل نشر الأمن والطمأنينة في نفس كل من يقيم على أرض إسلامية[1]،

ومن أجل العودة إلى مصدر القوة والعزة والحضارة والرقي،

ومن أجل الالتزام بما أمر الله به في قرآنه العظيم، وما أرشد إليه الرسول ﷺ في سنته المطهرة،

ومن أجل أن تكون الشريعة الإسلامية هي مصدر القوانين في بلاد المسلمين؛

التقت الهيئات والجماعات الإسلامية الكبرى بمصر لمدة ثلاثة أيام (٢٧-٢٩ جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ، الموافق ١٤-١٦ من يونيو ١٩٧٧م) في وحدة متكاملة ومؤتمر كبير يعبِّرُ عن آمال جماهير المسلمين في تطبيق الشريعة الإسلامية تحت

(١) تفصيل ذلك وبيانه موصول بالقرار رقم ٥ .

رعاية فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، وبرئاسة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حسنين محمد مخلوف المفتي الأسبق لمصر؛ وذلك استجابة لما أوجبه الله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم، وما أَمَرَ اللهُ به من الدعوة إلى سَبِيلِهِ بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان ذلك بالقاعة الكبرى لبنك الائتمان الزراعي بميدان التحرير بالقاهرة، وقد استمع أعضاء المؤتمر إلى الأحكام الشرعية في وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، كما أوضحها كبار المسئولين من علماء مصر في كلماتهم بالمؤتمر، وخاصة كلمة فضيلة الإمام الأكبر **الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، وفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي وزير الأوقاف والأزهر، وفضيلة الشيخ محمد خاطر مفتي جمهورية مصر، وفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف المفتي ورئيس لجنة الفتوى الأسبق لمصر،** وكلمات الأساتذة: مدير الدعوة، ومدير الوعظ، وأمين مجمع البحوث، وأمين جامعة الأزهر. كما استمع أعضاء المؤتمر إلى البحوث العلمية المقدمة من الهيئات في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في اللجان الفرعية التي عقدت اجتماعاتها بالمؤتمر، حيث دارت المناقشات، ومُحصت الآراء، ثم أصدر المؤتمر القرارات الآتية:

١) كل تشريع أو حكم يخالف ما جاء به الإسلام، يقع باطلًا، ويجب على المسئولين رده، والاحتكام إلى شريعة الله، التي لا يتحقق إيمانهم إلا بالاحتكام إليها.

٢) الأمر بتطبيق الشريعة الإسلامية نزل به الوحي الإلهي، فليس لأحد أن يبدي رأيًا في وجوب ذلك، ولا تقبل مشورة بالتمهل أو التدرج أو التأجيل في تنفيذه.

٣) التسويف في إقرار القوانين الإسلامية معصيةٌ لله، واتباع لغير سبيل المؤمنين، وخروج على إجماعهم، ومضيعة لمصالح الأمة جمعاء. وعلى الهيئة التشريعية أن تبرئ ذمتها أمام الله والناس بسرعة إقرار مشروعات القوانين الإسلامية المقدمة إليها.

٤) تطبيق الشريعة الإسلامية هو الحل الوحيد لجميع مشاكل الأمة اقتصاديًّا واجتماعيًّا، وسياسيًّا، وعسكريًّا، وعلميًّا، وثقافيًّا.

٥) تطبيق الشريعة الإسلامية خير ضمان للوحدة الوطنية[١].

٦) ينظر المؤتمر بعين التقدير والأمل إلى ما صرح به السيد رئيس الجمهورية من عزمه على تطهير أجهزة الإعلام من الملحدين، ويناشده سرعة تنفيذ هذا في كل مراكز التوجيه والتربية ومواقع التأثير في مرافق الدولة؛ حرصًا على سلامة الأمة وقوة بنيانها.

٧) يناشد المؤتمر السيدَ رئيسَ الجمهورية إصدار أوامره بتطهير وسائل الإعلام من الموبِقات الأخلاقية التي تحرج صدور المؤمنين، وتستهين وتتجرأ على حدود الله وتدمر كيان الأمة.

٨) يناشد المؤتمر السيد رئيس الجمهورية أن يراعي عند الترشيح للمناصب القيادية في الدولة اختيار المعروفين بالخلق والدين.

٩) يقرر المؤتمر وجوب تربية النشء في جميع مراحل التعليم إلى نهاية الدراسة الجامعية تربية دينية تُكَوِّن عندهم الضمير الديني، وتغرس في نفوسهم مكارم الأخلاق، وتكسبهم الصلابة ضد كل زيغ أو انحراف؛ ليكون الشاب مسلمًا في جوهره ومظهره.

١٠) يجب إدراج حفظة القرآن الكريم من الفئات المستثناةِ من شرط المجموع عند الالتحاق بالجامعات والمعاهد العليا ودور التعليم المختلفة، كما يجب معاملة حفظة القرآن الكريم من المجنَّدين معاملة حملة المؤهلات العليا.

(١) وتفصيل ذلك ونشره بين المسلمين وبقية مواطني الدولة من النصارى واليهود واستثارة الهمم للترويج له وطمأنة ولاة الأمر وكذا عموم الناس؛ بل والغرب والشرق إلى تلك الفوائد الجَمَّة التي يجنيها الجميع من تطبيق الشريعة الغراء تطبيقًا راشدًا جامعًا للأمة، مبينًا لدين الله على الوجه الصحيح. على هذا عاهدنا أشياخنا وأئمتنا ومن علَّمُونَا، وإلى هذا المنتهى بإذن الله نسلمه لمن يملؤها عدلًا وقسطًا ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، اللهم آمين.

١١) يوصي المؤتمر بتقوية محطة إذاعة القرآن الكريم؛ حتى تغطي أنحاء العالم، مع النهوض بها وتحويلها إلى إذاعة إسلامية جامعة.

١٢) تكون اللجنة التنفيذية للمؤتمر في حالة انعقاد دائم لمتابعة الجهود في تنفيذ هذه القرارات التي تعبر عن إجماع الأمة على ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية. وندعو الهيئات والجماعات المشتركة في المؤتمر إلى الاجتماع كلما دعت الضرورة إلى هذا.

*** تبليغ القرارات**

وقد حمل وفد كبير هذه القرارات إلى رئاسة مجلس الشعب، واستمرت المناقشة فيها مع المهندس السيد مرعي رئيس المجلس، والدكتور العطيفي وكيل المجلس، وبعض النواب نحو ثلاث ساعات، وانتهت بتحويل القرارات إلى لجنة الشئون الدينية بالمجلس، على أن يشترك مع اللجنة بعض رجال المؤتمر، ويرفع تقريرها إلى المجلس قبل نهاية هذه الدورة. كما رُفعت القرارات إلى السيد الرئيس محمد أنور السادات والسيد ممدوح سالم، ثم إلى جميع الوزراء وإلى كافة الجهات المعنية المتفرعة من هذه الوزارات بصفة خاصة، على أن يقوم وفد مستقل بمناقشة القرارات مع هذه الجهات بعد دراستها.

وبُلِّغت القرارات كذلك إلى جميع السفارات العربية والإسلامية، والمنظمات العربية، والأزهر، والجامعة العربية، والجامعات الثقافية بالجمهورية، والجمعيات الإسلامية المحلية بالقاهرة، وفي خارج الجمهورية، والمساجد الكبرى بالقاهرة والمحافظات والعواصم والمدن المصرية، والسادة المحافظين، ومديري الأمن، ورؤساء مجالس المدن، ورؤساء المجالس المحلية والشخصيات المشتغلة بالقضايا الإسلامية... إلخ.

ومن الثمرات العاجلة لهذا المؤتمر الاستجابة السريعة من الأزهر الشريف بهيئة كبار علمائه، متمثلة بمَجْمَع البحوث الإسلامية برياسة فضيلة الشيخ عبد الجليل

شلبي، وكذلك مجلس الشعب المصري؛ بتشكيل لجانٍ علمية تَضُمُّ المشهود لهم بالعلم الثري والقانوني من أساتذة وقضاة، ومتابعة حثيثة لمجهوداتها، كما أثمر المؤتمر مجموعة ضخمة من الآليات الشرعية أهمها ما أعده مجلس الشعب المصري من سِفرٍ عظيم مبارك صالح للتطبيق في شتى المجالات، عُرف بعد ذلك بمشروع الدكتور صوفي أبو طالب لرئاسة المجلس واللجان المنبثقة عنه، وهو يعد بحق أساسًا هامًّا ومتينًا يمكن البناء عليه في أي مسيرة جادة للتطبيق الشرعي المعتدل والمستنير في أي نظام قانوني عربي، بل ويمكن للأنظمة القضائية والقانونية العربية والإسلامية التي قطعت شوطا في التطبيق أن تستفيد من هذا الجهد العلمي المشهود له من أكابر العلماء، فيمكنها أن تستفيد منه في تطوير وتعديل ومجابهة ما يَجِدُّ من ضرورات ومستحدثات أثناء تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء في المجالاتِ الجنائية والمدنية والتجارية وغيرها.

كما كان من ثمرات هذا المؤتمر ذلك التوجيه الصريح الذي وجهه السيد الرئيس محمد أنور السادات إلى السيد ممدوح سالم رئيس الحكومة بألَّا يبقى بأجهزة الإعلام رجل له توجهات إلحادِيَّة أو مخالِفة لأصول الدين في دولة العلم والإيمان. «وكان ذلك في الاجتماع الرسمي الكبير الذي عقدته اللجنة المركزية (العائلة المصرية الكبرى) لأول مرة بعد تشكيلها الجديد، وكان هذا من بعض مطالب المؤتمر»[1].

وفي تعليقه على هذه التجربة الفريدة وما أدَّت إليه من نتائج يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «كنا بحمد الله منذ نصف قرن أو يزيد أول من طالب بتطبيق الشريعة الإسلامية قانونًا وعرفًا، وكنا أول من أقام المؤتمر التاريخي الذي شاركت فيه الجهات الرسمية والشعبية لتحقيق هذا الغرض الكبير، وقد تابعنا قراراته حتى تألَّفَتِ اللجانُ بمجلس الشعب لهذا الغرض وحتى أنهت مهمتها، في رئاسة الأستاذ السيد مرعي

(١) «مؤتمر الجماعات والهيئات الإسلامية أول حادث تاريخي من نوعه بمصر» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، مجلة المسلم، العدد الثاني عشر، السنة السابعة والعشرون، غرة رجب ١٣٩٧هـ.

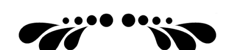
ثم الدكتور صوفي أبو طالب، ثم جاءت الظروف الطائشة فعطلت هذا المجهود وهو يوشك أن يؤتي ببعض الثمار».

وإضافةً لهذا المؤتمر الفريد كانت للشيخ محمد زكي إبراهيم ﵁ جهوده المتواصلة من أجل تقنين أحكام الشريعة الإسلامية في مصر والعالم العربي، وقد كانت آماله أن يحقق لهذه الأمة الحياة الإسلامية الصافية التي رسمها الله لعباده في القرآن الكريم، والتي حققها النبي ﷺ وحققها الخلفاء الراشدون من بعده، وقد تعددت جهود الشيخ العملية تجاه تحقيق هذا الأمل، وبهذا الصدد يقول الشيخ: «ما من أدنى شك في أننا أمَّة مسلمة، مجدها من مجد الإسلام، وأننا بموقعنا الجغرافي، وبموضعنا الديني، وتاريخنا في الحاضر والماضي، وبدورنا الثوري والقيادي، وبنظرة العالم كله إلينا، ثم بما يترصدنا به خصومنا في الداخل والخارج، بكل ذلك وما يتصل به من قريب أو بعيد تحتم علينا أن يكون دستورنا مستمدًّا من القرآن والسنة، وأن ينص على أن ديننا الرسمي هو الإسلام، وجدير بالذكر أن من دول أوربا دولًا ينص دستورها على أن دينها الرسمي هو المسيحية -كإيطاليا مثلًا- ومن لم ينص على ذلك صراحةً نص عليه عملًا، فأقام الأحزاب الدينية وقوَّاها وأمدها بكل وسائل القوة والنفوذ والخلود، سواء في ذلك فرنسا وإنجلترا وألمانيا، ففيها جميعًا الأحزاب المسيحية التي تسيطر على قرارات الدولة ومُقَدَّرَاتِها بصورة غير مباشرة، وليس هناك من يسمي هذا رجعية أو تخلفًا. حتى أمريكا نفسها بها من الأحزاب التي تشتغل بالسياسة ظاهريًّا وبالحركة الدينية في الحقيقة، وهذه إسرائيل تنص على أن دينها الرسمي هو اليهودية وأنها دولة تخدم الدعوة الصهيونية، وذلك دون أي اعتراض من أحد. فليس بدعًا إذن أن نطالب بإصرار وإلحاح مع كل محب لهذا الوطن ألَّا يفوت لجنة الدستور استقاء تشريعاتها من القرآن والسنة، والنص على أن دين الدولة هو الإسلام»[1].

ومن ثَمَّ كان الشيخ ﵁ دائمًا يحرص على المشاركة العلمية في اللجان التي

(١) المرجع السابق.

أنشئت من أجل تقنين الشريعة الإسلامية، وتفريغ الأحكام الفقهية في شكل مواد دستورية وقانونية. كما كان دائم الدعوة إلى عقد المؤتمرات لتطبيق شرع الله، وعلى سبيل المثال اتخذت العشيرة المحمدية الإجراءات اللازمة لانعقاد الدورة الثانية لمؤتمر الهيئات والجامعات الإسلامية لتطبيق شرع الله تعالى، «واجتمعت اللَّجنة التنفيذية العليا للمؤتمر، وناقشت الموضوع من كل نواحيه، واختارت لجنة فرعية، تكون مهمتها تحديد موضوعات البحث، وتوزيعها على الهيئات التي ستشارك في المؤتمر، وتوجيه الدعوة إلى الهيئات والجامعات، والاتفاق على الموعد والمكان، وتحديد التكاليف وتبليغ جهات الاختصاص، إلى غير ذلك من شئون التنفيذ العملي، والعمل ماضٍ بنجاح في طريقه، رغم محاولات التخريب من جانب المفرقين بين طوائف الأمة، باسم السلفية المظلومة»[1].



(١) «مجلة المسلم» غرة رجب لسنة (٢٨)، العدد (١٢) ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.





المسألة الثامنة

إحياء طرائق الدعوة إلى الإسلام

أولاً: التربية العلمية الشرعية والتدريب العملي على الاجتهاد والدعوة لتلاميذه من الخاصة والعامة

*** اجتهادات الشيخ ﷺ في التربية العلمية الشرعية لعامة مريديه**(١)

ومن ملامح التجديد لدى الشيخ تدريبه المستمر ﷺ لتلاميذه ومريديه على استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة بطريقة أصولية صحيحة، وكذلك تدريبهم على كيفية الترجيح بين الآراء في المسائل الخلافية؛ طبقًا للقواعد الأصولية.

كان الشيخ ﷺ يرى في كل واحد من مريديه قدراتٍ ومَلَكَاتٍ تميزه عن الآخرين، وعليه يبني توجيهه لكل واحد منهم على حدة، فمنهم من كلفهم وأعانهم على عمل البحوث وتخريج الأحاديث من خلال المركز العلمي الصوفي، ومنهم من أرشدهم إلى أبواب أخرى تتناسب مع إمكاناتهم، مثل تشجيع الشعراء النابهين والمداحين لرسول الله ﷺ ولآلِ بيته الأبرار. ومنهم من أرشدهم إلى أبواب الخدمة العملية للمجتمع المسلم؛ كالأطباء والمهندسين والمدرسين ورجال القانون، من خلال العمل الأهلي المنظم، ولم يكن ﷺ يستأثر بهم في مؤسسات العشيرة المحمدية من ملاجئ ومدارس وحضانات ومَشَافٍ؛ بل كان يحضهم على بذل الخدمة الاجتماعية التكافلية في أي تجمع أهلي (مدني) في أماكن سكنهم أو مواطنهم

---

(١) راجع المزيد حول الاجتهاد: «بغية المستفيد في الرد على من أنكر العمل بالاجتهاد والتقليد» للشَّوْكَانِيِّ، «الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد» للفَيْرُوزآبادِي، «تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد» للسُّيوطي، «إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين» للسيوطي، «انتقاد مدعي الاجتهاد» للسَّخَاوِيِّ.

الأصلية، مثل (القرى) التي جاء بعضهم منها إلى القاهرة وفاءً وَصِلَةً بما أمر الله به أن يوصل.

وكان ﵁ يَسْتَحِثُّ تلاميذه على إظهار مواهبهم وإبراز مَلَكَاتِهم، وألا يكتفوا بالاستماع إلى رأيه وعلمه، ومِن أحبِّ ما تعلمتُه من حضرته جمع الإخوان المتقاربي المشارب أو التخصصات، أو الذين تتكامل ملكاتهم وجهودهم، وكان ﵁ يحذِّر من أنَّ الشحَّ والبخل ليس في المال فحسب؛ بل في أن تضِنَّ بعلاقاتك الاجتماعية أو علمك أو الأسباب التي أتاح الله لك معرفتها، الشح جلُّ الشح أن تضن بها على من يحتاج إليها أو مَن قد تنفعه أو تشد عضده في مجالٍ ما.

ومنهم من أرشدهم إلى أبواب التفقه في الدِّين من خلال محاضراته وندواته وتسجيلاته وكتاباته ورسائله، وحضهم على دخول الأزهر الشريف والانضواء تحت لوائه لتكون دعوتهم على علم وبصيرة... إلخ.

*** اجتهادات المختصين من تلاميذه في العلوم الشرعية تحت إشرافه العلمي ﵁**

وفي طور أعلى يتجلى فيه تربية الشيخ رحمه الله تعالى لمريديه من العلماء الذين قطعوا شوطًا في العلم الشرعي، أجاز لهم ﵁ الاجتهاد في المسائل الجديدة والقديمة بالأصول الشرعية للاجتهاد، وهذا للمتخصصين من أبنائه وتحت إشرافه، ومع تصحيحه لهم أو إجازته لاجتهاداتهم؛ تنميةً لرُوحِ الاجتهاد بضوابطه الشرعية وعدم الاكتفاء بالتقليد.

ومثال على ذلك ما وقع معي شخصيًّا، فحينما انتهيت من دراساتي لقواعد التفسير والبيان والقواعد الفقهية المتعلقة بها، عرضت على فضيلته تفسيرات انتهيت إليها لبعضِ الأحاديث النبوية الشريفة التي تتردد على ألسِنَةِ بعض الغلاة ممَّن يعادون التصوف جملة وتفصيلًا، مستندين إلى هذه الأحاديث خطأً أو جهلًا.

وقد رأيت في تلك التفسيرات أنَّ الاستدلال الصحيح -طبقًا لعلم الأصول-

يؤدي إلى ترجيح مذهب المتصوفة في مشروعية التوسل بالأنبياء والصالحين. وبالفعل أجاز الشيخ الجليل ﵁ اجتهاداتي في هذا المضمار. وليس من المناسب في هذا الموضع الإسهاب في عرض مُفصَّل لاجتهاداتي تلك واجتهادات إخواننا من تلاميذ الإمام الرائد ﵁، وهم من علماء الأزهر الشريف وطلابه، ومن القضاة ورجال الفقه والقانون؛ ذلك أن المراد هو إظهارُ التدريب العملي الذي عايشناه مع شيخنا ﵁ في كيفية الاجتهاد وإنزال قواعد الاستنباط والاستدلال الأصولية على النصوص الشرعية، انتهاءً إلى تقرير الحكم الشرعي للمسائل المختلفة، وهو ما بيَّنَّاه جلِيًّا من عرضنا في مسألة سابقة لأوجُهِ الاستدلال الشرعي للإمام الرائد ﵁ في تفسيره لبعض الأحاديث والآثار النبوية الشريفة التي كثُرَ حولها اللَّغَطُ والجدلُ بين أنصار التصوف ومعارضيه.

وقد حوت هذه الاستدلالات مزجًا سلسًا لاجتهادات العلماء من السلف مع إضافات فقهية مستندة إلى أسس أصولية جديدة ساقها شيخنا ﵁، وهذا هو مدار التجديد المقصود تبيانه في هذه المسألة.

حث الشيخ ﵁ نخبة من تلاميذه على كتابة أبحاث علمية قيمة تحت إشرافه في الموضوعات الحيوية التي تعالج قضايا المسلمين ومشاكلهم في هذا العصر، كلٌّ في مجال تخصصه:

لم يكتفِ الشيخ بِحَثِّ تلاميذه على كتابة بحث علمي قَيِّم في موضوع هام يَمَسُّ أحوالَ المسلمين فحسْب، بل كان يُشرِف على طريقة إيصال العلم إلى الناس وكيفية هذا التوصيل على حسب حال المتلقي ومنزلته، وكانت لفضيلته مَلَكَةٌ تُنْبِئُ عن توفيق الله تعالى له في تعليمنا دُربة موالاة تذكير الناس والصبر على الخاصة والعامة في تبليغهم بالنافع والمناسب لهم من العلم بعد تحريره وكتابته، ثم تَحَيُّن كل فرصة لتَزْيينه لهم وعدم الاكتفاء بالمحاولة مرة أو مرتين.

وأَوَدُّ أن أشيرَ هنا إلى تجرِبَة عملية شخصية لي مع شيخي طَيَّبَ الله ثراهُ، متعلقة

بتطبيق الشريعة الإسلامية في النظام القانوني والقضائي في مصر، آمِلًا أن يعُمَّ ذلك في حينه جميع أرجاء العالم العربي والإسلامي، تعلمتُ فيها من خلال إشرافه ومتابعته وتعليمه وتربيته، كيف أطبق فقهَ الأولويات وفقه التدرُّج وفقه الضرورة وفقه الرُّخْصَة وفقه العزيمة وأدب الخلاف وأدب دعوة الحكام.

وحيث إن هذا الموضوع الهام لا يتسع له المقام في هذا البحث الموجز، فسوف أخصص له مؤلفًا خاصًّا إن شاء الله تعالى يتناول جميع جوانبه الشرعية والقانونية؛ فجزاه الله عنَّا خير الجزاء وعن دعوته الدءوبة لتطبيق الشريعة الغَرَّاءِ وما أثمرته من نتائج، وما يُنتظر أن تُثمره من الخير بإذن الله.

*** إحياء الشيخ ﷺ لسنة التناصح بالتراسل بين الإخوان وحث تلاميذه على ممارستها**

كان ﷺ يحث تلاميذه على دراسة مراسلاته المتعددة مع إخوانه من العلماء للتناصح وتبادل الآراء، كما يحثهم على التأسي بهذا النهج المجدي والتدرب عليه تحت إشرافه عند ممارستهم الدعوة بأنفسهم؛ وذلك إحياءً لسُنَّة المصطفى ﷺ، وكذلك لما في الكتابة والقراءة من سِرٍّ وبركة؛ قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] و﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦]، وكذلك لما فيها من بعد عن الرياء والمكابرة.

وفيما يلي إحدى هذه المراسلات، وهي أنموذج حي في أدب العارفين وتناصحهم في الله تعالى، كان سيدي الإمام الرائد محمد زكي إبراهيم رحمه الله تعالى قد كتب إلى الأستاذ الجليل العارف بالله الشيخ أحمد رضوان البغدادي الأقصري رَحِمَهُ اللهُ، يهنئه بمناسبة افتتاح المسجد الرضواني وساحته المباركة بـ «البغدادي» بـ «الأقصر»، فكتب السيد أحمد رضوان إلى السيد الرائد هذا الخطاب الكافي الشافي، وقد وجهه إلى جميع الإخوة والمعارف والأحباب؛ نصيحة باقية وأثرًا مسجلًا وبيانًا مذكورًا مشكورًا لكل سالك يطلب الله أو واقف على باب الله.

خطاب من السيد العارف بالله الشيخ أحمد رضوان البغدادي إلى فضيلة السيد الرائد والأحباب جميعًا

قال العارف بالله الشيخ أحمد رضوان رَحِمَهُ اللهُ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

من العبد المسكين الذي ليس له لذة في هذه الدار إلا التعلُّق بالملك الغفار، الذي ضاع عمره سُدى؛ أحمد رضوان.

إلى أخ الروح الذي منَّ الله عليَّ بمعرفته وجمعني به، شيخي وأستاذي السيد محمد زكي إبراهيم.

أخي، إن من أراد الله تعالى بقلبه وسِرِّهِ ورُوحِهِ وبشريته قام له وقام به، لا يريد عوضًا في عبادته، ولا يريد جزاء على طاعَتِه، فهو بين الخوف والرجاء والطمأنينة والقلق، لا يصاحب نفسه، ولا يرى لنفسه عملًا مهما كان عمله؛ فإن المنة لله والفضل له، حيث وفَّقه لتوحيده، ودلَّه على رسوله ﷺ، وعرَّفه بأهل حضرته.

أخي المحبوب، إن العبد إذا قال: «لا إله إلا الله» صادقًا من قلبه، يبغي بها وجه ربِّه، ملأت القلب نورًا، فلا تبقى بقيَّةٌ لغير الله في لُبِّهِ، فيعطي القلب البشرية ما يعصمها من السِّوَى، فتصير بشريَّة مَلَكِيَّة، لا تَقَع منها هفوة ولا غفلة ولا ذِلَّة ولا لهو، يَتَقَذَّرُ كل قاطع يقطعه عن ربه، وعلامة ذلك أن يصير ما كُلِّف به من الله كلَفًا وحبًّا وسرورًا وطربًا.

لا يعرف النوم في سَحَرِه، ولا يُطلِق لسانه إلا فيما يحب مولاه، يعد أنفاسه ويحصيها، يستعذِبُ البلاءَ فيه، ويراه مِنَّةً عليه، ويترك الراحة والبطالة؛ لأنه صار في المعيَّة الكبرى، وعلامة ذلك أن يأخُذَ من القرآن ما يسوقُه له رَبُّهُ من غير معلِّمٍ يعلمه، ومن السُّنَّةِ ما يجعله متبعًا لصاحب السُّنَّةِ، وعند ذلك تأتيه التنبيهاتُ والبشاراتُ، فلا يقف مع عرش ولا فرش، يكون في الدنيا وليس هو فيها، ويكون مع الناس وليس هو مع الناس.

يُبغِض الراحة أملًا في ذكر ربه، ويهجر الأكوان أملًا في فكرة وعبرة، وعلامة ذلك أنه لا يريد الشهرة ولا الصيت، وليس له أُذُنٌ تسمع المدح والذم، انفرد للهِ بالله، وانقطع لله بتوفيق الله، فعند ذلك يُنَادَى عليه في السماوات: إن الله يحبه. وتحبه ملائكة الله، ويداوم على المعرفة والخوف والمراقبة والحياء، لا يَفْتُرُ عن العمل عبوديةً لله.

يرى القِلَّةَ كَثْرَةً والسقم عافية؛ لأنه يُحِبُّ الحَقَّ، وما يأتيه منه يراهُ جميلًا، كأنَّ الآخرة بين عينيه، يقصر الأمل ويكثر العمل، ويخاف الفوت، بَكَّاء بالأسحار، بسَّام بالنهار، هيِّن ليِّن متواضع، يؤثر إخوانه على نفسه، يوالي أهل حضرة الله، ويُبغِض أعداء الله، وينصح لله، ويحب في الله، ويهجر لله، ويعطي لله، ويمنع لله، سائرًا بروحه إلى رَبِّهِ، لا يقف مع ملك ولا ملكوت، ولا مع عرش ولا جبروت.

يفرح بالخَلوة ويكره الجَلوة[1]، ويحب إخماد صيته إلا إذا أظهره الله، وعلامة ذلك أن يكون فارغ القلب ممَّا سواه، صحب الله على صدق، وأحبَّه على وجد، يُسارع له في الخيرات، كثير الذكر، كثير الشكر، لا يحب النومَ ولا يشتهيه، ولا يحب أحدًا لغير رَبِّهِ، تراه حتَّى في بيته ومع زوجته سائرًا إلى الله.

اتخذ في هذه الدار أنسه بالله، وسيره لله، وصمته لله، وذكره لله، فهو بالله قائم، لا يصاحب نفسه، ولا يرضى عنها، ذليل في عز، وعزيز في ذل.

انقطع إلى الله بكُلِّهِ، والتجأ إليه في جهره وسره، خرج من مراده إلى مراده، صار ليس له بغية إلا الله، إن أقعده شكر، وإن سيَّره ذكر، هائِمٌ به، متحسر لطول البقاء في هذه الدار، لولا الأجلُ المحتوم لطارت روحه إلى الله، لا يدَّعي مشيخة، ولا يدعي سيادة. وعلامة ذلك أن يجلس حيث ينتهي به المجلس، تراه بين إخوانه لا علامة لظهوره، ليس بمتكبر ولا متجبر، يتهم نفسه في أعماله الصالحة، وإذا

---

(١) راجع المزيد حول الجلوة: «الجلوة في أقسام الكشف والعزلة والخلوة» للمرصفي، «الجلوة في الخلوة» للقاوقجي، «الجلوة لأرباب الخلوة» للكردي، «عروس الجلوة في فضل اعتكاف الخلوة» للبيتماني.

ساق أحدًا إلى الله ساقه بالله، لا لشهرة ولا ليقال: إنه عارف أو ولي، لا يطلب كرامة ولا خرق عادة.

أفضل الأشياء عنده العبودية، وأشهى شيء له في الدنيا والآخرة الحق، تأخذه العَبْرَةُ فيكاد أن يذوب، ويأخذه الشوق فيكاد أن يموت، لا ينتَصِرُ لنفسه، ولا يدعو على غيره، تراهُ بذَّالًا للمعروف، لا يجمع الدنيا لغرض فيها، ولا يتعجَّلُ أمرًا أقامَهُ الله فيه، يتمسكن لربه في كل أوقاته، كثير السؤال، قريبًا إلى المؤمنين، سهلًا، حظُّهُ التعلق بالله، وطلبه في الآخرة النظر إلى وجه الله.

وإني يا سيدي أكثرت عليكم، وأنتم أهل لما أقول.

أرجو يا سيدي كُلُّ من جلس بجواركم أو صاحبكم أن تعلموه وتسوقوه وتهذبوه، وكونوا جميعًا دعاة إليه، واحذروا الدخيل فيكم، وأحصوا عددكم، وافرزوا جُلَسَاءَكم، والحذرَ ممن ينتسبون إلى الدين ولا يريدونه، ويحتسبون أنفسهم مسلمين، يريدون أن يخدعوا الناس بأقوالهم.

ثم ادعُوا لي؛ فإني متأخر عن القوم، غشَّتني نفسي، وسترت عليَّ حالي، وقد قرب رحيلي وتحطم جسمي، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ادَّعَيْتُ الصلاح وأنا لست من الصالحين، وتظاهرت بسمات القوم ولست من القوم، فلما علمت خيانة نفسي بادرت إليه به، واعتذرت إليه به، وتبت إليه على قدر جهدي.

سلامي لأهل العشيرة المحمدية، وإني أسألُكُمُ الدعوات، مَن عرفتهم في الله يسلمون عليكم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

من الفقير المسكين المقصر الراجي

عبد الله أحمد رضوان البغدادي- بقنا

ثانيًا: دعوة غير المسلمين إلى الإسلام؛ تأسِّيًا بأئمة التصوف من السلف الصالح

* المشاركة في إنشاء مكتب رعاية المهتدين إلى الإسلام

ومن أهم جهود الشيخ محمد زكي ﵁ العملية في الدعوة إلى الله: مشاركته الفعلية في إنشاء مكتب للمهتدين إلى الإسلام، وقد نشأت لدى الشيخ ﵁ الفكرة من كثرة المترددين عليه لتفهم حقيقة الإسلام الذي لَطَالَمَا وصل إلى الكثيرين مُفعمًا بالمُفْتَرَيَات والأباطيل من قبل المستشرقين؛ سواءً عن جهل أم سوء قصد، وإنا لله وإنا إليه راجعون! وقد هدى الله تعالى منهم الكثيرين على يديه إلى الإسلام.

وقد لاحظ كثير من الباحثين والمراسلين المتابعين للشأن الإسلامي في الغرب والشرق أن جُلَّ الداخلين في الإسلام كان وراء هدايتهم دعاةٌ من المتصوِّفَةِ المنتسبين لإحدى الطرق الصوفية الشرعية المنتشرة فروعُها وزواياها منذ قرون في شرق آسيا وجنوب روسيا، وكذلك في دول أوربا وأمريكا.

وقد تعددت جهود الشيخ ﵁ في هذا المضمار سواء بالمشاركة أو بالرعاية أو بالنصيحة[1].

* تشكيل هيئة لموالاة ورعاية المهتدين إلى الإسلام

وقد توافد على الشيخ محمد زكي ﵁ في مَقَرِّ العشيرة المحمدية –منذ إنشاء ذلك المكتب وحتى لقي ربَّه ﵁– نفرٌ غير قليل لإشهار إسلامهم، فقام ﵀ بتشكيل هيئة من رجال العشيرة، وكَلَّفَهُم بمُوَالَاةِ هؤلاء المعتنِقين الجدد للإسلام ورعايتهم، حتى يَتَبَيَّنَ الخبيث من الطيب، والصادِقُ من الكاذب، وسجل هذا في لائحة العشيرة الرسمية، وقال في هذا الصدد: «وجدنا من هؤلاء الصادق المتعيِّن

(١) راجع تفصيلات مفيدة حول هذه المسألة والتي تليها في رسالة الدكتوراه القيمة للدكتور مصطفى خليل، كلية أصول الدين، قسم الدعوة، جامعة الأزهر الشريف، والتي أجيزت بدرجة امتياز.

احترامه، كما وجدنا منهم الكذاب والمحتال والمخادع والمتجسس والمنحرف وغيره، ولما كان بعض هؤلاء المنحرفين يستغلون فترة اتِّصَالِهم بالعشيرة ورجالها في تحقيق مأربهم؛ فإننا نرجو ألا يُعار أحدُهم أي اهتمام ما لم يكن بيده خطاب رسمي مختوم بخاتم العشيرة، ثم لا يُكتفى بمجرد الإشهاد له بالإسلام حتى يكون بيده شهادات الميلاد الرسمية مسجلة بالاسم الإسلامي الجديد، ولا يجوز لإخواننا تقديم أية معونة مادية أو معنوية له إلا عن طريق العشيرة، ومن الخير أن يستأنس الأزهر والأوقاف في مثل هذه الحالات برأي العشيرة المبني على البحث والخبرة؛ منعًا من العبث بالأديان على الأقل»[1].

وقد قامت هيئة رعاية المهتدين إلى الإسلام بالعشيرة بواجبها نحو هؤلاء بكل ما تفرضه الأخوة الإسلامية من واجبات والتزامات؛ تربويًّا وتوجيهيًّا وإنسانيًّا وماديًّا وأدبيًّا، بكل ما في وسعها ووسع أبنائها. وأضرب لهذا مثلًا: «قدمت هيئة رعاية المهتدين إلى الإسلام بالعشيرة -في ليلة انعقاد الجمعية العامة للعشيرة- أخًا هداه الله إلى الإسلام الحق، بعدما اجتاز الاختبار الذي تقوم به الهيئة المختصة بهذا الشأن، وقد تسمَّى هذا الأخ باسم (عز الدين أمين) وبين مظاهر الفرحة والحب أُعلن إسلام هذا الأخ، وارتجل بعض شعراء العشيرة أبياتًا تحية للأخ الجديد»[2].

---

(١) «مجلة المسلم»، غرة جمادى الأولى، السنة (١٨)، العدد (١٠) ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

(٢) ومن هذه الأبيات ما يلي:

بِاسْـمِ الْعَشِيرَةِ وَالْإِسْلَامُ يَرْعَانَا * وَرَائِدُ الدَّارِ بِاسْمِ اللهِ حَيَّانَا

إِنَّا خُلِقْنَا وَدِينُ اللهِ بُغْيَتُنَا * وَالْمُسْتَعِزُّ بِهِ فِي النَّاسِ مَا هَانَا

زَفَّ الْبَشِيرُ لَنَا بُشْرَى تَحِنُّ لَهَا * منا النُّفُوسُ وَرَبُّ الْعَرْشِ يَرْعَانَا

قَدْ قَالَ أَسْلَمَ لِلرَّحْمَنِ ذُو أَمَلٍ * يَرْجُو رِضَاهُ فَنَالَ الْيَوْمَ رِضْوَانَا

وَقَدْ تَسَمَّى «بِعِزِّ الدِّينِ» فَانْحَدَرَتْ * عَنْهُ السَّفَاسِفُ لَمَّا أَسْلَمَ الْآنَا

إِنِّي أُحَيِّيهِ بِاسْمِ الْجَمْعِ كُلِّهِمِ * وَأَسْأَلُ اللهَ تَثْبِيتًا وَغُفْرَانَا

انظر: «مجلة المسلم»، غرة جمادى الآخرة، السنة (١٧)، العدد (١١) ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

* **استقبال الوفود الأجنبية للدعوة إلى الإسلام**

بتوجيه من وزارة الشئون الاجتماعية قام السيد (م. هيورد) المعلق الإذاعي البريطاني بزيارة المركز الإداري للعشيرة، كما زار مركز قايتباي للعشيرة، وقد أبدى إعجابه بالجهد المبذول الذي تقوم به العشيرة في خدمة الأحياء الفقيرة، وقد اسْتُقْبِلَ ووُدِّعَ بأحسن ما يكون، فكانت العشيرةُ خير سفير إلى الدول الغربية للإسلام والمسلمين بمصر[(١)].

وقد زار الدار المحمدية الدكتور (أرنست بانرت) أستاذ اللغات الشرقية والفلسفة والتصوف بجامعة فيينا بالنِّمْسَا؛ والذي كان ضيف دير الدومينيكان بالعباسية، وقد قضى وقتًا طويلًا طيبًا مع السيد الرائد في حديث شامل للنواحي الصوفية والفلسفية وأصول الأديان ومراتب الصوفية، كما تطرق الحديث إلى قضايا عالمية عدة، وانتهى المجلس بأن أَخذ صورة تذكارية للسيد الرائد والدار المحمدية، وخرج وهو يقول لمرافقيه: من لم يدخل هذا الباب لم يُنْصِفْ نفسه، ولم ينصف التصوف الإسلامي. وقال أيضًا: إنه زار كثيرًا من المشتغلين بالتصوف هنا، فكان يرى صورًا مغرية ومخزية، ولكنه لم يَرَ تحقيقًا ولا علمًا ولا تطبيقًا ولا وعيًا صوفيًّا عالميًّا كالذي رآه في هذه الدار[(٢)].

كما زار -في أوقاتٍ متفرِّقَةٍ- عددٌ من الخبراء الأجانب ومراسلي الصحف مع مندوبي وزارة الشئون الاجتماعية بعضَ مؤسسات العشيرة المحمدية؛ لنقل ونشر تجربة العشيرة في إنشاء مؤسساتها في الأحياء الفقيرة والمواطن المحرومة من الخدمات، وللاستفادة من النتائج الإيجابية لهذه الجهود المحمودة التي تعطي صورة مشرقة للإسلام كنظام اجتماعي متكامل يهتم بكل شئون الحياة للفرد والجماعة على حد سواء، وفي ذلك دعوة عملية وتصحيح لصورة المجتمع المسلم.

(١) «مجلة المسلم»، غرة الربيعين السنة (٣٠)، العدد (٨، ٩) ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
(٢) «مجلة المسلم»، عدد جمادى الآخرة السنة (١٤) العدد (١١) ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

وهكذا نرى أنَّ العشيرة المحمدية تحت إشراف إمامها الرائد لم تدخر جهدًا في حدود ميزانيتها المحدودة لتبيان صورة الإسلام الحق لغير المسلمين بالداخل والخارج، وقد كانت -وما زالت- جهودُهَا المتواصلة في هذا المضمار خير دليل على أن دين الإسلام ليس دينًا للتعبد السلبي، وإنما هو دين العمل والرحمة والتكافل الاجتماعي على أعلى مستوى وفي أرقى صورة.

ثالثًا: الإحياء والبيان العلمي والعملي للدور الشرعي المستنير للمجتمع النسائي في الدعوة

* رؤية الشيخ للمرأة المسلمة ودورها في المجتمع الإسلامي

معبرًا عن رأيه في أهمية دور المرأة المسلمة في النهوض بالمجتمع الذي تعيش فيه، يقول الشيخ رضي الله عنه: «ومن العهد علينا أن نذكر أن المرأة نِصف الحياة، وقد اهتم بها القرآن الكريم، فقرنها بالرجل في أعمال الخير والأخلاق والروحانية جميعًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ...﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقد أعطاها الله ورسولُه من الحقوق ما أكبر شأنها ورد اعتبارها، وأكَّدَ حَقَّهَا، وألزمها في مقابل ذلك بواجبات ومجاهدات، كان لها فيه تاريخ من أشرف ما عرف البشر.

ولا ينكر أحد جهاد السيدات من أهل بيت المصطفى ﷺ، ومن نهج نهجهن من كبريات المتصوفات وشهيرات المسلمات على العموم في السلم والحرب، وما كان لهن من أثر خالد في مختلف وجوه الحياة العامة، ومن هنا نظمنا قسم سيدات العشيرة؛ لنتيح لزوجات الإخوان وبناتهم ومن ينتسب إليهم أو يتصل بهم من سيدات فرصةَ التربية الإسلامية والخدمة الدينية، ونعود بهن إلى أكرم صور الحياة؛ لعهد السلف الصالح وأمهات المؤمنين، والله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، والنبي ﷺ يقول:

«**النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»[1]، فهن مطالَبَاتٌ بكل ما يَخُصُّهُنَّ، وما يجوز لهن الاشتراكُ فيه، من كل ما يكلَّفُ به رجال العشيرة، من واجباتٍ قولية وعلمية واعتقادية، في حدود طاقتهن، على أساس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]»[2].

ومن ثَمَّ فقد كان تعامل الشيخ رضي الله عنه مع النساء تعامُلًا مثاليًّا؛ إذ إنه -كما أسلفنا- كان يَنظر إلى المرأة بتقديرٍ واحترام كعضو هامٍّ في بناء المجتمع الإسلامي المثالي، فهي الأم والزوجة والابنة التي لا يصلح المجتمع المسلم إلا بصلاحها ولا يرتقي دون رقيها، فسعى جاهدًا لبناء شخصية المرأة المسلمة من خلال بناء شخصية سيدات العشيرة الفضليات في أمور الدين والدنيا ليكُنَّ قدوة حسنة لغيرهن في المجتمع الإسلامي الكبير. وكأنه رضي الله عنه يتمثل في تعليمهن وموالاة تربيتهن تربية إسلامية عملية وتدريبهن على السلوك المثالي للمرأة المسلمة، كأنه يتمثل القول المشهور لأحمد شوقي رحمه الله:

الْأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا * أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ

وها هي السيدة فاطمة النبوية ابنة الشيخ التي تربت في حجره وتأدبت بأدبه، ونهلت من علمه، مثال حيّ لاهتمام الإمام الرائد رضي الله عنه بتثقيف المرأة وتعليمها وتربيتها وتزكيتها لتكون عضوًا فعَّالًا في مجتمعها، تنشر العلم والخير بين بنات جنسها.

تقول السيدة فاطمة النبوية محذرةً أَخَوَاتها المسلمات من الوقوع في شراك المضلين من الكفرة والجهلة والملحدين، ومن الانخداع بشعاراتهم البراقة الزائفة: «المرأة المسلمة -بما ظهر على مَرِّ القرون من فضلها وعظمة دورها وقوتها وصبرها

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ١١١) برقم (٢٣٦)، والترمذي: (١/ ١٨٩) برقم (١١٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية الشاذلية» (ص١٤٥، ١٤٦).

على تحمل الشدائد- قد استهدفها أعداء الإسلام، يتربَّصُونَ بها الدوائر، ويدبرون المكايد، بما يبثون عبر وسائل الإعلام، وينشرون من دعوة التبرج والسفور والاختلاط والتحلل، باسم الحرية والمدنية، إلى ما هو أخطر من ذلك من دعوة إلى البغاء والرذيلة والفواحش علانية، أفرادًا وجماعاتٍ. وإنه لا تسلم من هذا المد الجارف إلا من تمسَّكَت بدينها، وعرفت حدود شرع ربِّها، فآمنت وأطاعت ودافعت عن نفسها وبيتِهَا وأخواتِهَا المسلمات بكل ما أوتِيَتْ من قوة وعزيمة؛ ولذا اهتم الشيخ محمد زكي بالمرأة في كل أطوار حياتها، فكانت له اهتمامات واسعة بالمرأة المسلمة تثقيفًا وتعليمًا وتربيةً وتزكيةً، ومن آثار هذا الاهتمام عقد دروس وندوات ولقاءات بالعشيرة المحمدية؛ لوعظهن وإرشادهن، بجانب إصدار المقالات والكتب لهن، كما أَعَدَّ لهن بابًا خاصًّا في مجلة المسلم، تحت عنوان (الأخت المحمدية)»[1].

* تخصيص درس أسبوعي لتعليم المرأة وتوعيتها علميًّا وعمليًّا بدورها الجوهري في النهوض بالمجتمع الإسلامي

ومن جوانب التجديد عند الشيخ ﵁ أنَّه أحيا سنَّة المصطفى ﷺ في تخصيص وقت محدَّدٍ بصِفَةٍ دورِيَّة لموعظة النساء، فاختَصَّهُنَّ بدرس أسبوعي حرص عليه عشرات السنين رغم كثرة مشاغله وأعبائه، ورغم ظروفه الصحية غير المواتية، فكان يستمع إليهن وينصحهن ويعلمهن برفق ورأفة وأبوة، حتى إنهن كن جميعًا يطلقن عليه: «بابا الشيخ»؛ إذ إنه كان قد قارب السبعين عامًا وكان لهن بمثابة الأب المربي أو الجد الحنون.

ولم يكن هذا مألوفًا لدى مشايخ الطرق الأخرى، وقد أزال هذا اللقب الذي علمهن الأب الحاني بنفسه حاجز الخوف والرهبة الذي طالما وقف حائلًا بين المعلم وتلاميذه دون كمال التعلم والاستفادة، وفضلًا عن هذا الدرس الخاص لم يمنع

---

(١) «صحيفة الأخت المحمدية» تقوم بتحريرها ابنَةُ الرائد السيدة هانم النبوية، وتكتب فيها مع مجموعة من الفتيات المحمديات.

الشيخ النساء من مشاركة الرجال في حضور كل الدروس والمحاضرات العامة ومجالس الذكر والعلم، مع المراعاة التامة للضوابط الشرعية في الزي والاختلاط، فكان ذلك تدريبًا عمليًّا على الاختلاط الشرعي الذي كثيرًا ما تفرضه الحياة الاجتماعية، خاصةً في الحياة المعاصرة. ولا أعلم أحدًا قد اقتحم موضوع الاختلاط علمًا وعملًا مثلما فعل الشيخ الجليل دون خوف من أذى المفرطين الذين يُحرِّمون الاختلاط بالنساء تحت أي ظرف ولو بضوابطه الشرعية، ولو لمواجهة ضرورات الحياة؛ تشددًا وتعنتًا بغير دليل. ولا المفرطين من الجانب الآخر من دعاة الحرية الرخيصة والابتذال، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين تحت ستار الحرية ورفع الظلم عن النساء «المقهورات».

فكان ﷺ بسلوكه الفريد الحكيم نبراسًا للهدي المحمدي الوسطي، وبفضل الله أثمرت جهوده في هذا الميدان أيضًا ثمارًا حسنة، فاقتدى به وسار على نهجه رهط مبارك من علماء عصره، فأصبحوا بدورهم دعاة لوسطية الإسلام.

*** بعض العلل الاجتماعية الخطيرة.. ودور المرأة في علاجها**

وقد كان ﷺ حريصًا على أن تتضمن محاضراته كنوزًا من المواعظ والإرشادات والنصائح والتوجيهات بصورة مباشرة وغير مباشرة للمرأة المسلمة في جميع جوانب حياتها الدينية والعملية والثقافية والصحية والاجتماعية؛ ليعينها على تأدية دورها الذي خلقها الله سبحانه من أجله؛ لترتقي بأسرتها خاصَّة وبمجتمعها عامة. وقد اهتم اهتمامًا خاصًّا بنشر المودة والرحمة بين أفراد الأسرة عامةً وبين الأزواج خاصةً، وذلك في مقابل المنهج الأجنبي السائد القائم على مفهوم الصراع والشقاق وعدم الثقة بين الرجل والمرأة بصفة عامة.

ومثالًا لذلك أسوق إليكم جزءًا من إحدى محاضراته الهامة في هذا المضمار، وكان عنوانها «سياسة الزوجين» وفيها يقول الشيخ ﷺ:

«لقد أحببت أن أُلِمَّ في هذه الكلمة ببعض الأمراض الزوجية، التي هي علة العلل في حياتنا الاجتماعية، إلمامًا في غاية الاختصار، فبعض هذه الأمراض بحثُها وتفصيلُها لا تناله محاضرة ولا اثنتان، فالمرأة سِرُّ الدنيا ومظهر موادِّهَا المختلفة في طريقيها المتدابِرَيْنِ، من الشيء ونقيضه، هذان الطريقان اللذان يتدابران على كرة الحياة من مركز واحد هما لا بد مجتمعان في نقطة واحدة، ولكن على نصف الكرة الثاني... والحياة والدنيا رجل وامرأة، إذا تمت لهما معًا معاني الإنسانية الخاصة بكل نوع على حسَبِه، وما من مخلوق من أجله تمت هذه الحياة، وبدت في صورتها التي خلقها الله عليها، كاملة في كل وجوهها، ماضية في طريقها تؤدي مهمتها كما هي وكما يجب أن تكون، أما إذا لابَسَ هذه المعاني شيء من النقص في ناحية ما، شوهت هذه الحياة وبدت قبيحة ملعونة من طرفيها جميعًا، وعرجت إلى سبيل النقص الذي لا يمكن معه تأدية هذه المهمة على وجهها، فينتقض حجر السعادة منها.

وليس عجيبًا أن تكون الحياة السعيدة «رجلًا وامرأةً»، ولا تكون أموالًا وقصورًا ولا متاعًا وزينة فقط، وأحسب أن السعادة قد تَفِرُّ من قصرٍ شامِخٍ متكبر إلى كوخ حقير متواضع ترى فيه نَدَى الحياة الصحيحة على زهرة ضمير الزوجين الفقيرين، فإذا هما في السعادة وعلى السعادة، ومنها وإليها يمضيان، وإذ قلباهما طورٌ نوراني مستور لمناجاة نفسيهما، هذا المعنى الروحاني السامي، حتى إذا تجلت أنواره وأشرقت شمسه الضاحكة على هذين القلبين، رجفا رجفة الحمد ناطقين، ودقَّا طبول البشارة خافقين».

* الحب بين الزوجين أساس لقوام العمران في المجتمع العالمي

جميل.. جديد.. رشيد!! كلام الإمام عن علاقة الرجل بالمرأة، علاقة الزوج بالزوجة، تلك العلاقة الربانية العفيفة المعجزة بين رجل وامرأة لربما ظلَّا دهرًا غريبين أحدهما عن الآخر، ثم بين يوم وليلة تتحول الغربة إلى ألفة ومودَّة وتعاطُف ورحمة، فيسكن كل منهما للآخَر، ويأنس إليه ويسعد بقربه ويستوحش ببعده ويحزن

لفراقه ويتألَّم لألمه ويطرب لفرحه، ويذود عنه بيده ولسانه، ويفديه طوعًا بروحه. فيا لها من رحمةٍ مهداةٍ ونعمة مسداة من ربٍّ كريم قدير، بعباده رءوف رحيم، سبحانه جل شأنه!! هذا هو الحب الذي يحدثنا عنه شيخنا ﵁، تلك العاطفة السامية بين رجل وامرأة، وقد عهدنا ألَّا نسمع عن الحب إلا من العابثين واللاهين، المشوهين لحقيقة هذه النعمة العظيمة التي أنعم الله سبحانه بها على عباده لتغمُرَهُم بالسكينة والرضا، وتعينهم على تحمل نوائب الدهر ومشقَّةِ الحياة، فيكشف الشيخ عن جوهر هذا الحب، مبينًا المشروع منه والممنوع، المندوب والمحظور، الجميل والقبيح، وكل ذلك بأسلوب عصري سلس يخاطب عقلية إنسان العصر ويَمَسُّ وجدانه دونَ استحياء من الحق ودون أن يخشى في الحق لومة لائم. فقد عزم ألَّا يترك الجميل من المعاني النبيلة حِكرًا على أهل الأهواء والمعاصي، فكان كلامه عن «الحب» وبيانُه لجوهَرِه درسًا جديدًا ممتعًا نافعًا.

فانظر إلى هذا النص الماتع الراقي وتخلق به وانشره بين الناس، يقول ﵁: «الموضوع نفساني محض، قاعدته الحب -وأستغفر الله- الحب الشريف الزوجي لا غيره، والحب سر من أسرار الغيب المعجز، تنبني عليه دعامة الإنسانية من طرف وتنهدم من طرف آخر، وهو قِوام العمران في الاجتماع العالمي: من زوجين وأخوين، إلى رفيقين، إلى أمَّتَيْن، إلى قارتين وعالمين، حتى إلى السماء والأرض!

ثِقُوا يا أبنائي أنَّه لولا الحب لما أخذت الدنيا زخرفها وازَّيَّنَتْ، لا أريد زخرفًا وزينة نفسية بين قلبَيْنِ، تهرم السعادة فيهما على شبابهما بما ينزل على رأسِهَا من دَقَّاتٍ، وتتهرب بما تسمعه فيهما من أصوات نواقيسِ هذه الصدور المضطربة الثائرة، ولكنْ زخرفًا وزينة من العلم وأثره بين ما يحمله لفظ اثنين مطلقًا، وهناك لِبناء هذه الحياة الثابتة المتهللة بشرًا وسعادة أسسٌ وقوائم فرعية، كلها متشبعة عمَّا يحمله الحب من خلائق التسامح والتعاون وتقدير الواجب.

وأريد أن أتكلم في إيجاز عن أحد هذه العناصر، وأثره في الرابطة الزوجية، وأثر

هذه الرابطة الحية في الجامعة الإنسانية، وهو تقدير الواجب، ولعلنا نسميه الوفاء، وأوضح ما يكون هذا الخلق في المعاملة الزوجية والرحمة التي هي باعث المحبة وأولى قواعد الرحمة في الحديث، ولا تستهينوا بها، ففي إمكانك أن تقول لزائرك: «تفضل هنا» مثلًا، وفي إمكانك أن تقول له: «اجلس هنا»، إلا أنه في الأولى يفيض سرورًا ويحس بتقديرك إياه، وفي الثانية يمتلئ نفرة، ويحس بإهانتك له، وكلتا الكلمتين تؤديان معنًى واحدًا، غير أن التعبير أثره في النفس مسلم به، فسياسة الكلام دعامة قيمة في بناء المجتمع، ففي مُكنتك أن تُسيِّر دَفة الأعمال في منزلك، وأن تحكمه إحكامًا دقيقًا علي صيغة «تفضل هنا»، وأنت إلى كل هذا محبوب ومهاب، وبملكك أن تديره على طريقة «اجلس هنا»، ولكنك لا تضمن الدقة ولا الإحكام، ولا تأمن دَغَل القلوب وقهرها، ولا تملك الإخلاص في الطاعة، وناهيك بمن يحس بالجبروت يدفعه دفعًا، فيولِّد فيه الإحساسَ بقَدْرِ نَفْسِه المستعبَدة، ويهول عليه في هذا المعنى، حتى يفك غُلّ الكراهية المسجونة التي هي أم الشقاق ومادة النفاق، ومتى وجد هذا النفاق في الأسرة عمل معوله فيها حيثما اتفق، فهدم جِدار المحبة من قلوب أفرادها، فتهدمت قواعد السعادة وانهارت، وبقيت هذه الأسرة مرضًا خبيثًا في جسم المجتمع يجب تداركه إن لم تجب محاربته. أقول: إن هذا النفاق الذي أوجدته المعاملة القاسية حتى استوى في الكلام والمحادثة، استوى في المعاملة، ومتى استوى في المعاملة فإنَّا نعوذ بالله من الخيانة الواسعة المستكلبة التي تُقَدِّمُ رِجْلًا وتؤخِّرُ أخرى، ثم تدخل فتفسد وتستقر وتحتل وتستعمر، ثم لا سبيل بعد إلى الاستقلال!».

وهكذا كانت محاضرات الشيخ نصوصًا جامعة للأسس الشرعية والصوفية التي ترشد المرأة وتعلمها كل ما يجب عليها معرفته من أمور دينها ودنياها.

* رأي الشيخ رضي الله عنه في تعليم المرأة وعملها خارج بيتها

لم يكتفِ الشيخُ رضي الله عنه بتعليم المرأة نظريًّا وإنَّمَا شجعها وأتاح لها الفرص أن تؤدي دورها عمليًّا في خدمة المجتمع وتطويره والنهوض به، ولكنه كان حريصًا على

أن يتم ذلك في إطار الشرع الحنيف وبالضوابط الشرعية اللازمة، وألا يكون عملها وبالًا على أسرتها ومجتمعها. وفي هذا يقول الشيخ ﵁: «ونقرر هنا أننا لا نمانع من تعليم المرأة أبدًا، ما دام تعليمها محوطًا بسياج الدين والأخلاق، ولا نمنع توظيفها أبدًا فيما لا بد أن يقوم به النساء من مقتضيات الحياة في نطاق الدين والأخلاق، كما نقرر بكل صراحة أن خروج المرأة على حد الدين والأخلاق كان -وما زال- هو الخطر الأكبر الذي جَرَّ وسوف يجر على المسلمين كل بَلِيَّةٍ، وأرداهم وسوف يرديهم، في كل ما يمضي من بلايا حِسِّيَّة ومعنوية، ومن هذا المقام يجب البدءُ بالإصلاح كله، فإنه إن صلحت المرأة صلح الإسلام، وإن فسدت فسد، ولا عاصم. ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها، وبين أيدينا حقائق الواقع المحسوس، والتاريخ القديم والحديث في الشرق والغرب جميعًا»[1].

وبهذه المفاهيم المستنيرة أنشأ الشيخ ﵁ قسمًا فريدًا للسيدات والفتيات (المحمديات) بالعشيرة المحمدية، وقد كان -وما زال- لهذا القسم أهداف محددة وغايات نبيلة سامية، ذكرها الشيخ ﵁ في كتابه الجامع «معالم المجتمع النسائي» فيما يلي:

أولًا: محاولة نشر الفكر الإسلامي والأدب الرفيع، بكل مراتبه الروحية والخلقية التعبدية والإنسانية، في المجتمع النسائي، على أصول القوانين العلمية السمحة الميسرة، والإيمان التطبيقي في حدود ربَّانية الكتاب والسنة، مع العناية الخاصة بالقرآن الكريم تفسيرًا وتلاوة وحفظًا.

ثانيًا: الاهتمام في ذلك بصفة خاصة بـ (المحيط النسائي الشعبي) بالمدن والقرى، فهو الذي قدَّمَ الشهداء وخرَّج الأبطال، ومن صميمه ظهر ويظهر زعماء الشعب وقادته ورجاله، سلفًا وخلفًا، وقد طال إغفالُ واجبات هذا المحيط النسائي الشعبي العظيم، ولا عذر لمُقَصِّرٍ في حقوقه.

---

(١) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية الشاذلية» (ص١٤٦).

ثالثًا: محاولة النهضة بوضعية المرأة المسلمة، والأسرة المسلمة، والبيت المسلم، وخاصة الفتيات، بما يجمع بين التقدم الحضاري وخصائص الإسلام الشريفة، باعتبار هذه الخدمات أثرًا طبيعيًّا من آثار التدين الصحيح.

رابعًا: عقد أواصر التعاون والتكامل العملي مع جميع القوى الإسلامية العاملة في المحيط النسائي، وخاصة بالوسط المثقف، عن طريق التعاون على خدمة الأهداف المشتركة، من الجانب الروحي والخلقي والاجتماعي والثقافي وغيره.

خامسًا: المشاركة في تحقيق أهداف العشيرة المحمدية، المقررة بقانونها الرسمي دينيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وصحيًّا، بما ينبغي للسيدة والفتاة المسلمة»[1].

*** تدريب المجتمع النسائي عمليًّا على خدمة المجتمع وتطويره والنهوض به من خلال أنشطة العشيرة المحمدية المتعددة**

وعن أعمال قسم السيدات بالعشيرة المحمدية والذي يُعد صورة تطبيقية لما سلف ذكره من معالم المجتمع النسائي في الإسلام، كما دعا إليه الإمام الرائد رضي الله عنه، يقول في أحد أعداد «مجلة المسلم» في معرض وصفه وتقييمه للأنشطة النسائية بالعشيرة المحمدية: «إن هذه الأنشطة المتعددة التي تعود بالفائدة على الفرد والمجتمع على حدٍّ سُوى، تصلح أن تكون مثالًا يحتذى به في الجمعيات النسائية في العالم العربي والإسلامي.

ويقوم قسم السيدات بالعشيرة المحمدية بأعمال جليلة وأفعال نبيلة لصالح الأخت المسلمة، ومن هذه الأعمال:

١- إنشاء دور تأهيل الفتيات الفقيرات والإشراف عليها.

٢- إنشاء الأندية الثقافية والاجتماعية النسائية والإشراف عليها.

ويركز في هذه الأندية على محو الأمية الدينية والثقافية والاجتماعية والصحية،

---

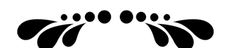
(١) «معالم المجتمع النسائي» (ص١٤٤).

وتعليم الفتيات بعض الحرف والصناعات المنزلية، على طريق تعاون أفراد الأسرة على المعاش، وترمي العشيرة إلى تعميم هذا النموذج في المستقبل القريب إن شاء الله.

٣- إنشاء مكاتب الأمومة والطفولة بالمجمعات الإسلامية بالعشيرة والإشراف عليها.

٤- رعاية عدد كبير من الأطفال والطلبة والطالبات -وخاصة الأيتام- وتقديم الخدمات الإنسانية والاجتماعية اللازمة لهم، وإعانتهم ماديًّا، وشراء جهاز بيت الزوجية للعديد من العرائس من الفتيات اليتيمات والفقيرات، من أهالي قايتباي وبرقوق وغيرهما، وتقديم إعانات لحالات الطوارئ كالولادة والمرض المفاجئ، وحالات العجز عن شراء الدواء، والمساهمة في سداد الديون الشرعية، ونحو ذلك»[١].

وهكذا نرى كيف كان الإمام الرائد رضي الله عنه مجددًا في تدريبه العملي لتلميذاته من سيدات العشيرة المحمدية الفضليات، فسيدات العشيرة ينتمِينَ إلى جميع شرائح المجتمع، فمنهن أساتذة الجامعات والطبيبات والشاعرات والأديبات، كما أن منهن ربَّات البيوت غير العاملات، وقد حرص الشيخ رضي الله عنه على الاستفادة ممَّا يتمتعن به من طاقات خيِّرة وما تتمتع به بعضهن من مَلَكَاتٍ وقدرات خاصة، فأتاح لَهُنَّ إدارة المؤسسَّات الخيرية التابعة للعشيرة المحمدية التي تتناسب مع طبيعة المرأة، وذلك بالتزامٍ شرعي تام، ومنها إدارةُ المشاغل والحضانات والوحدات الصحية للمرأة والطفل ورعاية الأيتام وتزويج اليتيمات، وغير ذلك من الخدمات الخيرية الضرورية في المجتمع المثالي الإسلامي كما بيَّنَّا.



(١) «مجلة المسلم» غرة جمادى الآخرة، كلمة الرائد، السنة (١١)، العدد (١١) ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.



المسألة التاسعة

الجهاد في سبيل الله تعالى مع ولي الأمر، وخروج الإمام الرائد بنفسه مع الجيش تحريضًا للمؤمنين

الجهاد: هو ذروة سنام الإسلام ووسيلة دفع الظلم والعدوان والأخذ على يد الظالمين؛ لتُملأ الدنيا عدلًا ويتفرغ العباد لعبادة رب العباد في أمان وسلام.

ولكن الجهاد المظلوم جعلوه مرادفًا للبغي والخروج على الحكام وقطع الطريق وسرقة وترويع المستأمنين وتشويه سمعة الدين.

الجهاد ضد الاستعمار الإنجليزي

في مقاله بمجلة المسلم حول معنى الجهاد في سبيل الله، يقول الشيخ رحمه الله تعالى: «إذا أعلنَّاه جهادًا مقدسًا ربِحنا النصر على الأعداء وضمِنا مواصلة البذل والفداء، وقضينا على أوبئة النفوس. والأخلاق الربانية حجر الأساس في كل جهاد ناجح»[1]؛ ولذا ففي فترة الاحتلال الإنجليزي لمصر كان فضيلته يحث أبناء بلده على مجاهدة الغاصبين بالمال والنفس والجهد والدم، وبالتضحية بكل غالٍ وثمين ابتغاءَ مرضاة الله ورجاءً للفوز بإحدى الحسنيين. ويقول في معرض التحريض والتشجيع لجموع الجند والضباط والقائمين على تعبئة الشباب: «إذن فلنعلنها حربًا مقدسة، ولندفع الناس الآن إلى الربانية دفعًا، ولنربط قلوبهم بالسماء، ولنكشف لهم الصلة بين وجوب جهاد المغتصب وبين أصول شريعتهم ودينهم وأمر آخرتهم،

---

(١) «إذا أعلناه جهادًا مقدسًا ربحنا النصر على الأعداء، وضمنا مواصلة البذل والفداء، وقضينا على أوبئة النفوس، والأخلاق الربانية حجر الأساس في كل جهاد ناجح»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد السابع، السنة الأولى، غرة صفر ١٣٧١هـ، نوفمبر ١٩٥١م.

فليس غير ذلك من طريقٍ صحيح لإقناعِهِم بالتضحية بأموالهم ودمائهم، وحملهم على البذلِ من أوقاتهم وجهودهم، وقبول الشدائد التي تنزل بهم بالرضا وطلب المزيد، بما في قلوبهم من سكينة الإيمان، وقوة اليقين وانتظار الجزاء الأوفى للسابق منهم واللاحق جميعًا، على أمل يقيني فيما عند الله ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

فمطالباتنا بإعلان الجهاد المقدس الآن مطالبة للسير بالأمر في طريقه الطبيعي، ومسايرة مبادئ الإسلام الأساسية، وأخذ بالأسباب المقررة، وكسب للمطلوب من أقرب ناحية، وانتفاع بمقتضياته الفطرية العالية، وحرص على النجاح فيما أخذناه على عاتقنا من العالم من جهاد خطير».

ثم يردف الشيخ مبينًا أهمية التصوف الصحيح وفائدته في زمن الجهاد قائلًا: «أفهل رأيت كيف أن التصوف الرباني هو سر العظمة والمجد على أي لون وأي وضع في كل زمان وكل مكان. إن حركات التحرير والإنشاء تحتاج أولًا إلى القلوب والعقائد، فإذا لم توجد القلوب والعقائد، فلا أمل في خير ولا نجاح في جهاد، مهما توفرت الأسباب الظاهرية.

ومن أجل هذا طلبنا ونطلب، ويطلب معنا العارفون بجعل هذا الجهاد دينيًّا مقدسًا، مع استغلال حماسة الأمة اليوم للتخلُّص من آثار الاستعمار الفكري والخلقي، والسياسي والاقتصادي؛ حتى لا تأخذ الحركة مع الوقت لونًا مائعًا يضُرُّ ولا ينفَعُ، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤]. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ءَامَنُواْ ﴾».

وحول الاستجابة السريعة لندائه رَحِمَهُ اللَّهُ في مقاله المشار إليه يقول الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أحمد الله تعالى على أنِ استجابَ الرأيُ العام لصيحتنا في العدد الماضي ولقرارات مؤتمرنا الكريم، فكان ما كان من أمر المظاهرة التي اقترحناها وحُدِّد لها يوم ١٤ فبراير بحمد الله على انتشار دعوتنا إلى نقل الكفاح الوطني إلى جهاد مقدس، وإلى طرد

الموظفين الإنجليز، وإلى الأخذ بالكثير الغالب من مقترحاتنا، وإن كان يرضينا أن نبقى آخر الصف نحمي ظهر الجيش، ونجهز له، ونبذل له ما في طاقتنا من خدمة مطهرة من كل غرض»[1].

الجهاد في حرب ٥٦

وفي حرب ٥٦ كان الشيخ «محمد زكي» يبيت الليالي ذوات العدد مع جنود الجبهة على البحر الأحمر، مع أخيه في الله زعيم السويس الشعبي «حافظ سلامة»، والشيخ «محمد الغزالي»، وخاصة العلماء، وكم تعرَّض ومن معه للأخطار الداهمة، وواجه الأسر والقتل بين بورسعيد والإسماعيلية والسويس أمام الهجمات اليهودية[2].

وعندما أذِن الله تعالى لولاة الأمور أن يستعدوا لخوض معارك التحرير منذ عام ١٩٦٩م استجاب الشيخ رحمه الله تعالى لنداء الجهاد، وخرج داعيًا في قوافل إيمانية مباركة من أبنائه ومريديه وزملائه علماء الأزهر وشيوخ الطرق الصوفية، أمثال الشيخ محمد الغزالي السقا والمجاهد الشيخ محمد المهدي رحمهما الله تعالى، ثم خرج بنفسه إلى جبهة القتال يحرض الجند ويعلمهم أمور الدين ويشحذ هممهم بالدعاء والدعوة المناسبة لطبيعة الأحداث.

الجهاد في حرب ٧٣

وعن تجربته الخاصة في حرب أكتوبر ٧٣ يقول رَحِمَهُ اللهُ: «تصديت هذه المرة إلى جبهة القتال في وفدٍ مباركٍ من فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد جاد الحق،

---

(١) «صراخ المجد بين قعقعة السيوف.. أطياف المفاخر في ذكرى المولد النبوي»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثامن، السنة الأولى، غرة ربيع أول ١٣٧١هـ - ديسمبر ١٩٥١م.

(٢) راجع:

- فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «البداية» جـ١ .
- فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «مراقد أهل البيت في القاهرة».
- فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «مفاتح القرب».

والأستاذ الشاعر الكبير السيد عبد الله شمس الدين، والأستاذ الصحافي المعروف السيد مرزوق هلال، والأستاذ الشاب المجاهد السيد إبراهيم عبد السلام، والشاب المفضال السيد عيسى عبد السلام... قصدنا جميعًا إلى جبهة القتال، وفي موقعٍ ما على خط النار أقيمت صلاة الجمعة من فريقين، صلى بأحدهما فضيلة الشيخ جاد الحق، وصليت بالفريق الثاني، ثم تم اللقاء الروحي العميق بين الوفد والضباط وكبار القادة والجنود، وظهرت روائح إيمان السلف الصالح من الصدر الأول في الإقبال على الوفد، وفي واقع الأمر بين الجنود والقادة، وحسبك من مُقاتِلين لا ينهضون إلى عملياتهم إلا بعد الوضوء والصلاة، ولا ينطقون أثناء القيام بالواجب إلا بقولهم «الله أكبر»، ومن لم يستطع منهم الوضوء تيمَّم وصلى بالإيماء، ثم انخرط في صناعة الموت، صناعة المقاتلين الأبطال الذين لا يعرفون للراحة طعمًا ولا للهدوء مذاقًا، ولا للأمن من غدر الغزاة إلا اليقظة والحذر ورد اللطمة بعشر لطمات، ولكن باسم الله، والله أكبر.

لقاؤنا مع الضباط والجنود كان مثلًا حيًّا للإيمان بالله، والثقة به، والأمل فيه، وهيمنة عقيدة النصر المؤكَّدِ إن شاء الله، ولقد سمعنا صورًا تطبيقية عجيبة من المقاتلين تؤكد الحقيقة الصوفية في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فإنَّما الله وحده هو الذي يَهَبُ النصر لمن هم أهله من المجاهدين لوجهه الكريم، وقد جربنا، والتجارب لا تُدفَع»[1].

وهكذا فقد قام الشيخ رحمه الله تعالى بزيارات متكررة لجبهة القتال في حربي ٥٦ و٧٣، وشارك بنفسه في الدفاع عن الوطن، فعاش طيلة حياته مجاهدًا بلسانه وقلمه، مشاركًا بجهاده العلمي والعملي في الدعوة إلى الله تعالى.

ولقد كان ذلك تجديدًا وإحياءً لماضي التصوف المجيد في آنٍ واحد، فلم يكن

(١) «مع المقاتلين على خط النار.. رياح النصر في رياح الجنة»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الرابع، السنة العشرون، غرة ذي القعدة ١٣٨٩هـ - يناير ١٩٧٠م.

العهد بالمتصوفة في زمان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلا المشاركة بالدعاء في خلواتهم وعلى منابرهم، ولكن الشيخ الإمام الرائد خرج برفقة الكتائب والفرق كما خرج الأولون من الأئمة المجاهدين أمثال الشاذلي والبدوي والدسوقي... خرج بنفسه مجاهدًا في سبيل الله.

وعندما دخلت البلاد العربية -وأولها مصر- في معمعة الحرب مع إسرائيل كان الشيخ ومَن معه من إخوانه علماء الأزهر -الذين كان قد جمعهم وشجعهم على المشاركة- يشحذون الهمة والنصح لأبناء الأمة في ساحات القتال.

وهذا -كما أسلفنا- سلوك جديد على أبناء الطريقة الذين كانوا يكتفون فيما سبق بالدعاء للمجاهدين على الجبهة، ولكن الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَدَّدَ وأعاد أمجاد الماضي، متأسيًا بأئمة عصور الإسلام الأولى، مجاهدًا بالنهارِ وقائمًا بالليل، ومُحدِّثًا عن الجهاد والتصوف.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى: «إمَّا أنْ يَدَعَ الرَّجُلُ الأمَّة يغزوها عدوها، ثم يهرب إلى مسبحته أو خلوته مثلًا، لا يشارك بعمل ولا لسان، منطويًا منزويًا في وادٍ، والإسلام والمسلمون في واد آخر، يتفلسف بالضعف ويفلسف لنفسه الاستخذاء والخور والهزيمة والذل باسم التعبد أو التصوف، فليس بصوفي ولا بعابد؛ بل هو آثم أي إثم»(١).

«فإذا أَذَّنَ النفيرُ كان الجهاد بالنفس أوجب للقادر عليه، وله فضله، ولا عذر له، ووجب على غير القادر خدمة ظهر الجيش بالنصح لله ورسوله ﷺ، وهذا النصح يشمل ملازمة الدعاء للجيش والترغيب في الجهاد، وكفاح الأراجيف والإشاعات، ورفع الروح المعنوية في الأمة، والترفيه عن الجرحى، ورعاية شئون بيوت الغزاة وأبنائهم، والحث على التبرُّع للجيش ولهم... إلخ»(٢).

---

(١) «نفحات من الخلد الأعلى.. حول الجهاد المقدس»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثامن، السنة السابعة عشرة، غرة ربيع الأول ١٣٨٧هـ - يونية ١٩٦٧م.

(٢) المرجع السابق.

ويعد شعر الإمام الرائد في التحريض على الجهاد بضوابطه الشرعية مع ولاة الأمر ووصفه للمعارك التي عاصرها تأريخًا دقيقًا ونافعًا للأجيال القادمة، وإليك طرفًا من فتوحات الله عز وجل عليه في هذا الباب.

هذه القصيدة نموذج من قصائده التي توضح مشاركته العملية، وجهاده القولي والفعلي ضد الاحتلال، حيث يقول:

قَالَ لِي حَافِظْ سَلَامَهْ * قَامَتِ الْآنَ الْقِيَامَهْ
قُمْ تَشَهَّدْ سَوْفَ نَلْقَى اللهَ فِي دَارِ الْكَرَامَهْ
الصَّوَارِيخُ تُدَوِّي * بِالدَّمَارِ وَبِالصَّرَامَهْ
وَتَوَالَى الْقَصْفُ بِالْأَهْوَالِ يَمْحُو مَا أَمَامَهْ
قُلْتُ: فَازَ الْمَرْءُ إِنْ أَدْ * رَكَ فِي اللهِ حِمَامَهْ
إِنْ نَعِشْ فَالْعَيْشُ مَهْمَا * طَالَ لِلْمَوْتِ عَلَامَهْ
نَحْنُ فِي الْجَبْهَةِ بِاسْمِ اللهِ نَسْتَلُّ حُسَامَهْ
مَنْ نَجَا أَوْ مَاتَ مِنَّا * قَدَّسَ اللهُ مَقَامَهْ
قَالَ: أَحْسَنْتَ وَلَكِنْ * نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَهْ[1]

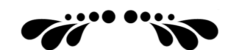
وفي إحدى الزيارات الكثيرة التي شارك فيها الشيخ رضي الله عنه في التعبئة والتوعية بساحات القتال على شاطئ البحر الأحمر، شاهد جنديًّا شجاعًا مغوارًا يُقدم على القتال باستبسال وحماس، فرأى فيه رمزًا لبقية إخوانه المجاهدين الذين يجاهدون لإعلاء كلمة الله، فحيَّاه بهذه الأبيات البليغة المؤثرة:

طَلَقَاتُ الْمِدْفَعِ تُطْرِبُهُ * وَصَرِيخُ (الدَّانَةِ) يُلْهِبُهُ

(١) كان الشيخ محمد زكي يوالي زياراته لجبهة القتال بمحافظات البحر الأحمر مع كبار العشيرة والطريقة، وكان الأخ الشيخ حافظ سلامة هو المشرف على الدعوة وتوزيع وفود الدعاة، وكثيرًا ما كان العدو يهاجم هذه المواقع بكل وحشيته، وفى إحدى الأمسيات كانت ضراوة العدو فوق التصور، وكان هذا الحديث الذي دار بين الشيخ الرائد والشيخ حافظ سلامة.
انظر فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «ديوان البقايا» جـ١ .

وَلَظَى (الصَّارُوخِ) يُذَكِّرُهُ * (بِيَهُوذَا) ثُمَّ يُؤَلِّبُهُ
وَدُخَانُ قَنَابِلِهِ الْحَرَّى * مِنْ جُرْحِ الثَّأْرِ يُطَبِّبُهُ
وَالْعَرَقُ السَّاخِنُ يُنْعِشُهُ * وَالرَّاحَةُ ثَمَّةَ تُتْعِبُهُ
إِنْ يَسْمَعْ يَوْمًا غَيْرَ دَوِيِّ الْقَصْفِ هَوَاهُ يُؤَنِّبُهُ
الْأَسَدُ الْغَاضِبُ ثَارَ فَمَا * يَعْنِيهِ أَيْنَ تَقَلُّبُهُ
قَدْ سَاقَ الْجِسْمَ وَسَاقَ الرُّوحَ بِسَوْقِ الْمَوْتِ وَسَيَّبَهُ
إِنْ يَبْعُدْ عَنْهُ الْمَوْتُ مَضَى * بِنِدَاءِ الْمَوْتِ يُقَرِّبُهُ
لَا يَدْرِي إِلَّا أَنَّ لَهُ * خَصْمًا قَدْ جَاءَ يُؤَدِّبُهُ

وللإمام الرائد في هذا المضمار قصائد أخرى عديدة لا يتَّسِعُ المقام هنا لذكرها، مليئة بالحماس وحب الوطن والأهل، يحيِّي فيها الأبطال الذين يجودون بدمائهم وأرواحهم؛ دفاعًا عن الشرف وإعلاءً لكلمة الله واستردادًا لمجد الأمة؛ لتعود كما نعتها الله سبحانه: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].





المسألة العاشرة

اجتهادات الشيخ رضي الله عنه في بعض الأمور الخلافية التي مزق بعضها شمل الأمة

من أهم جوانب التجديد عند الشيخ رضي الله عنه اجتهاداته الدءوبة المستنيرة في جمع وتوضيح وتكملة أقوال وآراء السلف الصالح حول العديد من المسائل الخلافية التي ما زالت تثير جدالًا حادًّا بين طوائف المسلمين فتقف عقبة في طريق التقريب بينها.

أولاً: اجتهاداته رضي الله عنه في تفسير بعض الأحاديث الشريفة الخلافية وقياسه على بعض الآثار

* **تفسير الشيخ رضي الله عنه لحديث: «لا تُشَدُّ الرِّحال...»**(١)

يقول الشيخ رضي الله عنه: «تكملةً وإيضاحًا لما قاله الأقدمون أقول: ورد هذا الحديث من عدة طرق صحيحة خاليًا من صيغة الحصر والاستثناء، فأما الحديث فمعناه الذي فهمه السلف والخلف أنه لا فضيلة زائدة في السفر **لأجل الصلاة** في مسجد إلا السفر إلى هذه المساجد الثلاثة؛ لأن الصلاة تضاعف فيها إلى مائة ألف، وذلك في المسجد الحرام، وإلى ألف وذلك في مسجد الرسول ﷺ، وإلى خمسمائة وذلك في المسجد الأقصى. **فالحديث المراد به السفر لأجل الصلاة** [وليس السفر لأغراض أخرى كطلب العلم أو زيارة الأقارب أو السعي للرزق أو ما شابه ذلك]، ويُبين ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده» من طريق شَهْر بن حَوْشَب من حديث أبي سعيد مرفوعًا: «**لا يَنْبَغِي للمَطِيِّ أنْ تُشَدَّ رِحَالُهُ إلى مَسْجِدٍ يُبْتَغَى فِيهِ**

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٢/ ٦٠) برقم (١١٨٩)، ومسلم: (٢/ ١٠١٤) برقم (١٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصَّلَاةُ غير المَسْجِدِ الحَرَامِ والمَسْجِدِ الأَقْصَى ومَسْجِدِي هذا»[1]. وهذا الحديث حسَّنَه الحافظ ابن حَجَر العَسْقَلَانِي، وهو مُبيِّنٌ لمعنى الحديث السابق؛ لأن تفسير الحديث بالحديث خير من تأويل العلماء؛ فقد قال الحافظ العراقي في ألفيَّتِه في مصطلح الحديث:

وَخَيْرُ مَا فَسَّرْتَهُ بِالْوَارِدِ * ....

*** تفسير الشيخ ﷺ لحديث: «لعَن اللهُ اليهودَ والنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبيائِهِمْ مَسَاجِدَ»[2]**

أمَّا حديث: «**لعَن اللهُ اليهودَ والنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبيائِهِمْ مَسَاجِدَ**» والنهي عن اتخاذ قبره ﷺ وثنًا أو عيدًا، وما معناه، فتوجيهه أنهم جعلوا من أنبيائهم آلهة يعبدونهم في مساجدهم من دون الله؛ إشارة إلى عبادة الكفار في عصره ﷺ (اللَّاتَ، والعُزَّى، ووَدًّا، وسُوَاعًا) سجودًا لهم ودعاء من دون الله، وإلا فهذا الحديث وأمثاله يوزن باستقرار الإيمان في القلوب، شأنه مثلًا شأن حديث النهي عن زيارة القبور بعامة، والنهي عن زيارة النساء للمقابر بخاصة، ثم قول النبي ﷺ: «**أَلَا قَدْ كنتُ نَهَيْتُكُم عن زِيارَةِ القُبُورِ، أَلَا فَزُورُوها**»[3]. أو كما قال. كما يجب ألا نغفل أن القبر شيء والمسجد شيء آخر.

وحديث «**لعن اليهود**» قد أوقف العمل به بعض كبار علماء الحديث؛ لوجود ما يعارضه من القرآن والتاريخ، ويُراجع كتاب المحدِّث الْغُمَارِيِّ «إعلام الراكع والساجد» في ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨/ ١٥٢) برقم (١١٦٠٩).

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٣/ ٢٩٤) برقم (١٣٣٠)، ومسلم: (١/ ٣٧٦) برقم (٥٢٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧٢) برقم (٩٧٧)، وأبو داود: (٢/ ٢٣٧) برقم (٣٢٣٥)، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

* تفسيره رضي الله عنه لحديث المنع من الجلوس على القبور[1]

فسر الجمهور حديث منع الجلوس على القبر بمعنى جلوس التبول والتغوط أو قعود الاستهواء أو قعود المعصية، بل ذهب مالك رضي الله عنه إلى أكثر من ذلك؛ فقد نقل ابن القاسم في (المدوّنة) وغيره أن مالكًا كان يصلي والقبور بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله. وقال ابن القاسم: قال مالك: بلغني أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يصلون في المقبرة[2]. ولم ينكر عليه أحد من بقية التابعين أو أحد غيرهم من معاصريه، خصوصًا بعدما جاء من أن الإمام عليًّا كان يتوسد القبور وينام فوقها وغيره من الصحابة، وبعد ثبوت وصية أحد كبار الصحابة أن يبقى المشيعون عند قبره بعد دفنه مقدار ما تُذْبَح الجَزُور وتُوَزَّع. وحسْبك أن مالكًا وكل من زار قبر رسول الله ﷺ من كبار الأئمة كانوا يصلون بالمسجد النبوي والقبر الملحق به.

* تفسيره رضي الله عنه للأحاديث الخاصة بحكم زيارة النساء للقبور

كان مما منعه رسول الله ﷺ في أول العهد بالإسلام زيارة القبور عمومًا، وخاصة النساء؛ لما كان يشوب الزيارة وقتئذ من جاهليات شركية مختلفة، فلما استقر الإيمان في القلوب، وتأكد التوحيد في النفوس؛ أذن رسول الله ﷺ بزيارة القبور للرجال والنساء معًا، كما هو مقرر ومسلَّم به عند أهل العلم، وإنما يمنع بعض العلماء النساء من الزيارة لما يقع منهن من المخالفات؛ ليس لأن الزيارة محرمة عليهن. وفي فترة منع الزيارة للجميع كان حديث نهي النساء عن زيارة القبور، والنهي عن اتخاذ المساجد والسرج عليها، فهو حكم منسوخ لأنه ملازم لفترة النهي. ونُسخ هذا الحكم ومضت فترة النهي، وأبيحت الزيارة للرجال والنساء بشروطها

(١) أخرج الإمام مسلم (٢/ ٦٦٧) رقم (٩٧١) بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ».

(٢) «المدونة» للإمام مالك (١/ ١٨٢).

المقررة. ولذا فقد نُسخ حكم النهي عن اتخاذ المساجد والسرج على القبور مع نسخ حكم النهي عن الزيارة. ولم يختلف سلف ولا خلف على استحباب زيارة القبور؛ لما جاء صحيحًا في الحث عليها بشروطها والترغيب في زيارتها بقول وفعل النبي الحبيب ﷺ، وفي الحديث الثابت عنه ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ أَلَا فَزُورُوها ولا تَقُولوا هُجْرًا**»[1]. (أي قول الجاهلية)، والأحاديث في هذا الباب كثيرة ومشهورة، وقد كان رسول الله ﷺ يزور أهل البقيع ويدعو لهم[2]. وقد أذن لفاطمة ابنته رضي الله عنها أن تزور وتُرَمِّم قبر عمها حمزة بسفح جبل أُحُد[3]. وثبت أن عائشة رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ كانت تزور قبر أخيها عبد الرحمن[4]، وقد علّم الرسول ﷺ عائشة رضي الله عنها كما جاء في الصحاح ماذا تقول عند زيارتها للقبور[5]، ورأى النبي ﷺ امرأة تبكي عند قبر، فقال لها: «**اتَّقِ اللهَ وَاصْبِرِي**»[6]، ولم يطردها، فمَن منع من العلماء زيارة النساء للقبور فقد منعها من أجل ما يكون منهن من المخالفات والتجاوزات التي يجب معالجتها بالحُسنى، لاستحالة منع النساء من الزيارة، خصوصًا في هذه الأيام، أما منع النساء من اتباع الجنائز فمتفق عليه نهائيًّا، لصحة حديثه، ولتحقق مفاسده، بل إن بعض الأئمة يرى أن زيارة النساء للقبور ألزم من زيارة الرجال؛ لِمَا توحيه من الصبر والفوائد المتعددة التي تشتد إليها حاجة النساء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧٢) برقم (٩٧٧) وأبو داود: (٢/ ٢٣٧) برقم (٣٢٣٥)، من حديث بريدة ابن الحصيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي (٤/ ٩٣) برقم (٢٠٣٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٣٣) برقم (١٣٩٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٣/ ٣٧١) برقم (١٠٥٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢/ ٦٦٩) برقم (٩٧٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٢٢٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

*** قول الشيخ ﷺ في الأحاديث التي تشير إلى العلاقة بين الأحياء وأرواح الأموات**

يقول الشيخ ﷺ: «إن الصوفية لا ييأسون من الموتى ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وهم يرون أن الموت مرحلة من مراحل السفر الإنساني الكادح إلى الله، فالميت عندهم حي حياة برزخية، وللميت علاقة أكيدة بالحي بما صح عن رسول الله ﷺ من أحاديث رد الميت السلام على الزائر ومعرفته له، وبتشريع السلام على الميت عند قبره ومحادثته ﷺ لموتى (القَلِيب يوم بدر)[1] كما ورد في عدة أحاديث ثابتة.

ومن القرآن العظيم حسْبك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، فهناك إذن علاقة مؤصلة بين الحي والميت، وإلا كان الدعاء والسلام على الميت موجهًا إلى الأحجار!!

ومن الأدلة على ذلك قيام رسول الله ﷺ على قبور أهل البقيع، والسلام عليهم وتكليمهم والدعاء لهم.

وللإمام ابن قَيِّمِ الجَوْزِيَّة -تلميذ ابن تَيْمِيَّة ووارث دعوته- كتاب (الرُّوح)، هذا الكتاب القيِّم الفريد، الذي أثبت فيه كل مذهب الصوفية التي ندين بها وندعو إليها بما لا مزيد عليه في الرد على الغلاة، سواء في موضوع الحياة بعد الموت أوعلاقة الأرواح بالأحياء، وغير ذلك من المسائل التي افتُعلت حولها سجالات المتمسلفة والمتمصوفة على حدٍّ سُوى، ولابن أبي الدُّنيا في ذلك تأليف مفيد.

والصوفية يعتقدون بحقٍّ أن الولي في الدنيا ولي بخصائصه الروحية، ومواهبه الربانية، والخصائص والمواهب من متعلقات الأرواح، ولا ارتباط لها بالأجسام ألبتة، فالولي حين يموت ترتفع خصائصه ومواهبه مع روحه إلى برزخه، ولروحه علاقة

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٩٨)، برقم (١٣٧٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

كاملة بقبره؛ بدليل ما جاء من السلام عليه ورده السلام...[1]. ومن هنا جاء تكريم هؤلاء السادة الصالحين من أصحاب القبور.

وقد ثبت في (أُسْد الغابة) أن رسول الله ﷺ وضع حجرًا على قبر بعض الصحابة مثل عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وأنه لمَّا تُوُفِّي سيدنا إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله ﷺ قال: «**الْحَقْ بالسَّلَفِ الصالِحِ؛ عُثمان بن مَظْعُون**». وأَعلم النبي قبرَ عثمان بن مظعون بحَجَر، وكان يزوره، وقال: «**أَتَعرَّفُ به على قَبْر أخي**»[2]. وكان هذا الحديث بعد حديث عليٍّ عليه السلام بتسوية القبور المشرِفة، فاستدلوا به على جواز اتخاذ ما يدل على القبر وعلى فضل صاحب القبر بلا إغراق ولا مبالغة؛ رجاء استمرار زيارته، والدعاء له والقدوة به، والصدقة عليه، وحفظ أثره. ومن هنا جاز نقل الميت من مكان إلى مكان أفضل، كما صح في حديث جابر وغيره رضي الله عنهم.

ثم بالغ بعض الناس في ذلك، بحُسن نية من جانب، وخوف اندثار القبر من جانب آخر، فأخذ الأمر يتطور حتى أضحى بالصورة التي نراها، وقالوا: إن الأمر يدور مع علته، وقد كانت علة تسوية القبور والمنع الأول من زيارتها هي مخافة الانتكاس والعودة إلى الشرك، وقد استقر الإيمان والتوحيد في قلوب الناس -وإن أخطأَت أحيانًا ألسنتهم- فلا بأس بعمل ما يُذكِّر بالصالحين للقدوة والاعتبار، والقيام بحق صاحب القبر من الزيارة وغيرها.

(١) عالم البرزخ من عالم الغيب الذي لا سبيل إلى العلم بتفاصيله إلا من جهة الخبر الصادق: الكتاب والسنة الصحيحة، ومن التفاصيل التي وردت في ذلك أن الميت يتعرف إلى من يزوره من الأحياء إذا كان يعرفهم في الدنيا، روى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «**ما من أحد مر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا، فسلم عليه، إلا عرفه ورد عليه السلام**». رواه ابن عبد البر في «الاستذكار»، ومما يقوي هذا الحديث أيضًا الآثار المتكاثرة الواردة عن السلف في هذا الباب، حتى قال ابن القيم رحمه الله في «الرُّوح»: (والسلف مُجمِعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به). ومثله يقول ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم»، وقد جمع هذه الآثار الحافظ ابن أبي الدنيا في كتاب «القبور» تحت باب: معرفة الموتى بزيارة الأحياء.

(٢) «أسد الغابة» (١/ ٧٥٦).

وقد نقلنا آراء علماء المذاهب فراجعها...[1].

هذه هي وجهة النظر الشرعية عندهم بصفة عامة، وهي على علاتها أبعد شيء عن التهويل بالشرك والوثنية والكفر والردة واستحلال دماء المسلمين. وقد مرت السنون على هذه الأضرحة فما عُبد منها ضريح من دون الله ولا صلى مسلم لولي ركعة، والمثل العملي مضروب بقبر سيدنا رسول الله ﷺ وقبور كبار الأئمة رضي الله عنهم.

أما ما يكون من عادات بدع الزيارات ومناكرها فأمور يمكن تقويمها بالتعاون على علاجها بالتي هي أقوم. وإنني مستيقن سلفًا بأن هذه الكلمات بالذات ستنبري لها ألسن وأقلام احترفت خصومة هذا الرأي، واتخذته أساس مذهبها، وهو كل دعوتها وبضاعتها، ولكني أعرض الرأي ولا أدعي العصمة، ولا أحتكر الصواب، وأرى أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا ما جاء عن الله -سبحانه وتعالى- ورسوله ﷺ، بقدر ما أعرف سلفًا كافة النصوص المقابلة ووجهات النظر الأخرى، فالحديث هنا قديم ومكرر لا جديد فيه على الإطلاق، والتقريب بين وجهات النظر ممكن، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

---

(١) راجع بالتفصيل: مؤلفات فضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم: «قضايا الوسيلة».. «أبجدية التصوف».. «أصول الوصول»، و«محق التقول في مسألة التوسل» للعلامة الكوثري، و«القول المحكم» للغماري.

(٢) راجع المزيد حول مشروعية زيارة القبور بأصولها الشرعية في:
- «الإشارات إلى معرفة الزيارات» للهروي.
- «تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات» للسَّخَاوي.
- «الدر المنيف في زيارة أهل البيت الشريف» لابن أحمد مقبل.
- «رسالة في زيارة القبور» لابن سينا، والبركوي، والبكري.
- «شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور» لمرعي الحنبلي.
- «الدر المنثور فيما يتعلق بالموتى وزيارة القبور» للسيوطي.
- «مذهب الطالبين إلى قبور الصالحين» لابن الحباس.
- «رغبة الزوار في الارتحال لزيارة الأبرار» للعبدلاني.
- «تلويح الإشارة في تلخيص شرح الزيارة» للشهرستاني.
- «مرشد الزوار إلى مقابر الأبرار» لابن أبي الحرم. =

* تفسير الشيخ رضي الله عنه للحديث الخاص بميراث المسلم من غير المسلم

في هذه المسألة يقول الشيخ: «فالجمهور يرى أن المسلم لا يرث غير المسلم، والعكس، فعندهم لو أن رجلًا اعتنق الإسلام، ثم مات أبوه أو أمه أو غيرهما ممن يحق له أن يشارك في ميراثه، فلن يرث!! لحديث أسامة بن زيد عن النبي ﷺ: «**لا يَرِثُ المسلمُ الكافرَ، ولا الكافِرُ المُسْلِمَ**»[(١)]، ويظهر لنا أن هذا الحكم كان في أول الإسلام؛ منعًا من الاحتكاكات التي كانت تسبب المشاكل والفتن التي يتحاشاها الإسلام، بالتفرقة الباتة بين المسلم والكافر، تجميدًا مؤقتًا للقاعدة.

لذلك وجدنا معاذ بن جبل، ومعاوية، ومسروقًا، وابن المسيب، ومحمد بن علي بن الحسين ومَن والاهم من أهل البيت وغيرهم، كانوا جميعًا يورثون المسلم من غير المسلم؛ جريًا على الأصل، وقياسًا على حِل نساء أهل الكتاب للمسلمين بلا عكس!! ولهم دليل عملي في أن سيدنا عليًّا ورَّثَ ورثَةَ المرتدّ ماله بعد قتله؛ فلو كان حكم عدم توريث المسلم من غير المسلم باقيًا، ما خالفه هؤلاء الأئمة، وهم من أعلم الناس بدين الله، ومن أحرص الناس على تنفيذ النصوص. ونحن نرى رأيهم؛ لأنه يدخل في باب الإنصاف واليسر، ومعقولية أحكام الإسلام؛ فعندنا يرث المسلم غير المسلم برغم الخلاف، ويجب أن يُعدَّل القانون على هذا الأساس»[(٢)].

=
- «المقابر المشهورة والمشاهد المزورة» لابن أنجب.
- «رسالة الزيارات للأولياء والصالحين الذين لهم بدمشق قبور ومقامات» لهبة الله.
- «مشروعية زيارة القبور» لابن قيِّم الجوزية.
- «الرسالة المختارة في مناهي الزيارة» لإبراهيم بن سليمان الأزهري.
- «كتاب التسليم والزيارة» للمرزباني.
- «الإنارة في الزيارة» للعسقلاني.
- «تحفة الزائر» للأصفهاني.

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٨/ ١٥٦)، برقم (٦٧٦٤) ومسلم (٣/ ١٢٣٣)، برقم (١٦١٤).

(٢) كلمة الرائد، مجلة المسلم: غرة جمادى الأولى السنة (١٩) العدد (١٠) ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

وراجع في ذلك: «سبل السلام» للصنعاني: (٣/ ٩٥٤)، «فتح الباري» (١٢/ ٧٠)، «شرح النووي» (٥/ ٣٥٨ وما بعدها).

*** قول الشيخ في طلاء الأظافر والوضوء قياسًا على بعض الآثار النبوية الشريفة**

وفي هذه المسألة يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأصل في صحة الوضوء أن يصل الماء إلى كل الأعضاء مباشرة، وإلا كان باطلًا، ولكننا نرى الآن أن هذا الطلاء مما عمت به البلوى، وأن تسعة أعشار المسلمات المصليات يستعملنه، ومهما بذلنا من جَهد في الإقناع -على بطئه الشديد- فلن نصل بهن إلى تركه، بحكم عجلة الزمن الدائرة والمتطورة رغم كل أنف، وقد جربنا الإفتاء ببطلان الوضوء مع هذا الطلاء، فترك النساء الوضوء والصلاة معًا!! ولذلك لجأنا إلى قاعدة مما عمت به البلوى، فقسنا هذا الطلاء على الخِضاب، من حيثُ إن كل لون يلابس الجسم لا بد أن له جرمًا حائلًا يختلف شفافية وغلظًا، وقد جاز الوضوء مع الخضاب، وهو حائل لا شك فيه عن تمام وصول الماء إلى الجسد، رغم شفافيته، ويصح معه الوضوء.

وقسناه على صحة وضوء الصباغ، وعمال البناء والبياض ونحوه، وما يكون على كفه من طبقة أجنبية تمنع وصول الماء إلى بعض أجزاء الجسد، ويصح معه الوضوء، وقسناه على جواز الوضوء مع عدم تحريك الخاتم، عند المالكية وإن لم يصل الماء إلى ما تحته، وقسناه على جواز سجود المصلي على كور عمامته، وجواز مسح بعض الرأس أو عدم مسحه مع بعض العمامة أو القلنسوة، بل قد ثبت في حديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك مسح على العمامة والخفين دون الشعر[1].

وأجاز بعض العلماء المسح على العمامة بلا ضرورة، ولا توقيت، ولا اشتراط اللبس على طهارة.... إلى أقيسة أخرى يصح معها الوضوء، كالمسح على الخفين، ورجونا أن يكون ذلك طريقًا مؤقتًا، أو اضطراريًّا إلى المحافظة على الصلاة، حتى لا تترك نهائيًّا، كما جربناه مرات شتى، وما نزال نؤكد للنساء أن حكمنا بصحة الوضوء مع وجود الطلاء إنما هو اجتهاد قابل للخطأ والصواب، ومحاولة لعدم ترك الصلاة أو الشك فيها، والأخذ باليقين أولى لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر،

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٥٢)، برقم (٢٠٥)، من حديث عمرو بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبخاصة أولئك السيدات المتقدمات في السن»[1].

يستفاد من كلام شيخنا: أن طلاء الأظافر وما شابهه من مكياج للوجه أو الأصباغ التي توضع على أعضاء الوضوء وتمنع الماء عن البشرة؛ كل ذلك لا يصح معه الوضوء قطعًا إلا لضرورة، وهو قول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وقول أئمة الفقه جميعًا. وأما الترخص هنا في هذه المسألة فما هو إلا حالة اضطرارية خاصة؛ أخذًا بالقاعدة الفقهية الثابتة أن الضرورات تبيح المحظورات؛ فالترخيص إذن خاص بهذا الوقت الذي عمت فيه البلوى، وقل الإيمان، وذلك تدرجًا في الدعوة إلى الله تعالى، وحتى لا تُحجِم كثير من النساء عن الصلاة في هذا العصر المفعم بالفتن.

ثانيًا: مذهب الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التوسل بالصالحين من الموتى[2]

* قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن حكم التضرع والتوسل بأصحاب الأضرحة

إن مسألة التوسل قد أصبحت محنة علمية وفتنة دعوية شغلتِ العوامَّ وألهت المثقفين والخاصة، وكانت سببًا لاستهزاء المنافقين وغير المسلمين. كل ذلك الوصف المحزِن ليس إلا تعبيرًا دقيقًا عما أحدثه سوء طرح هذه المسألة من بعض المنتسبين للسلفية. ومسألة التوسل إلى الله بما يحب، وبمن يحب، مسألة قديمة، تناولتها طبقات من السلف والخلف، بين الرفض والقبول، وكما مال إلى الرفض أمثال الشيخ ابن تيميَّة؛ مال إلى القبول أمثال الحافظ ابن حَجَر والإمام الشَّوْكَانِيّ، وبخاصة في كتابه (الدر النضيد). وللإمام الألوسي في ذلك تفصيل مفيد.

---

(١) «معالم المجتمع النسائي في الإسلام» فضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم، مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية، تعليق محيي الدين الإسنوي، ط (٣) ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) كل هذه مسائل خلافية ليست عقائدية. راجع بالتفصيل في موضوع التوسل: «مجلة البحوث والدراسات الصوفية»، العدد الأول، جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ - أغسطس ٢٠٠٣م الموضوعات التالية: الإفهام والإفحام، قضايا الوسيلة والقبور، للإمام الرائد الشيخ محمد زكي إبراهيم. «محق التقول في مسألة التوسل» للعلامة الكوثري. من أقوال الشيخ سلامة العزامي في كتابه العظيم «البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة» مكتبة دار السعادة.

وجمهور علماء الإسلام متفقون على صحة مبدأ التوسل، والخلاف كله على اللفظ والكيفية والاتجاه[1].

والمهم في هذه المسألة المتشعبة الجوانب الفسيحة الرحاب أن يوجه الطلب إلى الله وحده، وأن يكون ذكر المُتوسَّل به -لمن شاء التوسل- نوعًا من تأكيد الطلب، بالاعتراف بالتقصير والتفريط في جنب الله، مما يخجل معه المتوسل أن يكتفي بدعائه، وهو ليس أهلًا للاستجابة، فيستشفع إلى الله بما -أو بمن- يغلب على ظنه أنه مقبول عنده رجاء ألا يُرد أو يُرفض. كما فعل إخوة يوسف، على سبيل المثال، عندما استشفعوا بأبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليستغفر لهم الله سبحانه؛ حياءً من الله، وخجلًا مما اقترفته أيديهم، واعترافًا بعظم ذنبهم، وظنًّا منهم أنهم ليسوا أهلًا للاستجابة. وقد استجاب لهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ووعدهم بالاستشفاع لهم ولم يمنعهم ولم ينهرهم على التوسل به لينالوا غفران الله سبحانه وتعالى، وهو النبي المُلهَم الذي علَّمَه ربه ما لا يعلمه أكثر الناس، فما دام الطلب إلى الله، وإلى الله، ابتداء وانتهاء، كقول القائل: «اللهم إني أسألك كذا وكذا، متوسلًا إليك بكذا»؛ فلا خطأ ولا شرك على الإطلاق، وقد ذهب إلى هذا المرحوم الإمام حسن البنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واعتبرها من الخلافات الفرعية.

وليس التوسل واجبًا، وإنما هو اختيار لمن شاء، على **ألا يكون الطلب موجهًا إلى العباد، سواء أحياؤهم أم أمواتهم،** فإذا أخطأ الجاهل -مع هذا- وطلب من العبد، فإنه يُعلَّم ويُرَد إلى الصواب، ويكفيه نيته وحسن اعتقاده، وعلمه اليقيني -مهما كان أميًّا جاهلًا- بأن الله هو الفعال، وإنما العبد وسيلة، لا يملك مع الله شيئًا. وإذن فلا نخرجه من الإسلام بجرة قلم، أو انفعال لسان؛ فإن هذا أمر

---

(١) والأدلة هنا لا يتسع لها مقال ولا عشر مقالات، وقد سبق أن نشرت مجلة التعاون ما يكفي لفضيلة الإمام الرائد، وعليك أن تراجع ما كتبه في رسالة «الوسيلة» ففيه التفاصيل الكافية، وقد طبعته «مجلة المسلم» في رسالة خاصة هي رسالة «قضايا الوسيلة والقبور».

خطير، لا يملكه أحد، وإن كان قد شاع تكفير الناس في أيامنا هذه بما لا يقبله عقل ولا دين.

فإذا جاز التوسل بالصالحين من الأحياء -وهذا رأي متفق عليه- فيجوز من باب أولى التوسل بالأنبياء والأولياء والأصفياء المقربين إلى الله سبحانه وتعالى من الموتى؛ لأنهم ككل الموتى يحيون حياة خاصة في برزخهم. وقد أخرج أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أعمالَكم تُعْرَضُ على أقارِبِكم وعَشائِرِكُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ؛ فإنْ كانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا به، وإنْ كانَ غيرَ ذلكَ قالوا: اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُمْ حتَّى تَهْدِيَهُمْ كما هَدَيْتَنَا**»[1]. وأخرج الطَّيَالِسِيّ في مسنده عن جابر بن عبد الله قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ على عَشَائِرِكُمْ وأَقَارِبِكُمْ في قُبُورِهِمْ، فإنْ كانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا، وإنْ كَانَ غَيْرَ ذلك قالوا: اللَّهُمَّ أَلْهِمْهُمْ أنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِكَ**»[2]. فمِنَ البديهي إذا كان هذا هو حالَ الموتى من عامة المسلمين، فكيف يكون حال الموتى من المقرَّبين؟!

وإضافةً إلى تلك البديهيات، فقد أخرج البيهقي في (دلائل النبوة) بسند صحيح كما قرره الحافظ في (الفتح) أن الصحابي بلال بن الحارث المُزَنِي أتى قبر الرسول ﷺ عام الرَّمَادَة -في عهد عمر- فقال: يا رسولَ اللهِ، استسقِ لأُمَّتك؛ فإنهم قد هلكوا[3]، وبلغ ذلك عمر، فلم ينكر على الصحابي قولته هذه، لا هو ولا غيره من كبار الصحابة، وهو أعلم الناس بدين الله، وهم يومئذ كثير كثير، ولم يقولوا لبلال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. فإن معناه أن من في القبور يسمع، وأن الله قد يكرمه بشفاعته في غيره.

وكانت لرجل حاجة عند عثمان رضي الله عنه تعثر قضاؤها فعلَّمه ابنُ حُنَيْف دعاء

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/ ١١٤)، برقم (١٢٦٨٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده (٣/ ٣٤٠)، برقم (١٩٠٣).
(٣) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ٤٧).

(الضرير)، ومنه قوله: «يا محمدُ، يا رسولَ اللهِ، إني أتوسَّلُ بك إلى ربِّي في حاجتي لتُقضى لي»[1]. وكان النبي ﷺ قد تُوفي، فدعا الرجل بهذا الدعاء، وذهب إلى عثمان رضي الله عنه فقضى حاجته المتعثِّرة، ولم ينكر أحد من الصحابة على ابن حُنَيْف ولا على صاحب الحاجة ما فعل. والحديث صحيح من رِواية الترمذي وغيره، بل صححه ابن تيميَّة.

وذكر الحافظ الثقة ابن أبجر -وهو من رجال مسلم والنسائي والترمذي وأبي داود، وكان طبيبًا ماهرًا لا يأخذ أجرًا على الطب- أن رجلًا جاءه مريضًا بمرض لا يُرجى منه شفاء، فدعا الرجل بدعاء (الضرير) السابق ذِكْرُه (وهو توسُّل إلى الله برسوله ﷺ بعد وفاته ﷺ) فلم يلبَثْ أن شفاه الله.

والتوسل إلى الله بجاه فلان أو بركته أو حبه لله وحب الله له أو نحو ذلك، هو قطعًا غير الإقسام على الله بفلان مثلًا، فالأول مشروع عند أهل الحق، والثاني يكاد يكون ممنوعًا عند بعضهم لأسباب علمية وتفاصيل مختلف عليها شأن كل الفروعيات المختلف عليها. فالمسلم المتوسل إلى الله بفلان لا يتوسل بحوله ولا بقوته، ولكنه يتوسل بما أكرمه الله تعالى به من المحبة والقرب والبركة والجاه، فهو متوسل في الواقع بصفة من صفات الله التي يمنحها الله لخواصه، والتوسل بصفات الله جائز إجماعًا، فإن أخطأ المتوسل التعبير فلا شك أن المعنى الصحيح مستقر في قلبه مركوز في نفسه، فعلينا أن نعلمه، لا أن نكفره ونرميه جزافًا بالشرك العظيم «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ**»[2].

وقد فسر بعضهم -من الغلاة المُتَمَسْلِفَة- معنى آية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤] على أنها مقتصرة على

(١) أخرجه الترمذي: (٥/ ٥٦٩)، برقم (٣٥٧٨)، والقصة بتمامها أخرجها الطبراني في الكبير (٧/ ٤١٠)، برقم (٨٢٣١)، كلاهما من حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (١/ ٦)، برقم (١)، ومسلم: (٣/ ١٥١٥)، برقم (١٩٠٧)، كلاهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

حياته ﷺ فقط، وهذا القصر أو التخصيص التعصبي يحتاج إلى دليل شرعي صريح، وهو غير موجود هنا إطلاقًا، بل إن العموم هو الثابت من وقوع الفعل في سياق الشرط، كما قرره علماء الأصول جميعًا؛ لأن الفعل هنا في معنى النكرة، وهي هنا تستوجب العموم، وعليه يُحمَل حديث ابن كثير في تفسيره الذي أخرجه البيهقي في (الشُّعَب)، والسَّخَاوِيّ في (القول البديع)، وابن الجوزي في (المُثِير)، وابن عساكر في (التاريخ) من قصة الأعرابي الذي جاء إلى القبر وساكنه ﷺ بمفهومه من هذه الآية، وهو المفهوم العلمي والفكري الصحيح، ووافقه عليه كل علماء عصره ومن بعدهم.

كما أن عدم فعل الصحابة لشيء لا يدل على تحريمه، كما قرر علماء الفقه والأصول، وأقره العقل والنقل لاحتمال أن يكون للشيء المتروك عدة وجوه وأسباب؛ ومتى دخل الاحتمال بطل الاستدلال، والترك إن لم تصحبه حجة على تحريمه لا يكون حجة قطُّ. من ذلك ما أخرجه البخاري في الاستسقاء، حيث قال في صحيحه: حدَّثَنِي الحَسَن بن محمد، قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاريّ، قال: حدثني أبي عبدُ الله بن المُثَنَّى، عن ثُمامة بن عبد الله بن أَنَس، عن أنس رضي الله عنهم، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قُحِطُوا استَسْقَى بالعباس بن عبد المطَّلِب، فقال: «اللَّهُمَّ إنا كنا نتوسَّلُ إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقِنا»[1]. قال: فيُسْقَوْنَ.

وفرض العدول -لوفاة النبي ﷺ- إلى العباس، تقويل لعمر ما لم يخطر له على بال، بل تقويل محض بدون أي حجة شرعية أصولية، بل فيه جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل، بل التوسل بلفظ «بعم نبينا» توسل بقرابة العباس منه عليه السلام وبمنزلته لديه، فيكون هذا التوسل به ﷺ أيضًا[2]. ولفظ «كنا» غير

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٤٢٤)، برقم (١٠١٠)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) راجع حول الأدلة الشرعية على جواز التوسل بالنبي ﷺ:

- «زوال الظما في ذكر من استغاث برسول الله من الشدة والعمى» للمنذري. =

خاص بعهد النبي ﷺ، بل يشمله وما بعده إلى عام الرمادة، والتقييد تقييد بدون مقيد.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يتمثل بشِعر أبي طالب «وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ»[1] كما في (البخاري). بل رُوي استنشاد الرسول ﷺ لذلك الشعر كما في (فتح الباري). وفي شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه: «فسقى الغَمَامُ بغُرَّةِ العبَّاس» كما في (الاستيعاب). وفي كل ذلك طلب السُّقْيَا من الله بذات العباس رضي الله عنه وجاهه عند الله[2].

*** قوله رضي الله عنه في القول بشفاعة الأولياء لأتباعهم، وحضورهم عند سؤالهم**

شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض يوم القيامة أمر لا خلاف عليه بين المسلمين، وإذا ثبتت لمجرد الأخوة في الإسلام، فلعلها تكون أثبت إذا اجتمع مع الأخوة في الإسلام أخوة أخص منها في الله، فلا يستبعد أبدًا أن يشفع مؤمن في مؤمن بإذن الله ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

= - «إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بسيد الأنبياء» للصديق الغُماري.
- «مصباح الظلام للمستغيثين بخير الأنام» لابن النعمان.
- «مصباح الأنام في المستغيثين بخير الأنام» للكلاعي.
- «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق» للنبهاني.
- «بهجة الأذكياء في التوسل بالمشهور من الأنبياء» للبكري.

(١) أخرجه البخاري: (٢/ ٢٧)، برقم (١٠٠٨).

(٢) راجع المزيد حول التوسل والاستغاثة:
- «النصح الخالص لكافة المسلمين بالتوسل إليه تعالى بأصفيائه المقربين» للوزاني.
- «الفتح المبين في الاستعانة بالأولياء والصالحين» لأحمد حشاد.
- «جواز الاستغاثة والتوسل» لابن عابد السندي.
- «التوصل لحل مشكلة التوسل» لنصر الهوريني.
- «محق التقول في مسألة التوسل» للكوثري.
- «رسالة في جواز التوسل» لزيني دحلان.
- «فصل المقال في توسل الجهال» لخوقير.
- «التوسل والوسيلة» لابن تيمية.

لكن من غير المقبول أن يشيع بين بعض الطوائف أن شيخهم يحضرهم عند السؤال في القبر، وقد دسوا مثل هذا الهراء في تاريخ (أبي الحسن الشاذلي) وهو منه براء، كما دسوه في تاريخ بعض أئمة الصوفية الآخرين، وهو مخالف للعقل والتاريخ الصحيح والنقل جميعًا. ولقد كان رسول الله ﷺ أولى بذلك مع أصحابه.

سألت أحدهم: لو أن عشرة مثلًا من أتباع الشيخ في عدة بلاد أو دول متباعدة، أو حتى في بلدة واحدة، قد ماتوا جميعًا في وقت واحد، وهم يسألون في وقت واحد، فمع من يكون الشيخ يا ترى؟ أم أن الملائكة تنتظر حضور الشيخ حتى يفرغ من وجوده مع الآخرين؟؟ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: ٢٢، ٢٣].

ثم ما هو الدليل من كتاب الله وسنة مصطفاه ﷺ؟ لا دليل، ولا استئناس، ولا نظر، ولا استصحاب بالمرة. وإن من علمائنا من يرى في تصديق ذلك مزلقًا إلى الوثنية.

ولعل من أشد ما يتألم له المرء أن يأخذ بعض الصالحين هذه القضايا الدخيلة على التصوف بحسن النية، ويرددوها على أنها حقائق؛ لأنها وجدت مطبوعة في بعض الكتب، وقد دسها من دسها على الشيوخ بلؤم وخبث نية.

إن بعض الكتب المطبوعة تقول: (إن الله ثالث ثلاثة) فهل نأخذ بهذا الشرك لأنه مطبوع في كتاب؟! فاعتبروا يا أولي الألباب.

*** قوله رضي الله عنه عن حكم قول كلمة «مدد».. والمدد من الله وحده**

أما قولهم: «مدد»: فإن نعمتي الإيجاد والإمداد كلتاهما لا تكونان إلا لله، ومن الله عز وجل، فالحياة الأولى والآخرة جميعًا ومحتوى الملك والملكوت كل ذلك إنما هو من إيجاده وإمداده تعالى، وهو يقول: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وهي آية كاملة شاملة، ومؤداها في معنى ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: ٧٨]. والعبد سبيل أو سبب، ولكل شيء سبيل

وسبب. فطالب المدد إن كان يطلبه من شيخ حي، فهو إنما يريد بالمدد طلب العلم، أو الإرشاد، أو الدعاء، قلبيًّا كان أو نفسيًّا، أو تلقي السيالات والتيارات الروحية من طاقات الشيخ المشحون بأسرار الإيمان، وقوى التعبد، والعلاقة بالله. ولكل مخلوق مجالات وتيارات كهربية ومغناطيسية مؤثرة، أثبتها العلم القديم والحديث، واستدل بما في الإنسان من الشجاعة والمروءة، والهمة، ونحوها، فكلها قوى خفية، سميناها بالأسماء، ووصفناها بالأخلاق، ثم قررها علم النفس الحديث، واتخذ من (الحسد) دليلًا على القوى الشريرة في الإنسان، وهذا يثبت أن للإنسان -في المقابل- دليلًا على القوى الخيِّرة، تؤثر في الغير بمثل ما تؤثر قوى الشر من الحسد في المحسود. فكل شيء له مقابل هو ضده، ثم إن التنويم المغناطيسي في أسلوبه العلمي المعترف به في كل جامعات العالم، وكل المحاكم العالمية، هو دليل في هذا الجانب غير مدفوع(١).

هذا، وإن كان يطلب المدد من شيخ متوفًّى، فهو يطلب من رُوحه -التي يعتقد أنها تحيا برزخيًّا في مقام القرب من الحق- أن تتوجه بشفاعة إلى الله في شأنه بما يهمه؛ فالأرواح في عالمها تحيا حياة غير مقيدة بحدود زمان أو مكان، فالقيود والحدود نتيجة الحياة البشرية، وأما الأرواح فهي في عالم الانطلاق، ولا شك أن هذا الجانب كله مزلق من أخطر المزالق، ولا يقوى على فهمه وضبطه إلا أولو الألباب؛ ومن ثم وجب تبصير الناس، أو سد الذرائع. وليس معنى هذا أنني أجيز الحالات الهستيرية التي نشاهدها في كثير من التجمعات المنسوبة إلى التصوف، وإنما أردت أن أبين علة الموضوع وإسناده إلى أهل العلم. ولكل حق باطل يشبهه، ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠].

---

(١) راجع: كتاب «سبيل السعادة» للمرحوم الشيخ يوسف الدجوي، وكتاب «على أطلال المذهب المادي» للمرحوم الشيخ محمد فريد وجدي، وقد قرر الشيخ ابن القيم في كتابه «الروح» كثيرًا من القوى والطاقات الإنسانية في الأحياء والأموات.

*** قوله ﵁ عن التبرك بتقبيل قبور الأنبياء والصالحين والتمسح بها**

قال الحافظ العراقي ﵁: أخبرني الحافظ أبو سعيد العلائي قال: رأيت في كلام ولد أحمد بن حنبل أن أحمد كان لا يمنع تقبيل قبر النبي ﷺ أو تقبيل غيره[1]. وهذا يحيى بن سعيد شيخ الإمام مالك عندما أراد الخروج إلى العراق جاء إلى المنبر النبوي فمسحه، ونقل ابن زكري في شرح (همزيته) عن المحب الطبري وابن أبي الضيف ﵁ وغيرهم جواز تقبيل قبور الصالحين رجاء البركة والثواب.

ونحن هنا لا نجيز إلا للمغلوب على أمره كما حدث مع بلال، أو للعالم الذي لا يُخشى عليه الوقوع فيما لا يجوز أو نحو ذلك، أما الجاهل فيُعذر ويُعلم، ولكن لا يُرمى جزافًا بالشرك والكفر وعظائم الكبائر. فالقول بكفر أو شرك فاعل ذلك خطأ غليظ وجهل عريض، وكل ما ذهب إليه متشددة العلماء كراهة ذلك في ظروف خاصة، أما القول بالشرك والكفر فتعصب وجهل، ولا شك أن المخالفة عند ذلك ليست من دين الله.

ثالثًا: أقوال الشيخ ﵁ حول المسائل الخاصة بالقبور

*** قوله ﵁ عن البناء على القبور**

إن القائلين بتحريم البناء على القبور وهدم القباب وتخريب الآثار الإسلامية يحتجون بحديث جابر عند مسلم «**نهى رسول الله ﷺ أن يُجَصَّص القبرُ أو يُقْعَد عليه أو يُبنى عليه**»[2]. وحديث أبي الهَيَّاج عند مسلم «**ألا تَدَعَ تِمثالًا إلا طَمَسْتَه،**

(١) قال عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب «العلل والسؤالات» (٢/ ٤٩٢): سألت أبي عن الرجل يمس منبر رسول الله ﷺ يتبرك بمسه وتقبيله، ويفعل بالقبر ذلك رجاء ثواب الله تعالى، فقال: لا بأس به.

وللأسف نرى بعض العلماء المنكرين لهذا النوع من التوسل من أتباع مذهب الإمام أحمد بن حنبل ﵁ يقولون بأنه «مستبشع»، هكذا دون بيان لمدلول تلك «البشاعة» وسببها، سوى أنها تخالف ما يرونه؛ فهل هذا يليق علميًّا؟!

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٦٦٧)، رقم (٩٧٠).

ولا قبرًا مُشْرِفًا إلا سَوَّيْتَه»[1]. ثم بكلام ابن تيميَّة ومَن تبِعه. ولقد ترجم البخاري في صحيحه لحديث القُبَّة فقال (باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور). فالأمر عنده لا يتجاوز الكراهة حين تبنى جدران وأساطين المساجد على صميم القبور فتحتويها، فكيف بها وهي بعيدة عنها (مقصورة في بناء خاص)، وترجم الترمذي أيضًا بكراهة ذلك... نقول: وحكم الكراهة هنا المنسوب لهؤلاء الأئمة جميعًا للاحتياط مما هو مفهوم من توارد جوانب الموضوع. والله أعلم.

نقل الحافظ عن البيضاوي رضي الله عنهما أن اتخاذ القبور في جوار المساجد لا يشمله النهي؛ لأن النهي وارد في عبادة المقبورين، لا في زيارتهم. وليس فهم ابن تيمية وابن القيم ومَن تبِعهم فرضَ عَيْن على كل مسلم، بل دين الله مِلك لأهل القبلة جميعًا، يفهم كل قادر منهم نصوصه الفروعية -ومنها هذا الموضوع- بحسَب اجتهاده، وقد بقيت الأمة قرونًا سبعة تفهم في هذا المعنى غير فهم ابن تيمية وابن القيم، ولهذا لم تقم هذه الفتنة من قبلُ، وكان فهم السلف قبل ابن تيمية -وفهمنا أيضًا- ملخصًا فيما يأتي، وهو الحق والعدل والحكمة والإنصاف والسماحة:

١ - إن رسول الله ﷺ أراد بهذا النهي أن يقضي على الشرك الذي كان موجودًا بعبادة الأحجار وتأليه الموتى، كما فعل في النهي عن زيارة القبور وقتئذٍ، حتى اطمأن إلى استقرار الإيمان وثبوت التوحيد، فأمر بزيارتها عندئذٍ لانتفاء علة النهي. كذلك كان أمره بتسوية القبور وعدم البناء عليها، وذلك ما فهمه السلف، ولهذا لم تُهدَم الأبنية التي بُنيت في السبعمائة عام الأولى من تاريخ الإسلام، سواء كانت على قبور الصحابة أو على قبور التابعين أو الخلفاء أو الأمراء أو الملوك أو الصالحين في جميع أقطار الإسلام.

٢ - مَن تحدث في هذا الأمر من الأئمة الأربعة، فقد نظر إلى المعنى السابق،

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٦٦)، رقم (٩٦٩).

وأخذ بعضهم في الوقت نفسه بالأحوط، فقال بكراهة هذه الأبنية (مجرد الكراهة) لمجرد التورع، وذلك في حالات، منها:

(أ) أن يكون في الأرض المُسبَّلة؛ لئلا يضيِّق على الناس.

(ب) ألا يكون في البناء على القبر فائدة للمسلمين فيكون عبثًا.

(ج) أن يقصد بالبناية على القبر الزينة والخيلاء.

وفي هذه الأحوال يكون البناء مكروهًا فقط، وهو المستفاد من أصول كتب المذاهب الأربعة، ومن نصوص أقوال الشافعي ومالك، وما عُزي إلى أبي حنيفة وأحمد، فيراجع في مكانه.

٣ - ذكر القرآن في معرض التقدير والتوجيه من قصة أهل الكهف: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾ [الكهف: ٢١] قال المفسرون: وقد اتخذ أهل الإيمان المسجد عليهم بالفعل، ولو كان في هذا ما حرم الله ما جاء في القرآن بهذه الصيغة -صيغة الإقرار والرضا- ولا هذه الصورة التي تفيد المنقبة والمشروعية بل القدوة.

٤ - يقرر علماء الحديث أن ترك العمل بالحديث قرونًا يصبح علة قادحة فيه، وأقل آثار القدح ألا يفهم على ظاهره، فالحديثان المذكوران وما في معناهما معلولان بالترك؛ لانصراف فهمهما إلى ما هو أوفق وأرفق، أو ما يزيل الحرج مما عمت به البلوى، وعليه جاز تطبيق هذه القواعد، كما هو ثابت في علم الأصول.

٥ - يقرر المغفور له العلامة الشيخ الكوثري ﷺ أن حديث أبي الهياج في إسناده اختلاف مع عنعنة حبيب بن أبي ثابت، وكذلك حديث جابر فيه عنعنة أبي الزبير رضي الله عنهم، ثم إن في (مستدرك) الحاكم أن العمل ليس على هذه الأحاديث وأن قبور أئمة المسلمين من الشرق إلى الغرب تخالفه خلفًا عن سلف.

كما أجاز بعض العلماء بناء المساجد فوق القبور؛ إذ إن نفس البناء يمنع

التنجس، ويمنع ما يُخاف على القبر من النبش، والسرقة، والهدم، وتحطيم العظام، وغير ذلك، ثم يكون القبر محل الرحمة، بما يُتلى فيه من القرآن، والأذان، وما يُقام فيه من صلوات وأذكار ومجالس العلم ونحو ذلك. وفي قصة أبي بَصير الثَّقَفِي وأبي جَنْدَل بن سُهيل رضي الله عنه أنه لما مات أبو بَصير بسِيف البحر (يعني شاطئه) بعد انفلاته من الحُدَيْبية، دفنه هناك أبو جندل ومَن معه من الصحابة، وبنوا على قبره مسجدًا. فأول مسجد بُني على قبر في الإسلام كان في عهد النبي ﷺ. رواه ابن إسحاق في (السيرة)، وأبو موسى في (المغازي). وكان الإمام مالك رضي الله عنه يأمر بالأخذ بمغازي أبي موسى لصلاح مؤلفها، وكان ابن معين يعتبرها أصح المغازي. ولم يَرِد أن النبي ﷺ أو أحد الصحابة أنكره. وقد نص البيهقي وابن عبد البَرّ وابن حَجَر على أن حديث النهي عن الصلاة على القبور للكراهة فقط؛ لقوله ﷺ: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[1]، وفي رواية عن ابن عبد البر أنه رجح عدم الكراهة لانعدام السبب. فتأَمَّلْ.

*** قوله رضي الله عنه عن الصلاة في المساجد ذات القبور**

بدايةً يُقِرّ الشيخ أن «أحاديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد، أحاديث ثابتة لها قَدْرُها ووزنُها العِلمي، فلا جدال حولها، وإنما الجدال حول مفهومها، فاتخاذ القبور مساجد معناه أن الرجل يصلي للقبر مثلًا، وقد يدخل فيه صلاة الرجُل فوق القبر أو يجعله أمامه كأنه يعبده تشبهًا بالأوثان، وعليه يُحمَل حديث: «**لُعن اليهودُ والنَّصارَى حيثُ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[2] يسجدون فيها لهم، لا لله عز وجل. فوجود القبر في مكان خاص مستقل به لا يمكن أبدًا أن يسمى مسجدًا، ولا أن يقع تحت هذه الأحكام، فالمسجد كما كررنا مسجد، والقبر قبر، هذا غير هذا، مهما تلاصقا

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (١/ ٧٤)، برقم (٣٣٥)، ومسلم : (١/ ٣٧٠)، برقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٢/ ٨٨)، برقم (١٣٣٠)، ومسلم: (١/ ٣٧٦)، برقم (٥٢٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وتجاورا»[1]. ثم يستطرد الشيخ موضحًا أن النهي من الأحكام المعلَّلة، فمنع الصلاة على القبور إنما كان خِيفة النجاسة أو الشرك، كما أن منع اتخاذ السُّرُج كان خيفة التشبّه بالمجوس وعدم التفاؤل بالنار، ولم يعد لذلك أثر بحمد الله، وإلا فما صلى (مالك) على القبور وجلس عليها؟!

ثم إن هذه العلل مدفوعة في الأولى بالطهارة والإيمان، وفي الثانية بمخالفة المجوس، صورة وحقيقة، فالتنظير هنا باطل دينًا وعقلًا. فالمسألة أولًا وأخيرًا مسألة ثبوت الإيمان في النفس، وصدق التوحيد قلبيًّا وعقليًّا، وهذا قائم بحمد الله في كافة أفراد الأمة على كل مستوى.

ثم هل لو فرضنا أن رجلًا مشركًا صلى في الكعبة أو في مسجد رسول الله ﷺ أو في المسجد الأقصى، وهو على عقيدة الشرك، هل يشفع ذلك له فتُقبل صلاته؟! أبدًا، لن يشفع ذلك له، ولن تُقبَل صلاته! وهل إذا صلى موحد مؤمن في كنيسة أو بِيعَة، هل تُرَدّ صلاته عليه؟ أبدًا لن تُرَدَّ صلاته عليه بالإجماع، ربما كانت مكروهة مثلًا، ولكنها لا تكون فاسدة.

ولقد أدرك الإمام مالك مفهوم الحديث كما قدمنا، بالإضافة إلى أن النهي معلَّل بالخوف من الرِّدَّة إلى عبادة الأوثان، وقد انتهى هذا الخوف بتأييد الله لدينه مع إجازة الصحابة دفن أبي بكر وعمر بنفس حجرة السيدة عائشة وفي جوار القبر الشريف، وباب الحجرة مفتوح على المسجد النبوي، مما نفى الخصوصية إطلاقًا. ولا تزال السيدة عائشة تقضي مصالح بيتها وتتحرك في مختلف الشئون بالحجرة الشريفة وبها القبور الشريفة الثلاثة، يزورها الناس، وإن كانت قد تحرجت[2] بعد دفن عمر وأقامت ساترًا على القبور.

(١) «المشروع والممنوع» لفضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم (ص٧).

(٢) وفي تحرجها رضي الله عنها معنًى يدركه العارفون بلطائف الشرع من اتصال الأرواح بين الأحياء والأموات. وتعلق الأرواح بمراقدها. وقد ألف الإمام كتابًا عن الروح أسماه بـ «حياة الأرواح» فراجعه.

*** قوله ﵁ عن أضرحة الأولياء الملحقة بالمساجد والضابط الشرعي لهذا الأمر الشائع في كافة الأقطار الإسلامية**

يقول الشيخ ﵁ في الأضرحة الملحقة بالمساجد: «إن إنشاء ضريح على قبر رجل صالح أو صاحب خَصيصة مميزة أمرٌ مشروع، بما ثبت في البخاري من أن الرسول ﷺ وضع حجرًا كبيرًا على قبر عثمان بن مَظْعُون، وقال: «**أَتَعَلَّمُ** -أي أعرف- **به قَبْرَ أَخِي**». فالكلام في منع هذا الجانب تَغَيُّب وفِتنة، فالحديث صريح في جواز تمييز قبر أهل الخصائص بما يناسب كل عصر. ولكل زمان ما يناسبه من اجتهاد في حكم مشروع أو أمر مباح، فليست هذه الأضرحة مساجدَ أبدًا، ولا هذه المساجد التي في جِوارها أضرحة غير محدَّدة ومتميِّزة منها أبدًا، فالضريح ضريح مستقِلّ تمامًا، والمسجد مسجد مستقلّ تمامًا، وإن تلاصقَا، وإذن فقد سقط التشويش والتخليط الذي يموِّهون به في هذا الجانب»[1].

ويستطرد الشيخ ﵁ قائلًا: «إن القبور والأضرحة تكون غالبًا (حُجُراتٍ أو مَقَاصِير) في جوار المسجد، فلو فرضنا أن حُجرة القبر بحائط المسجد كانت أمام المصلِّي، فهو يصلي إذن إلى حائط الحجرة، لا إلى القبر، ولو فرضنا أنه كان يصلي داخل هذه الحجرة فهو يصلي إلى (سُتْرَة)، وهذه السترة قد تكون السور الخشبي أو النُّحاسي حول الضريح، فهو لا يصلي إلى القبر أيضًا. ولو فرضنا أنه كان يصلي إلى القبر أو عليه مباشرة، فقد ارتكب على الأكثر مكروهًا لا تفسُد به الصلاة، فضلًا عن الاتهام بالشرك أو الكفر أو الزَّنْدَقَة والضلال إذا سلمنا بالكراهة جَدَلًا. ونحن بعد نحو ألف ونصف ألف من عمر الإسلام، فلم يعبد مسلمٌ حَجرًا، ولا أشرك مسلم بربه وثنًا، ولا سجد لغير الله من قبر أو مقبور، وقد نص السادة الحَنَفِيَّة على أن مَن صلى وكان القبر خلفه صحَّتْ صلاتُه بلا كراهة. وقال المالكية: إن الصلاة في المقبرة جائزة إذا خلتْ من النجاسة، بلا كراهة. وعند الحنابلة: أن من صلى إلى

---

(١) «المشروع والممنوع» لفضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم (ص٦).

القبور فمكروه فقط، إذا كانت أكثر من ثلاثة، وإلا فهي صحيحة بلا كراهة. وروى ابن القاسم أن (مالكًا) كان يصلي في المقبرة والقبور عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه. قلنا: يعني لانتفاء سبب الكراهة ونحوها، بثبوت التوحيد واليقين بالوحدانية في قلوب الجميع. وقد يخطئ بعض العامة في آداب زيارة القبور والأضرحة (وهنا يجب أن نسمي الأشياء بأسمائها) فهذا يُسمَّى خطأ، أو يسمى جهلًا، وقد يسمى ذنبًا، ولكنه لا يسمى شِرْكًا ولا يسمى كفرًا، إذا أردنا أن نُنصِف الدين والعلم والناس.

واتخاذ القبور مساجد مفصَّل بحديث «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[1]. فيكون معنى اتخاذ القبور مساجد أي يسجد الناس للقبر. وقال البيضاوي: فأما من اتخذ مسجدًا في جوار قبر رجل صالح، وقصد التبرك بالقرب منه، لا التعظيم له ولا التوجه نحوه، فلا يدخل في ذلك الوعيد. وقال صاحب (إعلام الراكع والساجد) بعد أن حقق أن الصلاة عند القبور صحيحة، غير أنها مكروهة عند بعضهم فقط، قال ما نصه: إن بناء المسجد على القبر ليس في تحريمه حديث (صريح صحيح)، وحديث «**أولئك شِرَارُ الخَلْقِ**»[2] الإشارة فيه إلى مَن نحت التماثيل وعبدها في المعابد، لا إلى بناء ذات المسجد». اهـ.

*** قوله رضي الله عنه عن قبور الأنبياء في المساجد الثلاثة**

إن الإجماع التاريخي على أن قبر إسماعيل عليه السلام موجود بالحَطِيم تحت جدار الكعبة المطهرة مع قبور أخرى، فلو كان وجود القبر في المسجد ممنوعًا، على مفهوم هؤلاء القوم، لما صح الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ من أن الصلاة في هذا المكان أفضل من كل مكان، ولكان رسول الله ﷺ أمر بنبش القبر أو نقل رُفاته على

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٢٤٠)، برقم (٥٩٣).

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٢/ ٨٨)، برقم (٤١٧)، ومسلم: (١/ ٣٧٥) برقم (٥٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الأقل؛ مما يدل على أن علة النهي أصبحت لا وجود لها، وكذلك ثبت أن بالمسجد الأقصى -وبه صلى النبي ﷺ في الإسراء- به قبور لعدد من الأنبياء -إبراهيم وبنوه- فهذه هي المساجد الثلاثة المشرفة وعليها تقاس بقية المساجد؛ إذ لا خصوصية على الإطلاق، وفي أبي داود أن مسجد الخَيْف به عشرات من قبور الأنبياء والصالحين.

*** جمع الشيخ ﷺ وتحليله للأدلة على اجتماع العلماء سلفًا وخلفًا على الصلاة في المسجد النبوي وبه القبر المبارك**

ذكر ابن سعد في (الطبقات) أنه لما مات رسول الله ﷺ اختلف الصحابة في مكان دفنه؛ فمنهم من رأى أن يُدفن عند المنبر، أو حيث كان يؤم الناس في الصلاة، أو غير ذلك من الأمكنة في داخل المسجد النبوي[1]، فلو كان دفن الميت في مسجد ممنوعًا شرعًا (على مفهوم المتمسلِفة) ما اقترح الصحابة ذلك، وهم أعلم الناس بدين الله.

وهذا المعنى أدركه الصحابة عند دفن سيدنا رسول الله ﷺ في قبره ببيت السيدة عائشة رضي الله عنها المفتوح بابه على المسجد، ولا يقال: إن هذا كان خاصًّا به ﷺ، فقد دُفن معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان كبار الصحابة أحياء، وتم كل هذا بإجماعهم، وهم أعرف الناس بدين الله، فلم ينكر واحد منهم أن يدفن النبي ﷺ في حُجرة عائشة رضي الله عنها، وهي مفتوحة الباب على المسجد، ولا طلب أحدهم إغلاق باب الحجرة التي بها هذه القبور بعد دفن الصحابة واحدًا بعد واحد بجوار قبر النبي ﷺ الملاصق تمامًا للمسجد، ولم يُنقل رُفات أبي بكر وعمر إلى مكان آخر. إذن فقد أصبح وجود قبر مستقل في جوار المسجد سنَّة صحابية إجماعية ثابتة. وقد كان لبيت النبي ﷺ باب إلى الشمال وباب إلى الغرب، وباب إلى المسجد يسمى (الخَوْخَة).

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٩٣).

واستمر الأمر على الرضا والسعادة لوجود القبر النبوي في المسجد الشريف قرونًا لم يُعرف فيها اعتراض لعالم مسلم -لا محدث ولا فقيه ولا متكلم- على هذا حتى الآن. هذا لأن ذلك إنما هو سنة صحابية إجماعية ثابتة، كما أنه أصبح إجماعًا يقينيًّا مكررًا مقررًا من الأمة جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن في ظل قوله ﷺ: «**إن الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد ﷺ على ضلالة**»[1]. وهكذا لم يأتِ في خبرٍ صحيحٍ أو ضعيفٍ أن أحدًا من الصحابة أو التابعين اعترض على إدخال الحجرة النبوية في مسجد الرسول ﷺ حين كان عمر بن عبد العزيز واليًا على المدينة، ولا جاء عن كبار علماء هذا العصر والتابعين ما يفيد ذلك بالطريق العلمي الصحيح. بالإضافة إلى أن الأمر لا يشمله مفهوم النهي كما أسلفنا في الحديث، ويكون الحكم بغير ذلك اتهامًا للصحابة بالجهل ومخالفة السنة، وهم أهلها وحراسها. وفي الحديث الصحيح: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[2]، وتأمَّلْ قوله ﷺ: «**عَضُّوا عليها بالنَّوَاجِذِ**» ثم تأمَّلْ قوله ﷺ في رواية جابر عند ابن عساكر وجماعة: «**ما بينَ قَبْرِي ومِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِن رِياضِ الجنَّةِ**»[3]، وإن كان في روايات أخرى لفظ «**بيتي**» بدلًا من «**قبري**».

نقول: ولا تعارض بين رواية (قبري) ورواية (بيتي)، فكلاهما فيما ترجح من المنطوق النبوي مع اختلاف المجالس والأسباب والمناسبات، فهو الآن فيما ترى معجزة له ﷺ بعد وفاته لا يعقلها إلا العالمون.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٤/ ٤٦٦)، برقم (٢١٦٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود: (٢/ ٦٢٠)، برقم (٤٦٠٧)، والتِّرْمِذِي : (٥/ ٤٤)، برقم (٢٦٧٦)، كلاهما من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده»: (١٨/ ١٥٣)، برقم (١١٦١٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

رابعًا: أقوال الشيخ رضي الله عنه حول المسائل الخاصة بالاحتفالات الصوفية

* الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

ثم يستطرد الشيخ مبينًا رأيه حول الاحتفال بالمولد النبوي الشريف قائلًا: «فهو ما لم يكن بصورته هذه في الصدر الأول من الإسلام، وهو -على وضعه الحالي- فيه المقبول والمرفوض، وإن كان المرفوض قد غلب فعلًا على المقبول، ولا بد من وقفة إصلاح؛ فإن القائلين بالإلغاء يطالبون بغير الممكن أصلًا، ولا ينظرون إلا إلى الجانب المرفوض وحده.

إن أول من احتفل بذكرى المولد النبوي هو الملك المظفر (طغرل) ملك (إِرْبِل) بالعراق، بموافقة الإمام أبي شامة والعلماء. ثم التقط الفاطميون الحبل فزودوا وتوسعوا.

وقد التمس علماؤنا الدليل، فوجدوا أن الله كرّم يوم الولادة، ويوم الموت، والبعث مرتين، مرة بلسان القرآن الكريم، وأخرى حكاية على لسان عيسى عليه السلام ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥]، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣]. إذن فليوم الولادة منزلة عند الله -سبحانه وتعالى-، ثم نظروا فوجدوا أن رسول الله ﷺ كان يلازم صوم يوم الإثنين من كل أسبوع، فسُئل في ذلك، فقال: «**هو يَوْمٌ وُلِدْتُ فيه، وأُنْزِلَ عَلَيَّ فيه**»[1].

ومعنى هذا: أنه ﷺ كان يُحيي ذِكرى مولده الشريف؛ شكرًا لله تعالى في كل أسبوع مرة بالصيام، وربما بما تيسَّر له من خير، فهو يوم من أيام الله، وقد اهتم رسول الله ﷺ بأيام الله، كما فعل في يوم عاشوراء[2]، وكما فعل في (سبوع) الحسن

(١) أخرجه مسلم: (٢/ ٨١٨)، برقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٤/ ١٥٣) برقم (٣٣٩٧)، ومسلم (٢/ ٧٩٥) برقم (١١٣٠)، كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والحسين[1]، بالإضافة إلى ما ورد من أنه ذبح في حجة الوداع ثلاثًا وستين بدنة، بعدد سِنِي عُمُره الشريف[2].

ومن مجموع هذا وما هو منه، يمكن استنباط مشروعية إحياء الموالد لما فيها من الذكريات النافعة والعِبَر الموجَّهة، وبما فيها من تلاوة القرآن والوعظ والإرشاد والذِّكر الصحيح والثقافة، ثم بما فيها من التعرف على البرّ والتقوى والرواج الاقتصادي والصدقات والحركة الاجتماعية؛ فهي بهذا الوصف أسواق خير ونفع عام لا تضيق به أصول الأحكام الشرعية ولا فروعها، بل إنها تدعو إليه وتحض عليه، ثم إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ويقول الرسول ﷺ: «**إنَّما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»[3]. وقد أمر الله تعالى أن نفرح بفضله ورحمته: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]. فإحياء ذكرى مولد رسول الله ﷺ بالمشروع من العبادات والخيرات ونحوها، إنما هو فرح برحمة الله، فهو تنفيذ لأمره تعالى. كذلك نحن مأمورون بالشكر على النعمة. والاحتفال بما جاء به رسول الله ﷺ (بشروطه المشروعة) نوع من شكر النعمة. وعلى نحو ذلك أو بعضه ينسحب حكم مشروعية إحياء ذكريات موالد أولياء الله جميعًا، بشروطها المقررة.

وهنا يجب أن نقرر أيضًا القاعدة العلمية الثابتة: بأنه ليس كل ما لم يكن في الصدر الأول من الإسلام هو حرام، وإلا فلم يبق في حياتنا شيء حلال. وفيما عدا هذا -مما اندس في هذه التجمعات من المفاسد الخلقية والدينية والاجتماعية وغيرها- فالحكومة والصوفية الرسمية، والجمهور، هم المسئولون جميعًا عنها، في الدنيا والآخرة. وهو شيء عمّ وطمّ وأورث الهمّ والغمّ.

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ١١٨)، برقم (٢٨٤١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه الترمذي: (٣/ ١٧٨)، برقم (٨١٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٩١)، برقم (١٠٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعلى كلٍّ فهذه كلها أمور خلافية فرعية لا تمس أصول العقيدة من قريب أو بعيد، فهي تدخل في مجالات الأحكام الاجتهادية، فلا يجوز أن يؤدي الاختلاف في الرأي فيها إلى إفساد علاقات الأخوة بين المؤمنين، ولا يجوز الانتصار لرأي واحد ورمي كل من خالفه بالفسق أو الشرك أو الكفر كما يفعل بعض المنتسبين للمذهب السلفي. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: الأسلوب المتبع من رجال الدعوة وهيئة الأمر بالمعروف -ويعضدهم أحيانًا رجال الأمن- في الترويج للمذهب الفقهي الذي يرى أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أو ليلة النصف من شعبان أو ليلة الإسراء والمعراج من البدع؛ وانظر إلى تجريحهم للمحتفلين بهذه الأيام واعتبارهم من أهل البدع -بل واستباحة اتهامهم بالشرك في كثير من الأحيان- دون اعتبار للخلاف الفقهي المعتبر في هذه المسألة، والمؤسس في طرق استنباطه على المنهج السلفي، ودون حتى الإشارة إليه من قريب أو بعيد. وفي المقابل يستبيحون لأنفسهم الاحتفال الرسمي والشعبي بمئوية تأسيس المملكة، حفظها الله، وهو ما يثير حالة من الاستفزاز والنفور لدى المعتنقين للمذاهب الفقهية التي ترى استحباب إحياء أيام الله تعالى وعلى رأسها يوم المولد النبوي الشريف.

ويحضرني هنا ما قاله المفكر العربي المستنير د. عبد العزيز بن عثمان التويجري في ختام مقالته عن ضرورة التقريب بين طوائف الأمة، مُردِّدًا ومؤيدًا قول الشيخ السيد رشيد رضا يرحمه الله: «إن من أعظم ما ابتُليت به الفرق الإسلامية رمي بعضهم بعضًا بالفسق والكفر، مع أن قصد كلّ منها الوصول إلى الحقّ بما بذلوا جهدهم لتأييده، واعتقاده، والدعوة إليه، فالمجتهد وإن أخطأ، معذور»[1].

(١) أ. د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة/ رسالة التقريب العدد (٤٧)، محرم وصفر ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦م.

*** حكم إقامة موالد للصالحين بين الضابط الشرعي والإصلاح الدعوي للواقع**

هذه اللقاءات التي تعودها الناس في ذكرى موالد آل البيت وأولياء الله الصالحين رضي الله عنهم لا ترفضها سماحة الإسلام ولا الأصول الشرعية العامة ما دامت خالية مما نهى الله ورسوله عنه، إذن فهي مشروعة بالنظر إلى الأسباب الآتية:

١ - ثبت بالإجماع أن النبي ﷺ كان يلازم صوم يوم الإثنين أسبوعيًّا، فلما سئل عن السبب قال: «**هذا يومٌ وُلِدْتُ فيه وأُنْزِلَ عليَّ فيه**»[١]. ولهذا -كما أسلفنا- كان يحتفل بالصيام لإحياء هذا اليوم أسبوعيًّا، فجاز لنا أن نحتفل بذكريات الموالد والمناسبات الشريفة، بما يحقق مصلحة الفرد والجماعة، والدين والوطن، ولا يخالف -عمومًا- الشرع الحنيف.

٢ - ثبت أيضًا أنه ﷺ احتفل بيوم عاشوراء الذي نصر الله فيه موسى على فرعون، فصام عاشوراء وأذن بصيامه[٢]، فجاز لنا الاحتفال بالمناسبات الكريمة في حدود المشروع دينًا ودنيا.

٣ - كرم الله يوم الولادة ربانيًّا، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ [مريم: ١٥] وكرمه على لسان البشرية فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾ [مريم: ٣٣]. وسجل الله تعالى قصة ميلاد عيسى وكفالة موسى مما يدل على أن في ذكريات الميلاد ما يُتعلق به من العِظَات والعِبَر، مما يجب الاهتمام به والعكوف على بحثه والإفادة منه.

٤ - قد وجه الله سبحانه إلى إحياء ذكريات الصالحين عمومًا، بما أمر به نبيه المصطفى ﷺ حيث يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مريم: ١٦].. ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [مريم: ٤١].. ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ [مريم: ٥١].. ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ [مريم: ٥٤]..

---

(١) أخرجه مسلم: (٢/ ٨١٨)، برقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري: (٤/ ١٥٣)، برقم (٣٣٩٧)، ومسلم (٢/ ٧٩٥)، برقم (١١٣٠)، كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ [مريم: ٥٦].. ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧].. ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١].. ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [ص: ٤٥].. ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ [ص: ٤٨]، كما جاء في سورة مريم، وأشار في ذكر كل واحد منهم إلى بعض خصائصه للاعتبار والقدوة (ولا يكون التذكير إلا للغير فردًا أو جماعة).

٥ – اهتم القرآن بالقصص، ولا يكون القصص إلا إلى الغير، فردًا أو جماعة على الأغلب، فقال تعالى عن نفسه: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فذكر من الأنبياء: يوسف ويونس وغيرهم، وذكر من الصالحين: مؤمن آل فرعون وأصحاب القرية والخَضِر ولُقمان وذا القَرنين، وغيرهم، وذكر من الصالحات: أم عيسى، وأم موسى، وزوجة إبراهيم، وزوجة فِرْعَون، وامرأة عِمْرَان وغيرهن، وذكر من الأشقياء: عادًا وثمودَ وأصحاب الأُخْدُود وأصحاب الرَّسِّ وأصحاب الأَيْكَة وإخوانهم.. ثم بين تعالى بعض فوائد القصص فقال: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: ١٢٠]، وأمر باتخاذ القصص من وسائل الدعوة فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وكل هؤلاء موتى، وفي هذا الأمر شمول عام تدخل فيه الموالد، وليس أفضل ولا أمثل لتحقيق كافة مقاصد ذلك من تجمعات موالد الأولياء والصالحين بلا جدال.

أما ما يحيط بالموالد من منكرات جعلتها مجالًا خصبًا للمرتزقة والنصابين، فقد قررنا أن الموالد بوضعها الحاليّ فيها المشروع والممنوع، وقد أصبح الممنوع فيها غالبًا على المشروع للأسف الشديد، فمثال المشروع: قراءة القرآن، ومجالس وحِلَق العلم، وانتشار الصدقات، وما يكون بين الناس من التعارف والتآلف والتعاطف، ورواج الحركة التجارية، والتلاقي على رضا الله بحسن النية وصفاء القلب، والتواصل الاجتماعي بين الطبقات المحبب شرعًا، كل ذلك (حركة فيها بركة) لا ينكرها عقل ولا دين، والإسلام دين التجميع والتكتيل، كما هو ظاهر في

جماعات الصلوات والجُمع والعيدين، فضلًا عن اعتبار الموالد نوعًا من الفرح ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]. ولكن بجوار هذا شر موبق وعبادة محرفة، وتجمعات منكرة، ولصوصية أراض، ولصوصية أموال، ومراتع فسوق، وبؤرات ميسر، ومستنقعات تخريف وتحريف وشعوذة، وتفاخر وتكاثر بالأتباع والأموال والمظاهر، وضياع؛ أي ضياع للأموال والأوقات والأخلاق والطاعات!! فلا بد من وقفة صارمة من المسئولين من أجل الإصلاح!

إن هذه الموالد يمكن أن تصبح أسواقًا للثقافة الربانية، ومنابر للدعوة الوطنية والإسلامية، ومناسبات للخير العام والخاص، لا يمكن أن تضارعها أي تجمعات مصنوعة، مهما استقطبت من المغريات، وليس هذا في يد أحد سوى الحكومة أولًا، فيما لها من الإشراف عليها، ثم في يد مشيخة الطرق الصوفية فيما لها من الإشراف عليها إذا صح الحزم وصح العزم على التغيير، وطُرحت المجاملات، وصَدقت المواجهات. أما والحال على هذا المنوال، فخسارة ووبال. وليس بعد الحق إلا الضلال.

*** قوله ﷺ في ضرورة إصلاح واقع التصوف في شأن المظاهر الاحتفالية المنتشرة في العالم الإسلامي ذات الطابع الديني الصوفي**

وهنا يتجلى مشرب الشيخ السلفي الدعوي في نقل العلم متدرجًا إلى الواقع لإصلاحه، ولو أدى ذلك لتعرضه للأذى والعَنَت، سواء من المخالفين في الرأي من إخوانه السلفيين، وهو منهم، أو من عوام المنتسبين للتصوف الذي درجوا على مظاهر ورثوها واعتادوا على ربطها بالدين وممارستها كطقوس دينية وليس كأعراف اجتماعية منها المباح ومنها الممنوع. لذلك لم يعبأ الشيخ بما يناله من ظلم الظالمين وجهل الجاهلين، متخذًا من نهج الصحابة والتابعين نهجه في تحمل الأذى ورفع لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا المجال الحيوي في شتى أنحاء العالم الإسلامي، مهما واجه من تعنت ومهما عانى من كَبَد. يقول الإمام ﷺ عن المواكب الصوفية وما فيها من الرقص والدُّفُوف والصاجات والأعلام والأزياء

الشاذة والأوشحة والعمائم الملونة: «أما الطبل والزمر والرقص وما يليه من الدفوف والصاجات فهو حرام باتفاق كعبادة؛ وهو لهو وباطل وعبث ليس من الدين ولا هو شأن الرجال. أما نفس المواكب: فقد كان أول موكب انعقد في الإسلام يوم أذن الله بإعلان هذا الدين الخاتم فخرج المسلمون في صفين، على رأس أحدهما: عمر بن الخطاب، وعلى رأس الآخر: حمزة بن عبد المطلب، واخترق هذا الموكب شِعاب مكة وثَنِيَّاتها، يعلن بالتهليل والتكبير. ثم جاءت مواكب المجموعات في المدينة تعلن بالتكبير ليالي الأعياد والجماعات التي تعلن بالتلبية في الحج. ثم جاءت السرايا والبعوث تأخذ وجهتها في الدعوة إلى الله، كلما علوا شرفًا أو هبطوا سهلًا هللوا وكبروا، فكان هذا جميعًا أصل «المسيرات» والمواكب الصوفية السليمة. أما الأعلام فقد وُجدت في مسيرات المجاهدين في سبيل الله والفرسان الأوائل في مواجهة الجيوش الباغية المعتدية على الأمة الإسلامية في صدر الإسلام، حتى إذا غزا لويس التاسع دمياط دعا الإمام الصوفي العظيم «الشيخ أبو الحسن الشاذلي» الناس للجهاد، بعد أن كُفَّ بَصَرُه، ودقت طبول الحرب بين يديه، وسار إلى موكبه أئمة الدين في عصره، ومنهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، وإمام المحدثين الشيخ زكي الدين المنذري صاحب (الترغيب والترهيب)، ومكين الدين، وابن دَقِيقِ العِيدِ، إمام علماء الأصول، ورجاله من الصعيد وغيرهم من الخاصة، فضلًا عن الجماهير الهائلة. وكان خروج أبي الحسن وهو مكفوف قد أثار حماس الناس وغيرتهم، فاتَّبعه الآلاف مبادرين إلى كفاح الفرنسيس بأموالهم وأنفسهم، وقد اتخذت كل بلدة أو أسرة راية لها تُعرَف بها ويتجمع تحتها رجالها، حتى نصر الله المسلمين، وأُسر لويس ورجاله وحُبس في دار ابن لُقمان (الصوفي) بالمنصورة[1]. ثم ورِث بعض المتصوفة هذه الأعلام من أسرهم، وأقاربهم، وبلادهم، واتخذوها شعارًا وحولوها من حقيقة إلى مشهد تمثيلي يذكِّر الناس بالجهاد والدفاع عن الدين،

(١) لا زالت دار ابن لقمان موجودة في المنصورة، وقد حُولت إلى متحف معروف.

ثم مع مرور الوقت فلسفوها، فاعتبروها إشارة في مجال مجاهدة النفوس. ولست أرى هذا الرأي ولا أسيغه، وخصوصًا بعد هبوط مستواه إلى ما ترى في المدن والقرى من الناس الآن.

أما الأزياء الشاذة فمدسوسة على أهل الله، ولم يُعرَف ولي من أولياء الله كان له زِيّ غير مألوف، فهي أثواب شُهرة «**ومَن لبِس ثوبَ شُهْرَة شَهَّرَ اللهُ به**» كما جاء في الحديث الشريف، وفي حديث آخر: «**مَن لبِس ثوبَ شُهرةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يومَ القيامةِ ثوبًا مِثلَه، ثم تُلَهَّبُ فيه النار**»، رواه أبو داود، وابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

والحق أنه عندما أذاع الشياطين أن رسول الله ﷺ قد قُتل -تخذيلًا لجماعة المسلمين- لبِس رسول الله ﷺ عمامة سوداء لفتًا للأنظار، وتكذيبًا لدعوى المشركين، إذن فقد لبسها لسبب معين، في وقت معين، كما قرره أهل العلم، ثم لبسها (الشيعة) حزنًا على استشهاد الحسين، كما لبسها العباسيون لأمر ما، أما القول بأن (الراية أو العمامة) الصفراء كانت علامة الملائكة يوم بدر، فلا دليل من العلم عليه، وأكثر ما روي عن رسول الله ﷺ أن عمامته كانت بيضاء كالغمامة، وكل ما جاء في ألوان العمائم ففي حديث واهٍ شديد الضعف، أو حديث موضوع، وكلاهما لا يُؤخذ به، وخصوصًا من الصوفية، فإنهم يجعلون خلاف الأولى في رتبة الحرام.

غير أنه ثبت أن الصحابي الجليل أبا دُجَانَة كانت به عِصابة حمراء، سماها (عِصابة الموت) كان يلبسها إذا غامر في صفوف الأعداء، فسئل فقال: حتى يعرفني بها المسلمون إذا شرفني الله بالشهادة. فقد لبسها لسبب غير الشهرة والترفع والزهو على خلق الله، وقد كره رسول الله ﷺ الثوب الأحمر غير المخطط.

أما العمامة الخضراء فقد أحدثها السلطان (شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون) أيام حكم المماليك، وخص بها آل البيت لبعض الأسباب، كما نقله العدوي في (مشارق الأنوار)، والشبلنجي في (نور الأبصار)، غير أن للعلماء فيها رأيًا مضادًا، فإذا لبس الناس عمائمهم الملونة على أنها «عادة» فلعله لا يكون بها

بأس، أما إذا لبسوها تعبدًا، أو تمذهبًا، فلن يكون معهم كتاب ولا سنة ثابتة؛ لأنها إما أن تكون تعصبًا للمذهب، والنبي ﷺ يقول: «**ليسَ مِنَّا مَن دعا إلى عصبيةٍ، وليسَ مِنَّا مَن قاتَلَ على عَصَبِيَّةٍ، وليس مِنَّا مَن ماتَ على عصبيةٍ**»[1]. وإما أن تكون تزكية للنفس وإعلانًا عن الشرف، والله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢] وإما أن تكون تعبدًا، وإنما يُعبد الله بما شَرَعَ، وإما أن تكون تبركًا، ولا تكون البركة إلا فيما أذِن فيه الله ورسوله ﷺ ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فليكن إذن لبسها على سبيل العادة، خروجًا من الحرج، لمن يشاء، إذا ضمِن ألا يجره لبسها إلى الرِّياء والتعالي والسُّمعة وغضب الله -سبحانه وتعالى- ورسوله ﷺ».

وهكذا كانت اجتهادات الشيخ في الأمور الخلافية، خاصة تلك التي مزقت شمل الأمة الإسلامية، بلسمًا شافيًا ودعوة إلى التخلي عن الأهواء وإلى اتساع الآفاق والفهم الصحيح لروح ديننا السمح الحنيف. وهكذا جابه شيخنا العظيم الغلاة والمتنطعين الذين نصَّبوا أنفسهم أوصياء على دين الله وحاولوا فرض فهمهم القاصر لبعض أمور الدين على خلق الله، واتهموا كل من خالفهم بالكفر والشرك والضلال والزندقة؛ جابههم بالحجة والبرهان، بالعلم والبيان، بشجاعة وإقدام، فدحض حججهم الباطلة، وكشف آراءهم الواهية، فحرر خلق الله من الأغلال التي وضعوها حول أعناقهم، ومن الكُبُول التي قيدوا بها حركاتهم، فجاءت اجتهاداته المُلهمة، تُيسر ولا تُعسر، تُبشِّر ولا تُنفِّر، تملأ الأرض علمًا ونورًا، وتفتح أبواب الأمل للساعين إلى طلب الكمال، وكأنها تهتف بهم: يا أيها الساعون إلى الكمال، الطريق واضِح، والدليل لائِح، والداعي أَسْمَعَ فَأَقْنَعَ وَأَمْتَعَ؛ ومَا التَّحَيُّرُ بعد ذلك إلا من غَفْلَةِ النَّفْسِ، وغَلَبَةِ الهَوَى، واعْتِقَادِ الفَضْلِ على السِّوَى.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٥٣) برقم (٥١٢١)، والبيهقي في الآداب (١/ ١٠٠) من حديث جبير ابن مطعم رضي الله عنه.





المسألة الحادية عشرة

إحياء التقريب السلفي المشروع بين الطوائف الإسلامية وتمييزه عن التذويب والخلط المشبوه والممنوع

تقوم دعوة شيخنا ﷺ في هذا الصدد على أساسين ودعامتين واضحتين:

أولاها: أن الاختلاف حتمي حتى بين المجتهدين في العصر الأول، وأن إحياء فقه وأدب الاختلاف كفيل بأن يعلمنا كيفية الانتفاع من هذه الاجتهادات العظيمة القيمة المتباينة أحيانا في المسألة الواحدة، وأن الأصول الجامعة للمسلمين محدودة وواضحة، والمغالاة في تنويعها وتفريعها عما كان عليه الأمر الأول لهذه الأمة هو أصل الداء ويفضي حتمًا إلى درب الحيرة والعداوة وصولًا إلى التكفير والتشريك.

ثانيها: أن التقريب المشروع واجب له ضوابطه المتفق عليها، وكلها مستمدة من الكتاب والسنة، وأنه شيء آخر غير التذويب المشبوه الممنوع، الذي لا علاقة له بهذه الدعوة المباركة.

يقول الشيخ ﷺ: «لقد اتخذتُ من الشرع والعقل دعامتي في دعوتي إلى الله، في رفق وسماحة، ومحاولة للتجميع والتوفيق، على استئناس بما صح من نظريات العلم الحديث، مع استقلال ذاتي في الرأي، سواء خالف أو وافق من سواه»[1].

أولاً: حتمية الاختلاف

* الأدلة الشرعية والتاريخية والعقلية على حتمية الاختلاف في أمور الدين

يُذكِّرنا الإمام الرائد ﷺ -المحدث وعالم الأزهر الجليل- بالأدلة الشرعية

(١) «أفكار وخواطر في الله مع أبنائي وأحبائي» لفضيلة الشيخ/ محمد زكى إبراهيم: مجلة المسلم، العدد الثاني، السنة التاسعة عشرة، غرة رمضان ١٣٨٨هـ، نوفمبر ١٩٦٨م.

الواضحة الدالة على وجوب ما يدعو إليه من بذل الجهود المخلِصة من كل الأطراف في محاولة تجميع المسلمين والتأليف بينهم، بادئًا تأسيسه الفقهي لهذه المسألة بإثبات حتمية الاختلاف، فيقول ﷺ: «وقد اختلف الصحابة والنبي ﷺ معهم والوحي ينزل في صلاة العصر في بني قُرَيْظَة، ومصير أسرى بَدْر، واختلفوا مِن بعده في مثل مسائل: (العَوْل والكَلالة، وعدة الحامل المتوفَّى عنها زوجُها، وموضوع القبض والسدل في الصلاة، وسُكْنَى المبتوتة، وزواج المتعة، والطلاق ثلاثًا بلفظ واحد، وبعض مسائل المواريث، وقراءة المُؤتَمّ، ورفع اليدين قبل وبعد الركوع، والجهر بالبسملة، بل اختلفوا في صورة حركة الإصبع في التشهد.. إلخ). وكلها فرعيات خلافية، لا تمس أصول الدين، ولهذا احترم كبار أئمة المذاهب آراء بعضهم البعض، بل قلَّد بعضُهم بعضًا أحياءً وموتى، فصلى الإمام الشافعي عند قبر أبي حنيفة بمذهب أبي حنيفة، أدبًا مع روحه الشريفة، وقلد أبو يوسف الإمام مالكًا، وقرظ الشافعي الليث بن سعد، وقرظ أبو حنيفة سفيان الثوري والأَوْزَاعِيّ، ونظَم الشافعي شعرًا في تقريظ الإمام أحمد، بل صلى الإمام أحمد بن حنبل خلف بعض أئمة القَدَرِيَّة المغالِينَ وأمثالهم[1].

(١) راجع المزيد حول الخلاف بين الأئمة:
- «اختلاف الفقهاء» للطبري، والآجُرِّي، والطَّحَاوِي، وابن هشام الكَلْبي، وابن المنذِر.
- «إيثار الحق على الخلق في رد الخلافيات إلى المذهب الحق» لابن الوزير.
- «زبدة الأحكام في اختلاف مذاهب الأئمة الأربعة الأعلام» للغَزْنَوِي.
- «معين الأمة في معرفة الوفاق والخلاف بين الأئمة» للسَّمَرْقَنْدِي.
- «تذكرة المسئولين في الخلاف بين الحنفي والشافعي» للشِّيرازي.
- «فلك الفقه في مسائل الخلاف بين الأئمة الأربعة» لابن أبي الحناجر.
- «أسباب الخلاف الواقع بين الملة الحنفية» للبطليوسي.
- «المعاني البديعة في اختلاف علماء الشريعة» للريمي.
- «رسالة في غرائب الخلاف بين الأئمة» للوغليسي.
- «جزيل المواهب في اختلاف المذاهب» للسيوطي.

وهكذا لا يُعرف أن أحدًا من كبار الأئمة طَعَن في ديانة أخيه أو انتقصه؛ إذ ليس في الدنيا مذهب كله خطأ أو كله صواب. وكان أبو حنيفة يقول: أرى أنني على صواب يحتمل الخطأ، وغيري على خطأ يحتمل الصواب. وهذا إمامنا الشافعي ﵁ وقد وضع مذهبه القديم بالعراق، في ظروف وأحوال خاصة، فلما جاء إلى مصر وواجه ظروفًا وأحوالًا أخرى، وضع مذهبه الجديد، وكلاهما من الكتاب والسنة، وكلاهما صواب في موضعه. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وهذا هو الإمام مالك لم يقبل من المنصور الخليفة العباسي أن يحمل الناس على كتابه (المُوَطَّأ)، وبيَّن له أن بعض الصحابة سمع ما لم يسمع الآخر، أو علم ما لم يعلم غيره، فنشر ما علم، وكلٌّ منهم على حق. ومن ثم اختلفت الوجوه في المسألة الواحدة، وكلها على الأغلب صحيح.

ونحن مع إمامنا جعفر الصادق[1] ﵁ في قاعدته العلمية العملية الشرعية الجامعة: (حسبنا من المسلم ما يكون به مسلمًا)، وسيبقى الخلاف ما دام هناك اختلاف في العقول والتحصيل والفهم والبيئات والوراثات وغيرها: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. فالخلاف على الفروع طبيعة وشريعة، والإنسان مكلف شرعًا بالعمل بما وصل إليه اجتهاده، واستقر عنده نظره، ويكون هذا هو حكم الله في حقه وحق من قلده حتى يتبين له خطأ ما ذهب إليه، وعلى هذا الأساس ننظر إلى مذاهب المسلمين، فنقرب ما بينها ونربطها برباط لا فتنة فيه ولا تفرقة ولا ضلال إن شاء الله»[2].

---

(١) انظر إلى براعة الإمام الرائد ﵁ في السعي إلى تأليف قلوب إخواننا من الشيعة؛ إذ يُلقب الإمام جعفر الصادق بـ«إمامنا» تبيانًا منه لمرجعية أئمة أهل البيت المعتبرة عند أهل السنة والجماعة، وهو معنى للأسف يغيب عن الكثير من إخواننا الشيعة، وفي ذلك بيان عملي لنا لكيفية الحوار ولغة التخاطب بين الطوائف المختلفة من المسلمين.

(٢) فضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم: «دعوة العشيرة المحمدية»، الحلقة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص ٨، ٩.

* النتيجة الشرعية لحتمية الاختلاف في أمور الدين

ويؤكد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الموقف الشرعي المحمود تجاه تلك الخلافات الحتمية، مبينًا أن أهل القبلة جميعًا مسلمون، وإن اختلفوا، قاطعًا بذلك دابر فتنة التكفير ومُحذرًا طُلابه ومُريديه من فتنة الغرور وتزكية النفس ومن ادعاء احتكار معرفة الحق دائمًا فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، فلا خصومة أبدًا بيننا وبين أي مذهب من مذاهب أهل لا إله إلا الله، سواء كانوا أحنافًا أو مالكية أو شافعية أو حنابلة أو زيديين أو ظاهرية أو غيره، فإن الاختلاف في الفروع ضرورة طبيعية، ويستحيل استحالة مادية جمع الناس على مذهب واحد أو رأي واحد في مسائل ظنية هي موضع نظر واجتهاد إلى يوم القيامة، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] وما دام مرجع الجميع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالخلاف على الفرعيات إنما هو في الفهم والتوجيه والترجيح وطلب الحق، فلا خصومة قطُّ»[١].

ويستطرد الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في موضع آخر قائلًا: «فالمسائل الخلافية كثيرة، كالتوسُّل في الدعاء، والقراءة للميت، والإعلان بالكهف يوم الجمعة، وأذانيْ صلاة الجُمُعة وسنّتها القَبلية، والصلاة والسلام بعد الأذان، والقيام للقادم، والسلام للتوديع، والمصافحة بعد الفرائض والعيدين، وختام الصلاة بالجهر، وتشييد المساجد، وتجويف المحاريب، وزيارة مشاهد الأولياء، والذكر بجماعة، وبعض تقاليد الصوفية، وتقسيم البدعة، ونحو ذلك وهو كثير، فكل هذه المسائل مسائل فرعية اجتهادية، قد اختلف ولا يزال يختلف فيها الرأي والنظر، ولم يكن ولن يمكن الاجتماع فيها أبدًا على رأي واحد، وهي من مسائل الحلال والحرام، وليست من مسائل العقيدة التي يترتب عليها الكفر والإيمان، وكل رجل فيها مُلزَم بما صح عنده من دليل يلقى الله عليه بلا مشاغبة. وهي عندنا ربما ترددت بين الرخصة والعزيمة،

(١) «دعوة العشيرة المحمدية» لفضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم، الحلقة الأولى.

فنتعامل فيها على هذا الأساس، ولا تكون سببًا في الفُرقة بين المسلمين أو الحرب التي تمزق الأواصر وتمزق البلاد، وإنما شأنها شأن الخلاف الفقهي المعروف بين المذاهب الأربعة، فكل إنسان يلتزم بما اختار لنفسه دون تأثيم أو تجريم أو تسفيه للآخرين، ونحن نسجل حجتنا فيها، ولكن لا نجادل ولا نماري أبدًا؛ لأنه لا فائدة من وراء الجدال على الإطلاق، وحسبنا أن ندفع بالتي هي أحسن»[1].

ويسترسل الشيخ موضحا مَغَبَّة محاولة جمع الناس على رأي واحد، فيقول: «والعقلاء من قبلُ ومن بعدُ يَعلمون أنه من المستحيل جمع الناس على رأي واحد، فإضاعة الوقت في محاولة هذا عَبَث أطفال أو لَعِب بالنار يفضح الرجال، ومرض خبيث قتَّال، وها هو ذا الوطن الإسلامي الجريح يوشك أن يلفظ أنفاسه العزاز في كل أرض، فلنتوجه جميعًا إلى إنقاذه، ولنبدأ بالمتفق عليه، ونخفف من غلوائنا على المختلف فيه، ولنقدم الأهم الأعمق، ولندع مهزلة الخلاف على الفروع، إن كنا جادين في خدمة الله والوطن، ولنتذكر محنة الإسلام في البُوسنة والشِّيشَان وكَشْمِير وفِلَسْطِين وبُورما والفِلِبِّين والهِنْد... بل في الدول الإسلامية التي استقلت عن رُوسْيَا، وكفانا ذُلًّا أن يَستنصر بعضُنا على بعض [بموالاة غير المؤمنين]»[2].

ثم يقول منبهًا ومحذِّرًا: «إن الإسلام في حاجه إلى توحيد الجهود، وترتيب الصفوف، والتسامي إلى مستوى المسئوليات والأحداث، وبخاصة في هذه الأيام البالغة الخطورة من كل الجوانب. والإسلام قد حفظ حقوق الناس في حرية التفكير والتدين والتمذهب، على ألا يفتت هذا وحدة الأمة، أو ينشر الفتنة، أو يفرق بين الوالد وولده، أو يجعل من القرية أو المدينة شِيَعًا تتقاتل من أجل هامشيات فرعية، ومظاهر سطحية، لا تُخرِج صاحبها من الدين ولا من أهل القبلة».

(١) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية الشاذلية» (ص١٦٢).
(٢) «الفروع الخلافية» لفضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم (ص٧٩، ٨٠).

ويتساءل شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ «لحساب من هذا الاضطراب والتشكيك، وصرف الناس عن كبريات المسائل الحيوية؟! فينشأ المسجد ليحارب المسجد، ويُؤتى بالدارس والخطيب ليقارع الدارس والخطيب، ويُستحل في هذا المسجد ما يُحرم هناك أو العكس، والشيء الواحد يكون حلالًا هنا، حرامًا هناك، ويسمع الناس هنا ما لا يسمعونه هناك، ويرون هناك ما لا يرونه هنا، فتهتز عقائدهم وقلوبهم، ثم تتفرق شِيَعًا عائلاتهم وأفرادهم، ثم ينصرفون لا إلى دين، ولا إلى مجتمع، ولا إلى وطن، ولكن إلى تشويه صورة الإسلام في نظر المسلمين، وصرفهم عن معالجة الكبائر من القضايا إلى التوافه والصغائر»[1].

وبهذه الجهود العلمية إلى توحيد شمل الأمة الإسلامية، رغم حتمية الخلاف فيما بينها في أمور الدين، كانت دعوة شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد دعا طيلة عمره المبارك إلى بذل كل الجهود واتخاذ كل السبل للتوفيق بدل من التفريق، والتقريب بدل من التشعيب، والتحبيب بدل من التشغيب، كل ذلك بالتعقل والتبصير، والتقريب والتيسير.

ثانيًا: وجوب التقريب

* الأدلة على وجوب التقريب المحمود بين المسلمين من القرآن الكريم

وقد حث القرآن الكريم (رغم حتمية الاختلاف بين المجتهدين من علماء الإسلام) على وجوب التقريب المحمود بين المسلمين في العديد من الآيات، منها:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿... فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ...﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ...﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(١) «الفروع الخلافية»، (ص ٥٦، ٥٧).

وقال تعالى: ﴿... ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤] والتي هي أحسن من أساليب التقريب.

وقال تعالى: ﴿... وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ ...﴾ [البقرة: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿... بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ...﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿... كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

وقال تعالى: ﴿... رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ...﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ...﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿... وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ ...﴾ [الأنفال: ١].

*** الضوابط الشرعية لدعوة التقريب بين الطوائف الإسلامية**

وبعد أن فرَغ الإمام الرائد من تبيان مسألة حتمية الخلاف والنتائج الشرعية المترتبة على ذلك[١]، يقدم الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأُسس الشرعية لدعوة التقريب، سواء بين مذاهب أهل السنة، أو بين أهل السنة جميعًا وإخوانهم الشيعة، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وهذا الخلاف على الفرعيات لن ينتهي أبدًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والخلاف

(١) راجع المزيد حول مسألة حتمية الخلاف:
- «خبيئة الأكوان في افتراق الأمم على المذاهب والأديان» لمحمد صديق خان.
- «دفع الخلاف ببيان أسباب الائتلاف» لإسحاق بن يوسف.
- «تهذيب الأخلاق بذكر مسائل الخلاف والاتفاق» للأسدي المقدسي.
- «التحقيق في أحاديث الخلاف» لابن الجوزي.
- «وسائد الإنصاف في علم الخلاف» للأسدي المقدسي.
- «الإنصاف في أسباب الخلاف» للدهلوي.
- «منشأ النظر في علم الخلاف» للنَّسَفِي.
- «رسالة في الخلاف والجدل» للترمذي.
- «التلخيص في الخلاف» لابن العربي.
- «الأساليب في الخلافيات» للجُويني.
- «مسائل الخلاف» لأبي يعلى الفراء.

على الفروع خلاف على الحلال والحرام، فليس من العلم ولا من الخير، ولا من الدين نقلُه إلى أحكام الكفر والإيمان، ولا إلزام الناس فيه برأي معين وتسعير العداوات بشأنه. والتزام السنن الاعتقادية والتعبدية أمر متعين، والتزام السنن العادية فضل ومنقبة وكمال، وسنن العادة هي ما ليس شرطًا في الوجوب ولا في الصحة في قواعد الإسلام ولا الإيمان ولا الإحسان. واختلاف النظر العلمي في السنن عمومًا، وفي سنن العادات والمظاهر خصوصًا لا يُخرِج مسلمًا عن الدين ولا يترتب عليه كفر ولا فسوق، بل ولا عصيان أحيانًا، ولا يتعلل به فساد ولا بطلان، ولا ينبغى أن يُتخذ فتيلًا لتفجير الفتن وتدمير الوحدة بين الناس»[1].

ويستمر الشيخ في دعوته التقريبية سالفة البيان قائلًا: «فلا علاج لها لدى الصادقين من المصلحين إلا بوسائل التعقل والتقريب والتيسير، وفهم كل فريق ما عند صاحبه فهمًا مرنًا محبًّا، وكان هذا هو الأصل الذي تشبعت به نفوس المتمذهبين من قبلُ، فصلى الشافعي خلف المالكي، واقتدى الحنبلي بفتوى الحنفي، والتقى الشيعي بالسني، وسار كل منهم في طريقه يبني لنفسه ولا يهدم سواه، فلم يكن من وراء هذا التمذهب سوء يُذكر، بل كان تفريقًا أدنى إلى التوفيق. ثم إن هناك أشياء متفق على كفاحها بين الجميع، فلنتعاون على كفاحها، وهناك أشياء متفق على خدمتها بين الجميع، فلنتعاون على خدمتها، ثم لنترك مواضع الخلاف الفرعي الذي مزق الأمة إربًا، وفرق بين الولد وأبيه، وجعل البلدة الواحدة أوزاعًا متقاطعة متنافرة، ربما تلاقت على معارك، أو تراشقت بدم حرام، من أجل أحكام فرعية إلى ربك منتهاها»[2].

---

(١) «على هامش المحيط السلفي والصوفي.. تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد التاسع، السنة التاسعة عشرة، غرة ربيع الآخر، ١٣٨٩هـ، يونيو ١٩٦٩م.

(٢) «فلندع مهزلة الخلاف على الفروع إن كنا جادين في خدمة الله والوطن»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، غرة رجب ١٣٧٠هـ.

* تفنيد أدلة المعارضين لدعوة التقريب الشرعي والتمييز بينه وبين التذويب الممنوع

ويقول رضي الله عنه موضحًا ضوابط التقريب المشروع وتمييزه من التذويب الممنوع: «وفي الأمة طوائف شتى على معتقدات شتى، ومذاهب شتى، وهي في ذات الوقت مؤتلفة أو تكاد، منسجمة أو تكاد، تبذل رأيها في أدب، وتفيض بما عندها بلا فتنة، فلو أن تلك الطائفة المفتونة مع قلة العلم، والتي ينتهي بها الأمر في معظم الأحيان إلى تكفير كل من خالفها في الرأي، فلو أنها سارت سيرة بقية الطوائف لما كانت في هذا الموضع الذي لا تُحسد عليه، ولما اضطر كثير من أعف الناس إلى كشف عورتها، وفضيحة ثورتها، ولما لفتت الأنظار إلى ما وراء الأستار من مخزيات الأسرار. ولقد أجمعت الأمة على أن الخلاف على الفرعيات أمر فطري لا مناص منه، حدث في عهد النبي ﷺ وفي عهد الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ومن والاهم، فهو طبيعة إنسانية لا بد منها بحكم العقل والنقل، ما في ذلك شك ولا مِرْيَة»[1].

ثم يوضح الشيخ مفهوم التذويب الممنوع ليفرق بينه وبين التقريب المشروع، بل والمندوب بين طوائف أمة (لا إله إلا الله). وفي ذلك يتفق معه المفكر الإسلامي السعودي المستنير د. عبد العزيز التويجري حيث يدعو إلى إزالة الأسباب التي تجعل الاختلافات في المذاهب الفقهية سببًا للعداء بين الإخوة المؤمنين ويحث على «أن يكون الإخاء والتقارب بديلًا عن التباعد والتضارب؛ لأن المسلمين مهما بلغ الخلاف بينهم، فإنهم مُجمِعون على الشهادتين، ومن شهد الشهادتين فقد اتخذ الإسلام دينًا وحرم دمه وماله وعرضه، والمسلم أخو المسلم»[2].

أما التذويب الممنوع، والذي طالما حذر منه الشيخ في كتاباته وندواته

(١) «فلندع مهزلة الخلاف على الفروع إن كنا جادين في خدمة الله والوطن»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، غرة رجب ١٣٧٠هـ.

(٢) «رسالة التقريب» أ.د. عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، العدد/ ٤٧ محرم وصفر ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

ومحاضراته، فهـو ما تـدعو إليـه الماسونية والبهائية والجماعـات المنبثقة منهما والـتي أحيـانًا تدَّعـي انتمـاءها إلى الإسـلام، والإسـلام منها بـراء، فالفكـر الـذي تدعـو إليه مثل هـذه الجماعات الخداعة ظاهـرُهُ التراحـم بيـن الناس وخدمة المجتمعـات الإنسانية واحترام حقـوق الإنسان في كل مكـان، وباطنه ما هو إلا تذويب الأديان وتدمير العقائد الدينية بالدعاية إلى أن الأخلاق الحميدة والقيم الإنسانية المشتركة كافية لتكون دينا مشتركًا للإنسانية جمعاء تقوده إلى الخير والتعايش السلمي والرخاء. وبتحذيره المتكرر من هـذا التذويب الممنوع وبيانه الوافي لكنهه وفضحه لخدعه البراقة، يقطع الشيخ الطريق على الذين يخلطون بين ذلك التذويب الممنوع الذي تدعو إليه تلك الجماعات المشبوهة سالفة الذكر وبين دعـوة التقـريب الشرعي السلفي بضوابطه بين طوائف أمة (لا إله إلا الله). وأولئك الذين يخلطون جهلًا بين هذين المفهومين المتضادين هم الذين يقفون في وجه التقارب وإصلاح ذات بين المسلمين مدَّعين أن في هذا التقريب تذويبًا للعقيدة وتدمير لدين الله الحق.

ويدعـو الشيخ هؤلاء بالحكمة والموعظة الحسنة إلى التحاكم إلى الكتاب والسنة فيما فيه يختلفـون، وهو مـا يؤدي حتمًا إلى إنهـاء التنـازع والعداوات وإلى التعامل بين جميع طوائف الأمة بـالود وحسن الظن المتبادل وقبول العذر الشرعي بين المسلمين وتنمية دعوة التقريب الشرعي الصحيحة وما تفضي إليه من ألفة القلوب ووحدة الأمة.

وبهذا الصدد يقول د. عبد العزيز التويجري في بحثه القيّم عن ضرورة التقريب بين طوائف الأمة المختلفة: «فالتسامح الذي هو فضيلة كريمة من فضائل الدين الحنيف، هـو ثمـرة الحـوار الإسلامي - الإسلامي، أو ذلك مـا ينبغي أن يكـون. والتسامح يقتضي الرفق في التعامل مع الخلافات؛ لأن إزالة أسبابها لا تتيسَّر دائمًا، والتجاوز عمّا يراه هذا الفريق أو ذاك أخطاء؛ لأن إقناع هذا الفريق أو ذاك بالإقلاع

عن الأخطاء قد يكون متعذّرًا. ولذلك وجب أن نتحلّى جميعًا بفضيلة التسامح حتى نصل إلى التقريب فيما بيننا؛ استجابة للنداء الإلهي: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]»[١].

ويسترسل الدكتور عبد العزيز موضحًا أن هذا التقريب لا يتأتى إلا «بتقدير الرأي والرأي الآخر واحترامهما، لضرورتهما وأهميتهما عند الحوار وحين تبادل الرأي، على أن يسود الحوار العلمي المجرد كل مواقف عمليات التقريب، وإن أدت إلى الاختلاف، فالاختلاف طبيعي، وليس بمستنكر في إطار قواعد الاختلاف وآدابه، **كما أن الدفاع عن الرأي والاستدلال على صحته حقٌّ لكل عالم، والرد المدعم بالدليل العلمي حق أيضًا**. وإذا كانت هذه المسألة من المسلمات في القضايا الجدلية والمنطقية، فهي في القضايا والمسائل الفرعية ومجالات الأحكام الاجتهادية من باب الأولى والأحرى»[٢].

والدعوة إلى التقريب ينادي بها أولو الألباب من رجال الدين والمفكرين الحكماء في جميع أنحاء العالم الإسلامي، الذين يغتمون بما وصلت إليه الأمة الإسلامية من ضعف وهوان ومذلة بسبب فرقتها وشتات أمرها، والذين يدركون أنه لن تقوم لأمة الإسلام قائمة ولن يستردوا مجدهم الزائل ولن ينصروا دين الله، مهما أخلص كل فرد منهم النوايا على حدة، إلا باجتماع كلمتهم وتصديهم مجتمعين لأعداء الإسلام الشرسين الذين يتربصون بنا الدوائر. فها هو ذا، على سبيل المثال لا الحصر، المفكر الإسلامي الكبير د. محمد عمارة يؤكد أن التقريب بين المذاهب هو الميدان الحقيقي للجهاد الفكري المطلوب الذي ينزع الألغام الفكرية التكفيرية التي تقسم وحدة الأمة بالتكفير لفريق أو لمذهب؛ ويسترسل موضحًا أن التقريب بين المذاهب الفقهية غير التوحيد لها، غير احتضانها، فالتقريب هو الانطلاق من تمايز المذاهب والحفاظ عليها، مع العدول عن نفي

(١) المرجع السابق. (٢) المرجع السابق.

أحد المذاهب للمذاهب الأخرى، فهو إذن تعايش بين المذاهب[١].

ويسترسل د. عمارة مشيرًا إلى الحل الأمثل لخروج الأمة من المأزق الذي وقعت فيه الذي شتت شملها وأطمع فيها أعداءها، فيؤكد أنه على أولي العزم والهمة من العلماء والمفكرين أن يجاهدوا في سبيل توحيد أمة الإسلام، في ضوء هذه الجوامع الخمسة: وحدة العقيدة، وحدة الشريعة، وحدة الحضارة، وحدة الأمة، وحدة دار الإسلام، وعليهم كذلك معالجة هذه «النزعة التدميرية» -نزعة التكفير لأهل القبلة- لمواجهة هذه الفتنة[٢].

وهذا بالضبط هو ما دعا إليه الإمام الرائد طيلة حياته الممتدة المباركة بلا كلل ولا ملل بشتى الوسائل الإعلامية المتاحة، ثم لخصه في كتابه القيم (أهل القبلة كلهم موحدون وكل مساجدهم مساجد التوحيد.. ليس منهم كافر ولا مشرك ولا وثني ولا مرتد.. وإن أخطأ أو خالف أو تجاوز)، وقد جمع الشيخ في هذا الكتاب الصغير المفحم الجامع أربعين حديثًا ثابتة من الطريق العلمي الحاسم تنفي مزاعم التكفير عن المسلمين وتضع الضوابط المحكمة لتفسير المتشابه من الأحاديث والأضعف منها سندًا أو الأحاديث المُشكِلة أو ذات العلل، على ما هو مفصل في علوم الحديث الشريف، ومن أمثلة ذلك حديث (افتراق الأمة) وحديث (اتخاذ النصارى واليهود مساجد على قبور أنبيائهم)[٣] والمشار إليها في مسألة سابقة.

---

(١) «فتنة التكفير بين الشيعة والوهّابية والصوفية» د. محمد عمارة، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) وقد سار الكثير من كبار العلماء المعاصرين للشيخ على نفس النهج العلمي في تفسير الأحاديث المتشابهة التي يستند إليها الخوارج والمكفِّرة في تكفير معظم أمة الإسلام. ومن هؤلاء العلماء الأفاضل الشيخ عبد الله الغُمَارِي الحَسَني بالمغرب، وله بحوث علمية قيِّمة تدور حول تلك الأحاديث، ومنها حديث «اتخاذ النصارى واليهود مساجد على قبور أنبيائهم»، ومن الجدير بالذكر أن الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ قد رجع قبل وفاته عن الاستناد بصورة مطلقة إلى تلك الأحاديث لتأييد الرأي القائل بمنع إقامة المساجد على القبور، متأثرًا في ذلك بمثل هذه البحوث العلمية القيمة. ويتضح ذلك بمقارنة كتاباته =

وحيث إن تلك الطائفة «المفتونة» من «المتمسلفين» المعارضين لدعوة التقريب بضوابطها الشرعية سالفة البيان، حيث إنها تتخذ حديث «افتراق الأمة» ذريعةً لتكفير معظم الأمة وتوسيع الشُّقَّة بين طوائف المسلمين، فقد أسهب الشيخ رضي الله عنه في تحقيق وشرح هذا الحديث بالذات بسوق وتحليل آراء العديد من صفوة علماء الأمة من كل الطوائف في العصور المختلفة، ليُدحض حججهم الباطلة التي يستندون إليها في تكفيرهم من خالفهم في الرأي من أمة (لا إله إلا الله). وإليكم هذا التحقيق المستفيض الوافي لهذا الحديث:

*** تحقيق الإمام الرائد رضي الله عنه لحديث «افتراق الأمة»**

في أحد مؤلفاته القيِّمة يكشف فضيلة الإمام الرائد رحمه الله أساليب «المتمسلفين» في طمس الحق وترويج آرائهم الدينية المتعصبة التي تجعل من معظم أهل القبلة كفرة ومشركين وأصحاب بدع، بينما يدَّعون أنهم الفرقة الوحيدة الناجية استنادًا إلى تأويلهم الفاسد لحديث «افتراق الأمة» المشهور. ويبدأ الشيخ رضي الله عنه مناظرته مع هذه الفئة بسوق وتحليل آراء العديد من صفوة علماء الأمة من كل الطوائف في العصور المختلفة، بما في ذلك السلفية الحقة، حول مدى صحة هذا الحديث وتأويلاتهم المختلفة له، ثم يبين لنا رضي الله عنه بالدليل القاطع والحجة الدامغة بطلان تأويل هذه الفئة الانفرادية لهذا الحديث وآرائهم المترتبة عليه وأحكامهم المستندة إليه، التي تعرقل كل المساعي والجهود للتقريب بين الطوائف المختلفة لهذه الأمة العظيمة، بحيث تعود كما نعتها الله -سبحانه وتعالى- في كتابه العزيز: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وبهذا الصدد يقول رضي الله عنه: «الحديث الذي لا يزال

= الأولى مثل «عقيدة المسلم» و«دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» وبين مؤلفاته الأخيرة مثل «الحديث الشريف بين أهل الفقه وأهل الحديث» الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية الذي ردد فيه أدلة الشيخ محمد زكي إبراهيم والشيخ عبد الله الغماري تفصيلًا في إشكال وعلل هذا الحديث.

انظر: - سلسلة كتب الغزالي، مطبوعات دار الشروق المصرية.

- مطبوعات الشيخ الغماري، دار القاهرة - حي الأزهر.

يلغط به بعضهم، ابتغاء تطبيقه على الجماعات الصوفية بخاصة، ليس إلا افتئاتًا على الله أو جهلًا بالمراد(*) وللحديث ألفاظ مختلفة منها «افترق اليهود والنصارى إلى (كذا) فرقة كلهم في النار إلا ما عليه أنا وأصحابي». وقد تكلم المحدثون في سند هذا الحديث ومتنه، وأعلُّوه تمامًا فلم يصل عندهم إلى رتبة الصحة التي يسوغ معها الاحتجاج العلمي القاطع به، ومع هذا فلا يزالون يجترونه اجترارًا، عدوًا بغير علم، وتقليدًا ببغاويًّا للتعصب التمسلفي المقيت. ونحن على تقدير صحته، وقد بينا لك من نصوص القرآن، ثم من المسلمات البديهية أن (تعدد السبل إلى المقصود الواحد أمر طبيعي وشرعي، فلا ينسحب عليه حكم (تعدد الفرق)؛ لأن الذي يطلق عليها تجاوزًا أو مجازًا اسم (الفرق) الآن في الإسلام كلها دائرة في فلك الكتاب والسنة، فهي على ما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه، فهي (مذاهب) أو (مشارب) أو (سبل) تبتدئ من الشهادتين، وتنتهي عند حقهما وأثرهما، فهي واحدة، فالسادة المالكية، والحنفية، والشافعية، والحنابلة، والزيدية، والظاهرية، والإباضية، والإمامية، والهادوية، والصوفية، والسلفية، والأشعرية، والماتريدية، بل والمعتزلة (المعتدلون)، كل هؤلاء وأمثالهم يسيرون في طريق واحد على (أساليب) مختلفة من الفهم والاستنباط والمقارنة والبحث، هذه (الأساليب) هي السبل الشرعية التي هداهم الله إليها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والتي سماها -سبحانه وتعالى- ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] كما جاء على لسان الأنبياء في القرآن الكريم قولهم: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢] فالطرق إلى الله متعددة بهذا النص القرآني المحكم، وإن كان الهدف واحدًا. ويلحق بهؤلاء جميعًا سائر الهيئات والجماعات الإسلامية السليمة المنتشرة في بقاع الأرض، وهي ألوف لا تحصى.

(*) ولا ندري لماذا لا يطبقون هذا الحديث على الجمعيات الإسلامية على اختلاف أهدافها، وهي في مصر والأقطار الإسلامية آلاف لا تُحصَى ولا تحصر، من الجمعيات والروابط والهيئات المختلفة الأسماء والأهداف، أو ما يُسمَّى بالجماعات الإسلامية أو السلفية بأنواعها!

وإنما ينطبق الحديث (على فرض صحته) على غُلاة الخوارج والباطنية، والقَرامطة، والبَهائية، والقاديانية، والجماعات المستحدَثة المكفِّرة من السلفية، ونحو هؤلاء من الفرق التي ذكرها أصحاب كتب (الملل والنحل)، ممن خالفوا الأصول عمدًا، وأنكروا المعلوم من الدين بالضرورة. وليس في طوائف الصوفية خاصة وبقية الطوائف الإسلامية المعتدلة من خالف الأصول عمدًا، أو أنكر المعروف من الدين بالضرورة، وإن تطرف أو تغالى. أما الخلاف على الفروع فهو طبيعة قائمة وشريعة حاكمة. ربما كان فيهم المقصرون، أو المخطئون، أو العصاة، وهذا لا يحرمهم من الدين، ولا يسحب عليهم حكم الفرق الكافرة، فبعض الفرق أشد غلوًّا وانحرافًا وتطرفًا وانجرافًا، ومع هذا فهي مسلمة؛ فالمعصية شيء، والرِّدَّة والزندقة والشرك والكفر شيء آخر.

ومما يثير العجب والاندهاش أن طوائف المكفرين لأهل القبلة يسحبون حديث افتراق الأمة (على ما فيه من مقال ينفي حجيته) على جماعات الطرق الصوفية، التي نعترف بما خالطها مما ليس من التصوف الراشد على الإطلاق، مما نكافحه ونعالجه وندفعه بالتي هي أحسن، ففي كل تجمع ما هو طيب وخبيث، وما هو خطأ وصواب، فلماذا لم يسحبوا مفهوم الحديث على هذه الجمعيات التي تنتسب بحق أو بباطل إلى الإسلام، وهي أعداد لا تكاد تُحصى أو تستقصى؟! أرأيت كيف يذهب التعصب بالإنصاف، وكيف يقتل الحقد العدالة؟! وقد سُئل الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق عن هذا الحديث، فأجاب بما نصه: الأحاديث الواردة في افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة اختلف العلماء في ثُبُوتها وعدم ثبوتها، كلًّا أو بعضًا(*)، كما اختلفوا في حقيقة العدد، هل هو لمجرد

(*) والمراد أن الأحاديث الواردة في افتراق الأمة علميًّا هي ظنية الثُّبُوت، ظنية الدلالة، مع وجود عدة إشكالات وعلل بها، فتكاد تلحق بالموضوعات أو المتروكات على الأقل. راجع: «شرح حديث: ستفترِق أُمَّتي على إحدى وسبعين فرقةً» لعبد القاهر البغدادي، ومحمد بن الحسن، وعثمان بن عبد الله العراقي.

التكثير، أو على سبيل التحديد فلا يجوز النقص أو الزيادة، أو القصد أصول الفرق دون فروعها. ومن العلماء من تَكَلَّفوا حصر العدد في فِرَق خاصة، ومع هذا لم يتفقوا على الفرق التي يستغرقون بها هذا العدد.

ومن صيغ هذا الحديث ما جاء في سنن ابن ماجه في باب افتراق الأمم، من حديث أبي هريرة ﵁: قال رسول الله ﷺ: «**تَفَرَّقَتِ اليَهُودُ على إِحْدَى وسَبْعِينَ فِرْقَةً، وتَفَرَّقَتِ النَّصارَى على اثْنَتَيْنِ وسَبْعِينَ فِرْقَةً، وتَفْتَرِقُ أُمَّتِي على ثَلاثٍ وسَبْعِينَ فِرْقَةً**»[1]. وبإسناد آخر عن عوف بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**افْتَرَقَتِ اليَهُودُ على إِحْدَى وسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ فوَاحِدَةٌ في الجَنَّةِ وسَبْعُونَ في النَّارِ، وافْتَرَقَتِ النَّصَارَى على اثْنَتَيْنِ وسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ فإِحْدَى وسَبْعُونَ في النَّارِ، ووَاحِدَةٌ في الجَنَّةِ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي على ثَلاثٍ وسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ فوَاحِدَةٌ في الجَنَّةِ وثِنْتَانِ وسَبْعُونَ في النَّارِ**». قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ، مَن هم؟ قال: «**الجَمَاعَةُ**»[2]. وبيان هذه الفِرَق قد واجهه العلماء في مؤلفات خاصة. وكل ما يجب على المسلم اعتقاده والعمل به هو التمسك بالدين؛ عقيدة وشريعة، والبعد عن الأهواء والبدع، وزيغ العقيدة، وتأييد شريعة الإسلام، وإباحة ما أباحه الله ورسوله، وتحريم ما حرم الله ورسوله، فمن كان على هذا الفريق كان من جملة الفرق الناجية إن ختم الله له بها؛ صُوفِيًّا كان أو سَلَفِيًّا أو سُنِّيًّا أو شِيعِيًّا أو غير ذلك. اللهم ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] آمين، والله سبحانه وتعالى أعلم».

ويستطرد الشيخ ﵁ قائلًا: «وقد بَسَط القول في المراد من الجماعة في الحديث

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ٦٠٨)، برقم (٤٥٩٦)، من حديث أبي هريرة ﵁.

قال أبو سليمان الخطابي: قوله: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»: فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجين من الدين؛ إذ النبي ﷺ جعلهم كلهم من أمته، وفيه أن المتأول لا يخرج من الملة؛ وإن أخطأ في تأويله.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٢٢)، برقم (٣٩٩٢).

الإمامُ الجليل أبو إسحاق الشاطبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في المسألتين ١٦ و١٧ من مسائل الباب التاسع من كتاب (الاعتصام). ونحن نأتي هنا على جمل مفيدة من كلامه في هذا؛ ذكر -رحمه الله وأجزل مثوبته- أن الناس اختلفوا في المراد من الجماعة في هذا الحديث وأمثاله على خمسة أقوال:

١) إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام. وممن قال بهذا القول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فيدخل في الجماعة المجتهدون، والعلماء، وأهل الشريعة والعاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم؛ لأنهم تابعون لهم.

٢) إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين خاصة، وهم المعنيون بقوله : «**إنَّ اللهَ لن يَجْمَعَ أُمَّتِي على ضَلَالَةٍ**»[1]. أي: لن يجمع علماء أمتي على ضلالة. ومن قال بهذا القول جماعة من السلف، فالجماعة على هذا: العلماء المجتهدون.

٣) إنها بخصوص أصحاب الرسول ﷺ، وهو يتفق مع ما جاء في الرواية الأخرى: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**».

٤) إنها جماعة من المسلمين الذين ضمن لهم الرسول ﷺ ألا يجمعهم الله على ضلالة. قال الشاطبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وكأن هذا القول يرجع إلى القول الثاني أو إلى الأول، وهو الأظهر».

٥) ما اختاره الطبري: إنها جماعة المسلمين، إذا اجتمعت على تقديم أمير فلا تجوز مخالفتها فيما اجتمعت عليه.

وهذه الفرق ذهب الكثير من أهل العلم إلى أنها لم تفارق الإسلام، ولم تخرج من أمة الإسلام.

وقال الخطَّابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيما كتبه على حديث «افتراق الأمة» من شرح سنن أبي داود ما فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين؛ إذ قد جعلهم

(١) أخرجه الترمذي: (٤/ ٤٦٦)، برقم (٢١٦٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

النبي ﷺ كلهم من أمته. وفيه أن المتأوِّل لا يخرج من الملة، وإن أخطأ في كل تأوليه. اهـ.

وهو في صفحة ٢٩٥ من الشرح الذي طُبع بمطبعة الطباخ في حلب، سنة ١٣٥٢هـ. وكلمة الخطابي في هذا الموضوع موجزة جدًّا. وقد بسط القول فيه بسطًا شافيًا القاضي عياض رضي الله عنه في آخر كتابه (الشفاء)، وهاك المهمَّ من كلامه، مما يزيد الموضوع نورًا على نور، ممزوجًا بما قاله الشرنبلالي والملا علي قاري رضي الله عنهما في شرحيهما على (الشفاء): ذهب الشيخ الإمام أبو الحسن الأشعري، وأكثر أصحابه وأكثر الفقهاء من الحنفية والشافعية، إلى أنهم جماعة المسلمين، وهذا قول أكثر أصحاب مالك. ومعه يتماشى قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: «لا أرد شهادة أهل الأهواء إلا الخَطَّابِيَّة؛ لاستحلالهم الكذب في الشهادة». وقد استحلوا الكذب على الصحابة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومن حجج القائلين بأنهم من جماعة المسلمين، لم يخرجوا بمذاهبهم من الملة، حكمُ الصحابة والتابعين بتوريث أهل حَرُورَاء من آبائهم وأقاربهم، ودفنهم في مقابر المسلمين، وأخذ بهذا القول سحنون، ولذا قال بعدم إعادة صلاةِ مَن صلى خلف واحد من المبتدِعة، قال رحمه الله: وهذا قول جميع أصحاب مالك: المغيرة، وابن كنانة، وأشهب؛ لأنه مسلم، وذنبه لم يخرجْه من الإسلام.

هذا ما رأيت جَمعَه ملخصًا من كلام القاضي عياض رضي الله عنه. وقال الشاطبي رضي الله عنه في (الاعتصام) (جـ٣ ص ٤٩ طبع بمطبعة المنار ١٣٣٣هـ): ولقد فصَّل بعض المتأخرين تفصيلًا في هذه الفرق فقال: ما كان من البدع راجعًا إلى اعتقاد وجودِ إله مع الله، كقول السبئية في علي رضي الله عنه: إنه إله؛ أو خلق الإله في بعض أشخاص الناس، كقول الجَنَاحِيَّة (بالحلولية)[1]: إن الله تعالى له روح تحل في بعض بني آدم وتتوارث.

(١) راجع حول الحلول والاتحاد:
- «تنبيه العقول على تنزيه الصوفية من اعتقاد التجسيم والاتحاد والحلول» للكُوراني. =

أو إنكار رسالة محمد ﷺ كقول الغُرَابِيَّة: إن جبريل غلط في الرسالة فأداها إلى محمد ﷺ، وعلي كان صاحبها. أو استباحة المحرمات، وإسقاط الواجبات، وإنكار ما جاء به الرسول ﷺ، كأكثر الغُلاة من الشيعة؛ فهذه كلها بدع لا يختلف المسلمون في التكفير بها، وما سوى ذلك من المقالات فلا يُستبعد أن يكون معتقدها غير كافر. اهـ.

أما معنى «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَة**» فهذه مسألة تعرَّض لها الشاطبي في (الاعتصام) (جـ٣ ص١١٦: ١١٨)، وحاصل كلامه أن لنا احتمالين: أحدهما أن هذه الفرق ينفذ فيها الوعيد لا محالة، ثم ينالها ما يناله عامة المؤمنين من رحمة الله تعالى ودخول الجنة، وهو مذهب أهل السنة، وإن كان المعروف منه أن أصحاب الكبائر في مشيئة الله حسبما يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]؛ لكن ثبت بالدليل أن من الكبائر ما لا بد من نفوذ الوعيد في أصحابه، فاقتضى ذلك تخصيصَ العموم في قوله -سبحانه وتعالى- ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. ثاني الاحتمالين: أن هذه الفرق كغيرها من مرتكبي الكبائر في مشيئة الله عز وجل، يشملها قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وقد صرَّح الشاطبي في (الموافقات) ونحوه في (الاعتصام) بأن الأولى عدمُ التعرض لتعيين الفِرَق غير الناجية؛ لأن النبي ﷺ نبَّه عليهم تنبيهًا إجماليًّا، لا تفصيليًّا، إلا القليل منهم كالخوارج، وقد حذر ﷺ من البدع، مشيرًا إلى خواص عامة وخاصة في أهلها، بدون تصريح في الغالب. والقصدُ من هذا السترُ على هذه الأمة؛ وذُكر أن للستر

=
- «الحق الواجب الناطق بأن المخلوق ليس عين الخالق» لغرس الدين الخليلي.
- «تقديس الفؤاد عن اعتقاد الحلول والاتحاد» لسبط المرصفي.
- «إجابة السؤل في تحقيق الحلول» لعبد العليم الشاشي.
- «تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد» للبِقاعي.
- «تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد» للسُّيُوطي.
- «تحذير العباد من الحلول والاتحاد» لابن طولون الدِّمَشقي.

حكمة أخرى، وهي أن تعيينها داعٍ إلى الفرقة والوحشة، والإسلام ينهى عن ذلك، اللهم إلا إذا كانت البدعة فاحشة، كبدعة الخوارج، وقد ذكر النبي ﷺ أصحابها بعلامتهم؛ ليُعرفوا فيحذر منهم.

والمراد أن أحاديث «افتراق الأمة» ظنيةُ الثبوت، ظنية الدلالة. يقول الإمام المحدث الكَوْثَرِي في مقدمته لكتاب (التبصير في الدين) للإسفراييني: «وقد وردتْ أحاديث في افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فِرقةً، منها ما لا نص فيه على الهالك منها، ومنها ما فيه بيان أن واحدة منها ناجية والباقين هلكى، ومنها ما يعدُّهم كلهم ناجين سوى واحدة هي الزنادقة. وقد اختلف أهل العلم في ثبوت تلك الأحاديث، وعدم ثبوتها كلًّا أو بعضًا، كما اختلفوا في المراد بالعدد المأثور، أو الأمة هل هي أمة الدعوة أم أمة الإجابة؛ فمنهم من يقول: إن العدد لمجرد التكثير كما في قوله تعالى: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢] على ما شرحه المَرْجَانِيُّ في (العَضُدِيَّة)، أو إن العدد لا مفهوم له؛ فلا مانع من الزيادة على العدد المأثور وإن لم يجز النقص، أو إن القصد هو أصول الفِرَق دون فروعها، كما أشار إلى هذا وذاك الإمامُ فخر الدين الرازي في كتابه (المِلَل والنِّحَل)، وإن سعى في توهين الحديث في تفسيره.

ثم قال المحدث الكوثري ﷺ: ورأيُ ابن حزم في حديث افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة هو ما ذكره في كتاب (الإيمان)؛ حيث قال عنه وعن حديث آخر: «هذان حديثان لا يصحان أصلًا من طريق الإسناد، وما كان هكذا فليس بحُجَّة عند من يقول بخبر الواحد، فكيف من لا يقول به؟». اهـ. قال ابن الوزير في (العواصم والقواصم): إياك أن تغتر بزيادة «**كلها في النار إلا واحدة**»؛ فإنها زيادة فاسدة، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة، وقد قال ابن حَزْم بأن هذا الحديث لا يصح.

وهنا لا يتوقف في الحكم بعدم الصحة على حديث أبي داود عن أبي هريرة «**افْتَـرَقَتِ اليَهودُ على إِحْدَى وسَبعينَ فِرْقَةً، وافترقتِ النَّصارَى على اثنتينِ وسبعينَ**

فِرقةً، وتفترِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ فِرقةً»[1] بدون زيادة «اثنتانِ وسبعونَ في النارِ وواحِدَةٌ في الجنَّةِ»[2] فحسب، وإنما أيضًا على رواية لأبي داود والحاكم بتلك الزيادة؛ ولعل ذلك من جهة وجود محمد بن عمرو اللَّيْثِي بين رُواته، وهو ممن أخرج له الشيخان في المتابعات فقط، ومثله لا يُحتج بحديثه إذا لم يُتابَع، ويقول الحاكم في (المستدرك) بعد أن أخرج الحديث: هذا من شرط مسلم. ويقول الذَّهَبِي مستدركًا عليه: محمد بن عمرو لم يُحتج به منفردًا، ولكن مقرونًا بغيره.

وأما ما ورد بمعناه في ابن ماجه والبيهقي وغيرهما، ففي بعض أسانيده عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم، وفي بعضها كثير بن عبد الله، وفي بعضها عباد بن يوسف، وراشد بن سعد، وفي بعضها الوليد بن مسلم، وفي بعضها مجاهيل كما يظهر من كتب الحديث، ومن تخريج الحافظ الزَّيْلَعِي لهذه الأحاديث في الكشاف، وهو أوسع من تكلم في طرق هذا الحديث فيما نعلم. وقد أخرج صاحب مسند الفردوس بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَفْتَرِقُ أُمَّتِي على بِضْعٍ وسَبْعِينَ فِرْقَةً كلُّها في الجَنَّةِ إلَّا الزَّنَادِقَةَ»[3]. وسكت عليه الحافظ ابن حَجَر رضي الله عنه في (زهر الفردوس). وسعى العجلوني رضي الله عنه في التوفيق بين الحديثين بحمل أحدهما على الابتداء، والآخر على الانتهاء. اهـ. ما قاله الكوثري بتصرف».

وينهي الشيخ رضي الله عنه نقاشه حول هذا الموضوع بسوق حكم ابن تيميَّة (إمام السلفية ومرجعهم الأول) في قضية تكفير المسلمين وتبديعهم فيقول[4]:

«بمناسبة شيوع (هستريا) تكفير المسلمين وتبديعهم، وتشريكهم وردتهم

(١) أخرجه أبو داود: (٢/ ٦٠٨)، برقم (٤٥٩٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود: (٢/ ٦٠٨) برقم (٤٥٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٨) برقم (٤٤٣) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) «مسند الفردوس» (٢/ ٦٣)، برقم (٢٣٥٩).

(٤) فضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم: «أهل القبلة كلهم موحِّدون وكل مساجدهم مساجد التوحيد»، سلسلة منشورات ورسائل العشيرة المحمدية، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

وتفسيقهم أحياءً وموتى باسم التوحيد، من قِبَل المتمسلفين الذين يدعون انتماءهم للسلفية، والسلفية الحقة منهم براء، أولئك الذين يعتبرون جموع المسلمين من غير جماعاتهم في كل الدنيا إما مشركًا أو كافرًا، أو مرتدًّا أو وثنيًّا، ولا شيء إلا هذا؛ فنحن نقدم لهم نصوص كلام الإمام أحمد ابن تيميَّة الذي لا يحتجون إلا به في كل ما استصعب عليهم من أمور الدين....

قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومن البدع المنكرة تكفير الطائفة وغيرها من طوائف المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم. وهذا الأمر عظيم لوجهين:

(أحدهما) أن تلك الطائفة الأخرى قد لا يكون فيها من البدعة أعظمُ مما في الطائفة المكفرة لها، بل قد تكون بدعة الطائفة المكفِّرة لها أعظمَ من بدعة الطائفة المكفَّرة، وقد تكون نحوها وقد تكون دونها، وهذه حال عامة أهل البدع والأهواء الذين يكفر بعضهم بعضًا، وهؤلاء من الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

(الوجه الثاني) أنه لو فُرض أن إحدى الطائفتين مختصة بالبدعة والأخرى موافقة للسنة، لم يكن لهذه الطائفة السنية أن تكفِّرَ كل من قال قولًا أخطأ فيه، فإن الله تعالى قال: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أن الله تعالى عند هذه الآية قال: «**قد فعلتُ**»[1]. وقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥]. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَنِ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**». وهو حديث حسن رواه ابن ماجه[2]. وقد أجمع الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه ليس كل من قال قولًا أخطأ فيه أنه يُكفَّر بذلك، ولو كان قوله مخالفًا للسنَّة».

---

(١) أخرجه مسلم: (١/ ١١٦)، برقم (١٢٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه ابن ماجه: (١/ ٦٥٩)، برقم (٢٠٤٣) من حديث أبي ذر ﷺ.

ثم يستطرد ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ قائلًا: «الخوارج لهم خاصيتان مشهورتان فارقوا بهما جماعة المسلمين وأئمتهم:

إحداهما: خروجهم عن السنة، وجعلهم ما ليس بسيئة سيئةً، وجعلهم ما ليس بحسنة حسنةً.

الثانية في الخوارج وأهل البدع: أنهم يكفِّرون بالذنوب والسيئات، ويترتب على ذلك استحلالُ دماء المسلمين وأموالهم، وأن دار الإسلام دار حرب، ودارهم هي دار الإيمان، وبذلك يقول جمهور الرافضة وجمهور المعتزلة والجهمية وطائفة من غلاة المنتسبة إلى أهل الحديث».

نقول: وقول الإمام ابن تيمية هذا إنما ينطبق تمامًا على «متمسلفة» العصر الذين لا يتورَّعون عن تكفير كل من خالفهم من أمة (لا إله إلا الله). رحم الله الإمام ابن تيمية وشيخنا الإمام الرائد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فينبغي للمسلم أن يحذر من هذين الأصلين الخبيثين اللذين أشار إليهما الإمام ابن تيمية، وما يتولد عنهما من بُغض المسلمين وذمهم ولعنهم واستحلال دمائهم؛ وعامة البدع إنما تنشأ من هذين الأصلين؛ **أما الأول** فسببه التأويل الفاسد؛ إما لحديث غير صحيح بلغه، أو عن غير الرسول ﷺ قلَّد قائلَه فيه، ولم يكن ذلك القائل مصيبًا؛ أو تأويل تأوله من آية من كتاب الله ولم يكن التأويل صحيحًا، أو اعتمد على قياس فاسد أو رأيٍ اعتقده صوابًا وهو خطأ. وفي هذا الصدد يقول الإمام أحمد: أكثر ما يخطئ الناس فمن جهة التأويل والمقياس والقياس. **وأما الثاني**، فبدعة تكفير الناس بالذنوب والسيئات. وفي هذين الأمرين يقول الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أهل البدع صاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها؛ إما في دلالة الألفاظ، وإما في المعاني المعقولة، ولا يتأملون القصد وراء كلام الله سبحانه أو كلام رسوله ﷺ؛ لذلك فآراؤهم قد تكون ضلالًا». ثم يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني دائمًا، ومَن جالسني يعلم مني أني من أعظم الناس نهيًا عن أن يُرمى مُعيَّن

بالكفر أو الفسق أو المعصية، إلا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجةُ الدامغة، التي مَن خالفها كان كافرًا تارَةً، وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى؛ وإني أقرر أن الله قد غفر بفضله ورحمته لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية والمسائل العملية».

ويستطرد الشيخ موضحًا: «وما زال السلف يختلفون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد منهم معين لأجل ذلك لا بكفر ولا بفسق ولا معصية. نقول: وهذا هو واجب الدعاة بحقٍّ إلى الله تعالى، ولكن ليس فقط في حق من يُسمُّون أنفسهم بالسلفية، وإنما في حق كل أمة لا إله إلا الله».

وهنا يسوق الشيخ ﷺ قول ابن تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ عندما سئل عن رجلينِ تكلما في مسألة التكفير، فأجاد وأطال، وقال في آخر الجواب: «لو فُرض أن رجلًا دفع التكفير عمن يعتقد أنه ليس بكافر حماية له، ونصرًا لأخيه المسلم، لكان هذا غرضًا شرعيًّا حسنًا، وهو إذا اجتهد في ذلك فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فيه فأخطأ فله أجر[1].

ثم يستشهد الإمام الرائد في ذات الموضوع برأي الشيخ الجُوَيْنِي في قضية تكفير المسلمين، فيقول: «نَقَل ابن عَجيبة في تفسيره لسورة البقرة عن الشيخ الجويني إمام الحرمين قوله: لأن أُدْخِل ألف كافر في الإسلام بشُبهة واحدة، خير من أن أُخرِج واحدًا من الإسلام بألف شبهة». ثم يقول الشيخ: «نحن لا نرمي مسلمًا بالشرك لمخالفتنا في الرأي، أو لأنه ارتكب معصية، فإن رَميَ الناس بالكفر أو الشرك حُمْق ومجازفة من أخطر المجازفات الدينية والعلمية، وهي بدعة من بعض المنتمين زورًا للوهّابية، والشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ منهم براء. ولا يملك أحد أبدًا أن يُخرِج أحدًا من أهل القبلة من دينه لخلاف مذهبي أو حكم فرعي، له فيه رأي واجتهاد. وشرُّ الشر تكلُّف نقل حكم الفروع إلى حكم الأصول، وتسمية الأشياء

(١) «الصواعق» طبعة دار الإنسان. فانظر إلى هذا القول العلمي.

بغير أسمائها؛ الأمر الذي فتت الأمة وأساء إلى دين الله، والمتمسك به فتان يُخشى عليه سوء الخاتمة»[1].

ثم يستطرد الشيخ ﵁ قائلًا: «وعلى هذا الأساس ننظر إلى مذاهب المسلمين فنقرب ما بينها، ونربطها جميعًا برباط لا فتنة فيه، ولا تفرقة ولا ضلال إن شاء الله، وندعو للمتعنتين والمغرضين، والمنتفعين والمبتلين بضحالة العلم وضيق الأفق والغرور، ندعو لهم ولنا بالهداية إلى الصواب. فحال المسلمين لم يعد يحتمل النزاع»[2].

ثالثًا: مقترحات الإمام الرائد ﵁ للتطبيق العملي لمنهج التقريب الشرعي

ثم يتطرق الإمام الرائد ﵁ إلى التطبيق العملي لمنهج التقريب الشرعي سالف البيان، فبعد أن ساهم باجتهاداته في إزالة أسباب الفُرقة من خلال بحوثه العلمية وخطبه ومناظراته ومقالاته ومراسلاته التي ألمحنا فيما سلف لأطراف منها؛ حاول ﵁ نقل نظريته الشرعية في التقريب إلى حيز الدعوة الدءوبة العملية لإزالة الفرقة، غير المبررة شرعًا بين جموع المسلمين. ومن ثم فقد قاد تلاميذه وطلاب علمه إلى زيارات متتالية واتصالات هادئة دائمة بإخوانهم المنتمين إلى شتى الجمعيات والمؤسسات الإسلامية مختلفة المشارب والرؤى. وفي هذا المنحى أيضًا حرص الشيخ ﵁ على إرسال كتبه وأبحاثه العلمية إلى المخالفين لمنهجه التقريبي وآرائه المجددة بصفة دائمة، متحملًا في ذلك في كثير من الأحيان النقد اللاذع غير المنصِف من المخالفين له والذي كثيرًا ما بلغ مبلغ حد الأذى.

وقد يكون ضروريًّا أن نعرض بغاية الاختصار من نصوص كتابات الشيخ ﵁ ما يُعد تأريخًا لتجميع طوائف المسلمين بمصر في العصر الحديث، والمحاولات التي بذلتها العشيرة المحمدية بجهود فضيلة الإمام الرائد ﵁ منذ تشكيلها لتجميع

(١) «الدليل المجمل إلى الطريقة المحمدية الشاذلية» (ص١٦٢، ١٦٣).

(٢) «أهل القبلة كلهم موحدون وكل مساجدهم مساجد التوحيد» لفضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم.

الصف الإسلامي، وتخفيف حدة الخلافات المذهبية، ولتوجيه القوى الدينية عظيمة الأثر إلى ما هو أخطر وأهم في العالم الإسلامي اليوم. وفي ذلك يقول الشيخ: «في الخمسينات أمكننا أن نجمع الجماعات الإسلامية في اتحاد كان يرأسه المرحوم اللواء عبد الواحد شبل بترشيح المرحوم اللواء صالح حرب، وكان يمثل الشبان في هذا الاتحاد الأستاذ الناغي، ويمثل الإخوان المرحوم حلمي نور الدين، ويمثل العشيرة المرحوم الشيخ أبو التقى، ويمثل الجمعية الشرعية الشيخ أمين خطاب، أمين صندوق هذا الاتحاد، ويمثل مجد الإسلام الأستاذ محمود هدهد، ويمثل التربية الإسلامية الشيخ عبد العظيم الزرقاني، ويمثل جماعة الإصلاح الأستاذ توفيق عبد القادر، ويمثل جمعية المحافظة على القرآن الكريم الشيخ المنصوري. ولم يشذ عن الاتحاد إلا الجماعة السلفية كشأنها المعروف، وهو ما نحزن له ونتمنى أن يرد علماؤهم وعقلاؤهم غلو بعض المنتمين لها والذين يزكون أنفسهم على جموع أهل القبلة، ويزعمون احتكار العلم ونقاء التوحيد، ويترفعون عن كل دعوة للتقريب الشرعي بضوابطه، ولا نقول: التذويب الممنوع»[(١)]. والذي سبق أن أشرنا إليه أعلاه.

وكان لهذا الاتحاد أثر كبير وصوت عالمي. وفي عهد الاتحاد عُقد بمصر أول مؤتمر عن المرأة في الإسلام بدار الإخوان بالحلمية، وكان له السلطان الأدبي في التوجيه الإيجابي بالنسبة لأعضائه. ثم كانت ثورة يوليو فانفرط العقد وبقينا نحاول استعادته فكانت المذهبية المشبوهة والتعصب البغيض المنسوب للسلفية والوهابية، والتي شكلت أحجار العثرات أمام هذه الرغبة الشريفة، والسلفية والوهابية من ذلك براء. وقد ثبت كيف أن هذه الجماعات المتعصبة هي روافد الأفكار المنحرفة والمتطرفة، وأنها جديرة بالشبهة وسوء الظن؛ فإنها تمهد لدعوة معينة وتتلقى وحيها من جهة بالذات، فولاؤها لغير وطنها.

(١) «تاريخ محاولة تجميع طوائف المسلمين بمصر في العصر الحديث» لفضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم، مجلة المسلم، العدد الثاني، السنة الثامنة والثلاثون، أعداد: شوال وذي القعدة وذي الحجة ١٤٠٨هـ.

ويلفت النظر أن هذه المؤسسات العائلة (الممولة) تقوم بين يوم وليلة ولا يدري أحد كيف أُنشئت ولا كيف قامت، ولا من أين جاءتها الأموال الوفيرة، التي تكشف عوراتها. كما أنه مما يلفت النظر أن جميع المتطرفين والمنحرفين والإرهابيين والمخربين كلهم من رواد هذه السلفية المزعومة بألوانها سواءً في القديم أو في الحديث، والسلفية الحقة منها براء. وليس من هذه الجماعات المخربة صوفي واحد بحمد الله»[1].

وقد كان الشيخ ﵁ متأثرًا بوقائع معينة في أوقات معينة في عصره، ويجب فهم أقواله والانتفاع بما ورد فيها والنظر فيما حوته آراؤه ﵁ من حجج وانتقادات لمخالفيه في ذلك الإطار الزمني وفي تلك الظروف المعينة، ثم النظر في تغير أسلوبه والحجج التي يسوقها في ذات المسائل عبر السنين بتغير مواقف معارضيه وتغير حججهم، وما أثمرته مواقفه الرزينة الرصينة، وجهوده الدءوبة المخلصة في هذا السجال الطويل من إصلاحات وتحولات في مواقف الكثيرين ممن كانوا مخالفين له من المنتسبين للتصوف والسلفية على حد سواء. ولا يخفى إنصافه للسلفية الحقة وعلمائها واعتباره التصوف جزءًا لا يتجزأ منها، كل ذلك يُعد بحق للمتتبع المدقق تأريخًا علميًّا للتطور الحادث في هذا السجال الإصلاحي عبر نصف القرن المنصرم، يدعو إلى التفاؤل والأمل ويشحذ الهمم المخلصة، لما يبدو جليًّا من تغيير إيجابي في اتجاه زوال كثير من نقاط الخلاف بين طوائف المسلمين، ومن ثم في اتجاه وحدة الأمة الإسلامية قاطبةً في كل صوب وحدب، والاجتماع مرة أخرى على الأمر الأول الذي كان عليه أصحابُ الرسول ﷺ ثم خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

ومن أهم النتائج العملية لتطبيق منهج الشيخ للتقريب الشرعي سالف البيان تبني مؤتمر الأزهر الشريف لعلماء العالم الإسلامي للدعوة المنعقد بمصر سنة ١٤٠٨هـ للمنهج التقريبي الشرعي للشيخ ﵁. وقد انتهز فضيلة الإمام الرائد رحمه الله

(١) «أهل القبلة كلهم موحدون وكل مساجدهم مساجد التوحيد» لفضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم.

مؤتمر علماء العالم الإسلامي للدعوة المنعقد بإشراف الأزهر الشريف بالقاهرة ليجعل منه منبرًا يدعو من خلاله لتوحيد الأمة تحت لواء الدين، مستعينًا في ذلك بأبحاثه سالفة البيان وبتلاميذه المؤمنين بآرائه المُجدِّدة لأمر ديننا الحنيف. ونكتفي هنا بسوق المقترحات التي تقدمت بها العشيرة المحمدية على لسان رائدها الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم ﷺ إلى هذا المؤتمر العالمي المصيري؛ وإليك نص هذه المقترحات:

*** الاقتراح الأول: تخفيف حدة الخلاف المذهبي**

«بعد طول معاناة استمرت نحو نصف قرن في محاولة لتخفيف حدة الخلاف بين المذاهب الإسلامية عامة وبين السلفية والصوفية، أي بين السلفية وجمهور المسلمين خاصة، أرى أن يشكل المؤتمر الموقر لجنة عالمية لبحث فكرة تخفيف حدة الخلاف المذهبي؛ تمهيدًا للتقريب بين جماهير المسلمين وتوجيههم إلى الأهدى والأجدى، ويكون ذلك:

أولًا: بتجميع الهيئات الشعبية العاملة في حقل الدعوة مع الهيئات الرسمية العاملة في هذا الحقل، سواء أكانت بالأزهر أو بالأوقاف، ووضع منهج معين ملزِم لها جميعًا وضامن لها حق التحرك الذي يقتضيه الولاء والوفاء للدين والوطن ووحدة المسلمين.

ثانيًا: حصر أسباب الخلاف، وهي ليست كثيرة لتصدر تلك اللجنة العالمية (ميثاقًا فقهيًّا) بأحكامها عن علماء العالم الإسلامي مما فيه وجهان أو وجه واحد، منظورًا في ذلك إلى مقتضى الزمان والمكان وتطور الإنسان إلى ممارسة شرع الله في سماحة ودقة، مستهديًا بروح الأصول الكبرى، وسعة أفق الدعوة الإسلامية العالمية الخالدة وانتشارها.

وسيكون لهذا الاقتراح -لو أُخذ اعتباره الصحيح إن شاء الله- أثرُه البالغ في

وضع قواعد الوحدة الإسلامية المأمولة، وصرف اهتمام المسلمين إلى مواجهة عظائم الأمور وأهوالها التي تحيط بأهل القبلة في كل مكان.

*** الاقتراح الثاني: دعم تمويل أجهزة الدعوة إلى الله**

في مصر بنوك ومصارف وهيئات لتوظيف الأموال تحت اسم شركات أو مجمعات، وكلها تنتسب إلى الإسلام، وهي تخصم مقادير زكاة المساهمين فيها من أرباحهم سنويًّا ثم تتولى هذه البنوك والمصارف والهيئات توزيع أموال الزكاة هذه بأساليبها الخاصة، التي تختلف من جهة إلى أخرى، ومن اجتهاد إلى اجتهاد.

هذه الزكاة يصل مقدارها إلى عدة ملايين لا يُستهان بها، ولها لجان في هذه البنوك والهيئات والمصارف ربما تصل مكافأة العضو الواحد منهم في العام الواحد فوق خمسة آلاف من الجنيهات، وربما كانت المكافأة من نفس الزكاة.

والذي يهمنا هنا هو العمل الجاد على أن يخصَّص جزءٌ معين قانونًا من هذه الزكاة لا يقل أبدًا لأي سبب من الأسباب عن النصف، وأن يوزع هذا النصف بطريقة قانونية محددة على أجهزة الدعوة إلى الله، وفي مقدمتها الأزهر الشريف، ثم الهيئات والجمعيات الإسلامية العاملة في مجال الدعوة بصفة خاصة. ففي هذه الجهات تتحقق مصارف الزكاة الصحيحة، بما قد لا يُتاح معرفته لأعضاء لجان الزكاة بالبنوك والمصارف، على ما نعلم ونرى.

فخدمات الأزهر وخدمات الهيئات الإسلامية -متمثلةً في مؤسساتها الدينية والاجتماعية والإنسانية والصحية والثقافية والتي تعاني معاناةً كبرى في سبيل التمويل-، هي لا ريب أحق بتولي إدارة مصارف الزكاة. ولا يعترض أحد بأن للأزهر ميزانية خاصة، ولكن ميزانية الأزهر لا تسد جزءًا من المائة من واجباته والتزاماته وطموحاته العالمية، ولا تتناسب مع آمال المسلمين في إنجازاته.

ولا ينكر أحد أن الهيئات والجمعيات تتلقى بعض المعونات من وزارة الشئون

الاجتماعية، ولكن معوناتها قشرية رمزية، لا يمكن أن تفي بأي حال بتحقيق أهدافها والتزاماتها نحو الجماهير التي تخدمها، وتحتمل في مواجهة ذلك ما لا يُطاق ولا يُحتمل.

*** الاقتراح الثالث: المعاملات المالية المعاصرة**

يتساءل المسلمون في كل مكان عن حكم الله الصحيح فيما استجد بينهم من المعاملات المالية المعاصرة، من حيث الإيداع والاستثمار والتأمين وتوظيف الأموال والحسابات الجارية والسندات والشهادات المالية بنوعيها مما هو معروف ومرتبط بحياة الجميع. وقد ظل الناس ينتظرون إعلان اتفاق علماء المسلمين على حكم جامع أمام اختلاف الآراء والفتاوى والمذاهب، وطال بهم الزمن، وتبلبلت الأفكار وذهب الناس شيعًا مع ما يُفتى به لكل منهم، بكل ما في ذلك من تضارب وتعارض وتناقض يجب أن يكون له نهاية.

واليوم وقد اجتمع صفوة علماء العالم الإسلامي، وهم المسئولون أمام الله عن بيان هذه الأحكام وعن التخلف عن هذا البيان الذي يعني ألف مليون مسلم على وجه الأرض، فهل نطمع في أن يتفق علماؤنا على قول واحد واضح في هذا الأمر الخطير يُنشر على الناس فيطمئنهم على معاملاتهم، ويهديهم السبيل الأقوم؟

لقد طال الانتظار، ولا عذر لمعتذر؛ فليعلن العلماء على الناس حكم الله واضحًا صريحًا محددًا مثل ضوء الشمس، ولو لم يكن للناس من ثمار في هذا المؤتمر إلا هذا لكفى وشرف وشفى»[1].

وتشير مقترحات الشيخ سالفة العرض بصورة جلية إلى الجانب العملي لدعوته رضي الله عنه لتوحيد المسلمين ولإزالة ما أمكن من الخلافات المُعطِّلة لقوى الأمة

---

(١) فضيلة الشيخ/ محمد زكي إبراهيم: «اقتراحات العشيرة المحمدية المقدمة إلى مؤتمر علماء العالم الإسلامي للدعوة»، مجلة المسلم، العدد الأول، السنة الثامنة والثلاثون، أعداد: رجب وشعبان ورمضان ١٤٠٨ هـ.

والمشتِّتة لعزائم جماهير المسلمين. وبفضل الله وتوفيقه لإمامنا الرائد رضي الله عنه أخذ هذا المؤتمر العالمي في توصياته بكثير من آرائه ومقترحاته رضي الله عنه، بل وتناقل الحاضرون من العلماء أفكاره التقريبية الشرعية ثم نقلوها إلى شتى بلاد العالم الإسلامي. ومنذ ذلك الحين زال الكثير من الرَّين والشبهات التي كانت قد علقت بدعوة التقريب نتيجة للخلط بينها وبين دعوات مشبوهة لتذويب المعتقدات وخلط الآراء، وهو ما حاربه الإمام الرائد رضي الله عنه، وأبان زيفه في كثير من مقالاته وأبحاثه[1].

ويبدو جليًّا من اجتهادات الشيخ في هذه المسألة نظرته التقريبية التي تملي عليه الجمع بين أكثر من رأي في المسألة الواحدة مراعاة لظروف كل شخص، ولذا آثرتُ عرض النص التالي في هذا الموضع بدلًا من سرده في المسألة الخاصة باجتهادات الشيخ الفقهية:

رسالة وردت إلى شيخنا رحمه الله من خيرة كبار تجارنا المسلمين[2] يسأل عن حكم الله في المعاملات المالية المستحدثة، ذات الفوائد المحددة، ولما كان يطلب إجابة شخصية من الشيخ رحمه الله شأن كثير من المستفتين عن هذه المسألة، فقد أجاب فضيلته عليه فقال: «إن هذه المعاملات لم تكن موجودة في العهد النبوي، ولا ما

---

(١) وقد كان الإمام الرائد مع رهط من علماء الأزهر الشريف -كما أسلفنا- أول من انبرى لفضح مخططات جماعات الماسونية والبهائية عند حلولهم بمصر والشام في أوائل القرن العشرين. وقد حذر فضيلته الشباب من أن ينخدعوا ببعض الخدمات الإنسانية التي تقدمها هذه الجماعات كوسيلة لاجتذاب الشباب والبسطاء ذوي النوايا الحسنة، وذلك من أجل ترويج أفكارهم المشبوهة القائمة على المغالطات وتمييع العقائد وتذويبها؛ ليفقد المسلمون ذاتيتهم، ومع مرور الزمن يبتعدون عن الأصول الراسخة لدينهم الحنيف. وقد أثمرت جهود الشيخ ثمارًا حسنة؛ إذ إن الكثير من الذين كانوا قد انضموا بحسن نية لهذه الجماعات قلبًا وقالبًا حُبًّا لعمل الخير فطنوا إلى الخدعة التي وقعوا لها فريسة، فبادروا بإنشاء جماعات خيرية جديدة تقدم للمسلمين نفس الخدمات الإنسانية التي هي من صُلب ديننا الحنيف، ولكن هذه الجماعات الجديدة استقلت تمامًا وانفصلت عن الجماعات الأصلية المشبوهة في إدارتها وتمويلها وفي فكرها وعقيدتها بعد أن فضح الشيخ وزملاؤه الأبرار مخططاتهم وأساليبهم الخداعة لبلوغ غايتهم الفاسدة التي ما ترمي إلا إلى اقتلاع جذور الدين من نفوس المؤمنين.

(٢) «كلمة الرائد»: مجلة المسلم: مقال رمضان السنة (١٤) العدد (٢) ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

بعده، فليس في الشريعة حكم نصي خاص بها، ولكن الجمهور قاسها بقياس الشريعة في عموميات الأحكام، فحكم بحرمتها جميعًا؛ لما فيها من شبهة الربا، ثم ظهر في أيامنا هذه من يقول بأنها حلال كنتيجة للتطور الاجتماعي، ملتمسًا لها مبررات أخرى، وعلى رأس القائلين بإباحتها المرحوم الشيخ شلتوت، والشيخ محمد عبده[1]، والمؤمن المحتاط يجب عليه إذا استطاع البعد عن هذه الخلافات والشبه أن يبتعد ويستمسك بالأحوط، فإذا تعذر الابتعاد لأسباب خارجة عن إرادته كاضطراره إلى النزول على القواعد العامة في قوانين التجارة المعمول بها، أو نحو ذلك من الأسباب التي لا يطمئن إليها قلبه، ولكنه لا يجد عنها مصرفًا، فإنه يتعاطى هذه المعاملات مستغفرًا منيبًا، حكمه حكم المضطر فيما عمت به البلوى، والمضطر يباح له ما لا يباح لسواه، يقول تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وهو بهذا يجمع بقدر الإمكان بين ما هو مجبَر عليه من المعاملات، وبين احتياطه لدينه فيما لم يرد بتحلّته نص صريح، أو اجتهاد مريح، أو إجماع شرعي معتبر في دين الله، وإن استطاع أن يتصدق بالفائدة التي تعتبر ربا فهذا أفضل».

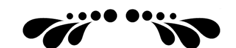
وهكذا فقد ظل الشيخ طيلة حياته بوسائل وأساليب شتى يسعى جاهدًا مخلصًا، بلا كلل ولا ملل، بجهوده العلمية والعملية إلى نبذ التفرق والتشرذم، وترك العصبية والتمذهب، والاجتماع على ما اتفقنا عليه إثباتًا أو نفيًا، وأن يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه في أمور فرعية، لا تخرج من الملة أو الدين، وذلك كخطوة أولى ضرورية لجمع الشمل وتوحيد الصف وترتيبه لتحقيق الوحدة الإسلامية،

(١) وراجع: «الفتاوى الإسلامية» لدار الإفتاء المصرية، المجلد الرابع، وكذلك البحوث الجديدة في المسألة في عهد فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية.

انظر: «أحكام المال الحرام وضوابط الانتفاع والتصرف به في الفقه الإسلامي» دكتور عباس أحمد الباز، إشراف ومراجعة: دكتور عمر سليمان الأشقر وما بعدها، دار النفائس، الأردن، ط (٢)، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

وخدمة الإسلام وأهله، والخروج من المأزق الذي شتت شمل الأمة وفرق الجمع. وهكذا نجح شيخنا الجليل في تكوين مدرسة فكرية موحدة تمثلت في تلاميذه ومريديه، فساروا على الدرب، وواصلوا الرسالة، رسالة التقريب بين طوائف الأمة المختلفة في جميع أرجاء المعمورة؛ لتعود كما نعتها الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد كان لنا مع الإمام الرائد ورهط مبارك من تلاميذه جولات علمية ودعوية هامة في موضوع التقريب. وقد وفقني المولى سبحانه تحت رعاية شيخنا الجليل وإشرافه في التقدم خطوة إلى الأمام في شأن التقريب، وذلك بفتح بعض الملفات الحساسة، وطَرق بعض المواضيع الشائكة بين طوائف المسلمين ومذاهبهم، ثم وضع أسس لقيام تقريب علمي هادئ ينفي خبث الفُرْقة والشقاق والعداوة بين المسلمين، وهو ما سنسهب في عرضه في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله.





المسألة الثانية عشرة

أهمية الوحدة الإسلامية والدور الجوهري للتصوف لتحقيقها

أولا: أهمية الوحدة الإسلامية لرفع راية الحق ونصرة الإسلام والمسلمين في جميع أرجاء المعمورة

يرتقي الشيخ رحمه الله تعالى بالطريقة إلى مرتقاها الأسمى كأداة ونواة لتحقيق الوحدة الإسلامية ومقتضياتها من توحيد القيادة والسياسة والاقتصاد وما يتعلق بهذا، من حيث إن المسلمين أمة واحدة، وما دامت عقيدتهم الأساسية واحدة فمبادئهم واحدة، وما دامت قبلتهم واحدة فغايتهم واحدة، وما دامت غايتهم واحدة فوظيفتهم ودعوتهم لا بد أن تكون واحدة، وصدق الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وفي هذا الصدد يقول الشيخ رضي الله عنه: «فالوحدة الإسلامية هي حياة الإسلام ومِلاك أمره، وجماع شرفه، وبغير هذه الوحدة لن يتهيأ للمسلمين رفع راية الحق ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. ولن يتهيأ لهم إدراك العزة التي كتب الله للمؤمنين، ولن يتهيأ لهم ميراث الأرض التي وعد الله عباده الصالحين، ولن تتحقق لهم الخيرية على أمم الأرض، ولن يتسنى لهم الحصول على شرف الشهادة الكبرى على الناس إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وما اختلف المسلمون إلا منذ أن تفرقوا على الفرعيات، فجعل الله بأسهم بينهم»[1].

(١) «بين عامين راشدين.. دندنات حول الحمى الروحاني والدعوة الربانية»، كلمة الرائد، مجلة المسلم.

ويسترسل الشيخ رضي الله عنه موضحًا أهمية التصوف في هداية الناس إلى طريق الله -سبحانه وتعالى- في هذا العصر الذي طغت فيه المادة على فكر الإنسان، فيقول: «والتصوف على علاته متغلغلٌ في كل أجزاء الوطن الإسلامي، فإذا نحن حررناه وطهرناه وحميناه من أعدائه وأدعيائه، وجمعنا صفوف رجاله، حتى أصبح أكبر حزب رُوحي إصلاحي سلمي في الإسلام، لكان بالتالي لهذا الحزب أثره في العالم كله، كلما طغت المادة، وادْلَهَمَّتِ الخُطُوب، واحتاج الناس إلى المد السماوي والإنقاذ الإلهي، وافتقدوا النور والحب والسلام»[1].

ولشيخنا رحمه الله جهودٌ لا تُنكَر في هذا المجال، أذكر منها على سبيل المثال خطبة بعنوان: «الاهتمام بأمر المسلمين» جاء فيها: «نحن هنا في أمان، لنا إخوان في الأفغان يعانون أشد المعاناة، ويجدون أشد البلاء، يَنقُصُهم الطعام والملبس، وينقصهم كل شيء إلا الإيمان بالله، ولذا نرى هؤلاء الفقراء بملابسهم العادية، وعماماتهم المباركة، يقفون أمام أكبر دولة تملك أكبر كمية من القنابل الذَّرِّيَّة، يقفون أمام رُوسيا، بماذا؟ بالإيمان بالله، لا ينبغي أن ننساهم، وإن لنا إخوانًا أيضًا يقفون أمام الصليبية، إخوانكم في أفريقيا، وخاصة إريتريا، يقفون أمام الحَبَشَة، وأنتم تعلمون أن الحبشة تعمل الآن لتحول نهر النيل عنا، ولكن إخوانكم المسلمين في إريتريا يقومون بجهد هائل أمام الحبشة التي تؤيدها الصهيونية وأمريكا؛ لا ننسى هؤلاء، ويجب ألا ننسى أبدًا فِلَسْطِين البلد المسلم، التي كان آخر بلاء ابتُليت به أن البرلمان الأمريكي يقرر ويعترف أن القدس الإسلامية التي فيها البيت الحرام الثالث، أنها هي العاصمة لإسرائيل اليهودية، ثم يضحكون علينا حتى تكون التمثيلية محبوكة، ويرسلون إلينا هنا بعض موظفيهم ووزرائهم يقولون لنا: نحن لا نقبل.. نحن كذا وكذا، في الوقت الذي تقول فيه رسلهم هذا الكلام بالأمس وأول أمس اعترف البرلمان مرة أخرى بأن القدس الإسلامية انتقلت من الإسلام إلى اليهودية،

(١) «هذه هي دعوتنا وهذا هو تصوفنا بين الصف والصُّفَّة»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، مرجع سبق ذكره.

وأصبحت الآن عاصمة إسرائيل! ينبغي ألا ننسى هذا. وعندما لبس بعض الفتيات الحجاب في فرنسا قامت الدنيا وقعدت؛ لأن فتاتين اثنتين تلبسان الحجاب في مدرسة من مدارس فرنسا، وكذلك حدث في إنجلترا، ثم بعد هذا كل يوم يُقتل مئات وعشرات ويجرح من إخواننا في فلسطين، وخصوصًا الشباب والفتيان والأطفال الذين يحاربون بالحجارة، ولا نجد بلدة من هذه البلاد، ولا دولة من هذه الدول، تغضَب لهذا بأي حال من الأحوال. إخواننا في فلسطين يعانون كثيرًا، يعانون أشياء لا يعلمها إلا الله. ولكم إخوان في بلغاريا، وبلغاريا من البلاد التي أسلمت طوعًا، دخلت في الإسلام بغير حرب، وهي في هذا اليوم تجعل المسلمين يغيرون أسماءهم، وتحملهم على الكفر حملًا، وهناك يعانون أشد المعاناة وأشد البلاء؛ وكذلك المسلمون في الجمهوريات الروسية، وهذه الجمهوريات تبلغ نحو عشر جمهوريات إسلامية، بين تركيا والعراق وروسيا، وهذه البلاد تحكمها روسيا حكمًا استعباديًّا لا آخر له، وهم يجاهدون هناك، فلا ينبغي أن ننسى إخواننا هاهنا وهاهنا، وهذا هو الإسلام، فإننا نسأل الله النصر لإخواننا في كل مكان»[1].

وهكذا يبين الشيخ أهمية تحقيق الوحدة الإسلامية؛ لرفع راية الحق ونصرة المستضعَفين من المسلمين في شتى أرجاء العالم شرقًا وغربًا. كما يبين أهمية دور التصوف المتغلغل في كل أجزاء الوطن الإسلامي في هداية الناس إلى طريق الله -سبحانه وتعالى- في هذا العصر الذي طغت فيه المادة على فكر الإنسان: «واحتاج الناس إلى المد السماوي والإنقاذ الإلهي، وافتقدوا النور والحب والسلام»[2]. **وهنا يظهر دور الصوفية الحقة التي تتسم بالروحانية وتنادي «بالنور والحب والسلام»، في عالم كظيظ بالظلم والظلمات، بالكراهية والحروب والمشاحنات**. فالتصوف الحق

(١) هذا جزء من خطبة للإمام الرائد على أُسطوانات الحاسب الآلي ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، إصدار العشيرة المحمدية.

(٢) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «هذه هي دعوتنا وهذا هو تصوفنا بين الصف والصُّفة»، مرجع سبق ذكره.

كما يؤكد الشيخ «إذا حررناه وطهرناه وحميناه من أعدائه وأدعيائه، وجمعنا صفوف رجاله، حتى أصبح أكبر حزب روحي إصلاحي سلمي في الإسلام، لكان بالتالي لهذا الحزب أثره في العالم كله، كلما طغت المادة وادلهمَّت الخطوب»[1].

ثانياً: الدور الجوهري للتصوف في تحصين العالم الإسلامي من دعاوى الغلو.. وإبلاغ رسالة الإسلام الحق عالمياً[2]

وبعد أن تبين مما سلف أن الصوفية الحقة براء مما ألصقه بها المغرضون والجهلة من أباطيل ومنكرات، وبعد أن تبين من أقوال الإمام الرائد رضي الله عنه سالفة الذكر كُنه الصوفية الحقة، يتضح جليًّا أن الصوفية ما هي إلا دين الإسلام في أبهى حلله وأرقى صوره، أي الإسلام كما أراده الله سبحانه وتعالى في مراتب الإحسان، وما المتصوفة إلا أولئك الصفوة من المسلمين الذين تمسكوا بالكتاب والسنة واعتصموا بهما، فارتقوا لمراتب الإحسان قولًا وعملًا، عبادةً وسلوكًا، مظهرًا وجوهرًا، في جميع شئون الدنيا والدين، فهم كما وصفهم الشيخ رضي الله عنه في كلمات مختصرة دامغة جامعة: «**المؤثِّرون بخصائصهم الرفيعة وروحانيتهم السلفية في مسيرة الحب والتجميع والسلام والسماحة والحضارة والتقدم والعمران، لا لجاه ولا دنيا ولا سلطان، والمندمجون في الحياة بمواكب التسامي والدعوة والمرونة والرجولة والقدوة والوسطية لله تعالى وللأوطان. هم قلب مع الحق، وبدن مع الخلق، الجمع في الجَنان والفرق في اللسان... وذلك هو مقام الإحسان**»[3].

وقد أكد لنا جمهور أئمة وفقهاء المسلمين على مر العصور بالحجة والبرهان أن الإسلام في مراتب الإحسان هو الهدى الإلهي للعالم أجمع، الصالح لكل زمان ومكان إلى يوم الدين، وأن أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، هي التي اختارها

---

(١) المرجع السابق.

(٢) «كتاب تاريخي خطير إلى أئمة الصوفية الشرعيين في العالم الإسلامي»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد السابع، السنة الخامسة، غرة صفر ١٣٧٥هـ، ١٨ سبتمبر ١٩٥٥م.

(٣) «مفاتح القرب» (ص٣).

الله سبحانه وتعالى من بين الأمم «لتنقل التوجيه الإلهي من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق، أي تفهم الوحي وتنفذه وتدعو الآخرين إلى اعتناقه»[1]، ولكن كما يوضح الشيخ في نفس السياق -مستشهدًا بقول الشيخ محمد الغزالي: «القضية الأولى قبل نجاح دعاية ما هي أن تكون الأمة صورة لرسالتها، ووعاء نقيًّا طهورًا لما تحمل من تعاليم وقيم»[2]، وهنا يتجلى دور الصوفية، صفوة المسلمين الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، ليس داخل بلادهم فحسْب، وإنما ينشرون رسالتهم السامية في جميع أنحاء المعمورة، لا لجاهٍ ولا سلطان، وإنما من مراتب الإحسان ابتغاء مرضاة الديان. وعن الدعوة المخلصة لله تعالى يقول الشيخ محمد الغزالي: «وواضح أن جهاز الدعوة والأمر والنهي هو الخاصة الأولى للرسالة الخاتمة، ولعله سر خلودها إلى آخر الدهر، فهو يجدد كيانها ويصون حقائقها......»[3]. ويسترسل الغزالي موضحًا مَن همُ هؤلاء الدعاة المنوط بهم حملُ راية الإسلام لجميع بقاع الأرض في كل الدهور فيقول: «إنهم الدعاة الربانيون المتجردون الذين عرفوا الحق، واستشعروا السعادة في نصرته، إنهم العلماء الذين يُوزن مداد أقلامهم بدماء الشهداء، إنهم جنود مجهولون في هذه الدنيا، ولكنهم غدًا أعلام شامخة في ربى الخلد»[4].

وفي نص بديع ماتع للإمام الرائد ﵁، تغلب عليه مسحة من نور وتلوح منه روائح الإخلاص وحمل هموم المسلمين، تظهر جليةً صورة مجسدة لأولئك الذين وصفهم الغزالي بأنهم «الدعاة الربانيون المتجردون الذين عرفوا الحق، واستشعروا السعادة في نصرته»، وكأن الإمام الرائد ﵁ يتمنى على الله تعالى ويقسم عليه سبحانه في محراب التذلل له والفقر إليه عز وجل، فيقول: «إن الصوفيين في العالم

(١) فضيلة الشيخ محمد الغزالي: «علل وأدوية»: «وظيفتنا العالمية»، الطبعة الثانية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «البداية» (ص٢٥٦).

(٤) المرجع السابق.

الإسلامي هم قوة هائلة متغلغلة في كل قطر من أقطار الوطن العربي، وكل شعب من شعوب الأمة الإسلامية، في شتى أنحاء المعمورة، وهم الطاقة الروحية المنتشرة في كل مدينة وقرية، وكل كَفْر وضَيْعَة، وكل ممر ومنعطَف، حتى لا يوشك أن يوجد بيت واحد في أرض مسلمة إلا وفيه متصوف، رغم ما بُذل ويُبذل في سبيل القضاء ظلمًا على التصوف من قديم الزمان، وطبعًا لا التفات هنا إلى «التمصوف» الاستعماري، ولا الكهنوتي، ولا الأميري، بكل منكراته ومخازيه ومقابحه، فالتمصوف ضلال، ينطوي على سلالات فَجَّة من الضالين والمضلين وينطوون عليه، فلا هو ولا هم على شيء فيما نحن الآن فيه من الجد وعمل الرجال.

إن هذه القوة المكنوزة الهائلة المبعثرة بلا رابط في دنيا المسلمين، إنما تعود في فروعها كلها إلى أصل واحد وحقيقة واحدة، لا يغيرها تعدد الأسماء والألوان والأساليب، ولا اختلاف الأوطان والأزمان والرجال، وما كل هذه التباينات إلا قشورٌ وسطوح مختارة بحسب العرف والبيئة؛ لتيسير التلاؤم بين مختلف الاستعدادات ودرجات التقبل لمختلف الطباع والقوى، وذلك لتجميع البواطن كلها على النبع الروحي العظيم. ولعل هذا هو سرُّ الله في خلود المذهب الصوفي من حيثُ مرونتُه وانفتاح آفاقه وسعة ظاهره، مع تحديده ودقته ووحدة حقيقته، وهيمنته الكلية على الأعماق، وهو من أجل هذا لا يتنافى مع أي مذهب إسلامي غير منحرف، ولو تجردت المذاهب الإسلامية الصحيحة من غلوائها وعصبيتها ما وسعها إلا التصوف ليس إلا.

ولعل الله الذي هيأ للتصوف هذه الخصوصية قد ادخره بعد أن فشلت كل التجارب ليوم لا يكون لغيره شأن فيه، ولا يصلح لهذا اليوم سواه، ذلك يوم الإسلام بخصوصه، ويوم الإنسانية على العموم، يوم سيادة الحب والعدل والسلام والربانية، يوم خلاص العالم وإنقاذه من أخطبوط المادية وآثارها المدمرة، يوم المعجزة، يوم التصوف والصوفيين إن شاء الله.

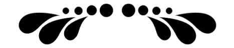
إن الجيش الصوفي العالم موجود بقادته وجنوده وكتائبه وعتاده الروحي العظيم، وهو موزع في كافة بقاع الوطن الإسلامي من المحيط إلى المحيط، ولا ينقص هذا الجيش إلا أن يتعارف، وأن يتعاون، وأن ينظم نفسه، وأن يطهر صفوفه، وأن يحرر دعوته، وأن يضطلع برسالته، وأن يعلن في الناس أنه صحا، وأنه فهم وأدرك، وأنه نهض وبدأ على بركة الله. ولست بهذا أدعو إلى خيال، فإنما أنا عبد واقعي عملي، أنادي بتنظيم حقيقة محسوسة بالفعل، واستغلال كنز يتيم معطل، فقد آن للروحانية أن تسود، وآن للمادية أن تخنس وتخسأ، بكل ما في حواشيها وأعقابها من فساد وتلف، فإنه لا يغني عنها أن تسمى بغير اسمها، ولا أن توصف بالتقدمية والنهوض من غير أوصافها.

وإن ما ندعو إليه من التعاون والتجمع والتفاهم والتقارب بين الصوفية في الدنيا إنما هو القوة والعبادة والمجاهدة والحياة، وهو في ذات الوقت احتفاظ بالخصائص، وتعريف بالمميزات وصيانة للحقوق جميعًا، فإنما التكتل شيء غير الاندماج، وغير الانمياع والذوبان؛ ولا أحسب رجلًا صوفيًّا بحق يرضى -مهما كانت رتبته وأثره وجاهه- أن يتحمل عار التاريخ أمام الله والناس، فلا يمد يده لله إلى إخوانه في الله وقد طلبوها من أجل الله؛ بعثًا للمجد الضائع، واشتراكًا في الواجب، وكفاحًا دون ما استحفظه الله عليه، واستخلفه فيه!

ولكل ذلك -ولوجه الله تعالى، ثم للتصوف-، دعونا إلى «المؤتمر الصوفي العالمي» على حين فترة من الدعوات السمحة ذات المدى البعيد، وعلى حين غَلَبَة من التلف النفسي والخلقي والفكري والديني، وعلى حين فشل مرير ذريع مكرر لكل تجربة، وعلى حين ابتلاء رهيب لم يدع من أوطان المسلمين مكانًا، ومن ثم أضحى الجهاد الروحي على أهله -وهم الصوفية - فرضَ عين لا عذر فيه ولا ريث معه.

ثم إنه إذا تحقق بقوة الله وترابطت هذه الحلقات، ثم تحركت إحداها يومًا ما لأمرٍ ما في جانبٍ ما، تحركت معها بقية الحلقات في كل جانب، وهذا هو الفوز العظيم،

فتلك إذن هي الجامعة الإسلامية تتهادى آتية، وتلك خلافة المسلمين تلوح دانية، وهذا هو الاتحاد العملي لأهل القبلة قد أقبل أو كاد»[١].



(١) المرجع السابق.



المسألة الثالثة عشرة

تجسيد الإمام الرائد ﷺ لشخصية العالم الرباني المتكامل[1]

وختامًا لهذه الرحلة الممتعة مع ملامح التجديد في الطريقة الصوفية للإمام الرائد محمد زكي الدين إبراهيم، أُهدي للقارئ صورة موجزة لشخصية الإمام الفريدة المحببة التي أخذت بألباب مَن عايشه وعرفه، وفرضت احترامه وتقديره حتى على من خالفه وعارضه، شخصية تثير العجب حقًّا! جمعت بين محاسن الدين والدنيا، بين الفقه والشريعة والأدب والبلاغة، شخصية محمدية وسطية جمعت بين الرفق والحزم بين اللِّين والرشد، بين التواضع والإباء، شخصية العالم الرباني النادر في هذا الزمان الذي كرَّس حياته لعلوم الشرع والدين، وفي ذات الوقت نهل من جُل علوم الدنيا وفنونها ثم سخرها هي الأخرى لإعلاء كلمة الله، مستخدمًا ملكاته الفذة التي خصه الله بها سبحانه لمخاطبة إنسان العصر بلغة العصر، فمسَّ القلوبَ وأنار العقول وأصلح النفوس، فأضحى تأثيره ناجعًا وأسلوبه في نشر الدعوة ماتعًا. وتشمل الملامح الجديدة في شخصية العالم الجليل المظهر والجوهر، والقول والعمل، والظاهر والباطن. وإليكم بعضَ سمات هذه الشخصية الفريدة الظاهرة والباطنة:

(١) راجع حول تجسيد الشيخ للعالم الرباني:
- «غاية الإحسان في خلق الإنسان» للسيوطي.
- «إيقاظ الوسنان بالآيات الواردة في ذم الإنسان» لابن العماد.
- «الإلهامات الرحمانية في مراتب الحقيقة الإنسانية» لعبد القادر الإرْبِلي.
- «كشف الغمة النفسانية في معرفة الصورة الإنسانية» للمقدسي.
- «المراقي إلى الغاية الإنسانية» للموفق البغدادي.

أولاً: اختصاص فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم رحمه الله بـ «الطريقة المحمدية» ولقب «الإمام الرائد»

فمن ملامح التجديد من جهة الشكل اختياره رضي الله عنه لاسم طريقتة الصوفية، فطريقته هي الطريقة الصوفية الوحيدة التي نسبت إلى المحمدية مباشرة، وليس إلى الشيخ رضي الله عنه أو العالم الذي أسس الطريقة، فهي الطريقة «المحمدية الشاذلية». ثم أضاف الشيخ رضي الله عنه إليها أوصافًا تُضفي معانيَ جديدة تنبئ عن حقيقة التصوف وجوهره، فأتبع اسم الطريقة بنعتها بـ«الصوفية الشرعية السلفية»، فإضافةً إلى إظهار حقيقة التصوف فإن تلك التسمية تعمل على جمع المسلمين، وتساعد على التقريب المحمود بين طوائف الأمة التي فرقتها الأوهام وخدعتها مكايد الشيطان. وقد أضاف الشيخ جديدًا بهذه التسمية، وإن كانت معظم الطرق الصوفية قد انبثقت أصلًا من السلفية الشرعية؛ إذ إنه جعلها شعارًا واسمًا يُذكِّر أهل التصوف ويرشدهم لحقيقته وجوهره، فيعيد من شط منهم إلى سبيل الهدى والرشاد، سبيل المصطفى ﷺ ومن اتبعه على بصيرةٍ من الأولين والآخرين.

وفي ذلك يقول الشيخ رحمه الله تعالى: «نسبة هذه الطريقة إلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ تجعل من أهم خصائص رجالها أن يتحرَّوا أقواله ﷺ وأعماله وأحواله ومظهره، ومحضره، ومخبره، بتدارس كتب السنة والفقه والتاريخ الإسلامي لينفذوا ما استطاعوا مما ورد عنه ﷺ، خصوصًا في عباداته المفروضة والنافلة، وحياته الخاصة والعامة، والتمسك بهذا كله، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة من غير نظر إلى جهل الجاهلين». ولهذا ألف، كما أسلفنا، شيخنا الإمام الرائد رسالته (المحمديات) أحزابًا وأورادًا ليس فيها لأحد كلمة واحدة غير الله -سبحانه وتعالى- ورسوله ﷺ.

وكما وفَّق الله -سبحانه وتعالى- الشيخ رضي الله عنه إلى اختيار اسم «الطريقة المحمدية» كأول طريقة صوفية تنسب لصاحب الرسالة ﷺ وليس إلى مُنشئها، فقد

وفقه سبحانه إلى اختيار لقب الرائد، وهو مأخوذ من حديث الرسول ﷺ: «**الرَّائِد لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ**»، وهو مثل عربي قديم استعمله المصطفى ﷺ عندما أراد أن يُثبِت صدق نبوته لأبناء قومه، فالرائد في لغة العرب هو الذي يبعث به أهله في أوقات الجدب ليرتاد لهم مكانًا خصيبًا ينتقلون إليه. فهو يدلهم على المكان الخَصيب الذي ينقذهم من الجدب والجفاف. والرائد ذو صفات متميزة يعد الصدق أهمها، كما قال الرسول ﷺ: «**إن الرائدَ لا يَكْذِبُ أهلَه، واللهِ لو كَذَبْتُ الناسَ جَميعًا ما كَذَبْتُكُمْ، ولو غَرَرْتُ الناسَ جَميعًا ما غَرَرْتُكُمْ، واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هُوَ إنِّي لرسولُ اللهِ إليكم خاصَّةً، وإلى الناسِ كافَّةً، واللهِ لَتَمُوتُنَّ كما تَنامونَ، ولَتُبْعَثُنَّ كما تَسْتَيْقِظُونَ، ولَتُحَاسَبُنَّ بما تَعملونَ، ولتُجْزَوْنَ بالإحسانِ إحسانًا، وبالسُّوءِ سُوءًا، وإنها لجنةٌ أبدًا أو لنارٌ أبدًا**». فإنه لا يمكن أن يكذب أهله، ولا أن يخدع قومه، لأنه لا يرضى لهم الهلاك، ولا يمكن أن يكون الإنسان رائدًا محبوبًا مطاعًا مصدقًا إلا إذا كان أهلًا للثقة، جديرًا بالتقدير.

وقد أراد الشيخ باتخاذ هذا اللقب أن يتأسى بالمصطفى ﷺ، وأن يؤكد لأتباعه وتلاميذه أنه عازم -بإذن الله- ألا يُخفي عنهم حقًّا ولا يبخل عليهم بحقيقةٍ وألا يترك طريقًا إلى الخير إلا دلَّهم عليه، مهما كلفه ذلك من لوم الأصدقاء وتآمر الأعداء، فأضاف بُعدًا جديدًا لمفهوم شيخ الطريقة، فهو الرائد الذي عليه أن يرود أبناءه ويقودهم إلى طريق النجاة، ويواجه من أجلهم الصعاب، ويتواجد قبلهم في المحن، ويذود عنهم الفتن[1].

فأفاد أن (الريادة) قيادة رفيعة بغير سيادة ولا تحكم ولا تربح ولا استعلاء ولا استبداد، وإنما هي (أبوة) حانية للصغير، و(أخوة) صادقة للكبير، ورعاية وولاء للأسرة والمجتمع والدولة. كل هذا على أساس (الربانية) بكل ما فيها من تبتُّل

(١) وقد بقي هذا اللقب المبارك «الرائد» ميراثًا أدبيًّا نُجِلُّه ونقدِّره، يختص به شيخ الطريقة المحمدية مِن بعدِه دومًا إن شاء الله.

وتـواضع وتعبُّد وعلـم وفقه وأخلاق عظيمـة، وروحـانيات سماوية تحقق إنسانية الإنسان، الذي كرمه الله بحمل أمانة الدعوة على القدم المحمدي المقدس.

ثانياً: بيان الشيخ العلمي وإحياؤه العملي لفقه التولية والاستخلاف

وأخيرًا، من أهم ملامح التجديد عند مولانا الشيخ ﷺ في حياته، أنه لم يأمر أمرًا جازمًا لأحد أن يخلفه في الطريقة، ولم يقبل أن يفرض على تلاميذه جبرًا المبدأ المعمول به في لائحة الطرق الصوفية بأن الابن الأكبر هو الشيخ، بل عاد بالأمر إلى سيرته الأولى، أي إلى الشورى. وعلى الرغم من تفضيله لخلافة ابنه من بعده لرؤيته صالحًا لذلك، إلا أنه لم يفرض رأيَه على تلاميذه، بل ترك لهم القرار الأخير، فأنشأ مجلس شورى الإخوان مع مجلس إدارة العشيرة المحمدية ونقباء الطريقة ثم تركهم، كما ترك النبي ﷺ أصحابه، دون أن يحدد لهم من يخلفه، ولكنه وضع فقه الخلافة الشرعية للطرق الصوفية في نصوص محكمة فريدة لم نر أحدًا من مشايخ الطرق الصوفية حرص على ضبطها في وصية شرعية كما فعل رضي الله عنه، فأي تجديد أعظم أو أجلُّ مما فعله الشيخ العظيم رضي الله عنه! ومن كراماته رضي الله عنه تطبيق هذا الفقه بعد وفاته رضي الله عنه! نعم كانت هناك لحظات عصيبة جرى فيها الجدل والخلاف وآراء متباينة عمَّن يخلف الشيخ، ولكن في النهاية نجحت سياسة الشيخ رضي الله عنه ونجح تلاميذه في اجتياز الأزمة بسلام والتحلي بالحلم والأناة التي أرادها لهم شيخهم، فعادت المياه لمجاريها، وانتظم الأمر واتخذ شكلًا جميلًا من التناصح والشورى في أمرالبيعة؛ صورة مصغرة لما يجب أن يكون عليه مجتمع المسلمين في كل مكان في شتى جوانب حياتهم الاجتماعية والدينية والسياسية.

فبعد انتقال شيخنا رضي الله عنه إلى ربه مارَسْنا الشورى والتناصح والتجاذب بأُخوة ومحبة ووُد، كما أراد لنا شيخنا رحمه الله رحمة واسعة، دون أن يفسد اختلافُ الآراء للود قضية. فقد كان هذا هو آخرَ درس عظيم أعطاه لنا شيخنا العظيم قبل أن ينتقل إلى رحاب ربه عز وجل، وصارت العشيرة والطريقة قُدُمًا بعد أن تخطت هذا

الاختبار بنجاح لم يكن في حقيقته إلا نعمة كبرى وفتحًا جديدًا في إدارة المؤسسة والعشيرة وإدارة الطريقة، وإرادة الطريقة، أهداها لنا شيخنا الجليل بعد رحيله ﷺ تمامًا كما زرعها في نفوسنا في حياته المباركة.

واقتداءً بسيد الخلق ﷺ اعتبر الشيخ منه مُنسِّبًا كل من يعمل بعمله ويمشي على دربه، ولم يجعل نسبه حكرًا على أبنائه من زوجته، فضرب بذلك المثل على تأسيه بسيدنا رسول الله ﷺ في كل أمور دينه ودنياه؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهلَ البَيْتِ**»[1]. وما أصبح من أهله ﷺ، وما نال هذا الشرف العظيم إلا بالإيمان والتأسِّي والتقوى. وفي ذلك يقول الشيخ ﷺ: «إذا وجد في الأسرة من هو أهل لحمل عبء الدعوة، فلا شك أنه أحق وأولى من كل الوجوه، وفي القرآن أن الله فضل آل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ﴾ [آل عمران: ٣٤]، ومن ثم كان سيدنا إبراهيم أبًا لجميع الأنبياء، أي أن الأنبياء جميعًا كانوا من أسرة واحدة، فلا اعتراضَ من جهة الشرع أو العقل على ذلك، ما دام يحمل الأمانة مَن هو أهل لها، وقد ورث سليمان داود، واستورث موسى آخاه هارون، ودعا زكريا ربه: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ﴾ [مريم: ٥، ٦].

وفي الصحيح يقول ﷺ: «**مَن كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**»[2]. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١].

أما إذا فُقد شرط الصلاحية والكفاءة، فإن ذلك يكون إقطاعًا بشريًّا، ولا يعرفه دين الله، ولا يقبله نظام الانضباط الاجتماعي ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ويقوم فقه الاستخلاف عند الإمام الرائد على ما سبق ذكره من الأدلة الشرعية، فهو يفضل أن تكون الخلافة الروحية للطريقة الصوفية والريادة وإدارة الأعمال لمن

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٩٨) برقم (٦٥٤١)، من حديث عمرو بن عوف ﷺ.
(٢) أخرجه الترمذي: (٥/ ٦٣٣) برقم (٣٧١٣) من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ.

يصلح لها من ذرية الشيخ، ويشهد له بهذا الصلاح إخوانُه من كبار العلماء المشكلين لمجلس الشورى والإدارة والأمانات المختلفة.

وإن لم يكن في الذرية المباركة مَن يصلح للقيام بهذه الأعباء الجسام، فالأمر أيضًا مرجعه إلى الصلاحية، والشورى وهي الحجة في معرفة مَن تتوافر فيه الصلاحية. ومن كراماته ومستجاب دعائه ﵁ أن قد خلف نجله السيد محمد عصام الدين شيخًا للطريقة المحمدية الشاذلية طبقًا لوصية فضيلة الإمام الشيخ محمد زكي إبراهيم التي كتبها بخط يده، وحملها وفد من كبار رجال الطريقة إلى صاحب السماحة السيد الوزير أحمد القصبي شيخ مشايخ الطرق الصوفية ورئيس المجلس الصوفي الأعلى، وبإجماع الآراء في جلسة المجلس الأعلى للطرق الصوفية مساء السبت ٣١/ ١٠/ ١٩٩٨ صدر قرار المشيخة العامة للطرق الصوفية بتعيين سماحة الدكتور عصام الدين إبراهيم شيخًا للطريقة المحمدية الشاذلية. وشتان بين التوصية والتوجيه والنصح لتلاميذه، وبين الأمر والحكم الملزم لهم بما يراه صالحًا دون اعتبار للشورى، وهذا الخيط الرفيع فيه تمام التأسي بالمصطفى ﷺ.

كما تولى أيضًا مسئولية ريادة العشيرة المحمدية -التي تُعد من كبرى الهيئات الإسلامية في العالم- بعد انتقال والده الإمام الرائد؛ حيث زكت الجمعية العمومية ترشيح سماحته بالإجماع، وانتخبه مجلس الإدارة رائدًا ورئيسًا لمجلس إدارة العشيرة المحمدية، وقد قام السيد الوزير أحمد علي كمال -الذي كان رئيسًا لجلسة الانتخاب- بتسليم سماحة السيد عصام محمد زكي الدين إبراهيم رئاسة الجلسة بعد أن تم انتخابه في مشهد غمرته مشاعرُ الحب والود والتقدير والاحترام، ويملؤه الأمل في تحقيق آمال الإمام الرائد سيدي محمد زكي إبراهيم مؤسس العشيرة والطريقة المحمدية، ورائد الإصلاح الصوفي، ومجدد التصوف في العصر الحديث.

ثالثًا: شخصية الإمام الاجتماعية الفريدة

وبعد الاطلاع على ملامح التجديد المتعددة في طريقة الشيخ الصوفية السلفية

التي تُلقي الضوء على حياته الممتدة المباركة كأحد خيرة علماء عصرهم الذين بذلوا الغالي والنفيس لتنوير العقول والعودة بالناس إلى الدين الحق الذي جاء به صاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة والسلام وعلى آله، نأتي إلى شخصية الإمام الفريدة كفرد من صفوة أفراد المجتمع الذي وُجد فيه؛ أبًا وزوجًا وأخًا وصديقًا ومعلمًا وطالبَ علم، فككُل إنسان في الوجود كانت للإمام حياته الشخصية الخاصة، ولكنه بملكاته المتميزة ومواهبه الفذة استطاع عبر سنوات حياته المباركة أن يمزج بين حياته الخاصة والعامة بصورة سلسة لا تكلُّف فيها ولا تقصير، مؤديًا واجباته الفردية والأسرية والاجتماعية المتنوعة على خير وجه، وفي ذات الوقت مسخرًا كل حركاته وسكناته، كل أقواله وأفعاله، كل لمحة ونفس من عمره، لإعلاء كلمة الحق سبحانه وتعالى ونشر دين الله الحق، سبحانه، بين إخوانه من البشر في شتى أرجاء العالم الإسلامي. وقد وجدتُ أن في بعض أقواله الجامعة الصريحة الصادقة خير ما يُلقي الضوء على ذلك الجانب الثري من حياته.

فقد بين رضي الله عنه معنى الالتزام الشرعي بمذاهب أهل الورع من علماء السلف المتصوفة التاركين لمظاهر الترف والفضول من المباحات والزهد من غير تكلف بيانًا ضافيًا جديدًا كان يعد من التراث التاريخي حتى أحياه رضي الله عنه قولًا وعملًا وسلوكًا. وقد يستغرب البعض أن يُستشهد على حال العالم بأقوال الشيخ عن نفسه، ولكن من كرامات هذا الإمام الجليل أنه لم يُنَازَع في ذلك حتى من مخالفيه. وقد ترجم بعض كبار علماء الأمة لأنفسهم، مثل أبي حامد الغزالي وابن حجر العسقلاني وجلال الدين السيوطي. ثم لا يخفى ما في ذلك من قصد الشيخ رضي الله عنه في تربية طلاب العلم؛ ليستأنسوا به ويسيروا على نهجه، فلا يتحرجوا من التزود بعلوم الدنيا إضافةً إلى علوم الدين. ولنا في سيدنا يوسف عليه السلام أسوة حسنة عندما لم يتحرج من قوله للملك: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]، لمَّا رأى في ذلك من مصلحة الخَلق؛ فضلًا عن أن في تحدث الإمام عن نفسه تحدثًا بنعمة الله -سبحانه وتعالى- عليه.

وفي هذا يقول الإمام الرائد ﵁: «ثم إنني رجل بِعْتُ لله كل ما يشتريه أهل الدنيا حسًّا ومعنًى، وأرجو أن يكون الله قد اشتراه مني، ولم تعد عيني تتخطى حدود الأمل في مرضاة الله، وإذا ورَّث الناس من بعدهم الدراهم والدنانير فإنني ورَّثت من بعدي: الله ورسوله، كما أنني لم أحاول أن أحترف الدعوة كمهنة، ولا كوسيلة للمعاش والحياة، ولا أن أتخذ منها سبيلًا إلى تحقيق مآرب الدنيا، وإن تكالب عليها الناس، فلقد رفضت الدنيا وهي تناديني مرات ومرات، والفضل لله وحده»[1].

«وقد عشتُ ما عشت أتقي أن أَخدع أو أُخدع، أو أن يبتليني الله بفتنة الإغراء والاستهواء بالمظهر الشخصي، أو المظهريات الجماعية، فمن يطلب اللباب لا يهتم بالقشور، ومن القشور شرك خفي موبق، يستحله كثير من الناس بفتوى من الشيطان، ولقد عشت وأعيش في الناس غريبًا، أكتفي بالأنس بالله وحسبي»[2].

وعندما اتهم بعضهم الشيخ بأنه شيخ أزهري (مُعمَّم ومُقَفْطَن) لا يدري من علوم الدنيا شيئًا إذا بالشيخ يرد عليه بهذا النص المُفحِم:

«كتب إليَّ كاتب يعنفني بأنني أحبس نفسي في قُمقُم التصوف، وأتقوقع في صَدَفَة التدين المتأخر، وأعيش متخلفًا في عصور الجمود الماضية، بينما نحن في عصر تقدمي متحضر لم تعرفه دنيانا من قبل... إلخ. والذي أحب أن يعرفه هذا الأخ وأمثاله أنني وأنا رجل (معمَّم مقفطن) لا أزال أثقف نفسي، وأزودها بكل ثقافة من المشرق والمغرب، باحثًا عن الحكمة، جاريًا وراء الحقيقة، كلما أذنت لي صحتي وأوقاتي وقدرتي، فكما أقرأ تاريخ الإسلام والفلسفة وتدرج المذاهب، ونشوء الفرق والنحل، وأتابع الصوفية والسلفية، وتطور تاريخ المسلمين، وأتابع أدباء العرب وقَصَّاصيهم وناقديهم ومهرجيهم ومفسديهم، كذلك أدرس ملامح الفن

(١) «أسمار وخواطر في الله مع أبنائي وأحبائي»، كلمة الرائد، مجلة المسلم، العدد الثاني، السنة التاسعة عشرة، غرة رمضان ١٣٨٨هـ - ٢٢ نوفمبر ١٩٦٨م.

(٢) المرجع السابق.

القوطي وتدرجه من الرينسانس إلى الكلاسيكية القديمة فالجديدة، إلى الرومانتيكية، إلى التأثرية، إلى الواقعية، إلى الرمزية، إلى الالتزامية، إلى التجريدية، حتى بيكاسو في التصوير، وأندريه مالرو في الأدب، وإسترافنسكي في الموسيقى، وأنا أقرأ لشكسبير، وألكسندر بوب، وصامويل جونسون، وشيلي، وبيكون، وهيجل، وفلامريون، وجيته، ونيتشه، إلى سارتر، وسومرست موم، وأقرأ كذلك لرونسار، وفيرلين، ورامبو، وبودلير، وأفرق بين لوحات رينيه ولزيور وبولولو، وأُميز بين مدارس الموسيقى المختلفة، إلى كل ما يتعلق بفن المسرح والسينما.. إلخ[1]، فلست بـ (مُقَمْقَمٍ ولا مُقَوْقَعٍ) ولا جامد، ولا متخلف بحمد الله، إنني أعيش في عصري مندمجًا فيه ثقافةً ودعوةً ومعاشًا، غريبًا عنه أخلاقًا وعبادةً واتجاهًا، ولكن على قَدَرٍ مقدورٍ لا بد منه للدعاة إلى الله».

رابعًا: جوانب من صفات شخصية العالم الرباني في قصائده

وكما تنعكس شخصية الإمام الرائد ﵁ في كتاباته الدينية المتنوعة، فهي تنعكس أيضًا واضحةً جليةً في الكثير من قصائده الشجية المؤثرة. فبينما تبرز هذه

---

(١) Picasso, Pablo (1881-1973) رسام إسباني; Malraux, André (1901-1976) روائي ومفكر فرنسي; Stravinsky, Igor (1882-1971) موسيقار روسي; Shakespeare, William (1564-1616) كاتب مسرحي إنجليزي وشاعر; Pope, Alexander (1688-1744) شاعر إنجليزي ساخر; Johnson, Samuel (1709-1784) ناقد وشاعر إنجليزي; Shelly, P. B. (1792- 1822) شاعر وكاتب مسرحي إنجليزي; Bacon, Francis (1561-1626) مفكر إنجليزي; Hegel, Friedric h (1770-1831) مفكر ألماني; Flammarion, Camille (1842-1925) عالم فلك فرنسي; Goethe, Johan Wolfgang von (1749-1832) مفكر وشاعر وأديب ألماني; Nietzche, Friedrich (1844-1900) مفكر وناقد ألماني; Sartre, Jean-Paul (1905-1980) روائي وكاتب مسرحي ومفكر فرنسي; Maugham, Somerset (1874-1965) روائي وقصاص إنجليزي; Ronsard, Pierre de (1524-1585) شاعر; Verlaine, Paul (1844-1896) شاعر فرنسي; Rimbaud, Arthur (1854-1891) شاعر وأديب فرنسي; Baudelaire, Charles Pierre (1821- 1867) شاعر فرنسي; Reni, Guido (1575-1642) رسام إيطالي; Lesueur, Eustache (1617-1655) رسام فرنسي; Pollaiuolo, Antonio (1429-1498) رسام إيطالي.

القصائد جوانب متعددة من صفات العالِم الرباني كما يراه الشيخ رضي الله عنه، فهي في ذات الوقت تبرز صفات الشيخ نفسه كمثال حي لصورة العالم الرباني كما تَصوَّرها.

فهو يرى مثلًا أن الصفة الأساسية التي تقرِّب العبد من ربه فتجعله عبدًا ربانيًّا، عالمًا كان أو متعلمًا، هي الإخلاص لله تعالى، فيقول في هذا:

جَمِّلْ حياتَك بالإخلاصِ محتسبًا * تدركْ مدارك مَن شابوا وأنتَ فَتِي
قد يُدْرِك العبد بالإخلاص في سِنَةٍ * ما ليس يدركه العُبَّادُ في سَنَةِ[1]

ثم كان يرى رضي الله عنه بعد ذلك أن الحلم من أهم الصفات الأساسية التي يجب أن يتحلى بها العالم الرباني حتى تنفتح له القلوب المغلقة وتصغي له الآذان، فيهدي الخَلق إلى طريق الحق برفق ولين، متأسيًا في ذلك بالمعلم الأمثل للبشرية ﷺ، وقد كان رضي الله عنه في حياته الخاصة والعامة مثالًا حيًّا للحلم والصفح والصبر على أذى الجُهَّال وتعدي الخصوم والمخالفين، فما زاده السفه إلا حلمًا، ولا الجهل إلا صفحًا؛ تطبيقًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]. وحول هذا المعنى ينشد قائلًا:

مَجْهُولٌ فيهم معروفٌ * للربِّ ويَكْفيه الرَّبُّ
فتراه صَفَا وعفا ووفا * وشفى وكفى رحب رحبُ
راضٍ في الله عن الأقوام * سواء عَبُّوا أم غَبُّوا
مُسْتَعْلٍ كالشمس جلالًا * وعطاءً وبهاءً يربو
لمَّاحٌ حسَّاسٌ واعٍ * يدعو والداعي لا ينبو
فانٍ في الله بدعوته * باقٍ بالله فلا يخبو[2]

وبهذه الأخلاق عاش الشيخ محمد زكي حياته متسامحًا متساهلًا، وقد خاض

(١) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «ديوان المثاني»، ج (٢) ص (٢٧، ٢٨).
(٢) «قضية الإمام المهدي» لفضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، ص(١٢٣، ١٢٤) مرجع سبق ذكره.

فيها أحداثًا جسامًا، كان دائمًا يلقاها بالمرونة والحكمة والعفو. ولا يخفى على مسلم أن الحلم والصفح من أسمى مبادئ الأخلاق الإسلامية التي ترقى بالعبد إلى مراتب الإحسان، والله يحب المحسنين، وتبرز هذه الصفات في مواقف كثيرة من حياة الشيخ، عبَّر عنها في قصائده، كما نرى في تلك الأبيات الجميلة المعبرة:

رَضِيتُ عن كل خَلْقِ الله ما فعلوا * وقد علمتُ بأن الأمر مقدورُ
فمَن أفاء -ولو عفوًا- فمشكور * ومن أساء -ولو قصدًا- فمعذورُ
أَرْضَيْتُ ربي ونفسي والذين معي * وعشتُ بالحب لا حقدٌ ولا زورُ[1]

وقد أعانته نزعته الصوفية على الرفق والتؤدة والتسامح، على الرغم مما قاساه من خصومه ومخالفيه. وهذا الرفق جعله يتواضع لكل الناس ويفتح لهم بيته، ويجد راحته وسعادته في خدمتهم بنفسه كما كان يفعل الحبيب المصطفى ﷺ مع أضيافه الكرام، فيقول رضي الله عنه:

بيتيَ بيتُ الله وهْو السيدُ * وأنا فيه خادم مُجَرَّدُ
بيتيَ بيت الكل نَدُّوا أم هُدُوا * يشكر فيه من أتى ويحمدُ
يأوي إليه الراكعون السجَّدُ * وطالب المعرفة المسترشِدُ
بيتيَ واللهُ تعالى يشهدُ * مَضْيَفَةٌ ومَعْهَدٌ ومَعْبَدُ[2]
كذاك كان جَدُّنا محمدُ[3]

وكان رضي الله عنه يحب طلابه وأتباعه ومريديه وإخوانه في الله حبًّا خالصًا لله سبحانه وتعالى، وكان يتفقدهم ويفتقدهم ويسأل عن أخبارهم إذا غابوا بحب الأب الحاني والأخ الشفيق، ومن أمثلة ذلك ما كتبه لأحد إخوانه ومحبيه في الله بعد أن غاب هذا

(١) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «ديوان البقايا» ج (١).
(٢) قوله: «معبد» المقصود به «مسجد»، وعدل الشيخ محمد زكي عن كلمة «مسجد» إلى كلمة «معبد» لضرورة الشعر ووزن البيت.
(٣) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «ديوان البقايا»: ج (١)، مرجع سابق.

المُحبُّ فترة طويلة عن زيارة الإمام الرائد، فيقول له الشيخ معاتبًا إياه بحبٍّ ورفقِ المتحابين في الله:

عباسُ[1] أخي إن كنتَ نَسيتَ * فإني يومًا لن أنساكْ
لولا الأمراضُ سَعيتُ إليك * شفاني مولانا وشفاكْ
مدَّاحَ رسولِ اللهِ وأهل * اللهِ جميعًا يا بُشراكْ
(اشتقتُ إليك وحقِّ الله * فقل لي: كيف وأين أراكْ؟)

فكتب الأستاذ عباس ردًّا جميلًا يفوح بعبيرِ صِدْقِ تبادُلِهِ محبةَ شيخه المخلَصَةَ في الله:

وأنا واللهِ لِفَرْطِ الشَّوق * أُقَبِّل نَعْلًا مَسَّ ثَراكْ
وأُقَبِّلُ كلَّ رِياحِ الشَّوق * لعَلَّ نسيمًا قبَّل فاكْ
لكنَّ الضعف يُكبِّلني * فبربك فاسألْ لِي مَولاكْ
لكنْ وبرغم الضعف أنا * سأطير إليك لكي ألقاكْ

وكان ﵁ في ملبسه مع عامة الناس يجسد قول رسول الله ﷺ: «**مَن تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ**»[2]. أو كما قال. ولكنه لم يجعل الزهد مفخرة يُبتغى بها مدحُ الناس، ولا شكوى من فقر يشكو به حاله:

وقائلةٍ ما بالُ ثَوْبِك حائلًا * فقلتُ لها: خلِّ الأمورَ كما هي
إذا قلتُ: من زُهدٍ. مدحتُ شمائلي * وإن قلتُ: من فقرٍ. شكوتُ إلهي[3]

---

(١) عباس: هو الأستاذ عباس الديب، شاعر مبتهل ومداح وعضو قديم في العشيرة المحمدية، وله في احتفالها ومناسباتها أنشطة ومواقف. انظر: «ديوان البقايا»: ج (١).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»: (٦/ ٢٧٦) برقم (٧٧٩٠)، من حديث عمر بن الخطاب ﵁.

(٣) هذه الأبيات أنشدها الشيخ ﵀ عندما جاءه بعض كبار الزوار يومًا، فهمَّ بالخروج إليهم بملابسه العادية في الدار، فأمسكت به كريمته وقالت: إن ثوبك هذا حائل -تعني باهتًا- فكيف تخرج به إلى هؤلاء الناس؟ فإذا به ينشد هذه الأبيات، وليس معنى هذا أن ثيابه غير طاهرة أو نظيفة، لكن هذا يدل على زهده وتواضعه. انظر فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «ديوان البقايا» ج (١).

وكان الشيخ محمد زكي ﷺ منذ صباه لا يعتز بمظهر ولا بجاه، وإنما يعتز بالله تعالى وحده وبدينه الحق سبحانه، فيفتخر بأنه نشأ وتربى في أحضان الأزهر الشريف، و في هذا المعنى يقول رَحِمَهُ اللهُ:

وهم فاخَروني بالذي عز عندهم * من العَرَض الفاني وذو الجهل يَجْتَري
فقلتُ لهم: فخري بأنيَ (مُسْلِم) * وأنيَ (صُوفي) وأنيَ (أَزْهَرِي)[١]

وفي الأبيات التالية يصرح الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أنه عاش حياته مجاهدًا لإعلاء كلمة الله، وأنه لم يخشَ في جهوده وجهاده لومة لائم، ولم يخف من بطش أحد، ولم تنثنِ عزيمته عن بلوغ هدفه السامي بمؤازرة الحق ومحاربة المنكر، على الرغم من كل الصعاب وكل التحديات:

وإن لكم شيخًا طوَى كلَّ مِحنة * ولكنه عن كل مَثْلَبَة عفَّا
قضَى عُمره في اللهِ والناسُ حولَه * خصومٌ جميعًا ما استكانَ ولا كفَّا
وما هزَّه السلطانُ والبغيُ حينَ لا * وقايةَ من بغيٍ، ولا خَشِيَ الحَتْفَا

ومع زهده وتواضعه وحياته الجادة وأعبائه الجسام، فقد كان له دعابات لطيفة مع طلابه، متأسيًا في ذلك أيضًا برسول الرحمة ﷺ مع صحابته رضي الله عنهم. ومثال ذلك: جاءه يومًا رجل فقال: يا إمام، أرجو أن أرى صورة العفريت، فأعني على ذلك الأمر. فارتجل الشيخ ﷺ أبياتًا لطيفة مداعبًا إياه، فقال:

قال: أرجو أن أرى العِفريتَ يومًا * رَغْبَتِي هذي فعاونِّي عليها
قلتُ: ما أيسرَ ما تَطْلُب مني * خلفَكَ المِرآةُ قُمْ فانْظُرْ إليها[٢]

وظل الشيخ محمد زكي ﷺ على ثباته حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، وكثيرًا ما

---

(١) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «ديوان المثاني» ج (٢)، دار الرسالة للطبع والنشر، ط (١) ١٤٠٤هـ/ ١٩٧١م.

(٢) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «ديوان البقايا»: ج (١).

صرح برضاه التام عن ربه سبحانه وتعالى، ورضاه التام بقضائه وقَدَره؛ أيًّا كانت الصعاب والكُربات والأحزان. ومن أجمل ما قال في هذا المعنى الأبيات التالية:

راضٍ عنِ اللهِ في سِرِّي وفي عَلَنِي * راضٍ عنِ اللهِ مهما كانَ مِن زَمَنِي
راضٍ عنِ اللهِ إني إنْ رَضِيتُ بما * يُرضيه فهْو سيرضيني ويرحمني
راضٍ عنِ اللهِ وهْو المُرتجَى فإذا * ما مسَّنِي الضُّرُّ أَرضاني وأَكرمني
راضٍ عنِ اللهِ إيمانًا به وغنًى * ومَن يَلُذْ بغني الذاتِ فهْو غَنِي
راضٍ عنِ اللهِ؛ إني إن غضِبتُ فلن * أغيِّرَ الأمرَ أو أرتاحَ من شَجَنِي[1]

وكما نرى في الأبيات التالية، ينبع هذا الرضا التام من معرفة شيخنا ﷺ معرفةً حقة بربه العفوِّ الكريم، كما ينبع من حسن ظنه بالله ويقينه أن مغفرته سبحانه وتعالى أوسع من ذنوبنا، ورحمته عز وجل أرجى من أعمالنا:

حاسِبونا فدَقَّقوا * ثم مَنُّوا فأَعتَقوا
هكذا شِيمةُ المُلُوك * بالمماليك تَرْفُقُ
يا حُداة الرواحلِ * والجمال البوازِل
طال فيكم تَذَلُّلِي * فعليَّ تَصَدَّقوا
إن قلبي يقولُ لي * ولِسَاني يُصَدِّقُ
كلُّ مَن مات مسلمًا * ليس بالنار يُحرَقُ[2]

كما تعكس العديد من القصائد الصوفية الرمزية الرقيقة الدقيقة لشيخنا الجليل -طيَّب اللهُ ثراه- تجربتة الرُّوحية وما تنطوي عليها من علاقته الوجدانية بالله سبحانه وتعالى، وترجمته لهذه العلاقة الربانية السامية إلى واقع يعيش فيه، وكثيرًا ما كان يرتجلها، على عُمقها ورَوْعَتها، إلهامًا في لَحَظاتٍ نُورانية، فيستمع إليها تلاميذه بإجلال وشوق ويتهافتون على تدوينها؛ ثم تُعرض على شيخهم الجليل قبل جمعها

(١) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «ديوان البقايا»: ج (١).
(٢) المرجع السابق.

لتستقر في دواوينه الماتعة (البقايا) و(المثاني) وغيرهما من الأعمال الأدبية الصوفية الخالدة، ومن هذه الأبيات الرائعة المفعَمة بالمعاني العميقة ما يلي:

تَــرَكْـنَــا الـكُـلَّ إلا اللهْ * ولـم نَـرْجُ الحيـاة سِـوَاهْ
عــرفنــاه وقــدَّسنــاهْ * فنِلنــا مــا تَمنينــاهْ
بـسيفِ الـشرعِ قـد صُلنا * بمــا قــال النَّبِي قُلنــا
فمــا حِــدنــا ولا مِلنــا * ولا تهنــا كـمن قــد تــاهْ
ألا بلِّــغْ أعــادينــا * بــأنَّ الله حــامينــا
فهم لـن يشمتـوا فينـا * بــإذنِ الله في علــيــاهْ
دخلنـا في حِمـى القـدرهْ * بسِـرِّ الغيب والحَضْـرهْ
ودارت دورة الحـســرهْ * على البــاغي ومَـن والاهْ
دخلنـا في حِمـى الـديَّـانْ * إلهِ البطش والسلطـانْ
حـمــانــا والأذى ألــوانْ * ومَن يـدخلْ حِماه حَماهْ[1]

خامساً: ملامح التجديد في الشعر الصوفي لفضيلة الإمام الرائد

تحتاج دراسة الشعر الصوفي لفضيلة الإمام الرائد، على تنوع موضوعاته، إلى دراسة مستفيضة قد لا يتسع المقام هنا لتناولها؛ إلا أن الباحث في ملامح التجديد فيما قدمه الإمام الرائد لا يمكن أن يخطئ ملامح التجديد فيما قدمه من شعر صوفي، ولعل أبرز هذه الملامح ما يمكننا أن نصفه بأنه شيء من ميراث جده عليه الصلاة والسلام الذي وصف كلامه ﷺ بأنه جوامع الكلم؛ فالكلمات قليلة العدد عظيمة المعنى، يفهمها كل متلقٍّ لها وفق مشربه وعُمق أفكاره من هذا المشرب، ولا تزال دالة على معنى أساسي، فها هي أشعاره الصوفية لمحة من ميراث جده ﷺ بفلسفتها الصوفية العميقة ومعانيها الدقيقة ومصطلحاتها الملغِزة، وما بها من رموز دالة على صفات الله سبحانه وتعالى، ومشيرة إليه جل جلاله، ومعبرة عن علاقته الروحية بالله

(١) «مفاتح القرب»: «دعوة المستغيث»، (ص٢٤٢، ٢٤٣).

عـز وجل؛ في عبارة وجيزة لا تستعصي على المريد في أول طريق سلوكه، وفي ذات الوقت لا يخطئ عمقَ معانيها العارفُ بربه في رحلة معراجه.

كما يمكن للدارس لشعر الإمام الرائد أن يميز ملمحًا آخر من ملامح التجديد، ألا وهو التنوع الكبير، ليس فقط في الموضوعات التي تناولها ولكن أيضًا في الحالة الوجدانية التي يصدِّرها للمتلقي التي هي بلا ريب انعكاس للحالة الوجدانية للشاعر. والدارس للشعر الصوفي يرى غلبة حال بعينه على كل واحد من شعراء الصوفية، أما شعر الإمام الرائد فقد تنوعت الحالة الوجدانية التي يصدرها للمتلقي تنوعًا كبيرًا، فتارة يشعرك بجلال التجليات الإلهية، وأخرى بحرارة الوجد والمحبة، وثالثة بحماس الجهاد والفدى، ورابعة بطريف الدعابة، في غير إفراط في الصنعة أو تفريط في المعنى.

ومثال ما أسلفنا من ملامح التجديد ما يلي:

انظر لشرح دقيق المعاني في الآداب الصوفية في عبارات سهلة مانعة جامعة في قوله:

كَنيتُ (بالغير) عن (ذاتٍ) أُقدسها * كيما أبيح لنفسي بعضَ ما مُنعَا
كنيتُها لأوفِّيها قداسَتها * وأُشبع النفس من بثِّ الغَرام معَا
إذا ذكرتُ جلالَ اللفظ روَّعني * فكيف لي بجلال (الذاتِ) مجتمعَا؟[1]

وانظر لتباين أعماق المعاني مع دلالتها جميعًا على التوحيد الخالص مع الأدب الجم في قوله:

أدركتُ به علمَ يقيني * وشهِدتُ به حقَّ يقيني
وغدوتُ به عين يقيني * فهو يَقيني وهو يَقيني
اللهُ فقل جل اللهُ

(١) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم: «رسالة إلى بعض الإخوان»، «ديوان البقايا»: ج (١) ١٩٨٣م، مطبعة حسان، القاهرة، ص٧٧ - ص٧٨ .

فبفَــرقِ الفَــرقِ عــرَفنــاهُ * وبجَـمْعِ الجمعِ عبـــدنـــاهُ
وبفـــرق الجمع وصفنـــاهُ * وبجـمع الفـــرق شهـــدنـــاهُ
اللهُ فـــقـــل جـــل اللهُ
أين استخفى المعنى الحَقِّي * في الجَمْعِ تُــرَى أو في الفَـرْقِ؟
العجــزُ هنــا شــأنُ النُّـطقِ * والحكـمُ لــشـــوقٍ أو ذوقِ
اللهُ فـــقـــل جـــل اللهُ[1]

كما يظهر ذات المعنى في قوله:

تَفيضُ من ضَوئك الأمدادُ تَغْمُرُني * منها أحاسيسُ إفنائي وإحيائي
ويطرُق الفَيْضُ وجداني فيُمْطِره * نــورًا بنــورٍ، وإغــراءً بــإغــراءِ
وتذهب الروح، روحي في تَفَتُّنِها * حتى يفاض بتكليمي وإيحائي
هَمسٌ من الوحي يحْدو بي إلى شَرَعٍ * مــا بين عــالَمِ أسـدافٍ وأضــواءِ
فيسكب الذكر، يطويني وينشرني * شيئًا من النارِ في شيءٍ من الماءِ
غَيثٌ من الغيب لا طُوري يساكنه * خُلْــدًا عليَّ، ولا هــدبي وإغــوائي
غيث يحــررني طَــورًا ويــأسـرني * ذِكْرِي مناي فمن للذاكرِ النائي؟[2]

كما يتجلى في قوله:

ورأيــتُ الـمـــوتَـــى والأحيـــا * في عـــالـم (ذَرِّهـم) الأقـــدمْ
وسـمِعـتُ (ألـستُ)؟ وقلـتُ: (بلى) * في مَـشـهَـد غيبٍ مُـسْتَلْهَـمْ[3]

وانظر إلى توضيح الإمام لإشارات الرموز الصوفية في قوله:

وبـــدأتُ (بـــإســـرائـي) سيري * وختـمتُ (بـمعــراجي) حِججي
وحـلا لي حــــــالٌ حلَّ فلــم * أجـنَح للهَـــرْج أو الـمَـــرَجِ
والليلُ مـضـى و(الطـورُ) أضـا * فتهـادى (الــوادي) بــالــوَهَجِ

(١) «مفاتح القرب» (ص٢٥٠، ٢٥١).
(٢) «ديوان البقايا» (١/ ١٤٨).
(٣) المرجع السابق (١/ ١٤٦، ١٤٧).

نُـــوديـتُ فـغِـبـتُ وذُبـتُ وثُـبـتُ * لآخـــــذ (ألـــــواحــي) وأجــي
فـحـمـلــتُ رســـالات الأسرار * إلى الأبـــــرار بـــمــنـعــــــرجــي
وخفـــايــا الأنـــس بـطَـيِّ الـنـفــس * بَــــدَت لـلـحِـــسِّ، فـلـم أُهَـج!
في (لـيلـــة قـــدري) وشهــــودي * أشـــرفتُ على الخلـــد البَهِجِ[1]

وانظر إلى حالة الوجد التي يُصدِّرها إلى قلوب مريديه في قوله:

يـا لـمحـةَ الـنـورِ مـن ميـراثِ سينـاءِ * تغدو مواجيد قلبي الذاهِب الجائي
يـومًا على الطُّور لا أنساه فاجـأني * كمـا يُفـاجـأ هِيمُ البِيـد بـالـمـاءِ
تـتـابعتْ لحظاتُ الصفـو فيه كما * تتـابع الغيثُ في أطـراف جَـدْبـاءِ
في موكبٍ من مجال الخلد طوَّف بي * غَـنَّـــاه (داودُ) أشعـــاري وإلقـــائي
يـومًـا كمـا يبـدأ الـوحي النبي مُنًـى * قد قمت فيه مقام السامع الرائي[2]

وانظر إلى حضرته كيف هيَّمه الجمال وحيَّره الجلال فتبرأ من حوله وقوته، وكأنما يقول: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] **في قوله:**

وأشرقَ السفح وانْصَبَّتْ فُيُوض (طُوًى) * صبًّـا على ملتقـى ذاتي وأسمــائي
شَـرَيْتُهَـا بحيــاتي لــو تعـاودني * مـنه بـشـائـر إيـثـاري وإيـــوائي
من سِـدرة الـمُنْتَهَـى أُلهمت أغنيتي * ومن سنا القـدس تَلْقِينِي وإملائي[3]

وانظر إلى رُوح الدعابة الممزوجة بسمته الإرشادي المعهود:

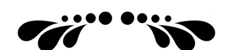
الـــدينُ لـيـس تَـجَـهُّـمًـا وعُـبُــوسَـا * والــديـن لـيـس مـظـاهــرًا وطُقُـوسَـا
الـــدينُ إيـمـــانٌ وفـيـضُ سمـــاحـــةٍ * فـاسعَدْ وأسعِـدْ، لا تكُـنْ مَنْحُـوسَـا[4]

وانظر إلى الشوق والحنين الذي ينتاب شيخنا الجليل عند ذكر الحرم الشريف في قوله:

(١) «ديوان البقايا» (١/ ١٦٢، ١٦٣).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٥٠، ١٥١).
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق (١/ ٢١٣).

قَبِّل (الأَسْوَدَ) عنِّي * وامضِ (بالحِجر) الأغنِّ
ثم زَمْزِمْ لي وغنِّي * وادعُ لي عند (الحَطيمْ)
حَجَّ (طَهَ) ثم وَدَّعْ * (مَرَّةً) في العُمر أَجْمَعْ
وقضى (العُمْرَة) أَرْبَعْ * إنه سِرٌّ عَظِيمْ[1]

وهكذا تتضح لنا من قصائد الشيخ رحمه الله تعالى، على تنوعها، موضوعًا وفلسفةً وعمقًا، تمامًا كما تتضح لنا من كل كتاباته الجوانب المتعددة لثقافته الواسعة في شتى أمور الدنيا والدين، كما يتضح لنا سمو خُلُقه ورُقِي فِكره وغزارة علمه. فإذا قرأنا الترجمة الموجزة لشيخنا رضي الله عنه في مقدمة هذا الكتاب وأضفنا إلى ذلك الاطلاع على ما بهذا الكتاب من أقواله الجامعة المنتقاة بعناية، لوصل القارئَ بيسر وسلاسة خلاصةُ علمه وفكره وآرائه المستنيرة، ولبدت لنا صورته رضي الله عنه تجسيدًا حيًّا مشرقًا لشخصية العالم الرباني المتكامل، الذي هو نعم القدوة ونعم المرشد والمعلم.



(١) «مفاتح القرب» (ص٢٤٩).



خاتمة

وختامًا أقول: قد أمضى الشيخ العظيم ﷺ -كما رأينا- حياته الزاخرة آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، مجاهدًا في سبيل الله بنفسه وقلمه وماله، لا يدخر وسعًا في الدعوة المخلصة لإعلاء كلمة الله. وهكذا أصبحت الطريقة بعد شيخنا، اهتداءً بهديه واقتفاءً لأثره، متسعة الآفاق، تعمل جاهدةً لبلوغ مرتبة الإحسان في الدعوة إلى الله تعالى في أمور الدين والدنيا معًا، تعمل لإعلاء كلمة الله والعمل بشرع الله، بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، تستمد القوة والهيبة من ذكر الله سبحانه سرًّا وجهرًا، في كل زمان ومكان، تحث على الإحسان في العمل، وتربية النفس وتزكيتها، وتطهير القلب والارتقاء بالعقل، واللحاق بالتقدم العلمي في العصر الحديث، وتسخيره لخدمة الإسلام والمسلمين. فقد أصبح مفهوم الطريقة بعد الشيخ ﷺ مفهومًا راشدًا، حكيمًا، واسعًا، ملتزمًا. حديثًا، قديمًا، صوفيًّا، سلفيًّا، يصعب حتى على أشد المخالفين له أن يطعنوا فيه، بعد أن وصل هذا الإمام العظيم بين الشريعة والحقيقة، وأوصل بين أهل الطريقة وأهل العلوم الشرعية والعلوم الدنيوية على قلب رجل واحد وتحت لواء واحد، يسعون جميعًا لبلوغ هدف واحد، ألا وهو إعلاء كلمة الله في مشارق الأرض ومغاربها، حتى يعم الخير والعدل والسلام في جميع أنحاء المعمورة.

وخير خاتمة لهذا البحث نص كلام الإمام الرائد لأحد مريديه، يوجز فيه ببلاغة بديعة ولباقة نادرة مفهومه للصوفية الحقة؛ كنهها، وأهدافها السامية، ووسائلها الفعالة لتحقيق هذه الأهداف، ثم ضرورتها لكل مسلم يسعى لبلوغ مراقي الربانية والكمال. وإليكم نصَّ خطابه ﷺ[1]:

(١) هذا الخطاب ومثله من الخطابات الرائعة عميقة المعاني، عظيمة الأثر، كان يخطها الشيخ ﷺ إلهامًا في لحظات نورانية من العشق الرباني الصافي، فيتلقفها مريدوه بإجلال وشوق وكأنهم انتقلوا =

«**يا ولدي:**

سألتني عن التصوف الحق، وهأنذا -بإذن الله- أكتب إليك شيئًا مما يحضُرني من (هوامشه)، وأوجهك إلى بعض آفاق مشارفه، لتتعرَّف على بعض حقائقه، فأنقُلُ إليك بعض ما قال رجالُه، وما بلَّغَني إليه حالُه، وما كان من فيض الحَقِّ جلَّ جلالُه. وقد يفوتني التنسيق والتزويق، ولكنني أسألُ الله ألَّا يفوتني التحقيق والتوفيق.

اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أن أتَكَلَّفَ ما لا أُحْسِنُ، أو أقُولَ ما لا أَعْلَمُ، أو أُمَارِيَ في حَقٍّ أعْتَقِدُهُ، أو أُجَادِلَ عن بَاطِلٍ أنْتَقِدُهُ، أو أَتَّخِذَ العِلْمَ صناعَةً، أو الدِّينَ بِضَاعَةً، أو أَطْلُبَ الدُّنْيَا بنسْيَانِ رَبِّ الدُّنْيَا، أو أَعْمَلَ للآخِرَةِ رِيَاءً وزُورًا.

يا ولدي:

قالوا: التصوف العملي تجربةٌ تصل بك إلى التذوق والصفاء والمشاهدة والوصول إلى سرِّ الذات، والخلافة على الأرض. وسبيله: العلم والعبادة، فلا يُغني عنك فيه سواك؛ فإنه لا يمكن أن يتذوق لك منه غيرُك، كما لا يمكن أن ترى بعين رجل آخر.

فهل تستطيع أن تعرف طعم التفاح مثلًا دون أن تمضغه بالفعل؟ وهل يكفي أن تنظر إلى العسل، أو أن تعرف مكوناته لتتمتع بحلاوته دون أن يحتويه الفم أو يعلكه اللسان؟

وهل يمكن أن يتحقق الشبع أو ينطفئ العطش بالتصور والخيال دون تناول الطعام والشراب فعلًا وواقعًا؟! طبعًا لا.

وكذلك لا يُغني في هذه التجربة مجرد العلم، ولا تُوصِّل إليها دروبُ الفلسفة، فالعلم والفلسفة أعمال عقلية، وهذه التجربة من الأعمال القلبية الوجدانية، وشَتَّان

= بزمانهم إلى زمن بعيد يهيمون بوجدانهم في أحد مجالس العلم النورانية المباركة لابن عطاء الله السكندري أو للإمام النفري، فيتهافتون على تدوينها ونشرها ليعم على عباد الله خيرها.
انظر «الحِكم» لابن عطاء الله السكندري، و«المواقف والمخاطبات» للإمام النِّفَّري.

ما بينهما، غير أنَّ التعبيرات الصوفية إذا عُولجت بالإحساس والتعمق، والمعاناة والتذوق، كانت قادرة على تغيير الباطن الذي به يتغير الظاهر، فيولد الإنسان ولادة جديدة، كلها إشراقٌ وحبٌّ وبركة وإنتاج.. هكذا قال الشيوخ.

أمَّا مجرد قراءة كتب التصوف بلا معاناة، فهذه متعة ذهنية، وثقافة عقلية، وقد تشارك فيها النفس الأمَّارة بالسوء، فتكون طريقًا إلى الضلالة طردًا أو عكسًا.

أما المِنَح الرُّوحية، والإشراقات القلبية، فهي نتيجة الجهود والأعمال، فالصوفية أرباب أحوال، لا أصحاب أقوال، ولم ينل المشاهدة مَنْ ترك الْمُجَاهَدة.

يا ولدي:

إنَّ التصوف خدمة تتكيف بحاجة كل عصر، وكل إنسان، وكل وطن، فهي تجسيد شامل لعملية الاستخلاف على الأرض، ثم إنَّ الهداية أيضًا جهد ومعاناة، والشيخ دليل فقط، فمَن لم يَسْعَ لم يصل، ومَن لم يلتمس المعارج لا يتسامى ولا يرتقي، ومَن لم يتحرك لم ينتقل، ومن اعتمد على ما عنده وحده اغترَّ، فتَاهَ وضَلَّ.

وفي ذلك أقول:

يقول: هل اتخاذ الشيـ * ـخ محتومٌ على القاصدْ؟
فقلتُ: وهل تربى قـ * ـطُّ مولودٌ بلا والدْ
وهل يُتمُ اليتيم كفا * هُ فاستغنى عن الرافدْ؟
وهل أبصرتَ مكفوفًا * ولا يحتاجُ للقائدْ؟
وهل علمٌ وهل فنٌّ * بغير المرشد الراشدْ؟
وكيف يسير في الصحرا * غريبٌ أعزلٌ وافدْ؟
وبابُ الله مفتوحٌ ولكن من هو الرائدْ؟
تأمَّلْ ما أتى موسى وقِصَّتَه مع العابدْ
تأمَّل بعثةَ الهادي ففيها الشاهِدُ الخالدْ

يا ولدي:

إنَّ نسبَكَ إلى الله أصَحُّ من نسبِكَ إلى أبيك.

ثم إنه مَن استأذن على الله أذِن له، ومَن قرع بابه تعالى أدخله، ونحن إنما نشير إلى الحقيقة، ونُبَيِّنُ السبيل، ونَدَعُ المريدَ الصادق ليصل إلى غاية الطريق بجهده، فليس شيخُكَ مَن سمعتَ منه، ولكن شيخك من أخذتَ عنه، ومن جاهَدَ عَدَلَ، ومَن اجتهدَ وصلَ.

يا ولدي:

الشَّريعةُ جاءت بتكليف الخَلْقِ، والحَقِيقَةُ جاءت بتعريف الحَقِّ؛ فالشريعةُ أن تَعْبُدَهُ، والطريقةُ أن تَقْصِدَهُ، والحقيقةُ أن تَشْهَدَهُ.

ثُمَّ إنَّ الشَّريعَةَ قيامٌ بما أمر به وبصَّر، والحقيقةَ شهودٌ لما قضى وقدَّر.

وهذا رسولُ الله ﷺ: الشَّريعةُ أقوالُهُ، والطَّرِيقَةُ أفعالُهُ، والحقيقَةُ أحوالُهُ.

فشريعَةٌ بلا حقيقة عاطلة، وحقيقةٌ بلا شريعة باطلة، ولهذا قالوا: «مَن تشَرَّع ولم يتحقَّق فقد تعوَّق أو تفسَّق، ومن تحقَّق ولم يتشرع فقد تهرطَقَ أو تزندق».

واعلم -يا ولدي- أنَّ الشريعةَ ليست إلا الحقيقة، والحقيقة ليست إلا الشريعة، فهما شيءٌ واحد، لا يتمُّ أحَدُ جزءيه إلَّا بالآخر، وقد جمع الحقُّ تعالى بينهما، فمحالٌ أن يفرق إنسان ما جمع الله.

ثم تأمَّل -يا ولدي- قولك: (لا إله إلَّا الله) هذه حقيقة، (مُحَمَّدٌ رسُولُ الله) هذه شريعة؛ فلو فرَّق بينهما أحدٌ هَلَكَ، فإن مَن ردَّ الحقيقة أشْرَك، ومن ردَّ الشريعة ألْحَد.

ثم تأمَّلْ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تجد الشريعة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] تجد الحقيقة، وهما شيءٌ واحد يستحيل طرح أحد جزءيه.. عبادةُ العبد ظاهر الأمر، وإعانة الله باطِنُهُ، ولا بُدَّ لكل ظاهر من باطن، كالرُّوح في الجَسَد، والماء في العُود.

الحقيقة من الشَّريعَةِ كالثَّمَرَةِ من الشَّجَرة، والأريـج من الزَّهْرة، والحرارة من الجمرة، فلا بُدَّ من هذه لتلك، فاستحال قيام حقيقة بغير شريعة.

يا ولدي:

انظـر بعين عقلك وقلبك إلى هـذا الدُّعَاء الـذي يناجي به أحَدُ العارفيـن من أشياخنا ربَّه فيقول:

«إلهي: إذا طلبْتُ منك الدُّنْيَا فقد طلبْتُ غَيْرَك، وإذا سألْتُكَ ما ضَمِنْتَ لي فقد اتَّهَمْتُك، وإنْ سَكَنَ قلبي إلى غَيْرِكَ فقد أشْرَكْتُ بِك، جَلَّتْ أوصَافُكَ عن الحُدُوثِ، فكيف أكون مَعَك؟! وَتَنَزَّهَتْ ذاتُكَ من العلل، فكيف أكونُ قريبًا بذاتي منك؟! وتعاليْتَ عن الأغيار، فكيف يكون قوامي بغَيْرِك؟!».

إنه كلامٌ كأنه صدًى من رُوح القُدُس، وكأنما اقتبسه الشيخ من ألحان الذين يحملون العرش ومَن حوله، ومن تسابيح الأرواح المهيَّمة بآفاق الملأ الأعلى، كلامٌ فيه رائحة مولانا رسول الله ﷺ، واقتباسٌ من أضواء سِدْرَة المنتهى، وملامح من صدى الحقيقة والشريعة.

إن التصوف -عندنا- هو (علم فقه المعرفة)، فهو تصحيح الإسلام، وتحقيق الإيمان، وتأكيد الإحسان.

ومن هنا كان واجبًا لا يمكن تحصيله بمجرد القراءة، ويبدو ذلك واضحًا في هؤلاء الذين يدرسون التصوف علمًا ولا يمارسونه عملًا وهم يحملون أعلى الألقاب العلمية، وكان يسميهم والدي «عربات النقل البشرية»، أو «سُعاة بريد المعرفة»، إنما التصوف رفعُ الأستار عن أسرار الكونيات لإدراك أنوار شموس الحقائق، فلا بد مع العلم من المعاناة والممارسة.

والتصوف: التقوى، والتصوف: التزكية، وهما مقام يجمع الخوف والرجاء، وينهض بالعقيدة والخُلُق، وبه تتحقق إنسانية الإنسان، وإنه ما من آية في القرآن إلا وهي تربط الدنيا بالآخرة، وتجعلها وسيلة إليها، من باب التقوى وطريق التزكية.

ألم يقل الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤]، و﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩]. ألم يكن مِن سِرِّ الرِّسَالات التزكية ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

نعم، التصوف أدب، فالعقيدة أدب، والعبادة أدب، والمعاملة أدب.

وهنا يصل العبد إلى رتبة «الربَّانية» بالعلم والدرس والممارسة: ﴿ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

يا ولدي:

الصُّوفيُّ أكثَرُ من (فقيه)؛ فالفقيه وقف عند الأقوال، والصُّوفيُّ أكثَرُ من (عابد)؛ إذ العابِدُ وقف عند الأعمال، أمَّا هو فقد جَمَعَ بينهما فأثمر (الأحوال).

والصُّوفيُّ أكثَرُ من (زاهد)؛ إذ الزاهد في الدنيا زاهِدٌ في لا شيء، أمَّا الصُّوفي فلا يزهد إلا فيما يحجبه عن الله، وبهذا يجعل الدنيا في يده، لا في قلبه.

وهكذا يصبح التصوف فرض عين؛ لأنه (طَلَبُ الكَمَالِ)، وما من مخلوق إلا وفيه نقص يجب استكماله، وبالتالي كان كل علم يمكن الاستغناء عنه إلا التصوف؛ لأن موضوعه الذاتُ والرُّوح، وعَلاقَةُ الوجود بالموجود، وارتباط الغيب بالشهادة، والملك بالملكوت، وكل علم بعد هذا فهو نافلة.

جاء شاب إلى مرشد صوفي فقال له: «يا ولدي، إن كنت تريد الدنيا والجنَّة فعليك بفقيه، وإن كنت تريد رب الدنيا ورب الجنة فهلم إلينا».

نعم، مَن وَجَدَ اللهَ فما فَقَدَ شيئًا، وإنْ فَقَد، ومَن فَقَدَ الله فَمَا وَجَدَ شيئًا، وإنْ وَجَد؛ فشئون الدنيا كلها كشئون الآخرة كلها؛ ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨].

يا ولدي:

البَشَرُ مَدَر، لا يَخْلُو مِن كَدَر، فمَنْ نَظَرَ إلى الخَلْقِ هَلَك، ومَنْ نَظَرَ إلى الحَقِّ سَلَك ومَلَك.

ولكن عليك بخلوص النِّية من قيود المقامات، وأغلال الأحوال، وعبادة الآمال.

ثُـمَّ إنَّه ليس العجب ممن هلك كيف هلك، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا!

يا ولدي:

إذا قيل: إنَّ التصوف من (الصفاء)، فقد أصبح اسم التصوف أعظم من أن يكون له جنس يُشتق منه؛ لأن الشرط في الاشتقاق: التجانس، والموجودات كلها ضد (الصفاء)، إنَّما كدر (إلا ما كان لله)، ولا يُشتق الشيء من ضدِّه.

ثُمَّ إنَّ (الصُّوفي) هو صاحب الوصول.

و(المتصوف) صاحب الأصول.

والمستصوف (المتمصوف) صاحب الفضول.

وإذا رضي المحبوب كشف المحجوب.

والتصوف: فناء صفة العبد ببقاء صفة المعبود، ومن هنا كان الصوفي هو الذي لا يَمْلِك ولا يُمْلَك، أي لا يَمْلِك نفسه؛ لأنه ملك لله، وبهذا لا يَمْلِكُه غيره من مال، أو جاه، أو بشر، ثُمَّ إنَّ صحة الملكية تكون للموجود، والصوفيُّ في حُبِّ ربه مفقود.

والمبتدئ في الصوفية يرى نَفْسَه، ولكن يراها ناقصة، فهي مع هذا حجاب بينه وبين الله.

أمَّا المنتهي فقد غَضَّ بصَرَه عن نَفْسِهِ فلا يراها بالكُلِّيَّة؛ لأنه يرى قَيُّومها الموجود الحق لا سواه، وما لا قيومية له من نفسه فهو عَدَمٌ مُجَسَّد.

يا ولدي:

الصوفيُّ قَائِمٌ بربِّه على قلبه، وقَائِمٌ بقلبِهِ على نَفْسِهِ، وقَائِمٌ بنَفْسِهِ على مَنْ يليه،

وهذه القوامة هي التحقق بالتصوف الرفيع: ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٨].

والصوفيُّ يُقِيمُ أمْرَ الخَلْقِ في مَقَامِهِ، ويُقِيمُ أمْرَ الحَقِّ في مَقَامِهِ، فيُظْهِرُ ما ينبغي أن يَظْهَرَ، ويَسْتُرُ ما ينبغي أن يُسْتَر، ويقوم بواجب وقته كأفضل ما يقوم رجل، وبه يستقيم عاتق الميزان برُوح الربَّانية.

إنَّ الله أمرنا بالتصوف، فهو يقول: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

والربَّانية عندنا هي (التصوف)، فهي في الآية علم ودراسة، ومقتضى ذلك العمل، والعمل الصحيح.

فالتصوف هو الربَّانية، وهو التَّقوى، وهو التزكية، وثلاثتها شيءٌ واحد، لا بد لبعضه من بعض، فلا ربَّانية بلا تقوى، ولا تقوى بلا تزكية.

وتستطيع أن تُسَمِّي ذلك جميعًا: «البر» ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ١٨٩] فاقرأ آيات البِرِّ من سورة البقرة وغيرها، وسترى أن جِماع ذلك ومِلاكه هو «الخُلُق».

فالتصوف خُلُق «مَن زاد عليك في الخُلُقِ زَادَ عليك في التصوف»، وبالتالي زاد عليك في الإنسانية، فنفع وانتفع، وأدَّى رسالة البشرية بروح سماوية عَلِيَّة.

وهكذا تُشرِق لك بعض معاني قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، فما كان من عظمة في شئون الدنيا والدين، فإنَّما هي أثر للخُلُق العظيم.

يا ولدي:

ليس للشيطان على الصُّوفيِّ الصَّادِقِ سَبِيلٌ؛ لأنَّه تحقَّقَ بالعُبُوديَّة المحضة، فدخَلَ في قُدُس: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقد عرف الشيطان هذا واعترف به ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، ومِنْ ثَمَّ كانت العبودية أعلى مراتب القرب: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، و﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [النجم: ١٠]، ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ [ص: ٣٠]، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩].

واعْلَمْ -يا ولدي- وعَلِّمِ النَّاس أنَّ التصوف الحَقَّ مُقَيَّدٌ بأحكام الكتاب والسُّنَّة، على أساس العزيمة، وحَذَارِ من الصيرورة إلى الرُّخْصَة إلا في حَدِّها المحدود؛ فالتصوف من حيثُ هو عِلْمٌ، وعَمَلٌ، وخُلُقٌ، وعِبَادَةٌ، وجِهَادٌ، ودَعْوَةٌ، هُوَ أَصْلٌ مُؤَصَّلٌ مما جاء به الوحي، وحثت عليه الشريعَةُ كما رأيْتَ، فهو كما قلنا «طلبُ الكمَال»، وكل امرئ -مهما يكن شأنه- فيه وجه أو وجوه من النقص، وبهذا يصبح التصوف واجبًا عينيًّا، لا عذر لأحد معه.

«هذا هو تَصَوُّفُنَا»، وهو «علم فقه المعرفة»، ولا شأن لنا بتصوف الآخرين، و﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

وهكذا يكون الصوفيُّ هو «المسلم النموذجي»، تمثيلًا للإنسانية الرفيعة، واندماجًا في موكب الحياة الزاخر بالجدِّ وبالمجد، والعمل الرُّوحي، والعمل الحضاري الخالد.

يعيش الصوفيُّ: بَدَنٌ مع الخَلْقِ، ورُوحٌ مع الحَقِّ، الفَرْقُ في لِسَانِهِ، والجَمْعُ مع جَنَانِهِ، وهو يعلم أنَّ العمل مَعَ الغفلة خَيْرٌ من الغفلة عن العمل.

يا ولدي:

التصوف دعوة «الحُبِّ» الذي فقده الناس، ففقدوا الحقيقة الإنسانية في الأجساد البشرية.

والحبُّ هو: الخصيصة المميِّزة للسالك الصوفي، فهو يحبُّ الله، وبالتالي يحب خلق الله، فهو يحبهم بحب ربهم، وهو بحكم حبه لهم يسعى في خيرهم وبرِّهم.

وتصوَّر -يا ولدي- مجتمعًا يحكمه الحُب، والسلام، والتسامح، والتيسير، واللِّين، والتعبُّد، والتعاطف، والشرف، والإيثار، وتحرِّي معالي الأمور؛ كيف يكون أفراده؟ وكيف تمضي حضارته؟

إنَّ العنف، والقسوة، والقهر، والتعالي، والخبث، والتغالي، والبذاءة، والتعالم، والاندفاع، وأذى الناس أقذارٌ لا يعرفها التصوف.

واسمع الآن الشاعر الصوفي يحدو على شاطئ الحب قائلًا:

رأَى المجنُونُ في الصَّحَرَاءِ كَلْبًا * فمَـدَّ لـه مِنَ الإحسـانِ ذَيْلَا!
فلامـــوهُ على مـــا كـــان مِـنْــهُ * وقـالـوا: كم أنَلْتَ الكَلْبَ نَيْلَا؟
فقـال: دَعُـوا المَلامَـةَ إنَّ عَيْنِي * رأَتْـهُ لَـيْلَـةً في حَيِّ (لَـيْلَــى)!

يا ولدي:

يقول السادة رضي الله عنهم:

«سِرُّ الحَقِيقَةِ ظَاهِرٌ، وعِلْمُ المَعْرِفَةِ منصُوبٌ، وبَابُ الوصُولِ مَفْتُوحٌ؛ ومَا حَجَبَكُمْ إلا رُؤْيَةُ أنفُسِكُمْ، فعَشَّشَ فيها الكِبْرُ وبَاضَ وأَفْرَخَ!». والكِبْرُ مِيرَاثُ إبْلِيس.

وهم يقولون رضي الله عنهم:

«الطَّرِيقُ واضِحٌ، والدَّلِيلُ لائِحٌ، والدَّاعِي أَسْمَعَ فَـأَقْنَعَ وَأَمْتَعَ، ومَا التَّحَيُّرُ بعد ذلك إلا من غَفْلَةِ النَّفْسِ، وغَلَبَةِ الهَوَى، واعْتِقَادِ الفَضْلِ على السِّوَى».

يا ولدي:

لقد كان التصوف ثورة على التَّرَف والاستعجام والانحلال واللامبالاة؛ فإذا دخلته المغالاة فتلك طبيعة الأشياء.

وهذه قصة الصحابة الذين أرادوا أن يصومُوا بلا فطر، وأن يعيشوا على الطعام الرمزي، وأن يتركوا النساء والأولاد، وأن يصلوا الليل والنهار؛ تَعَبُّدًا وانقطاعًا عن الحياة، فنهاهم الرسول ﷺ، وأرشدهم إلى الوسطية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. كان ذلك والوحيُ ينزل، والرسولُ ﷺ حيٌّ، فإذا دخل التصوفَ الغلاة والمتنطِّعون، واستبدلوا حكم إحياء النفس بقتل النفس، أو اختاروا الخبيث على الطيب؛ فليس هذا عيبًا في التصوف نفسه؛ فالتصوف شيء غير التمصوف، ولا يمكن أن يحمل الإسلامُ وزر المسلم الذي ينحرف، وهل يترك المسلم التَّقِيُّ إسلامَه لأنَّ في المسلمين قومًا ضَلُّوا السبيل؟!

التصوف دعوةٌ إلى الحريَّة المطلقة، والسِّيَادة التَّامَّة على النفس والشهوة، وعلى الشيطان، وعلى العبودية لغير الله، وعلى كل صَغَارٍ خُـلُقي أو فكري، فهو أَصْلُ التَّحَرُّر المطلق من أغلال المادة والهوى؛ لأنَّ الصُّوفيَّ قد تحقق بقوله: «لا إله إلا الله».

فالتصوف -يا ولدي كما رأيتَ، فوق أنَّه دعوة الحب والنور، والفيض والبركة والمدد- هو دعوة الحرية المطلقة، ورفض كُلِّ عبودية -حسيَّة أو معنويَّة- لغير الله، فهو -يا ولدي- ردُّ اعتبار الإنسانية للإنسان، بعدما فقد الإنسان اعتباره، واستعبدته المادة، ومكاره الأخلاق، والكيوف المتحكِّمَة، والشَّهوات المظلِمة، والآمال المُعْتِمة.

التصوف -يا ولدي- هو ترميم بناء الباطن بعد أن تحطم الإنسان من داخله.

التصوف الحَقُّ: دعْوَةٌ إلى القُوَّة، والعلم، والتوحيد، والعزة، والعدالة، والمساواة، والإحياء، والتكافل، والتكامل، والتجديد، والابتكار، والسِّيَادة، والقيادة؛ لأنَّ الله خَلَقَ المسلم الحقَّ ليُمَارس كُلَّ هذا وما يترتب عليه وما يتفرع عنه، قولًا وعملًا وحالًا ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، ولكُلِّ كلمة من كل ذلك شَرْحٌ عريقٌ عميقٌ، أَصْلُـهُ الكِتَابُ والسُّنَّةُ، وفرعُـهُ الفَيْضُ والمدد.

وهكذا كان مَن فاته التصوف الحق، فقد فاته الخير الذي قد لا يُعَوَّض على الإطلاق، وأيُّ خَيْرٍ يكونُ إذا انقطعت عَلاقَة المرء بالسماء، وما وراء هذا من الأسرار والأنوار؟!

إن عند الصوفية ما عند الناس، وليس عند الناس ما عند الصوفية.

يا ولدي:

قد يعترِض عليك بعضهم بأقوالٍ لم يفهمْها مما جاء عن بعض السلف، والسلف بشر، فإنْ أخطئوا فوِزرهم على أنفسهم، ولا نُسألُ عنهم، ولا نُؤاخَذُ بما اجترحوا، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولكننا نعتقد أنهم أرادوا الخير، وكانت لهم ظروف وصروف وملابسات أجبرتهم على الرمز والإشارة، أو إلى الإلغاز والتَّحْجِيَة، وما دامت أقوالهم تقبل التأويل الإيماني -ولو من وجه واحد من مائة وجه آخر- فإننا نحملها على هذا الوجه الواحد المؤمن، بحسن الظن، وبحكم العلم، وندع ما وراء ذلك لله وحده، فليس أحد يقول أو يكتب شيئًا وهو يعتقد أنه يدخل به النار! وليس من حَقِّ أحد أن يحكم على أحد بالخروج من الملَّة إلا بدليل لا شبهة فيه (على مثل ضوء الشمس).

ونحن نعتقد أنَّ لكلام القوم مفاتيح لمستغلِقات مترامية الأبعاد، فهي لخاصَّة الخاصَّة، فما لم تَفهَمْهُم على مرادهم اليقيني فلْتَدَعْ لله أمرَهم، واستغفرِ الله لنا ولهم.

ونقول: لعلَّهم تأولوا، أو اجتهدوا فأخطئوا. هذا موقفنا مبرَّأً من الوغى والدعوى، على طريق الحب والخير والأدب.

يا ولدي:

غاية كُلِّ مُتَحَرِّكٍ إلى سُكُون، ونِهَايَةُ كُلِّ مُتَكَوِّنٍ ألَّا يكُون، فإذا كانَ ذلِكَ كَذَلِكَ، فَلِمَ التَّهَالُكُ عَلَى الهَالِكِ؟!

يقول أشياخنا رضي الله عنهم:

أُصُولُ صُحْبَتِنَا سَبْعَةٌ:

١ - عُلُوُّ الهِمَّة.

٢ - وحِفْظُ الحُرْمَة.

٣ - وحُسْنُ الخِدْمَة.

٤ - ونُفُوذُ العزْمَة.

٥ - وتَعْظِيمُ النِّعْمَة.

٦ - والنُّصْحُ للأُمَّة.

٧ - ودَفْعُ البَاطِلِ بالحِكْمَة.

وهم يقولون: «إذا أَلِفَ القَلْبُ الإعراضَ عن الله، صَحِبَتْهُ الوقِيعَةُ في أَوْلِيَائِهِ».

وقَلَّمَا رأيْتُ في خصوم التصوف رقَّـةَ الإسلام، أو سَعَة الأُفُق، أو سماحة النُّبُوَّة، أو رفق الولاية، أو حسن الظن، أو أدب المعاملة، فإن ذلك كله إنما ينبع من معين التواضع، الذي هو خميرة مكارم الأخلاق.

وهؤلاء قد حُرِمُوا هذه النعمة، فليس منهم إلا جافُّ الطبع، مُعْتِم القلب، غليظ الرُّوح، ثقيل الظِّل، مُظْلِم، مُعْتِم، كأنما هو سجَّانٌ فظٌّ، أو صاحب «مشنقة»، كَنُود؛ فهو متأزم، معقَّد، حامل غلٍّ على الذين آمنوا، يكاد الكِبر يتفجَّرُ من جَنْبَيْه، تعاليًا على النَّاسِ، وتألُّهًا عليهم، فقد زعَمُوا لأنفسهم العصمة وضمان الجنة، وأقاموا من أشخاصهم أوصياء على دين الله، كأنما الدِّين ما عندهم وحدهم، إلا من رحم الله، وقليلٌ ما هم.

ويعلم الله أننا نأسى لهم، ونعطف عليهم مما ابتلاهم الله به، وندعو الله بظهر الغيب لهم، ولا نزال نعتقد أنَّ فيهم خَيْرًا، نرجو أن يغلب عليهم، وما ذلك على الله بعزيز.

إنَّ النَّاس لا يطلبون الله والجنَّة بما صَحَّ عند غيرهم، وإنَّمَا يطلبون ذلك بما صَحَّ عندهم، فإن أصابوا فأجران، وإن أخطئوا فأجر، وعند الله مزيد، ولكل امرئ ما نوى.

يا ولدي:

هذه لمحة على هامش التصوف، وأرجو أن يكون لي عودةٌ إلى مثل هذا الحديث معك إن كان في العمر مدد، فهو حديث غير ممنون، ذو شئون وشجون!

وإنِّي أقول ما قال السادة: «لو أَنَّ الخاطئين خَرِسُوا ما تَحَدَّثْنَا مِن البَكَم». ويعلم الله لو كان للذنوب ريحٌ ما دنا منَّا أحد.

أقولُ قولي هذا وأَسْتَغْفِرُ الله لي ولكم وللمسلمين.

وهو الموفِّق المستعان.

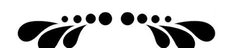
وصَلَّى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ

كتبه المفتقِر إليه تعالى وحده

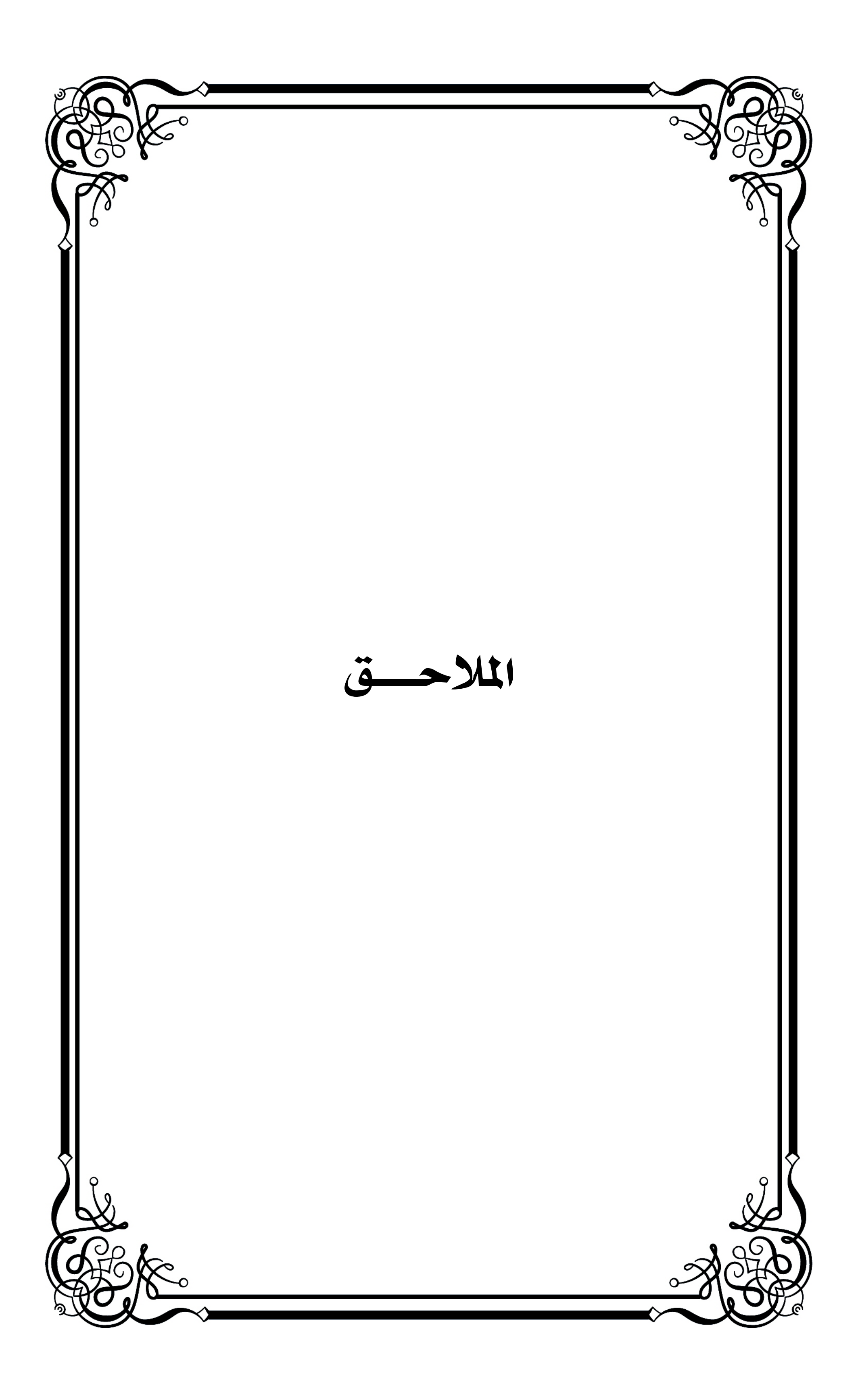
محمد زكي الدين بن إبراهيم الخليل الشاذلي

رائد العشيرة وشيخ الطريقة الشاذلية المحمدية[1]

رحمه الله تعالى رحمة واسعة



(١) فضيلة الشيخ محمد زكي إبراهيم، «هذا هو تصوفنا، وتلك هي دعوتنا؛ ربانية الكتاب والسنة، عدلًا بغير إفراط ولا تفريط»، صورة نص الخطاب الصوفي السلفي الشرعي التاريخي الذي كتبه مولانا الإمام رائد العشيرة وشيخ الطريقة المحمدية الشاذلية إلى أحد خواص مريديه، مطبوعات العشيرة المحمدية، الطبعة السادسة، القاهرة.



الملاحـــق



تخفيف حدة الخلاف المذهبي[1]

قراءةُ الواقعِ السياسيّ والثقافيّ والمجتمعيّ الوطنيّ والعربيّ والعالميّ تُنبئ عن حقائقَ منها: مدرسة أهل الحديثة، وتمثلها السلفية المعاصرة أو الجديدة (الإصلاحية) وسبق المصريين في تأسيسها وتكريسها، وحركة الإصلاح الصوفي المعاصرة السلفية، وعلماء الأزهر، وأعضاء نقابة الأشراف روادها.

دعوة للتقريب المشروع وليس للتذويب الممنوع[2]، كلُّ مذهب يُصلح تابعيه بدُعاته وفي عمق مناهجه وبرامجه العلميّة والدعويّة والإعلاميّة يبثُّ الاعتدالَ والتوسطَ والرِّفقَ والتيسيرَ والاعتصامَ بحبل الله جميعًا بما يناسبُه من أصولٍ وفروع، وإجمالٍ وتفصيل، لتلك المبادئ الإسلامية العامّة المشتركة الجامعة المتّفق على الحدود الدنيا لمعانيها ومراميها، والمعبرة عن روحِ وجوهَرِ الرسالة العالمية الخالدة للإسلام.

ثم تقوم حركةٌ علميّة جادّةٌ داخلَ كلِّ مذهبٍ أو طائفةٍ ليستدركَ الراسخونَ المشهودُ لهم بالإمامَةِ في كلٍّ منها على علمائِهِ ويراقب متبوعيه بخيار مَن فيه من علماء وحكماء[3].

التداخلُ المحمودُ بين هذه المذاهب مشهودٌ من قديم، وعلينا إبرازُهُ وإحياؤُه، ولهذا التداخل أسس وملامح بما يشبه النظريةَ العامّةَ في الجانب العلميّ، وما يشبه

(١) من واجب الوقت -كما تعلمنا من شيوخنا- نشر المضمون الذي تناولته هذه الكلمة المختصرة بكلّ وسيلةٍ ممكنةٍ على أوسع نطاق، وخاصّةً بين الشباب المسلم المخلص، بما في ذلك وسائل النشر الإلكتروني.

(٢) مع التنبيه والتحذير ثم المنع التامِّ من استخدام هذه الدعوة العلميّة الدعويّة السلوكيّة المباركة النابعة من أصول الإسلام أن تصبح مطيّةً سياسيةً لاختراق المجتمعات بالمذاهب غير المنتشرة بها.

(٣) نذكر هنا بأنّ حركةَ الإصلاح بدأت في المذهب الزيدي والجعفري أيضًا من داخله، والحمد لله رب العالمين.

ميثاقَ الشرف في الجانب التربويّ والدعويّ العمليّ، ومن تلك الأسس عدمُ احتكارِ شعاراتٍ دينيةً تمثلُ السّمَّةَ العامّة لكلّ مذهب، وهي بالطبع موجودة في المذاهب الأخرى بالمدلول نفسِهِ أو بجزء منه مشترك من معناه يمثل جامعًا لا ينفي أحدٌ منا الآخرَ منه[1].

إذن فتخفيفُ حدةِ الخلافِ المذهبيِّ والتقريبُ المشروع بين المذاهب أضحى ضرورةً شرعيّةً وسياسةً وكياسةً دعويةً، كيف ذلك؟ المنهجُ النسبيُّ في الحكم على المذاهب وعلى الأشخاص واجبٌ شرعيٌّ، والأمانةُ العلميّةُ تَقتضي تكريسَه دائمًا.

***

فقه وآليات التعامل مع الجوانب السلبية والخلافات التي تنشَبُ بين أتباع المذاهب

إمّا لحوادثَ آنيّةٍ أو إحياء الخبثاءِ لفتنِ مسائلَ خلافيّةٍ قديمةٍ لا يوجد مقتضًى شرعيٌّ لإحيائها، وباتت ذريعةً خبيثةً لتأجيجِ الصراعِ والتنازع والفشل بين المسلمين ممّا يمنع اجتماعهم واعتصامهم بحبل الله جميعًا، أو -في أقل تقدير- تبدد الجهودَ والطاقاتِ البناءَةَ لنبْذِ الخلافاتِ الهدّامَةِ والعداواتِ الموهومَةِ بين المسلمين.

إن تناول المسائل ذات الصلة بالدين في كل الدوائر سالفة الذكر يحتاجُ إلى مراجعةٍ علميّةٍ ثم تربويّةٍ وتعليميّةٍ ودعويّةٍ وإعلاميّةٍ لتوضيح جوانب الموضوع ثم تصحيح المسارات والقناعات المغلوطة والمشوهَةِ المنتشرة.

***

مشاهدات من الواقع وبداية التصحيح والشروع في الإصلاح

تجدُ ذلك عند جمهرَةٍ من المحققين الجدُد من علماءَ وباحثين وطلبةِ علمٍ ينتمون للمذهبِ الوَهّابيّ السلفيّ أو الظاهريّ الحرفيّ على نهج أهل الحديث الأماثل أكرمَهُمُ

(١) وأحيانًا تختلف المدلولاتُ لسمّةٍ إسلاميةٍ عامّةٍ بين المذاهب بما يشكلُ منعطفًا للتمايز بينها، فيجب إيضاحه وبيان نتائجه.

الله تعالى بما قدّموا من علمٍ نافع وبما نافحوا وذادُوا عن السُّنّة المطهرة، فتجدُهم في تحقيقاتهم وشروحهم لأمهاتِ كتب أئمة أهل الحديث يستدركون عليهم أحيانًا كثيرةً ما يتبَدّى من آراء وعباراتٍ تَميلُ أو قد تُفهَم على أنها أخذٌ بالطريقة والنَّهْج الأشعريّ في هذه المسألة أو تلك، وحسبي هنا الإشارةُ لمن أرادَ الاستنارة إلى الشروح والتحقيقاتِ لسلفيين معاصرين على مقدمة ابن الصلاح وهو مَن هو في أهل العلم، وكذا استدراكاتهم تلك على الأئمة ابن جرير والغزالي والقرطبي والحافظ ابن حجر، في كتيباتٍ ورسائلَ قليلَةِ البضاعة العلميّةِ وغير معمّقةٍ، وأكثر ما يُحزن دائمًا هو عناوينُها: «أخطاء... في العقيدة»[1]، وقد آنَ أوانُ وأدِ تلك الفتنة بأدبِ المتحققين وإخلاص المدققين من علماء السلفية المعاصرة الأفاضل الأمناء في مدرستَيْها الوهّابية والحرفيّة الظاهرية.

وخيرُ مثالٍ على ما نقولُ به من عدَمِ صحّةِ الزعمِ بوجودِ خلافٍ كبيرٍ بين معتقداتِ الأشاعرَةِ وأهلِ الحديث خاصّةً الوهابيّة، أقول: خيرُ دليلٍ على دحضِ هذا الزعم ما كتبَهُ الإمامُ العمرانيُّ السلفيّ[2] في كتابه «الانتصار»[3] وما جاء في مُقدّمةِ محققه[4] -وهو من علماء الوهابية الأفاضل- ففيه الغُنيةُ لتوضيح وتبيين ما نودّ تأكيده علميًّا ودعويًّا بين أهل السنة والجماعة من صوفيّة ووهابيّة وغيرهم.

---

(١) وهذه الكتب منتشرة معروفة ولذا لم أشر لكتابٍ أو كاتب معين؛ تأسيًا بالحبيب ﷺ.

(٢) هو يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني، يكنى أبا الحسين وأبا الخير، شيخ الشافعيين باليمن، صاحب كتاب البيان في مذهب الإمام الشافعي.

(٣) كتاب: «الانتصار في الردّ على المعتزلة القدرية الأشرار» تحقيق د. سعود بن عبد العزيز الخلف، وأصل الكتاب رسالة علمية تقدم بها المحقق لنيل درجة العالمية العالية (الدكتوراه) من قسم العقيدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٤) أشار المحقق في أول الكتاب إلى المسائل العَقَدية التي تابع فيها المصنِّفُ الأشاعرةَ؛ ككلامه في الحكمة ونفي الظلم عن الله سبحانه، وأن أفعاله سبحانه ليست لِعلّةٍ تقتضيها، وأن الحسنَ والقبحَ لا يعرفان إلا بالشرع، وتأويله الساق بالشدة،... .

وذلك أنك تجد في الكتاب المشار إليه المحققَ الأمينَ الفاضلَ بعدما قرظ الإمام العمراني باعتباره من علماء المنهج السلفي على مذهب أهل الحديث في مسائل أصول الدين أو علم الكلام[1] ذكر المسائل التي اتبع فيها العمرانيُّ الإمامَ الأشعريَّ ومدرستَه فيها، وردد فيها كلامهم وأيّده، وكفى بذلك دليلًا دامغًا على أن المسائل خلافيّة لا علاقة لها بالعقيدة بالمعنى الضيّق المستعمل بين الناس.

والحقُّ الذي به أدينُ أن المرءَ يقولُ ويعتقد في كلّ تلك المسائل التي سُمّيت علمَ الكلام أو مسائل أصولِ الدين ما أحكمَ تلخيصَهُ الإمامُ مالكٌ رحمه الله تعالى وعلماءُ طبقته ومَن يعلوهم: الإيمانُ بها واجبٌ، والسؤالُ عنها بدعةٌ، والكيف إجمالًا وتفصيلًا يَحكُمُه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] سبحانه وتعالى يثبت ما شاء لنفسه سبحانه فنؤمنُ والحمدُ لله رب العالمين، وهذا هو المعتقَدُ الثابت الحاكم لكلِّ هذه المسائل الذي لم يُنقض إجماعًا من سلفنا الصالح، على وجوب التأويل أحيانًا لقرائنَ وشواهدَ تظاهرتْ وقامتْ بدليلٍ شرعيٍّ استوجب التأويل، ولم يدخل عندهم

(١) وأصول الدين أو علم الكلام هي التسمية الحقّة لهذه المسائل، أما التعبير الآن عن البحث في تلك المسائل بمصطلح «العقيدة» ففيه خطأ وخطورة كبيرين كما سنبين؛ فمصطلح العقيدة -ككل المصطلحات- قد تغير معناه ومدلوله عبر العصور، بل في العصر الواحد بين علمائه، وحسّاسّية المصطلح في مدلوله المعاصر -الناتج من تراكمات كثيرة جدًّا لا تخفى على المتخصصين- تجعل من اللزوم العلمي والواقعي ضرورةَ هجر استعمال مصطلح «العقيدة» عند الخوض في مسائلَ موروثةٍ بحثها السلف والخلف من أهل العلم المعتمدين الثقات وأسموها بعلم الكلام أو أصول الدين؛ وذلك منهم -رحمهم الله تعالى- نأيًا بفكر الخائضين في تلك المسائل من العلماء وطلبة العلم ومَن دونهم عن تصعيد الخلاف في تلك الأصول وفروعها المنبثقة منها، وكذلك لدفع كلّ شبهةٍ قد تثور من تسمية تلك المسائل بمسائل العقيدة؛ من التطاول والاجتراء على المخالفين والمختلفين بما يمسُّ أصل إسلامهم أو صحّة معتقدهم الإيماني الذي نقيضه الكفر، ومِن ثَمَّ فتحُ الباب لغير أهل العلم المعتمدين من التذرع بعناوين مثل: أخطاء في العقيدة، أو الاعتقاد الخاطئ المخالف لعقيدة السلف، فيكون مدعاةً خطيرةً للتساهل في تكفير العلماء، فما بالك بمن دونهم؟ وهذا الذي ذكرْتُ ليس ضَرْبًا من الهواجس والمخاوف التي ندرؤها سدًّا للذريعة، بل الفتنة حاصلة والمخاوف واقعة بالفعل، ومن ثَمّ أصبح تصحيحُ الموقف وتصويب المصطلح المستخدم واجبًا شرعيًّا، ويَسهل استدعاء الدليل على ذلك الوجوب، فتأملْ!

في التعطيل المحظور، كما في مسألة المعيّة وغيرها، فالخلاف إذن في مدى توافرِ مثل تلك القرائن والشواهد التي تُوجب أو تُجيز التأويل، وليس أحدٌ من الأشاعرة -وهم الجمهور- يخالف أهل الحديث في حظر التأويل المفضي إلى التعطيل، وجديرٌ بالذكر هنا أن كثيرًا من أقوال الإمام أبي الحسن الأشعريّ ومَن سار على نهجه في تلك المسائل ولا سيّما في الأسماء والصفات الحسنى قد جاءت مطابقةً أحيانًا كثيرة لمذهب أهل الحديث في نفي التعطيل وهم ينافحون ويردون غُلَواء بعض المعتزلة.

وآية ذلك ما تجدُهُ عند الإمام الأشعري في كتابه الإبانة وعند غيره من العلماء والحُفّاظ المتبعين لخُطته العلمية وغيرهم، وهو ما دعا الشيخَ ابنَ تيميّة للثناء على أبي الحسن الأشعري وتأييده في مسائل عديدة، وذكر له الفضل في الذَّوْد عن السنة في مناظراته لغُلاةِ الفِرَق، وكُنّا قد أشرنا لمواضعَ من ذلك، وحصل مثل هذا من الحافظيْنِ الجليليْنِ الذهبيّ وابن كثيرٍ المتبعيْنِ لنهج ابن تيمية في تلك المسائل، إذن فما نخلص إليه أن تكريس وتعميق الفُرْقة العلمية بين أهل السنة بذريعتَي التعطيل التي يُرمَى بها الأشاعرة، والتجسيمِ والتشبيهِ التي يُرمى بها أهل الحديث، بهتانٌ وجهلٌ لا أساسَ له، وقد تسبّبَ ذلك في فتنةٍ عظيمةٍ استغلّها أتباع المذاهب المغالية ليتسللوا داخلَ السَّوَاد الأعظم من المسلمين وهم أهل السنة والجماعة؛ لينشروا مذاهبهم الباطلة. كما ارتاح لهذا الشقاق الموهوم -ولا أقول: الخلاف العلميّ المحدود في حَدِّه المقبول بين أهل العلم إذا اختلفوا- أقول: ارتاح له تياراتٌ سياسية وأنظمةُ حكمٍ غربيّةٌ وشرقيّةٌ وجدت في تعميقه وإذكائه تفريقًا بين المؤمنين بصورة عامة وبين العرب بشكل خاصّ، مع الأخذ في الاعتبار أن عموم أهل السنة أشاعرة، وجدوها فرصةً لشقّ العصا بين أهل السنة -خاصة العرب كما قلنا- وذريعةً لتبديد الجهود العلمية والدعوية والمالية بينهم، وزرع العداوات والشقاق، بل وبذور التحريض المتبادل على التكفير والتفسيق والتبديع لكل مخالف. وبدءوا ذلك بخبث ودهاء حاولتُ تتبعه وغيري من الباحثين فوجدناه بدأ حين استُبدلت كلمات مثل

مسائل علم الكلام أو مسائل في أصول الدين كما كان يُطلق عليها العلماء المتقدمين، واستُعملت مكانهما زورًا على العلم وبهتانًا على الأئمة الأعلام: مسائل في العقيدة، وما أدراك ما يفضى إليه مصطلح العقيدة في زماننا في أذهان وعقول العامة والخاصة! إنه الحديث عن الحدِّ الفاصل بين الإيمان والكفر، والعياذ بالله تعالى من الفتن كلها. وثاني مداخل الخبث التي أحدثت بها تلك الفتنة الموهومة بين أهل الحديث والأشاعرة وهم أهل السنة على المنهج السلفي المتسع للجميع كما فصّلنا من قبل؛ هو أنهم رفعوا مسائل الخلاف الفرعية تلك وغيرها، بل وفى بعض فروع الفقه مثل الصلاة في المقبرة وغيرها، واعتبروها من من المسائل المتعلقة بأصول العقيدة ومقتضيات الإيمان والتوحيد، وذلك بغير دليل شرعي، وأنَّى لهم أن يأتوا بدليل لم يسبقهم إليه أحدٌ من أئمة القرون الأولى الخيرة! كيف وهم الذين من أوليات متمسكاتهم أن يعضّوا على الأمر الأول بالنواجذ ولا يخرجوا عنه في المسائل التي طُرحت على علماء السلف وأدلوا فيها برأي أو آراء! وكل ما نحن بصدده من مسائل قديم ليس فيه مستحدث. ومن هنا لزِم التأكيدُ أن ما نحن فيه من إعادة المفاهيم الشرعية الصحيحة في مسائل علم أصول الدين هو من واجب الوقت الشرعيّ؛ وأدًا لتلك الفتنة وإنهاءً لهذه المحنة. والنظر بأمانة العالم وفهم الفقيه وإخلاص الداعية ييسر رؤية سعة شرعية كبيرة للأشاعرة فيما ذهبوا إليه من تأويلات الصفات والأسماء الحسنى الجليلة، وذلك بعد اعتقادهم التامّ في خاصّة أنفسهم وفى فتاواهم على ما يمكن أن نسميَهُ الآن أدبيات وأسس المعتقد السلفي الذي ذكرنا مثاله العام في قول الإمام مالك، بيد أن من الشواهد والقرائن التي قامت عليها الأدلة الشرعية حال المخاطبين وسعة المجتمع العلمي والثقافي العام للتكليف الشرعي المراد دعوتهم للالتزام به. وتفصيل ما تقدم أن الداخلين الجدد في الإسلام بل عموم أهله من الشباب الذي تلقى تعليمه المعاصر، كل أولئك إنما لفتهم إلى الإسلام وشرح صدورهم إليه وثبتهم عليه ما لم يجدوه صراحًا في غيره من الملل والنحل؛ ألا وهو

عدم تصادم النقل فيه أبدًا مع العقل، بالتفصيل والتقييد المعروف عند علماء السلف قاطبةً في تبيين النقل الصحيح الصريح وثبوت المنطق العقلي الراشد وغير الفاسد، كما هو مفصل عندهم، ولما كان الدليل الشرعي قد قام على وجوب «**أن حدثوا الناس بما يفهمون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله!**» و«**لا تعسروا ولا تنفروا**»، وكان مِمّا يعسر وينفّر بداهة تلك الأنفس الداخلة في دين الله أفواجًا وبتكوينها العلمي والثقافي والحضاري الحاصل والواقع والمشاهد بلا ريب تأنف أن يقال لها: توقف عن السؤال، أو: الله سبحانه أعلم بمراده، فحسب، بل لا بأس بعرض المنهجين كدرجتين من درجات الأدب واليقين على السائلين وطالبي العلم وأثناء ممارسة الدعوة لدين الله تعالى، فلا تعارض أن تقول بأنك شخصيًّا كعالم أو إمام أو داعية أو طالب علم شرعي ترى من الأدب وحسن الاعتقاد أن تتوقف في تلك المسائل كما توقف الأولون، وأن لا ثمرة علمية أو عملية لك شخصيًّا تدفعك للتأويل، فإن عاجَلك سائلٌ منهم بل التأويل بضوابطه الأصولية واللغوية على نهج الأشعري يزيدني فهمًا لكتاب الله تعالى وتنزيهًا لخاطري وفكري الضعيفين عن التمادي المفضي للتشبيه أو التجسيم معاذَ الله تعالى، كما أن في التأويل سعة كبيرة للداخلين والراغبين في دراسة الإسلام من أهل الكتاب خاصّة وغيرهم من هندوس وسيخ وغيرهم مِمّن تعدادهم أكثر من المسلمين، وهم ما استنكفوا في معتقداتهم ولا تعطشوا للإسلام إلا لكون معتقداتهم كلُّها لا تنزه الله سبحانه عن مشابهة خلقه في الصفات، بل يصِلُ التجسيمُ في تلك الديانـاتِ ذروتَهُ حين ينتهي بهم إلى الحلول والاتحاد، فسبحانَ مَن ليس كمثله شيءٌ مِن خَلْقه، وسبحان مَن لا يسعُهُ شيء من خلقه، أما هذا التنزيه التامّ للذات الإلهية عن المشابهات بالمخلوقات الذي يجذب الباحثين عن الدين الحق للإسلام ويأخذ بأيديهم من الحيرة ويشرح صدورهم إلى التوحيد الحقّ له سبحانه فقد لا يتأتى لهؤلاء الذين رزحوا تحت وطأة التشبيه والتجسيم والاتحاد والحلول في سالف دياناتهم قبل الدخول أو الشروع في الدخول

في دين الإسلام، أقول: قد لا يتأتى لهم الفصل بين ما رزحوا تحته من ضلال وبين التوحيد الصرف النقي من أدران كل ما ذكرنا إلا بالتأويل على النهج الأشعري المنضبط المستنير، فهو الذي يقطع ما بين عقولهم وقلوبهم وبين أدران الماضي، وترتاح نفوسهم للتأويل لكونه يطهر لهم إيمانهم من تلك الأدران، ويسلم لهم توحيدهم لتضحى معرفتهم بالله عز وجل معرفة نقية منبتّة الصلة عما اعتقدوه ورزحوا تحت وطأته من تصورات خاطئة عن الإله يكاد يكون فيها إنسانًا، معاذ الله سبحانه، فيا إخوتي الأفاضل من القائمين بحقٍّ على خير سبيل في التمسك بالمتابعة للأمر الأول الذي به صلحت الأمة، ألا ترون بعد عرضي هذا المسوَّغَ الشرعي لضرورة الدمج والتكامل بين النهجين الأشعري والتيمي في مسألة الأسماء والصفات خاصة وسائر مسائل أصول الدين أو علم الكلام؟ ألا ترى أخي من أتباع الطريقين والنهجين -ولا أقول: المنهجين؛ فقد أثبتنا وحدة المنهج- أنه قد آن الأوان لتخفيف الحدّة ولو بقي الاختلاف كاختلاف الفقهاء في الفروع وعلماء الرجال في التوثيق والتضعيف وعلماء الأصول في التقييد والتفريع، لكن مع رفع الملام عن الأئمة الأعلام كما فصّل ابن تيمية رحمه الله تعالى، وآن أوان الإبانة ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] اللهم آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وهذا الذي ندعو إلى إحيائه ونشره هو بناء على مذهب الإمام أبي حامد الغزالي في المسألة محل البحث، وقد لخصه بحكمة السيد رشيد رضا في المنار، وكأنه يقرب به بين الأشاعرة وأهل الحديث رغم ميله المعروف لمذهب الوهابية، كما عرض طرفًا من آراء شيخه الإمام محمد عبده في ذات يفضي إلى ذات ما ندعو إلى تبيانه وإحيائه ونشره بين علماء أهل السنة والجماعة وعامتهم، مما يفضي إلى تخفيف حدة الخلاف المذهبي بينهم تحت مظلة المنهج السلفي الجامع لمذاهبهم.

ذلك المنهج البسيط الرحب الذي ينضوي تحته كل من ارتضى الالتزام في استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة وعمل الصحابة بضوابط الأصول

التي استقرت في العهد الأول.

وكذا لا يفوتنى فيما نحن بصدده من إحياءٍ وإرساءٍ لمنهج التقريب المحمود والتخفيف المفقود بين أهل مِلّة التوحيد والإسلام المجيد أن أسرد ما نقله الحافظ الحميدي في خاتمة كتابه «الجمع بين الصحيحين» مما جاء في أسباب الاختلاف العلمي توسيعًا للمدارك وتخفيفًا لحدة الخلاف بين طلبة العلم يقول الحافظ الحميدى رحمه الله تعالى في الجمع بين الصحيحين:

وقدِ استشرفَ بعضُ الطالبينَ إلى معرفَةِ الأسبابِ الموجبَةِ للاختلافِ بينَ الأئمّةِ الماضينَ رضي الله عنهم أجمعين، مع إجماعِهم على الأصلِ المتّفقِ عليه المستَبِينِ، حتى احْتُيج إلى تَكلّفِ التصحيحِ في طلب الصحيح، وقرُبت على هذا الطالب معرفةُ العذرِ في اختلاف المتأخرين لبُعدِهم عن المشاهدة، وإنما تعذَّرَ عليه معرفَةُ الوجْهِ في اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم مع مشاهدتِهم نزولَ التنزيل، وأحكامَ الرسولِ ﷺ، وحِرصِهم على الحضورِ لديه، والكونِ بين يديه، والأخذِ عنه، والاقتباسِ منه، وهذا الذي وقع لهذا الطالب الباحث قد وقع لبعضِ مَن قبله الخوضُ فيه، والبحثُ عنه.

وخرج في هذا المعنى بعض الأئمة من علماء الأمصار فصْلًا رأينا إثباته هاهنا لإزالة هذه الشبهة عن هذا الطالب الباحث وعن غيره ممّن يَخْفى ذلك عنه، ويتطلّعُ إلى معرفة الوجه فيه. وبهذا الفصل يتصور للكل صورة وقوع ذلك منهم، وكيفية اتفاقه لهم، حتى كأنه شاهده معهم. وهذا أول الفصل المخرج في ذلك، أوردناه بلفظ مُصنِّفِه رحمةُ الله عليه:

قال لنا الفقيه الحافظ أبو محمدٍ عليُّ بن أحمدَ بنِ سعيدٍ اليزيديّ الفارسيّ[1] رضي الله عنه في بيان أصل الاختلاف الشرعي وأسبابه:

(١) هو الإمام ابن حزم، وهذا النص من كتابه الإحكام في أصول الأحكام (٢ / ١٢٤ وما بعدها).

تطلعتِ النفسُ بعد تيقّنِها أنّ الأصل المتفق عليه المرجوع إليه أصلٌ واحد لا يختلف، وهو ما جاء عن صاحب الشرع ﷺ، إما في القرآن وإما من فعله أو قوله الذي لا ينطق عن الهوى فيه، لما رأت وشاهدت من اختلاف علماء الأمة فيما سبيله واحدة، وأصله غير مختلف، فبحثت عن السبب الموجِب للاختلاف، ولتركِ مَن ترَكَ كثيرًا مما صحَّ من السنة، فوَضَحَ لها بعد التفتيش والبحث أنَّ كلّ واحدٍ من العلماء بشر يَنْسَى كما يَنسى البشر، وقد يحفظ الرجل الحديث ولا يحضره ذكرُهُ حتى يُفتيَ بخلافه، وقد يعرض هذا في آي القرآن، ألا ترى أن عمر رضي الله عنه أمَرَ على المنبر ألا يزادَ في مهور النساء على عددٍ ذكرَهُ؛ مَيْلا إلى أنّ النبيّ ﷺ لم يزِدْ على ذلك العدد في مهور نسائه، حتى ذَكّرتْهُ امرأةٌ من جانب المسجد بقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠] فترك قوله وقال: كلُّ أحدٍ أعلم منك حتى النساء. وفي رواية أخرى: امرأةٌ أصابتْ ورجلٌ أخطأ. علْمًا منه رضي الله عنه بأنّ النبيّ ﷺ وإن كان لم يزد في مهور النساء على عدد ما، فإنه لم يمنع ما سواه، والآيةُ أعمّ.

وكذلك أَمَرَ رضي الله عنه برجم امرأةٍ ولدتْ لستّةِ أشهُرٍ فذَكَّره عليٌّ رضي الله عنه قولَ الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فرجع عن الأمر برجْمِها.

وهمَّ أن يسطوَ بعُيَينةَ بن حصنٍ إذ جَفَا عليه حتي ذَكَّره الحرُّ بن قيسٍ بقول الله عز وجل: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فأمْسَكَ عمر.

وقال رضي الله عنه يوم مات رسول الله ﷺ: ما مات رسولُ الله ﷺ ولا يموتُ حتى يكونَ آخرَنا، حتى قُرِئَت عليه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] فرجع عن ذلك. وقد كان علِمَ الآية، ولكنه نسيَهَا لعظيم الخطب الوارد عليه، فهذا وجهٌ عمدته الخلاف للآية أو للسنة بنسيانٍ لا بقصد. وقد يذكر العالمُ الآية أو السنّة لكن يتأولُ فيها تأويلًا من خصوصٍ أو نسخٍ أو معنًى ما، وإن كان ذلك يحتاج إلى دليل.

ولا شكَّ أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا بالمدينة حوله عَلَيْهِ السَّلَامُ مجتمعين، وكانوا ذوي معايشَ يطلبونها، وفي ضَنْكٍ من القوت؛ فمن محترَفٍ في الأسواق، ومن قائمٍ على نخله، ويحضرُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلّ وقتٍ منهم طائفةٌ إذا وجدوا أدنى فراغٍ مما هم بسبيله. وقد نصَّ على ذلك أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إن إخواني من المهاجرين كان يَشغلُهم الصّفْقُ بالأسواق، وإنّ إخواني من الأنصار كان يشغلُهم القيام على نخلهم، وكنتُ أمرأً مسكينًا أصحبُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ملْءِ بطني. وقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألهاني الصَّفْقُ بالأسواق في حديث استئذانِ أبي موسى.

فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسأل عن المسألة، ويَحكم بالحكم، ويأمر بالشيء، ويفعل الشيء، فيحفظه مَن حضَرَه، ويَغيب عَمّن غاب عنه.

فلما مات عَلَيْهِ السَّلَامُ ووَلِيَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا جاءتِ القضية ليس عنده فيها نص سأل مَن بحضرته من الصحابة فيها، فإن وجد عندهم نصًّا رجع إليه، وإلا اجتهد في الحكم فيها. ووجهُ اجتهادِهِ واجتهادِ غيرِهِ منهم رضوان الله عليهم رجوعٌ إلى نصٍّ عامٍّ، أو إلى أصلِ إباحةٍ مُتقدّمةٍ، أو إلى نوع من هذا يرجع إلى أصل. ولا يجوز أن يظنَّ أحدٌ أن اجتهادَ أحدٍ منهم هو أن يَشرع شريعةً باجتهادٍ ما، أو يخترعَ حُكمًا لا أصلَ له، حاشا لهم من ذلك!

فلمّا وَلِيَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فُتِحتِ الأمصار، وتفرَّقَ الصحابةُ في الأقطار، فكانتِ الحكومةُ تنزل بمكة أو بغيرها من البلاد، فإن كان عند الصحابة الحاضرين لها نصٌّ حكم به، وإلا اجتهدوا في ذلك. وقد يكونُ في تلك القضية نصٌّ موجود عن صاحبٍ آخرَ في بلدٍ آخرَ، وقد حضَرَ المدنيُّ ما لم يحضرِ المصريُّ، وحضرَ المصريُّ ما لم يحضرِ الشاميّ، وحضر الشاميُّ ما لم يحضرِ البصريُّ، وحضرَ البصريُّ ما لم يحضرِ الكوفيّ، وحضر الكوفيُّ ما لم يحضرِ المدنيّ. كلُّ هذا موجود في الآثار، وتقتضيه الحالةُ التي ذكرنا من مغيب بعضهم عن مجلسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض الأوقات وحضور

غيره، ثم مغيب الذي حضر وحضور الذي غاب، فيدري كل واحد منهم ما حضره، ويفوته ما غاب عنه. هذا أمر مشاهد.

وقد كان عِلْمُ التيممِ عند عمارٍ وغيرِهِ وغاب عن عُمرَ وابنِ مسعود حتى قالا: لا يتيممُ الجنُبُ ولو لم يجدِ الماء شهرين. وكان حكم المسح على الخفين عند عليٍّ وحذيفَةَ ولم تعلمْهُ عائشةُ ولا ابنُ عمرَ ولا أبو هريرةَ، على أنّهم مَدنيّون. وكان توريثُ بنتِ الابن مع البنت عند ابنِ مسعودٍ وغاب عن أبي موسى. وكان حكمُ الاستئذان عند أبي موسى وأبي سعيدٍ وأُبَيّ، وغاب عن عمرَ. وكان حكمُ الإذْنِ للحائض في أن تنفرَ قبل أن تطوفَ عند ابن عبّاسٍ وأمّ سليمٍ ولم يعلمْهُ عمرُ وزيدُ بن ثابتٍ. وكان حكمُ تحريم المتعة والحمر الأهلية عند عليٍّ وغيره ولم يعلمْهُ ابن عباس. وكان حكم الصرف عند عمرَ وأبي سعيدٍ وغيرِهما، وغاب ذلك عن طلحةَ وابنِ عباسٍ وابنِ عمر. وكذلك حكم إجلاءِ أهل الذمّةِ من بلاد العرب كان عند ابنِ عبّاسٍ وعمَرَ، فنسيَهُ عمَرُ سنين، فتركهم حتى ذُكِّرَ بذلك فذَكَرَه، فأجلاهم. ومثل هذا كثير.

فمضى الصحابة على هذا ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم، وكلُّ طبقةٍ من التابعين في البلاد التي ذكرنا فإنّما تفقهوا مع مَن كان عندهم من الصحابة، فكانوا لا يتعدون فتاويهم، لا تقليدًا لهم، ولكن لأنّهم أخذوا ورَوَوْا عنهمُ اليسيرَ مما بلَغَهُم عن غير مَن كان في بلادهم من الصحابة رضي الله عنهم، كاتِّبَاع أهلِ المدينة في الأكثر فتاوَى ابنِ عمر، واتّباعِ أهلِ مكةَ في الأكثر فتاوى ابنِ عبّاسٍ، واتِّباع أهل الكوفة في الأكثر فتاوى ابنِ مسعود.

ثم أتى مِن بعدِ التابعين فقهاءُ الأمصار كأبي حنيفَةَ وسفيانَ وابنِ أبي ليلى بالكوفة، وابن جُرَيْج بمكةَ، ومالكٌ وابنِ الماجِشُونِ بالمدينة، وعثمانُ الْبَتّيّ وسوارُ بالبصرة والأَوْزَاعيّ بالشام، والليثِ بمصرَ، فجَرَوْا على تلك الطريقة مِن أخْذِ كلِّ واحدٍ منهم عن التابعين من أهل بلدِهِ وتابعيهم عن الصحابة رضوان الله عليهم فيما

كان عندهم وفي اجتهادهم فيما ليس عندهم وهو موجود عند غيرهم، ولا يُكلّف الله نفسًا إلا وسعها، وكلّ مَن ذكرنا مأجورٌ على ما أصاب فيه أجريْن، ومأجورٌ فيما خفِيَ عنه ولم يبلغْهُ أجرًا واحدًا، قال الله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقد يبلغُ الرجلَ ممّن ذكرنا نصّانِ ظاهرُهما التعارض، فيميلُ إلى أحدهما بضَرْبٍ من الترجيحات، ويميلُ غيرُهُ إلى النصِّ الذي ترك الآخرُ بضربٍ من الترجيحات أيضًا، كما رُوِيَ عن عثمانَ في الجمع بين الأختين: أحلّتْهُما آيةٌ وحرّمتْهُما آية.

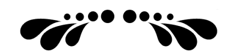
وكما مال ابنُ عمر إلى تحريمِ نساءِ أهل الكتاب جملةً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾ [البقرة: ٢٢١] وقال: لا أعلمُ شِركًا أكثرَ منْ قوْلِ المرأةِ: إنَّ عيسى ربُّها، وغلب ذلك على الإباحة المنصوصة في الآيةِ الأخرى. ومثلُ هذا كثير.

فعلى هذه الوجوه ترَكَ بعضُ العلماء ما تركوا من الحديث ومن الآيات، وعلى هذه الوجوه خالَفَهم نُظراؤُهُم، فأخذ هؤلاءِ ما ترك أولئك، وأخذ أولئك ما ترك هؤلاء، لا قصدًا إلى خلافِ النصوصِ، ولا تركًا لطاعتِها، ولكنْ لأحَدِ الأعذارِ التي ذكرْنَاها؛ إمّا من نسيان وإما أنها لم تبلغْهُم، وإما لتأويلٍ ما، وإما لأخذٍ بخبرٍ ضعيفٍ لم يعلمِ الآخذُ به ضعفَ رُواتِهِ وعلِمَهُ غيرُه؛ فأخذ بخبرٍ آخرَ أصحَّ منه، أو بظاهرِ آيةٍ. وقد يتنبَهُ بعضُهُم في النصوص الواردة إلى معنًى ويلوحُ له منه حكمٌ بدليل ما ويغيب عن غيره.

ثم كثـرُتِ الرِّحَـل إلى الآفـاق، وتداخل الناس، وانتدب أقوامٌ لجمعِ حديث النبيّ ﷺ وضمِّهِ وتقييده، ووصل من البلاد البعيدة إلى من لم يكن عندَهُ، وقامتِ الحجةُ على مَن بلغَهُ شيءٌ منه، وجمعتِ الأحاديث المبينة لصحّةِ أحدِ التأويلات المتأوّلةِ في الحديث. وعُرف الصحيح من السقيم، وزُيِّفَ الاجتهادُ المؤدي إلى خلافِ كلامِ رسولِ الله ﷺ، وإلى ترْكِ عملِهِ، وسقطَ العذرُ عمَّن خالف ما بلغَهُ من السنن ببلوغِها إليه، وقيامِ الحجةِ بها عليه، فلم يبقَ إلا العنادُ والتقليد.

وعلى هذه الطريقة كان الصحابة رضي الله عنهم وكثيرٌ من التابعين يَرْحلون في طلب الحديث الأيامَ الكثيرةَ طلبًا للسنن، والتزامًا لها، وقد رحَلَ أبو أيوبَ من المدينة إلى مصرَ في حديثٍ واحدٍ إلى عقبةَ بنِ عامر، ورحل علقمةُ والأسودُ إلى عائشةَ وعمرَ، ورحل علقمةُ إلى أبي الدرداءِ بالشام، وكتب معاويةُ إلى المغيرةِ: اكتب إليّ بما سمعتَهُ من رسول الله ﷺ، ومثلُ هذا كثير.

قال أبو محمد: فقد بيّنا -والحمدُ لله- وجْهَ تركِ بعضِ الحديث، والسبب الموجب للاختلاف، وشفَيْنا النفسَ ممّا اعترضَ فيها، ورفعْنا الإشكالَ عنها، والله عزّ وجلّ المعينُ على البحث، والهادي والمرشد بِمَنِّهِ.





الولاء للوطن

إن الفطرة تدعو إلى الولاء للوطن، وقد كَثُر المتكلمون في هذا الأمر من العلماء[1]، ولكن خرج علينا خارجون ادّعوا أنّ حب الأوطان ربما كان مبعثه الهوى، وأنهم يريدون إعادةَ الخلافة، وإلغاءَ الحدود السياسيّة بين الأوطان! وخلط الثروات والمقدّرات!

ونريد أن نردَّ على أولئك بأدلةٍ شرعيّةٍ موضوعيّة لا شأن لها بالعاطفة؛ لأنهم لا يُفرّقون بين الهوى الممنوع، وبين الهوى المتّفق مع الشرع، فعشنا مع الكتب والمراجع، وفي أثناء مراجعتنا ما راجعناه من الكتب الستة بالمدينة المنورة فتح الله علينا بأدلة ومرتكزات شرعية لعلها تُعرَض لأول مرة؛ فأغلب الكُتّاب يَعرضون لمرتكزٍ واحد فقط هو عهد المدينة الذي عقده رسول الله ﷺ مع مواطنيها.

وهو مرتكز شرعي صحيح ولكنه ليس الدليلَ الوحيدَ، بالإضافة إلى أنه غيرُ كافٍ لمنع الغلوّ وخيانةِ الأوطان، ولا لعصمة الدماء وتمام المساواة بين المواطنين؛ وذلك لإمكان القول بمخالفة أيّ فصيلٍ أو طائفة أو شخص لالتزاماته في العقد أو العهد المجتمعي، ومن ثَمّ يستتبع ذلك إسقاط حرمته أو ذمته.

أما سائر المرتكزات الفقهية الشرعية التي نلفت النظر إلى أهمية توضيحها ونشرها فتمنع الغلو وتعصم من حرمان أيّ مواطن من حقوق المواطنة حتى لو خالف أو أخطأ.

---

(١) وقد تناول هذا الموضوع الشيخ أسامة الأزهريّ في بعض البرامج التلفزيونية ملخصًا أدلتَه من الكتاب والسنة وكلام العلماء، وبيّن كيف أن أصحاب الفِطَر السليمة من الأئمة الأعلام المشهود لهم يُحبون أوطانَهم ويبكون لفراقها... إلخ.

وهذه المرتكزات تجيب بوضوح على سؤالينِ هامين جدًّا يكثر التهرب من الإجابة عنهما بوضوح لغياب الدليل الشرعي عن ذهن الدعاة والسياسيين؛ هما:

*** هل تجب إعانة المسيحيّ المصري بشتى الاحتياجات قبل إعانة المسلم في شرق آسيا مثلًا؟**

نعم، وسنعرض أدلة أهل العلم الشرعية.

*** هل الحدود السياسية التي صنعها الاستعمار والموروثة تاريخيًّا لها احترامٌ ومشروعيّة أم نستبدُلها بمفهوم الأممية كما يُروّج بعضُ الغلاة لزعزعة حبِّ الوطن لدى الشباب واستباحة ما يترتب على ذلك من الخروج وخيانة الوطن بادعاء وهْمِ دعوى الحدود السياسية؟**

نقول: نعم يجب شرعًا -بالمرتكزات الشرعية التي سنعرضها- احترام هذه الحدود الموروثة التي صنعها الاستعمار، أو ربما وضعت على أسسٍ جائرةٍ بلا سندٍ من الشرع.

***

وأعرضُ هنا باختصار غير مخلٍّ الأدلةَ الشرعية والمرتكزاتِ العلمية لهذا الأمر فأقول وبالله التوفيق:

المرتكز الأول: أحاديث أحلاف الجاهلية التي ظلت مخبوءةً كالكنز لهذا الزمن، والحِلْف معاقدة ومعاهدة على التعاضد والتساعد والتناصر، وسمي حِلْفًا لأنه كان لا يُعقد إلا بالحَلِف، وكانت الأحلاف تُعقَد في الجاهلية بين الأفراد والقبائل؛ فتُعقد بين قبيلتين أو فردين أو فرد وقبيلة، فلّمَا قَويت شوكةُ المسلمين لم يهدمِ النبيّ ﷺ أحلافَ الجاهلية بل أمر بالوفاء بها فقال ﷺ: «**لا حلفَ في الإسلام، وأيّما حلفٍ كان في الجاهلية لم يزدْه الإسلامُ إلا شدّةً**»[1]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص

(١) صحيح مسلم (٢٥٣٠).

رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في خطبته: «**أوفوا بحلفِ الجاهلية فإنه لا يزيدُه -يعني الإسلام- إلا شدةً، ولا تُحْدثوا حلفًا في الإسلام**»[1].

فالهدي النبوي الواضح والجليّ من هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة هو احترام الوضع القائم والبناء عليه وليس هدمه، والحكمة -كما أوضحها العلماء- لها جوانب كثيرة أظهرُها أن العهود التاريخية رتّبت حدودًا وحقوقًا وقد أنتجت -بالمصطلح المعاصر- مراكزَ قانونية ومكتسباتٍ لا يجوز إهدارها بدعوى نشوئها في الجاهلية، فكان الحكم الشرعي سالف البيان هو التمسك بها والبناء عليها؛ بمعنى استيفاء الحقوق والقيام بالواجبات التي تُمليها هذه المعاهدات والمسماة في المصطلح القديم بالأحلاف.

وهذه الأحاديث صارت معتمدًا لنا؛ لأن الأحلاف التي وُضعت في الجاهلية للتناصر بين القبائل على ما توارثته من حدود في الطرق والمراعي والكلأ وآبار الماء مثلُها مثل الحدود السياسية الدولية الموروثة من النظم الاستعمارية والناتجة عن اتفاقية سايكس بيكو والتي أنتجت مكتسباتٍ وملكياتٍ شائعة ومفرزة لا يجوز إهدارها بدعوى نشوئها في عهود استعمارية، بل ينبغي البناء عليها بالوحدة الأشمل أو التكامل الأعم كما يقترح العلامة السنهوري في رسالته الخلافة التي نال بها الإجازة بالدكتوراه بفرنسا قبل ترجمتها إلى العربية واتخاذها أساسًا لدراسات معمقة تدعو لولايات إسلامية متحدة، أو اتحاد عربي مثل الاتحاد الأوربي، كمرحلة وسيطة تحترم التقسيمات الوطنية الموروثة للأدلة الشرعية والعقلية المتكاثرة على حرمة وخطورة وضرر هدم الأوطان بدعوى وحدة الأمة الإسلامية أو العربية.

المرتكز الثاني: أحاديث الوفاء لأهل الولاء، والولاء قرابةٌ حُكميّة يُنشئها الشارع عن طريق العتق ويُسمّى ولاءَ العتاقة أو ولاء النعمة، أو عن طريق الموالاة وهو عقد

(١) الترمذي (١٥٨٥) وقال: حسن صحيح.

بين طرفين مبناه على التناصر والتعاون والتآخي، وأن يَغرم كلٌّ منهما إذا جنى الآخر، وأن يرثه إذا مات، ويُسمى ولاء الموالاة، وقد قال ﷺ: «**الولاءُ لُحْمة كلُحْمة النَّسَب**»[1]؛ أي: قرابةٌ كقرابة النسب، وقال ﷺ: «**مولى القوم من أنفُسِهم**»[2]، وقال ﷺ: «**حليفُ القوم منهم**»[3]، والمراد بالحليف هنا مولى الموالاة لأنهم كانوا يؤكّدون الموالاةَ بالحَلِف.

ومن مقتضياتِ الولاءِ النصرةُ والوفاء والخدمة، وعلى هذا يقاسُ الولاء للوطن؛ فأبناؤُهُ أُمّةٌ مجتمعةٌ سَرَى الفضلُ بين أهلها والتكافلُ في الممتلكات الشائعة[4] من طُرقٍ ومدارسَ ومستشفياتٍ وجِيرةٍ وحراسة متبادلة بالتجنيد الإجباري وتكافلٍ حتميّ بالضرائب وتبادل الخدمات العامة كلٌّ في وظيفته... إلى آخر مُقتضى العقدِ العامّ بين المواطنين المتمثل في الدستور والعهدِ الضمنيّ بين المواطنين بتبادلِ الحماية والخدمات والاستخدام المشترك للمرافق والممتلكات العامة المشاعة بين الناس... فتأمل.

المرتكز الثالث: الملكية الشائعة؛ فالمرافق العامة في هذا الزمن؛ المدارس والمستشفيات والطرق والمزارع التابعة لوزارة الزراعة والكابلات والمولدات الكهربائية... كلها ملكية شائعة لأبناء الوطن الواحد المحدود بحدٍّ معين، هذا الملكية زاد من أمر وجوب احترامها أنها تُورثت عبر عدة أجيال[5] وشاعت بين الآباء والأجداد.

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٤٥٩٠)، والحاكم في «مستدركه» (٤ / ٣٤١).
(٢) أحمد في «مسنده» (٢٣٨٦٣، ٢٣٨٧٢)، وأبو داود (١٦٥٠)، والترمذي (٦٥٧)، والنسائي (٢٦١٢).
(٣) الدارمي (٢٥٧٠)، والطبراني في «الكبير» (٢).
(٤) انظر ما سيأتي عن الملكية الشائعة في المرتكز التالي.
(٥) على الأقل مائة عام بالنسبة للدول المستحدثة.

وهذه الملكية الشائعة دخل فيها غير مسلمين، وفي سائر المذاهب أن الملكية إذا شاعت بين المسلم وغير المسلم فإنهما -المسلم وغير المسلم- فيها سواء، لهم حصةٌ واحدة، ولهم حكمٌ واحد، ولهم رأيٌ واحد، ولا يجوز أن يتسلط المسلم بدينِه على غير المسلم في قراراتِ التصرّف والإدارة للملك الشائع، فهذه الملكية الشائعة تفرض نوعًا من المساواة بين أبناء الوطن الواحد مسلمين وغير مسلمين، والشرع يُلزم باحترامِ المالك وصيانة حقّه ولو كان مالكًا لحصةٍ قَدرها سهمٌ من ألف سهم، مسلمًا كان أو غير مسلم، فكيف إذا كانت له نسبة مساوية لا تجوز إزاحتُها؟!

هذه الملكية الشائعة علينا أن نحترمها ولا نُدخِل عليها ولا نُخرِج منها إلا بقواعدَ وأسسٍ شرعيّة معروفة، وهي تؤكد الولاء للوطن.

المرتكز الرابع: حق الجوار[1]، وهو يؤيد أيضًا الولاء للوطن؛ فالزكاة -مثلًا- لا تنقلُ من بلد إلى غيره إلا إذا فاضت عن حاجة أهله[2]؛ لما في ذلك من رعاية حق الجوار، فالجار الفقير مُقدّم على القريب الفقير البعيد احترامًا لحق القرب المكاني. وهذا يُستدلّ به حاليًا فيما يُسمّى بالنفقات العامّة للدولة وتوزيع الدّخْل؛ فلا يستطيع الحاكم أن يمدّ أهل بلد مسلم بإعانات أو قوة أو عتاد مع وجود احتياج داخلي في بلده.

ولو استفضنا في ذكر أحكام حق الجوار لوجدناها تُفضي إلى وجوب الولاء للأوطان.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] وفي تفسير القرطبي (٦/ ٣٠٤): «وقال نَوْف الشامي: (الجار ذي القربى) المسلم، و(الجار الجنب) اليهودي والنصراني. قلتُ: وعلى هذا فالوَصاةُ بالجار مأمورٌ بها مندوبٌ إليها مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح».اهـ. وقال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود (٥١٥٢) والترمذي (١٩٤٣): «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه**»، قال العلماء: الأحاديث في إكرام الجار جاءت مطلقةً غيرَ مقيدة حتى الكافر. انظر تفسير القرطبي (٦/ ٣١٢).

(٢) أما مع الحاجة فيرى الأحناف أنه يكره تنزيها نقل الزكاة من بلد إلى غيره.

وحتى في حال الحرب نجد أمر الشارع: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، فلا يجوز شرعًا للحاكم أن يُعلن الحرب على بلد بعيد يحاربُ بلدًا إسلاميًّا مجاورًا له مع كون حدود وطنه مهددة من عدوّ قريب، فهو مطالب على قدر قوّته أن يدفع الذين يلونه، وكلّ ولاية عليها هذا، وكان هذا قبل كثرة المسلمين بهذا القدر، وقبل ضعفِهم بهذا القدر، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، أنه قال: ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، ثم قال: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة: ١٢٣]، مثلما بدأ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ثم جعل ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هو ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦] تفسيرًا لها -وهو ما نأخذُ به- أو ناسخًا، كما يقول البعض: إنه تخفيف.

المرتكز الخامس: وثيقة المدينة التي كتبها رسول الله ﷺ في المدينة وقد أصبح المسلمون هم الأغلبية ومعهم اليهود ومن بقي على الشرك. وقد أكثر الكُتّاب والعلماء المعاصرون من الكلام حول إبراز بنود هذا العهد، وبيان سبقه في تقرير المساواة والحرية بضوابط عدم الإضرار بالغير والتكافل والتعاون والحماية المشتركة للوطن.

* * *

القومية العربية والهوية الإسلامية والولاء للأوطان دوائر متكاملة متداخلة يُفضي بعضُها إلى بعض، ويقوّي بعضها بعضًا ولا تناقض بينها بالدليل الشرعي والواقع العملي، وقد انتهت محنة عدم الفهم الصحيح لفكرة القومية العربية وتوهُّم معارضتها لمفهوم الأممية الإسلامية، انتهت بالدراسات القيمة التي أزالت اللبس وأماتت الفتنة، والتي تم تجميعها ونشرها مؤيدة بالأدلة الشرعية ثم العقلية المنطقية الواقعية في المؤتمرات المتتالية التي جمعت الإسلاميين والقوميين العرب، وقد ورد في هذا حديث نصه: «**إذا ذلّت العرب ذلّ الإسلام**»[1]، وهذا الحديث وإن كان في

(١) رواه أبو يعلى في «مسنده» (١٨٨١)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢ / ٣١٧)، وقال في=

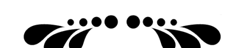
سنده ضعف إلا أنه لا بأسَ في الاستدلال به في غير الأحكام، ولأنه غير معارض بغيره، ولأن الواقع المستقرأ يؤكده، وبمفهوم الموافقة يكون المعنى: إذا عزّ العرب عز الإسلام، هذا بالإضافة إلى أن العروبة لسان[1]، وبالبناء العقلي المنطقي المؤيد بوقائع التاريخ فإنه إذا عزّت مصر عزّ العرب؛ فمصر متبوعة ثقافيًّا لكونها مجمع العرب؛ قبائلهم كلها ممثلة فيها، وتياراتهم الفكرية والثقافية موئلها ومستقرها ومرتعها فيها، وحيث إنّ ما لا يتم الواجب إلا به يصبح بالتبعية واللزوم واجبًا، فإنه سيكون لزامًا على أصحاب التوجهات الدينية والذين يتعبدون ربهم بالسعي لعزّ الإسلام والمسلمين أن يسعوا من أجل نهضة العرب وعِزّتهم، ومبتدأ ذلك يكون بنهضة بوتقة العرب ومجمع قواهم البشرية والعلمية المتراكمة والمتراكبة ألا وهي مصر.

وهذا الأمر يبدأ ثم يتكامل بناؤه المنطقي بالاستقراء التاريخي والجيوسياسي؛ وأعني بهذا أنه كما أن العربية والعروبة لسان وليستا أعراقاً وأنساباً مغلقة على أهلها كما حاول البعض تشويهها، كذلك المصرية والتمصّر، فهي موئل ورباط لمن أقام بها وحمل شرفَ الرِّباط وتفَهّم مقتضاه بالنفس أو بالمال ليُقوّي الرباطَ المحمديَّ الدائمَ الحافظَ لبيضة الأمة والفادي عنها عند الضرورة، وهو أمر مشهود ومُستقرَأ عبر التاريخ منذ عام الرَّمَادة وحتى عام العبور.

= «مجمع الزوائد» (١٦٦٠٧): رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن الخطاب البصري ضعفه الأزديُّ وغيرُه ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(١) ورد عنه ﷺ أنه قال: «**إن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أمّ، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي**»، عزاه صاحب «الكنز» (٣٣٩٣٦) لابن عساكر، وقال ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»: هذا الحديث ضعيف وكأنه مركب على مالك لكن معناه ليس ببعيد بل هو صحيح من بعض الوجوه. وقال أبو جعفر الباقر: من ولد في الإسلام فهو عربي. عزاه في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٥٧) للحافظ السِّلَفي في فضل العرب. وقال: وهذا الذي يُروى عن أبي جعفر: لأن مَن وُلِد في الإسلام فقد وُلِد في دار العرب واعتادَ خِطابها. ورُوِي عن أبي هريرة ﷺ يرفعه قال: «**من تكلم بالعربية فهو عربي، ومن أدرك له اثنان في الإسلام فهو عربي**». عزاه في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٥٨) للحافظ السلفي.

ومن نافلة القول وبعيدًا عن عصبية الأنساب وشوفونية الأعراق -في المصطلح الحديث- بعيدًا عن كل ذلك الغلوّ الفكريّ المظلم يظلّ نورُ الأنساب الطاهرة الصابرة المجاهدة الوارثة للأنصار والمهاجرين والآل الطيبين تملأ وادي النيل المرابط، طبقاً لما قرّره المحقّقون من علماء الأنثروبولوجيا والأنساب وحركة قبائل العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وخلاصته أن ما يقارب نصفَ ذريّة الآلِ والصحب في مصر، والنصفَ في سائر العالم، والحمد لله رب العالمين... ولما توقّفت الحركة التلقائية لتلك القبائل العربية الشريفة بعد ترسيم الحدود وتقييد الحركة الطبيعية التلقائية التي كانت تُحرّكها قوانينُ الحاجات والعمل والعلم والتجارة والزواج والتداعي للجهاد حيث حلّ الخطر في جنبات الوادي المرابط والجزيرة المشرفة والشمال الإفريقي المدعوّ لنصرة مصر كلما دُعيَت مصرُ لنصرة الجزيرة والشام، ولكن لما انقطع هذا التواصل والتوادّ والتحرك الجيوسياسي بفعل المستجدات العالمية ظلّ فى العرب ملوكٌ وقادةٌ مخلصون يحرصون على بقاء الأواصر وعلى الحفاظِ على الحدّ الممكن من النصرة، وهو ما نحن في خدمته وتقويته والتأكيد على ضرورة بقائه بما نحاول المشاركة في شرفه بهذه الورقات التي نرفعها لمن نحسبهم على خير كبير وشكيمة عزة تجري في دمائهم، ولن يخيب حسن الظن فيهم أبدًا بإذن الله وفضله.



حول حديث خير أجناد الأرض

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا فتح الله عليكم مصرَ فاتّخذوا فيها جندًا كثيرًا؛ فذلك الجندُ خيرُ أجنادِ الأرض**». فقال أبو بكر: ولِمَ يا رسولَ الله؟ قال: «**لأنهم وأزواجهم في رِباطٍ إلى يوم القيامة**».

هذا الحديث عزاه صاحب «الكنز»[١] إلى ابن عبد الحكم في «فتوح مصر»[٢]، وإلى ابن عساكر[٣].

ورواه أيضًا الدارقطني في «المؤتلف والمختلف»[٤]، وابن زولاق في «فضائل مصر»[٥]، وعزاه المقريزي إلى ابن يونس[٦].

وهذا الحديث جزء من خطبةِ جُمُعةٍ خطبها عمرُو بن العاصِ ﵁ ورواها عبد الله بن لَهيعة عن الأسود بن مالك الحميري عن بحير بن ذاخر، وابن لَهيعة وإن ضُعّف حديثُه لتخليطه بعد احتراق كتبه سنةَ مائةٍ وسبعين إلا أنه صدوق، قال أبو داود: سمعت أحمد يقول: مَن كان بمصرَ يُشبه ابن لَهيعة في ضبط الحديث وكثرته وإتقانه! قال: وسمعت أحمد يقول: ما كان مُحدّث مصر إلا ابن لهيعة[٧]. وفي تهذيب

(١) كنز العمال (٣٨٢٦٢).
(٢) فتوح مصر والمغرب ص ١٦٧ .
(٣) رواه في تاريخ دمشق (٤٦/ ١٦٣) من طريق الدارقطني.
(٤) المؤتلف والمختلف (٢/ ١٠٠٤).
(٥) فضائل مصر ص ٨٣ .
(٦) إمتاع الأسماع (١٤/ ١٨٥).
(٧) تهذيب الكمال (١٥/ ٤٩٥، ٤٩٦).

التهذيب: قال الحاكم: استشهد به مسلمٌ في موضعين[1]. وقال السيوطي: ابن لهيعة من رجال مسلم، وهو حسن الحديث[2]. والأسود بن مالك مذكور فيمن يروي عن بحير[3]، وبحير بن ذاخر سيّافُ الأمير مسلمة بن مُخَلّد، وكان أيضًا من حَرَس عبد العزيز بن مروان، وثّقه ابن حبان وغيره[4].

وبهذا يتبين خطأ مَن قال بأن الحديث باطل أو موضوع، هذا بالإضافة إلى ورودِ شواهدَ تُعضّد بعضَ معانيه وتُقوّي بعضَ مضامينه وتؤيدها، نوردُها هنا نقلا عن السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة»[5]:

أخرج الطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «دلائل النبوة» بسند صحيح عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: «**الله الله في قبط مصر؛ فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدّةً وأعوانًا في سبيل الله**».

وأخرج أبو يعلى في «مسنده» وابن عبد الحكم بسند صحيح من طريق ابن هانئ الخولاني، عن أبي عبد الرحمن الحبلي وعمرو بن حريث وغيرهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**ستقدمون على قوم جعد رءوسهم فاستوصوا بهم خيرًا؛ فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله**» يعني قبط مصر.

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق ابن سالم الجيشانيّ وسفيان بن هانئ أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنكم**

---

(١) تهذيب التهذيب (٥/ ٣٧٧).

(٢) حسن المحاضرة (١/ ١٦).

(٣) انظر تاريخ ابن يونس المصري (١٦٥)، والإكمال (١/ ١٩٧) و(٣/ ٣٧٤)، وتهذيب مستمر الأوهام (١٩)، والثقات ممن لم يقع في الكتب الستة (٣/ ٦)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٢١١).

(٤) انظر الثقات لابن حبان (١٩٢١) (٤/ ٨١)، والثقات ممن لم يقع في الكتب الستة (١٨٨١) (٣/ ٦).

(٥) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/ ١٢-١٦).

ستَكُونون أجنادًا، وإنّ خيرَ أجنادكم أهل الغرب فاتقوا الله في القبط، لا تأكلوهم أكل الْحَضِر[1]».

وأخرج ابن عبد الحكم عن مسلم بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «**استوصوا بالقبط خيرًا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوِّكم**».

وأخرج الطبراني والحاكم في «المستدرك» وصححه وابن عبد الحكم ومحمد بن الربيع الجيزي في كتاب «من دخل مصر من الصحابة» عن عمرو بن الْحَمِق، قال رسول ﷺ: «**تكونُ فتنةٌ يكون أسلمَ الناس فيها الجند الغربيّ**»، قال ابن الحَمِق: فلذلك قدمْتُ عليكم بمصر.

وأخرج محمد بن الربيع الجيزي من وجهٍ آخر عن عمرو بن الحَمِق أنه قام عند المنبر بمصر -وذلك عند فتنة عثمان رضي الله عنه- فقال: يا أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تكون فتنةٌ خيرُ الناس فيها الجندُ الغربيّ**»، وأنتم الجند الغربي، فجئتكم لأكون معكم فيما أنتم فيه.

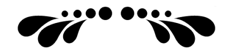
فهذه الأحاديث وغيرها شواهدُ تُقوّي حديثَنا وتؤيده، كما أن الواقع التاريخي وسُنَنه الجارية باطراد تؤيده وتشهد له أيضًا وتُرجّح الرأي العلمي الذي يصحح معناه.

ونختم بما قاله السيوطي في «الديباج» عند شرحه لقول رسول الله ﷺ: «**لا يزالُ أهل الغَرْب ظاهرين على الحقِّ حتى تقومَ الساعة**»[2] بعد أن ذكر الآراء المختلفة في معنى الغرب: «قلت: لا يبعدُ أن يُراد بالغرب مصر؛ فإنها معدودةٌ في الخطّ الغربيّ بالاتفاقِ، وقد روَى الطَّبرانيّ والحاكم وصححه عن عمرو بن الحمق قال: قال رسول الله ﷺ: «**تكون فتنةٌ أسلمُ الناس فيها الجندُ الغربي**»، قال

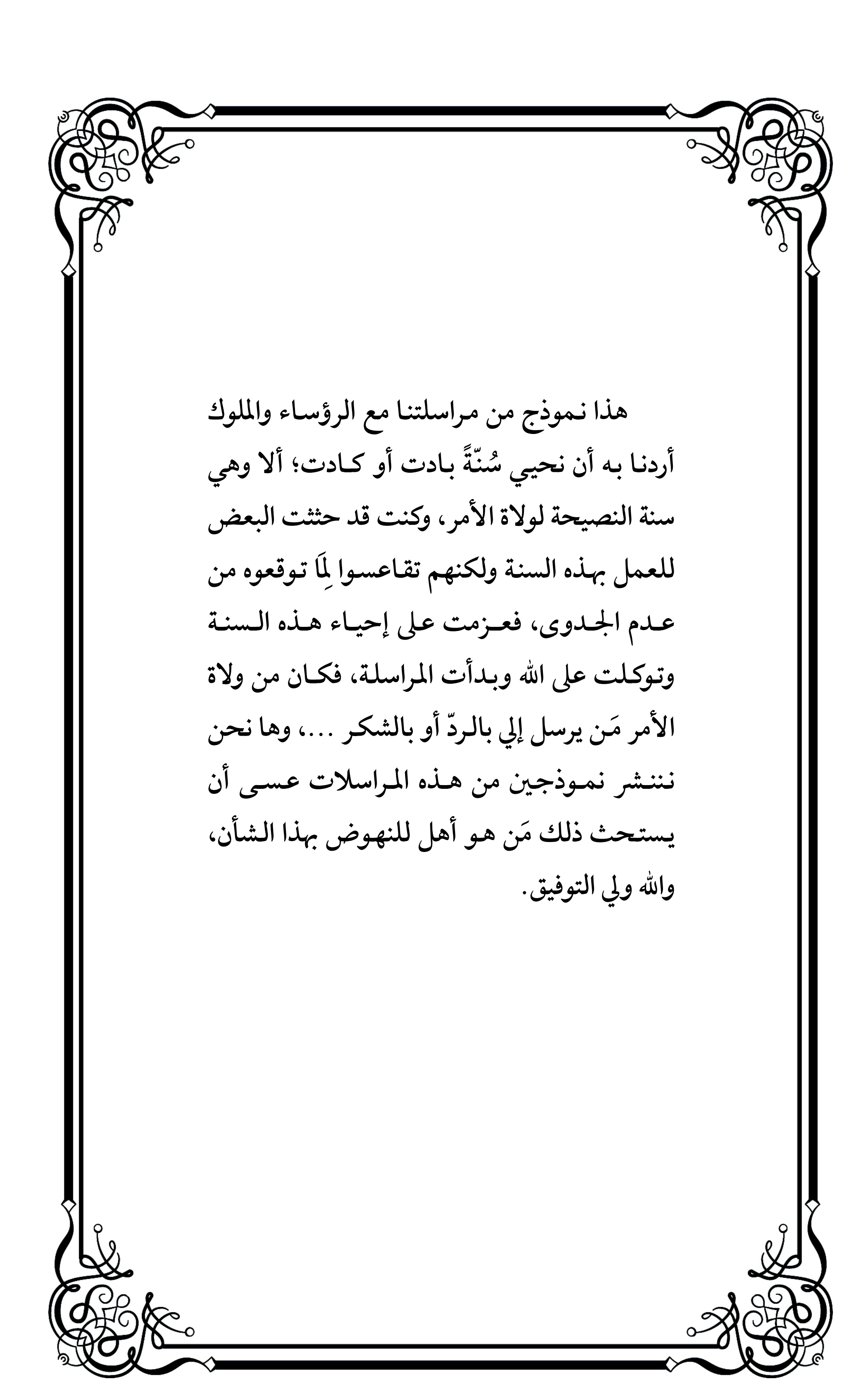
(١) الحَضِر: الذي يتحين طعام الناس حتى يحضره.

(٢) صحيح مسلم (١٩٢٥).

ابن الحمق: فلذلك قدمتُ عليكم مصر. وأخرجه محمد بن الربيع الجيزي في مسند الصحابة الذين دخلوا مصر وزاد فيه: وأنتم الجند الغربي. فهذه منقبةٌ لمصرَ في صدر الملة، واستمرت قليلةَ الفتنِ معافاةً طولَ الملة لم يعترها ما اعترى غيرها من الأقطار، وما زالت معدن العلم والدين، ثم صارت في آخر الأمر دار الخلافة ومحطّ الرحال، ولا بلد الآن في سائر الأقطار بعد مكة والمدينة يظهر فيها من شعائر الدين ما هو ظاهر في مصر»[1].



(١) الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج (٤/ ٥١٤).



هذا نموذج من مراسلتنا مع الرؤساء والملوك أردنا به أن نحيي سُنّةً بادت أو كادت؛ ألا وهي سنة النصيحة لولاة الأمر، وكنت قد حثثت البعض للعمل بهذه السنة ولكنهم تقاعسوا لِمَا توقعوه من عدم الجدوى، فعزمت على إحياء هذه السنة وتوكلت على الله وبدأت المراسلة، فكان من ولاة الأمر مَن يرسل إلي بالردّ أو بالشكر ....، وها نحن ننشر نموذجين من هذه المراسلات عسى أن يستحث ذلك مَن هو أهل للنهوض بهذا الشأن، والله ولي التوفيق.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

فخامة السيد الدكتور رئيس الجمهورية

سلام الله عليكم ورحمته

مما يشرفني أن أحظى بشرف المشاركة في واجب المناصحة لولي الأمر اتباعًا لهدي النبي الكريم ﷺ وسنته المطهرة.

وذلك رغم معرفتي التامة بما أنعم الله تعالى به على فخامتكم من علم عام بالشريعة الغراء ومن كوكبة نيره من خيرة هذه الأمة ممّن نحسبهم بطانةَ صلاحٍ وإصلاحٍ.

كما أن التخصص الذي أمضيت في خدمته نيّفًا وثلاثين عامًّا تعلُّمًا وتعليمًا وتطبيقًا قد أغراني بهذه المشاركة المتواضعة. والتي أرجو أن تُستكمل بأي صورة ترونها فخامتكم أستطيع أداءها لخدمة التطبيق الراشد للشريعة الغرّاء.

وهذا ثبت بأبرز الموضوعات والمشكلات والخطوات والمدلولات والمفاهيم التي تحوي عشرات المسائل الفرعية والنقاط الجزئية المستوعبة -ولله الحمد- في دراسات وأبحاث وبرامج مفصلة عكفت وغيري على جمعها ودرسها والرباط حولها سنينَ عددًا حتى يهدي مَن ولاه الأمر مَن يعزم على تطبيقها بحقّها وفقهها، جعلكم الله تعالى منهم، ونوجزه فيما يلي:

أولًا: الوضع الراهن لمسألة تطبيق الشريعة الإسلامية:

أ - لا يخفى على فخامتكم مدى الالتباس الحادث في فهم مدلول ذلك الشعار سواء على المستوى الشعبي أو حتى نخبة المجتمع ومثقفيه.

ب- كما أن «تطبيق الشريعة» يعد أحد الاستحقاقات التي يتضمنها البرنامج الانتخابي للسيد الرئيس وكذا لحزب الاغلبية. بل هو شعار متردد في غالب برامج الأحزاب المصرية العاملة الآن على الساحة.

ثانيًا: تنوع مدلول مصطلح «الشريعة الإسلامية» وشعارها:

وقد رصدنا وغيرنا من المتخصصين أكثر من ستة مدلولات قانونية منضبطة لمصطلح الشريعة الإسلامية في النظام القانوني المصري ثم العربي فالإسلامي الحالي والمعمول به بدرجات متفاوتة في هذه الآونة، وإنه لفي غاية الأهمية أن يعي العامة والخاصة هذه المدلولات وأثرها ومدى تطبيقها الحالي الحاصل بالفعل والمتبقي من جوانب هذا التطبيق، بحسب ما سأرسله من أبحاث ودراسات دأبت على إعدادها في هذا الشأن.

ثالثًا: نسبية مصطلح «تطبيق الشريعة الإسلامية»:

لقد ظهر من الدراسات الشرعية والتاريخية والقانونية أن نسق وأسلوب تطبيق الشريعة الإسلامية قد اختلف وتباين في منهجه وفي قواعده العامة وأحكامه التفصيلية منذ عهد الخليفة الراشد الأول سيدنا أبي بكر الصديق ومن يليه من الخلفاء الراشدين والحكام السلاطين العادلين عبر التاريخ. كما اختلف وتباين التطبيق داخل كل عصر باختلاف المكان مِن حضر وبدو، ومن مشرق ومغرب، وهو ما يُعرف في المصطلح الفقهي والقانوني بعامل العُرْف، وبالجغرافيا البشرية للمجتمعات التي يراد تطبيق الشريعة الغراء بها، وفي ذلك دراسات معمقة في الفقه والسياسة الشرعية على نحو ما سنوافي سيادتكم به لاحقًا.

والمهم هنا أن يوضح للعامة والخاصة أنه حتى في العصور الراشدة الأولى -السلف الصالح- فقد تباينت الحلول المختارة في المسائل المعروضة على الفقهاء والقضاة تباينًا قد يظنه غير العارف بأحكام الشريعة الغراء ورحابتها تعارضًا مع تلك الأحكام على غير الحقيقة. والأمثلة على ذلك تبدأ في الدراسات المعنية بهذا الشأن من السياسات التي اختارها الصديق رضي الله عنه واختلفت عن تلك التي اختارها الفاروق رضي الله عنه.

وهو ما يسترعي الانتباه وجرى فيه كلام كثير بين العلماء والمتخصصين وقد آن للعامة والخاصة أن يعقلوه بموضوعية لينتهي الاعتقاد الخاطئ السائد بأن تطبيق الشريعة الغراء سيكون على شكل أو نسق واحد. وكذلك آن توضيح هذه النسبية في مفهوم وتطبيق شعار الشريعة الإسلامية حتى تتكون عقلية وسطية متوازنة لدى نخبة الأمة ثم عامتها تبعد عن إطلاق الأحكام على مجمل الأنظمة أو السياسات بالموافقة أو المخالفة للشريعة الغراء. كلما سيطر وجه واحد أو رأي واحد في حقبة أو زمن أو تجربة واحدة من تجارب تطبيق الشريعة على الأذهان. وهو ما قد ابتلي به كثير من المخلصين.

رابعًا: نطاق تطبيق الشريعة الإسلامية:

إن من الأمور البعيدة عن الرأي العام بل بعض الخاصة والمثقفين مسألة حدود تطبيق الشريعة الغراء المنوط بولاة الأمر من رئيس الدولة إلى مَن دونه من وزراء ومديرين وكذا ذلك الحدّ المنوط تطبيقه بالمؤسسات الأخرى في الدولة.

فضلا عن أن هناك النطاق المتروك لكلّ راعٍ في رعيته من رب الأسرة إلى المتجر إلى المصنع إلى المدرسة وأخيرًا النطاق الفردي الخاص... وهنا تثور المشكلات الخطيرة على أمن المجتمع، وهذا هو بيت الداء الذي أودى بالتجارب المشوهة والفاشلة لتطبيق الشريعة في بعض الأنظمة والدول والتي انبرى فيها للتطبيق مَن

لا يعلم هذا الفقه؛ ما أسميناه فقه النطاقات المتعددة لتطبيق الأحكام الشرعية كما أشرنا إليه في أطروحتنا للدكتوراه.

إن تطبيق أحكام الشريعة الغراء ممن لا يملك حق الولاية الشرعية على المشمولين بالتطبيق في جانب معين هو نوع من الافتئات على الحريات الخاصة وعلى حق الأفراد والأسر في المجتمعات الخاصة في الاختيار من ثلاثِ نواحٍ مرعية شرعًا:

أ - الحق في الاختيار المبدئي للإذعان للشريعة وأحكامها وتركُ ذلك الإذعان وتحمل العواقب الدينية.

ب- الحق في الاختيار التالي لمن اختار الإذعان للأحكام الشرعية أن يختار الرأي الفقهي الذي يتعبد ربه سبحانه بالامتثال للشريعة من خلال أعماله.

ج- الحق في الاختيار اللاحق على ذلك من حيث التدرج والأولية والتوقيت المناسب عند الرغبة في الإذعان لأحكام الشريعة وذلك بالنسبة للنطاقات الخاصة بتطبيق الشريعة على المستوى الفردي والأسري والمجتمعات المغلقة. وقد فسر الفقهاء والعلماء فقه ذلك كله. إذ ليس كل هذه النطاقات والالتزام بالشريعة فيها جوازيًّا ولا هو من صنع الأهواء بل هو فقه سلفيّ أصيل مبثوث في متون كتب الأصول والفروع تحت العناوين التالية في المكتبة الإسلامية الرحبة، ومنها: فقه الأولويات، وفقه التدرج وأحكام السياسة الشرعية، وفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخيرًا ما سمّيته في أبحاثي المنشورة وكذا غيري من الأساتذة الأجلاء المتخصصين بـ (دوائر التجريم الضيقة، ودوائر التحريم الواسعة).

خامسًا: تطبيق أحكام الشريعة الغراء على غير المسلمين من المواطنين:

إن مما يندرج في نطاق تطبيق الشريعة أيضًا المسائل المتعلقة بتطبيق أحكام الشريعة على غير المسلمين من المواطنين في البلاد ذات الغالبية المسلمة كمصر والدول العربية. ويكفي في هذا المقام الإشارة إلى مراجع الفقه الحنفي خاصة،

وإلى مراجع الفقه على المذاهب الأربعة، وكتب الإمامين ابن قيم الجوزية وابن حزم وقد ألقى الضوء على ما فيها من قواعد أصولية وفرعية كوكبة من خيرة العلماء المعاصرين أمثال الدكتور عبد الكريم زيدان والدكتور وهبة الزحيلي والشيخ محمد الغزالي السقا، والدكتور محمد سليم العوا، والدكتور محمد كمال إمام، وغيرهم. وتتضمن هذه الدراسات خطوات عملية ومقترحات محددة قابلة للإعمال الفوري من خلال إفراغها في نصوص تشريعية وقرارات تنفيذية ذاخرة بالسعة واليسر والحرية المعطاة للمواطنين غير المسلمين في تطبيق راشد وصحيح للشريعة الغراء (يراجع في هذا الشأن الأبحاث والدراسات القيمة للسادة العلماء المذكورين).

سادسًا: فقه التدرج في التطبيق:

مما يجدر إشاعته وبيانه للعامة والخاصة أن التدرج لم يكن فقط في مرحلة التشريع كما هو مشهور بل أيضًا قد أسس علماء السلف الأصول والقواعد بأدلتها الشرعية على جواز التدرج في التطبيق بعد تمام الشريعة تنزيلًا.

إن فقه التدرج وضوابطه الشرعية ونشره إعلاميًّا وعلميًّا يعد ضرورة لازمة لتهيئة الأجواء المجتمعية للقرارات السياسية والقوانين الوضعية المطبقة للشريعة بأصولها الراشدة التي تجعل من نموذج مصر وتجربتها في تطبيق الشريعة الإسلامية نموذجًا مشرفًا للشريعة الغراء ولائقًا بحضارة مصر المتبوعة.

وخلاصة ذلك الفقه التي يجب أن تُعلم وتُشاع وتُعرف وتُذاع ألا يصبح التدرج ذريعة لتعطيل التطبيق وكذلك ضوابط هذا الفقه الهام تمنع أن يصبح الإخلاص والتعجل في التطبيق ذريعة لتشويه الشريعة الغراء أو إفشال التجربة التي نريدها صحيحة ورائدة بإذن الله تعالى. (يراجع في هذا الصدد الدراسات المعنية بتحليل وتقييم التجارب المعاصرة للتطبيقات المشوهة

والفاشلة لما ظن أتباعها أحكام الشريعة الغراء وهي من ذلك براء).

سابعًا: المدلول الفقهي المعاصر لمصطلح (ولي الأمر):

لقد نادى علماء العصر محل الاحترام والتقدير وكذا المجامع الفقهية الكبرى وعلى رأسها الأزهر الشريف ومؤسساته العلمية إلى إبراز فكرة مؤداها أن ولي الأمر كمصطلح فقهي شرعي وُجد منذ نزول القرآن الكريم والبيان النبوي المطهر ثم ما تفرع عنه من فقه ومذاهب قد أضحى في مفهومه المعاصر المناسب للعصر الحالي يعبر عن مجموعة من المؤسسات والأشخاص بصفاتهم وليس بذواتهم، وذلك عند النظر في الأحكام الشرعية المنوطة بولي الأمر التي توجب عليه إعمالها شرعًا. وتفصيل ذلك أن المجلس التشريعي في حدود اختصاصه يعتبر من جهة الفقه الشرعي ولي الأمر في هذا النطاق، ويتوجب عليه بهذه المثابة أن يعمل بالضوابط الشرعية ويلتزم بأحكام الشريعة الكلية والفرعية عند قيامه بوظيفة التشريع الوضعي للمجتمع الذي ينوب عنه في الدولة المسلمة.

وكذا فإن القضاء يعتبر ولي الأمر في نطاق سلطة الفصل في الخصومات. فكما أن على المواطنين طاعته والالتزام بأحكامه فإن عليه أيضًا كولي أمر احترام الأحكام الشرعية في ذلك النطاق الذي ينوب فيه عن الأمة.

وكذلك فإن رئيس الجمهورية ومن دونه من أعضاء من السلطة التنفيذية منوط بكل منهم في نطاق اختصاصه تطبيق الأحكام الشرعية بعد صدورها من السلطة التشريعية في صورة قوانين.

و أخيرًا فالمواطنون كل في عمله وفيما استراعاه فيه ربه مأمور بالرقابة الذاتية على نفسه وعلى من يخضع لإشرافه مهما صغرت مسئولياته ودائرة رعيته، مأمور بتطبيق الشريعة على قدر ما تتحمله أحواله، وهذا ينشئ ما يسمى بالضمير العام في الدراسات الاجتماعية العالمية. والفقه الإسلامي في عصور نهضته يُوجِد في

المجتمعات المتحضرة أدوات الضبط الاجتماعي التي تُلزم الناس وتجبرهم على احترام ثقافة المجتمع وأخلاقياته. ولا تحتاج مثل هذه الأمور لقرارات أو قوانين، ونحن أحق بذلك وأولى من المجتمعات الغربية التي استطاعت من خلال أدوات الضبط الاجتماعي وإحياء فكرة الضمير والرقابة الذاتية للأفراد على سلوكهم الخاص ومن يعولوهم حتى بلغ الأمر بكبار علمائنا إلى وصف تلك المجتمعات بأنها مسلمة بغير مسلمين. وهذا ما يجب أن نرى فيه همة الجمعيات الدعوية على اختلافها (سلفية، صوفية، تبليغ ودعوة، وغيرها...)، (ومسيحية على اختلاف طوائفهم). بل إن على الأحزاب السياسية الداعية إلى تطبيق أحكام الشريعة الغراء أن تعين هذه الجمعيات الدعوية وتتبنى هذا الموضوع ببرامج مفصلة لتدريب قواعدها وكوادرها وأنصارها على تكريس هذا المفهوم المجتمعي من إحياء الضمير العام والإيجابية في اعتزال واستهجان المتورطين في الظواهر السلوكية المخالفة لأحكام الشريعة الغراء (كالمجاهرة بتناول المخدرات، والتحرش، وقبول الرشوة). دون أن يتقاطع ذلك مع الحريات الشخصية المصونة شرعًا، وهو ما يجري العمل به فعلًا في المجتمعات المتحضرة غربًا وشرقًا ونحن أولى بذلك وأحق منهم كما سلف القول.

ثامنًا: فقه التهيئة المجتمعية لتطبيق الشريعة الغراء وتميزه في كل مجال:

إن إبراز أدلة هذا الفقه الشرعية وبرامجه التنفيذية التفصيلية يعتبر واجبًا وطنيًّا مشتركًا على الجميع؛ ذلك أن المهام الموزعة في هذه البرامج تتوزع بين الحاكم والمواطنين وكذلك تقوم على جانب مهم منها الجمعيات الدعوية والمنظمات المدنية وكذلك أجهزة الأعلام ومنظومة التعليم بالدولة (هناك تجارب ناجحة في عدة دول قد رصدتها بعض الدراسات التي قمنا بها وقام بها غيرنا من الباحثين والدارسين وقد أثمرت هذه التجارب برامج تفصيلية مطبقة بالفعل يمكن الاستفادة منها).

والجدير في هذا الشأن بالتنويه أن مؤسسة الأزهر (علماءً ودراسات) وكذا مؤسسة القضاء المصري (قضاةً وأحكامًا) هي المعين الخصب الذي قام عليه التطبيق الناجح في كثير من أحكام الشريعة الغراء المعمول بها حاليًّا في النظام القضائي والقانوني المصري. وكذا في أنظمة الدول العربية التي نهجت النهج المصري في التشريع والقضاء. ولقد قطعت تلك الأنظمة القضائية والقانونية أشواطًا سديدة ورشيدة في بعض الجوانب والتطبيقات لأحكام الشريعة الغراء ومنها (الكويت والإمارات العربية وليبيا والجزائر فضلًا عن اليمن والأردن). وعلينا أن نستفيد من هذه التجارب عند البدء الصادق والأمين في تطبيق راشد للشريعة الغراء في كافة المجالات.

تاسعًا: قاعدة اختيار ولي الأمر للمذهب الفقهي ملزم ويرفع الخلاف عند التطبيق:

إن إبراز هذه القاعدة الفقهية العامة المستقرة من لدن سلف الخلافة الراشدة إلى الخلف في عصور النهضة الإسلامية... من عمر بن عبد العزيز في الحقبة الأموية إلى صلاح الدين الأيوبي في الحقبة الأيوبية إلى محمد علي في الدولة الحديثة...

وحاصل هذه القاعدة أن المسائل الفقهية التي تتعدد فيها الآراء من العلماء المعتبرين وهي القدر الأكبر من أحكام الشريعة الغراء يكون (لولي الأمر) بالمفهوم المؤسسي المعاصر السابق ذكره إجمالًا هو الذي يتخير المناسب للتطبيق في وقت معين ويجوز له تغيير المذهب المختار بتغير الأحوال. ذلك أنه يفترض في ولاه الأمر أن يختاروا من آراء الفقهاء في كل مسألة معروضة عليهم ما يحقق المصلحة العامة وما فيه التيسير ورفع الحرج عن الناس.

وهنا محاذير كثيرة رأيناها في التجارب المشوهة والفاشلة لتطبيق الشريعة نذكرها إجمالًا لبيان مدى تعقد الموضوع محل البحث وتراكب أجزائه لمن أخلص النية في طلب التطبيق الراشد للشرع الحنيف.

و من اجتهد اجتهاد المخلصين في الذب عن حياض الشريعة وإزالة الرَّيْن عمّا أصاب معناها ومدلولها من عوارات هي منها براء والدفاع عن حقيقتها السمحاء يوجب أخذ الحذر وتمام البيان للأمور التالية:

أ - ولي الأمر القائم على التشريع (مجلس الشعب) ليس منوطًا به شرعًا حمل الناس على رأي فقهي في مسألة معروضة عليه يعتبر أهل العلم هو الاختيار الفقهي الأورع أو الأشد أو الأصح من جهة قوة الدليل كما يعتقد ذلك غالب أعضاء المجلس في وقت معين في المسألة المراد تقنينها، بل الأصل الشرعي المتفق عليه في المذاهب الأربعة وعند الأصوليين أن المرء يلزم نفسه بالأورع من الآراء الفقهية إذا شاء ويلزم نفسه بما يظن أن الدليل الشرعي القائم عليه أصح. ولكن في مجال إلزام الناس وحملهم على رأي أو مذهب فقهي في مسألة معينة فإن على أعضاء مجلس الشعب أن يتجردوا من رأيهم المختار ومذهبهم المرجح لديهم للأعمال في ذات أنفسهم في المسألة المعروضة ويجب عليهم أن يختاروا بتجرد وموضوعية الأيسر على عموم الناس وبسطائهم والأنسب للمصلحة العامة في معاشهم ودنياهم، وليس على ما يحسبه عضو مجلس الشعب هو الأتقى والأنفع لهم في أخراهم. وهذا أمر رغم ثبوته الشرعي وتطبيقاته الكثيرة من علماء الأمة خلفًا وسلفًا قد غاب عن نظر معظم الدعاة لتطبيق الشريعة الغراء في هذه الآونة، بل إن كثيرًا من مشاريع القوانين التي أعدت لتطبيق الشريعة في مسائل الحدود والمعاملات التجارية لم تخرج أبدًا من الأدراج رغم الجهد الذي بذل فيها والعلم الذي لا ينكر للقائمين على إعدادها لأنهم ببساطة شديدة اختاروا المذهب الأشد الأصح الأورع من وجهة نظرهم، وليس الأنفع والأيسر والأكثر قَبولا في عموم الناس، وقد جمعت أمثلة على ذلك في دراسات وأبحاث مستقلة نوافي فخامتكم بها إن شاء الله متى أذنتم بذلك.

ب - إن إعمال الأحكام الشرعية على عموم الناس في بعض المجالات يتقاطع مع حقوقًا شرعية خاصة وعامة وحريات مصونة شرعًا وهو ما قد تولد عنه فقه عزيز وهام جمعه علماء الأمة سلفًا وخلفًا فيما سمي بالسياسة الشرعية، والذي تضمن الحدود والضوابط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصفة القائمين به، وما يُباح منه لكل شخص، وما يتاح منه لولي الأمر فحسب، وما يستقل به الناس، ولا سلطان لولي أمر عليهم فيه.

وهو باب عظيم وفيه خلاف بين العلماء سلفًا وخلفًا مما يندرج في الرحمة والسعة وهو ما يجب أن يندرج في برامج (**التهيئة المجتمعية**) لبيان الرأي الفقهي في كل جزئية من جزئيات الشريعة المراد تطبيقها، والذي يرتضيه غالبية المواطنين في الدولة، وذلك للالتزام العام والتام به في تحديد النطاقات والاختصاصات والسلطات المتعددة والآراء الفقهية المتنوعة في تطبيق الشريعة الغراء خاصة في المسائل المتعلقة بالحريات الشخصية وبغير المسلمين من المواطنين وبتطبيق الحدود والعقوبات.

لقد أطلت على فخامتكم في عرض مجمل رءوس الموضوعات سالفة البيان والتي تتضمن كثيرًا من المسائل الفرعية والاختيارات الفقهية التي عند بسطها وتفصيلها تشكل برنامجًا حقيقيًّا شرعيًّا وعمليًّا لشعار (تطبيق الشريعة الإسلامية الغراء).

ونسأل الله تعالى أن يوفقكم ويحقق بكم وبمن معكم من المخلصين الأمل المنتظر منذ سنين لتكونوا المطبقين للشرع الحنيف على النحو الرشيد المعبر عن حقيقة هذا الشرع الذي ظلمه تابعوه أكثر مما نال منه معادوه.

والله ما أطلت إلا لما يحدوني من الأمل في فخامتكم وفيمن حولكم -ممن شرفت بالعمل معهم في مؤسسة القضاء المصري- أن يتحقق ما سألنا الله سبحانه وتعالى أن يشرفنا بالخدمة فيه من تطبيق رشيد لأحكام شريعته الخاتمة،

يدفع عنها دعاوى المبطلين وتشويه الجاهلين. وأن نجده مذخورًا عنده سبحانه في صحائف أعمالنا، خالصًا بعيدًا عن المتاجرات والمزايدات، طهورًا من المشاحنات والعداوات، لا تسميع فيه ولا رياء، اللهم آمين.

*** لذلك نقترح على فخامتكم ***

أولًا: أن يصدر بيان رئاسي يحتوي على ما سبق من نقاط ومسائل حتى يعلم الجميع مدى دقة الموضوع وتعقده وتراكبه، وأن تعظيم مثل هذا الشعار الجليل (**تطبيق الشريعة الإسلامية الغراء**)، والتحققَ بصحيح إعماله، والتعبدَ بذلك للحق سبحانه وتعالى ثم تنفيذًا للوعد والعهد بالبرنامج الرئاسي لفخامتكم، هو أمر يحتاج لعمل دءوب بدأ بهذا العرض والبيان بالفعل وهو في مرحلة البحث والدرس للتجارب المعاصرة الناجحة والتقييم والنقد للتجارب الفاشلة منها والمشوهة؛ لتخرج التجربة المصرية بإذن الله بما يليق بها باعتبار أن نجاحها بصدق عزائم القائمين عليها بعد توفيق الله تعالى وفضله تحت رئاستكم ستكون نموذجًا رائدًا متبوعًا في العالم الإسلامي بأسره. وكذلك سيكون لها أبلغ الأثر في إحداث تصحيح عالمي لما ران على صورة الشريعة العظيمة الغراء من غبار التطبيقات الفاشلة والمشوهة.

ثانيًا: أن يصدر قرار رئاسي بتكليف من ترونه سيادتكم لإعداد مشروع قانون بإنشاء اللجنة الاستشارية العليا لاستكمال تطبيق الشريعة الإسلامية في كافة المجالات، والتي يناط بها جمع ما تفرق من جهد تذخر به مجالس ومؤسسات الأزهر الشريف والشعب والشورى والقضاء من مشروعات أعدت لتعديل أحكام القوانين الوضعية السارية، وكذا رصد ودراسة وفحص التجارب الناجحة. وأرجح هنا الاستفادة من التجارب الموجودة بدول الكويت والإمارات وليبيا والجزائر والأردن واليمن وماليزيا لا سيما أن المعين الفقهي والتكييف العملي القانوني فالقضائي ثم

التنفيذي في معظم هذه الدول الشقيقه قد شارك في إثرائه وإنمائه علماء وقضاة مصريون، وكذلك لتشابه الطبيعة المجتمعية لهذه الدول مع المجتمع المصري من حيث وجود أقليات غير مسلمة، وكذلك تيارات فكرية وثقافية متنوعة ومختلفة في درجة التزامها وقبولها للمرجعية الإسلامية.

والله الموفق والمستعان وهو سبحانه وتعالى في عمق القصد.

مقدمه لفخامتكم

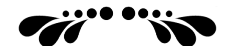
الدكتور المستشار/ مصطفى أحمد مرسي سعفان

نائب رئيس محكمة النقض المصرية

والمعار مستشارًا بمحكمة التمييز بدولة الكويت

والمحاضر بمركز الدراسات القضائية المصري

ومعهد القضاء بدولة الكويت





صورة من الخطاب المرسل للديوان الملكى الموقر
لخادم الحرمين الشريفين

نتشره الآن لإيجاد رأي عام يُعين ولاةَ الأمر على إنفاذ ما يمكن من المقترحات التى يتم الاتفاق على جدواها شرعًا وواقعًا

مولانا خادم الحرمين الشريفين

أيــده الله تعــالى وحفـظه ونـصره ومَن والاه من المخلصين الصادقين حفظهم ربّي أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، اللهم صل على سيدنا محمد إمام المرسلين، وخاتم النبيين، وسيد ولد آدم أجمعين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الراشدين وسلم تسليماً عليهم أجمعين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، واجعلنا بفضلك اللهم منهم، وألحقنا بإحسانك بنبيك سيدنا أحمد، اللهم آمين.

وبعد فهذه الورقات تضمنت خواطر من محبٍّ لكم في الله تعالى... وأسأله سبحانه أن تكون هذه الخواطر من نوره سبحانه ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤] خالصةً لوجهه الكريم لتدومَ نعمُهُ على جزيرة العرب بشفاعة سيّد العجم والعرب، ولتَنعمَ بلادُ الحرمين وما حولَها بالأمن والرزق الحسن والعدل، ويحصلَ الإصلاحُ والصلاح من غير بلاءٍ ولا فتنةٍ ولا فوضى ولا محنة، وليدومَ الناسُ فيها شاكرين لأنعُمِه بالذكر والعمل الصالح والصدقات والنسك المقبول، ولتظلّ مقصدًا آمنًا ومنزلاً مباركًا وموئلًا كريماً لأحبابه وطلاب بابه سبحانه

وتعالى، اللهم آمين، فاجعل لنا يا ربّ مع حُرّاسها وجندِ رِباطها وأمرائِها وقُضاتِها وملوكِها ومَن صلَحَ من سائرِ سكانها؛ اجعل لنا معهم سهماً من فضلك وثوابِك ورضوانك الأعظم بما وفقتني إليه من ديمومة الدعاء للجزيرة والوادي المرابط والمتداعى لها كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو... وبما أفضْتَ علينا من نُورِك من الحكمة المؤيَّدة بالدليل تلوَ الدليل لنتناصحَ بها مع مَن أحببتَ منهم أجمعين، فلعلّ منهم أولي عزمٍ وعلمٍ وسلطانٍ وحكمة يَبني عليه ويُكمل ويقطع فيه أشواطًا من رضاك لم تشأْ لنا بلوغَها فيكمل بعضُنا بعضًا في رضاك وهداك كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص، اللهم آمين.

ولقد دفعتنى أمورٌ كُثُر وشجعتني على الكتابة والإرسال، من أهمّها هذا العهدُ الملكيّ الوارف بظلالِ العدلِ والأمن والنعمة وهذا الحبُّ والولاءُ الجارف من الشعب السعوديّ الشقيق للوالد الرحيم والمليك العادل خادم الحرمين الشريفين؛ ثم هذه الظروف والأوضاع الإقليمية والدولية ذات الخطر المحدِق والمتداعية بمحاذيرها على المملكة الحبيبة، وذلك بحكم التلاصق الجغرافي والتواصل البشري بين أبناء الوطن العربي الكبير، وأخيرًا فمِمّا شحذ همتي في أداء واجب المشاركة في شرف الإدلاء برأيي للتناصح مع الأئمة والنصح للأمة أنه قد سبق مراسلتي لأولي الأمر الأوفياء لدينهم وعروبتهم بهذه المملكة الحبيبة، وما لمسته منهم من اهتمام وتقدير بما ورد برسائلي من تحليلات ومقترحات قد تم تطويرها والبناء عليها بما يناسب الظروف والملابسات التي لا يطلع عليها ويحيط بها سوى ولاة الأمر؛ ومن ثَـمّ فقد جاءت التطورات في المجالات التي دارت حولها المقترحات على أحسن مما قلنا واقترحنا، متحققين بتوفيق الله تعالى بمقتضى الآية الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ١٨].

وقد نشرنا تلك المراسلات في عام ٢٠٠٧ لشحذ الهمة في إحياء سنة الحبيب المصطفى في التراسل والتناصح مع الصادقين من ولاة الأمر، وهذا عرض لثلاث

مسائل أختم بأهمّها، وبالله التوفيق:

باديَ ذي بدءٍ أمران إخالُهما حتمًا -طبقًا لطبائع الأمور، وجَريانِ السنن الاجتماعية- حاصلين هذا العام، وأخشى إن لم يَتمّا على أيديكم المخلصة الكريمة، وعلى نحوِ مقاصدِكم النبيلة، تَمَّا على أيدٍ أخر وعلى نحو يَحيدُ عن هذه المقاصدِ أو يُشوّهُها، لا قدرَ الله.

أحبابَنا في الله تعالى ولاةَ أمرِ هذه الجزيرةِ الغاليةِ عند الله تعالى وعندِ رسولِهِ والمؤمنين؛ هذان الأمران هما:

١ - قيادة المرأة للسيارات.

٢ - وحقوق الشيعة في التوظيف.

ولا يخفى عليكم أن خصومكم يَدّخرون الأمرين للتكاتف عندما تحين أول فرصة، مع أعداء العرب والإسلام لتشويه سمعةِ المملكة الحبيبة في المحافل الدولية، أعاذنا الله تعالى من العواقب الوخيمة للحقد والغلّ الذي يملأ صدورَهم ضدّ العرب والمسلمين.

١ - قيادة المرأة للسيارات:

أخذًا في الاعتبار الإجابات الحكيمة والتعليقات السديدة التى أفحم بها المليك خادم الحرمين الديبلوماسيات اللاتي حاولن إثارة الموضوع في حضرة جلالته أمام الإعلام... وقوام تلك المبرّرات السديدة عدم معارضة تقاليد وأعراف المجتمع السعودي، وكذلك الضبط الاجتماعي لعدد السيارات المناسب لمرافق البلاد مع الوفرة المالية المتاحة في المجتمع... مع الأخذ في الاعتبار لكل ذلك وبالبناء عليه فإن التنبه لعمق المسألة وسرّ الممانعة من قطاعات واسعة من المواطنين المحافظين للترخيص لهن يكمن في التحليل التالي:

إن قيادة النساء للسيارة حتمًا سيؤدي إلى تحول المملكة تدريجيًا ولأسباب عديدة بعضها اجتماعي وبعضها أمني إلى مذهب جمهور أهل السنة والسلف من جواز -إن لم يكن ضرورة- كشف المرأة لوجهها (في حالة قيادتها للسيارة)، ويعني ذلك تغيير المذهب الفقهي الذى تتبناه المملكة، وما انفك علماؤها ينصرونه ويرجحونه ويضعّفون الرأي الفقهى المجيز للمرأة كشف الوجه، بل ويخلطون أحيانًا بين ما يقضي به العرف وما يقضي به الشرع، على ما فصله الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بحثه القيم الذى حصل به على أرفع جائزة علمية بالمملكة من جلالة الملك، بما اعتبر آنذاك إشارة حكيمة وحازمة من ولاة الأمر إلى علماء المملكة بعدم التشدد في الاختيارات الفقهية التى فيها سعة شرعية؛ لأن ذلك يعطل المملكة في سعيها الحثيث للتقدم وتبوُّء المكانة المرجوة لها عربيًا وعالميًا... وأعود فأقول: إذا لم نأخذ زمام المبادأة في المسألة التى نحن بصددها وننشئ الترتيبات التى تنقل المجتمع السعودي بهدوء إلى المذهب الذى يجيز لمن شاءت من النساء كشف الوجه دون أن تلام أو يقال من العلماء: إنها آثمة. إذا لم نفعل نحن ذلك، فسيقع ما لا يُحمد عقباه على الأمن الاجتماعي بدءًا من تحول النساء إلى السفور بصورة غير منضبطة وجماعيّة بحثٍّ وتحريضٍ خبيثٍ وخفيٍّ يجري الإعداد له خارجيًا وداخليًا، وانتهاءً بظاهرةٍ لا يمكن لهيئة الضبط الشرعى بالبلاد أن تواجهَها بالإلزام والتجريم، وعندئذ يصبح الأمر أشبه بالاحتجاج الجماعي وينتهي إلى بداية ضياع هيبة الدولة، وهو ما لا نرجوه أبدًا لمملكتنا الحبيبة، ويصعب مقاومته إذا حدث، لا قدر الله تعالى.

إذن الحلّ الذى نقترحه أن تبدأ المؤسسة الدينية في الترويج لوجود مذهبين في مسألة كشف الوجه وأن المذهب الذى يترجح في زمان أو مكان قد يترجح مذهب غيره بتغير الأحوال، ويضربون الأمثلة المشهورة عن السلف وكبار الأئمة في ذلك؛ مثل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ... ويوضحون في المقابل أن الأخذ بمذهب كشف الوجه

لا يعني السفور المشاهد الآن من كشف الشعر حتى منتصف الرأس والتبرج الشديد واللبس الضيق، وأن اختيارَ المرأةِ مذهبَ كشف الوجه يُلزمها مع ذلك بالمحافظة على ستر الشعر والجسد بجلباب واسع لا يصفُ ولا يشفُّ إلى آخره...

وقد نشرك النساء في حملة لضبط الحجاب من غير نقاب وتوعية البنات والنساء الراغبات في الأخذ بمذهب كشف الوجه بضرورة ضرب المثل الشرعي لباقي نساء دول الجوار في الخليج واليمن ومصر من أن صورة الحجاب الشرعي عند الأخذ بمذهب كشف الوجه لا يمكن أن تكون على شاكلة ما هو حاصل الآن من ملابس تكاد تلتصق بالجسد وتبين العورات بأسوأ مما لو كانت مكشوفة، ويحصل نوع من الأَنَفَة والتميز في دفع السعوديات ليكنّ رائداتٍ في إحياء السنة على مذهب من يرى كشف الوجه بالحفاظ على شروط الملبس الشرعي الذي لا بد ألّا يصفَ ولا يشفَّ.

وهكذا نستبق بهذه المبادرة ما يُحاك في الخارج والداخل للمملكة من التحضير لعصيان نسائي عام يبدأ بالسفور ولا ينتهي عنده، ولن تستطيع آلة الدولة ردعه، وعندها تسقط هيبة الدولة، لا قدر الله... فتأملوا إخواني الأجلاء ذلك، وخذوه مأخذ الجدّ، ولا تقولوا الموضوع أبسط من ذلك، فمعظم النار من مستصغر الشرر.

ثم بعد هذا التحضير المجتمعي من العلماء وهيئة الأمر والنهي مدعومة بنشاط تعبويّ نسائي من جمعيات ومنتديات ورائدات تقتدي بهن الفتيات خصوصًا، ويحرصن مع خلعهن النقاب على تأكيد الملبس المحتشم الملتزم بألّا يصف الجسد ولا يحسر عن الشعر وهن يدعون بأنفسهن رجالَ الهيئة إلى عدم التهاون مع السفور والتبرج غير الملتزم في الملبس، وفى ذات الوقت يشجعن السعوديات إلى ضرب المثل في تصحيح صورة الحجاب المبتذلة التى تشيع للأسف في بعض بلاد الخليج وفي مصر.

ثم تأتى الخطوة الملكية بالسماح للنساء بقيادة السيارات... كل تلك الخطوات

تكون سريعة ومتتالية ومباغتة لأعداء المملكة وخصومها.

ومن الممكن عند تطبيق المقترح المرسل لسيادتكم تنظيمُ تَمَلّك السيارات للمصلحة العامة بتحديد السن أو عدد سيارات كل أسرة أو غير ذلك من قيود كفرض ضريبة مضافة أو الفكرة المطبقة أوروبيًّا في بعض المدن المزدحمة بتحديد أيام لسير السيارات ذات الأرقام الفردية وأخرى للزوجية...

ونسأل الله العلي القدير أن يسدد خطاكم على طريق الحق والخير ويوفقكم لأحسن ما يحب ويرضا، آمين.

٢- حقوق الشيعة في التوظيف.

أما الأمر الثاني الذي يُحاك بليلٍ ضدّ مملكتنا الغالية العالية القدر بشعار عَلَمها الجليل هو حقوق الشيعة، والمدخل لإبراز الاضطهاد الذى يتعرضون له سيكون التوظيفَ والتمييزَ ضدّهم فيه وليس سوءَ المعاملة كما يظنُّ البعض.

والحل بسيط بتوفيق الله تعالى أيضًا، وقد نقترح أن تُجرَى الترتيبات على النحو الآتى: يتقدم أحد الخريجين الشيعة بتظلم للمليك حفظه الله تعالى من أن أقرانه تم تعيينهم واستبعد هو بلا سبب، فيطلب جلالته فحص الشكوى ويتبين أحقيّة المواطن الشيعي في تظلمه فيأمر المليك بالتعميم على كل الوزارات بوضع القواعد التى تضمن تكافؤ الفرص على أساس المواطنة وليس المذهب.

ويصاحب هذه الإجراءات إعداد جيد أمنيّ وعلميّ وفنيّ لعدد كبير (مئات مثلًا) في كلّ الجهات لشيعةٍ ثبت ولاؤهم للمملكة وليس لهم تاريخ سياسي أو ديني متشدد ثم يُعيّنون في وظائف مختارة بعناية في كل الوزارات بما لا يمسّ الأمن الوطني للمملكة؛ مثلًا في مجال التدريس (الذي لا يحتك بالعقيدة) وفي الأعمال الكتابية في الدووابن، على أن يكون عليهم رقابة وظيفية لوضعهم تحت الاختبار دون تشدد

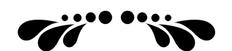
أو تمييز، وكذلك يمكن تعيينهم في بعض الوظائف الثانوية في وزارات الدفاع والداخلية والعدل، بحيث يحصل من ذلك القرار التوظيفي لهؤلاء المئات من الشيعة حالة داخليّة وخارجيّة إيجابيّة عامة تجهض ما يتم التبييت له من ملف تمييز عنصري مليء بالشواهد، وأولها التوظيف الذى أسلفنا عرضه، وثانيها مجلس الشورى وتدريس المذهب لأبنائهم، والإعلام... ولو تم مجابهة الملف بأكمله وعدم ترحيله كما هو حاصل لكان خيرًا عظيمًا... بل حتى التعليم والإعلام، أليس أصلح وأحفظ لأمن المملكة وسلامة بِنيتِها المجتمعية أن نبادر نحن بوضعِ المنهج المناسب لتدريس طرفًا من المذهب الشيعى، وذِكْرٍ منضبطٍ لهم في الإعلام، وبيانٍ بحجم تواجدِهم الحقيقيّ بالمحافظات والأقاليم والمناطق الأخرى، وضربِ أمثلة ناجحةٍ ووطنيةٍ منهم لا يخونون الوطن، وأنه لا تعارض بين الولاء للوطن والانتماء للمذهب... ثم تقديرِ ومكافأةِ بعض الشيعة الذين قاموا بأعمال جليلة للمملكة... تمامًا كما تحاول القوى العاقلة في مصر والمغرب العمل مع الأقلية المسيحية واليهودية في كلٍ منها؟

على أن يتمَّ عمل الترتيبات لفتح الملف الشيعى وتبيان أن المملكة ترسّخ مبدأ المواطنة وتعزّز سياسة التكافؤ بين المواطنين بسرعة نباغت بها الغرب والشرق المتربص والمتمالئ.

من الممكن عند بدأ تطبيق المقترح المرسل لسيادتكم أن يُستفاد من تجربة الكويت والإمارات في فرز وتوظيف المواطنين الشيعة غير المتشددين ولا المسيسين... وتحديد النسب المعتدلة لهذا التوظيف والوظائف ذات الطبيعة الإدارية والفنية المفيدة للوطن إجمالًا.

وخير ما تتم به هذه المبادرات التى ستكون مفاجآت غير سارة لأعداء المملكة وخصومها أن تكون من هذا المليك الذى ألقى الله له قبولًا غير مسبوق لدى الخاصّة والعامّة.

فيا أيها المسئولون المخلصون بالمملكة الشقيقة، أناشدكم بالله أن تنتهزوا عصر هذا المليك الحكيم الكريم الشجاع وزمانه -أطال الله عمره- وتنتهوا من هذه الملفات الشائكة على خير وجه بعون الله وتوفيقه.

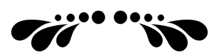




الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة





الفهرس المفصل

الموضـــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

المسألة السادسة

المسألة السابعة

المسألة الثامنة

الموضــوع | الصفحة

المسألة التاسعة

المسألة العاشرة

المسألة الحادية عشرة